وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الفنون والحرف السورية

تأليف: جوهانز كالتر
مارغريتا بافالوي
ماريا زيرنيكل
ترجمة: إيمان اليحيى

الفنون والحرف السورية







www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٤٨٠ ل.س أو ما يعادلها


SYRIA
CILICIA
CAMPESTRIS
MARE CILICIUM
MARIS
MEDITERRA-
NEI PARS
COMMAGENE
Cyrrhestica
Chalcidene
Chalybonitis
MESOPOTAMIA
CHALDAEA
Chauchabeni
Solitudo Palmyrena
Palmyra, Thadmor
COELESYRIA PROPRIA
Heliopolis
Paradisus
Abilene
Apamea
Antiochia
Edessa
Arabes Scenitae
ARABIA
DESERTA

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
مديرية التراث الشعبي
مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي
«٤٣»

الفنون والحرف السورية

مجموعة أنطون توما ومتحف ليندن في شتوتغارت

جوهانز كالتر   مارغريتا بافالوي   ماريا زيرنيكل

بمشاركة من:

ب. بيهنشتيدت   أ. غانغلر   هـ. غاوبي

ب. بافيلكا   أ. توما

طباعة ونشر تيمز وهدسون لأول مرة في لندن/بريطانيا ١٩٩٢.

ترجمة: إيمان اليحيى - بتصرف

الفنون والحرف السورية: مجموعة أنطون توما ومتحف ليندن في شتوتغارت/ جوهانز كالتر... (وآخرون)؛ ترجمة إيمان اليحيى. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٤٠ص/مص؛ ٢٨ سم.- (مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي؛ ٤٣).

طباعة ونشر تيمز وهدسون في لندن ١٩٩٢.

١- ٣٩٠,٠٠٩٥٦ ك ا ل ف   ٢- العنوان   ٣- كالتر

٤- اليحيى   ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

فهرس المحتويات

إهداء إلى الشعب العربي السوري



٢. بدوي يعزف على الربابة.



المقدمـــة

الكتابة عن الفنون والمهن السورية هي قبل كل شيء كتابة عن الشعب السوري، فالتنوع الثقافي والإثني لهذا الشعب عبر قرون من التاريخ المشترك هو الذي أعطى سوريا شكلها والصورة التي تبدو عليها الآن: أرض ذات تنوع ثقافي آسر وإحدى المناطق المدهشة في شبه الجزيرة العربية، وذلك بسبب التنوع الاثنولوجي والأثنوغرافيا اللذين يميزانها. وحتى وقت قريب، بشكل عام، كان هذا الجزء من العالم العربي مهملاً إلى حد كبير من قبل المتخصصين في علم الأثنوغرافيا والباحثين في الثقافة المادية.

يركز هذا الكتاب في النواحي الجغرافية على الثقافة المادية في سوريا الحالية. ثقافياً: يشمل مصطلح «سوريا» المناطق التي يدعوها العرب عادة «بلاد الشام» أي «المقاطعات الشمالية» من شبه الجزيرة العربية التي تضم بالإضافة إلى سوريا الحالية كلاً من لبنان والأردن وفلسطين.

لاقى فضولنا عن المهن والفنون السورية دعماً من السيد أنطون توما عندما التقينا في دمشق عام ١٩٨٩. استطاع السيد توما، من خلال مهنته كصحفي وهوايته كجامع مولع بالمادة الأثنوغرافية في بلده، وبجهد كبير مادي ومعنوي،اقتناء مجموعة رائعة من الأزياء والصناعات اليدوية السورية التي أضحت مهددة بالانقراض.

وقد تمكن متحف ليندن في شتوتغارت من تقديم مساهمة قيمة في هذا المجال من خلال عرضه مواداً خاصة بالبدو سبق أن جلبها الباحث والمكتشف المعروف أويتينغ(Euting) إلى ألمانيا في سبعينات القرن الثامن عشر لدى عودته من رحلته إلى البلاد العربية. وقد تمكن أمين قسم الشرقين الأوسط والأدنى في متحف ليندن، في الفترة ما بين ١٩٨٦-١٩٨٩ من جمع أدوات منزلية بدوية وريفية من جنوب سوريا وشمال الأردن، بمساعدة كريمة وطيبة قدمها الزملاء في معهد علم الآثار القديمة وعلم الإنسان والأجناس البشرية في جامعة اليرموك في مدينة أربد الأردنية.

عندما بدأنا عملنا في هذه المجموعات، أدركنا على الفور كيف انعكست التقاليد الأثنية الدينية للشعب السوري في غنى وتنوع أزيائه والرموز التي ترمي إليها، وفي نوعية مجوهراتهم أو في تميزها بألوانها الخاصة وتصاميمها. هناك أذواق وأشكال متميزة في ملابس الرجال والنساء حسب البيئة التي جاؤوا منها: عربية، كردية أو تركمانية سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً(بصرف النظر عن الفرق والتجمعات الصغيرة الأخرى). فالتنوع الإثني والديني للتقاليد لم يكوّن الحياة السياسية والشعبية والمواقف الخاصة بها فقط، بل كوّن أيضاً المشهد التاريخي(الخارطة التاريخية) لسورية.

أسفر الاقتصاد ثلاثي الأقطاب في الشرقين الأوسط والأدنى ـ المدني والزراعي والرعوي- عن طرائق مختلفة للحياة، لكل منها ملابس وأدوات منزلية خاصة بها وهذه الأخيرة تزودنا بمعلومات وافرة تتعلق بظروف الحياة اليومية للبدو، والفلاحين وسكان المدن.



٣. فلاح يدرس حبوب الحنطة في جبال الساحل.

إن الجزء الأكبر من المواد، والمجموعات المذكورة أعلاه، والأشياء المعروضة في هذا الكتاب، هي نماذج عن الحرف اليدوية المدنية. وفي الواقع فإن غالبية المواد والسلع الترفيهية تم إنتاجها في المدن، والأمر ذاته بالنسبة للحاجات العادية التي تلبي مطالب سكان الريف والقرويين والبدو. وكقاعدة عامة فإن المجوهرات والحلي هي منتج مدني صرف، حتى لو تزين بها سكان الريف. لكن المدن لا تزود الأسواق المحلية فقط، خاصة وأن النماذج الجميلة التي صنعت في دمشق وحلب تم تصديرها منذ قرون عدة إلى مناطق خارج نطاق «بلاد الشام» مثل اليمن وأفريقيا وأوروبا. فالأدوات المنزلية المصنوعة من النحاس، وقطع الأثاث المطعمة بالصدف، تم تصديرها إلى شبه الجزيرة العربية وإلى أوروبا أيضاً، عندما أصبح الديكور الداخلي «الشرقي» موضة العصر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

لم يكن نشر هذا الكتاب ممكناً لولا دعم وإرشاد عدد من الزملاء والأصدقاء. ونود هنا أن نشكر بشكل خاص السيد أنطون توما الذي لم يسمح لنا فقط باستخدام مجموعته، بل ساعدنا أيضاً بمعارفه واتصالاته الكثيرة داخل سوريا وخارجها. كما ندين بالشكر الجزيل للدكتور هوبوود Hopwood من كلية سانت انطوان/جامعة أكسفورد لاستشارته وتشجيعه لنا أثناء تحضيرنا لهذا الكتاب. وللسيدة س. واير S.Weir من متحف الأجناس البشرية، لندن. لمساعدتها ودعمها القيمين لنا.

أما فيما يتعلق بالدعم التنظيمي الذي لقيناه خلال بحثنا في سورية، وأثناء عمليات المسح التي قمنا بها، فإننا نتقدم بشكرنا لمعالي الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ومعالي العماد مصطفى طلاس .وزير الدفاع السوري، ومعالي السيد سليمان حداد سفير الجمهورية العربية السورية في بون، وأميني المتحف الوطني وقصر العظم في دمشق ومدير معهد الآثار في تدمر. كما أننا ندين بالشكر للدكتور عبد الرحمن العطار، والدكتور عثمان العائدي، لاستضافتهما لنا وللسيد صائب النحاس الذي قدم لنا المساعدات بالتنقل أثناء إقامتنا في سورية. ودون اهتمام، ومقدرة، الأستاذ طلال عقيلي كانت أبواب عدة في مدينة دمشق القديمة ستبقى مغلقة في وجهنا، كما قدم لنا السيد بسام قلوجي معلومات كثيرة. كما نود أن نعبر أيضاً عن تقديرنا وشكرنا للسيدة هالة شحادة وللدكتور محمود حريتاني والسيد عدلي القدسي لصداقتهم ومساعدتهم لنا في حلب.

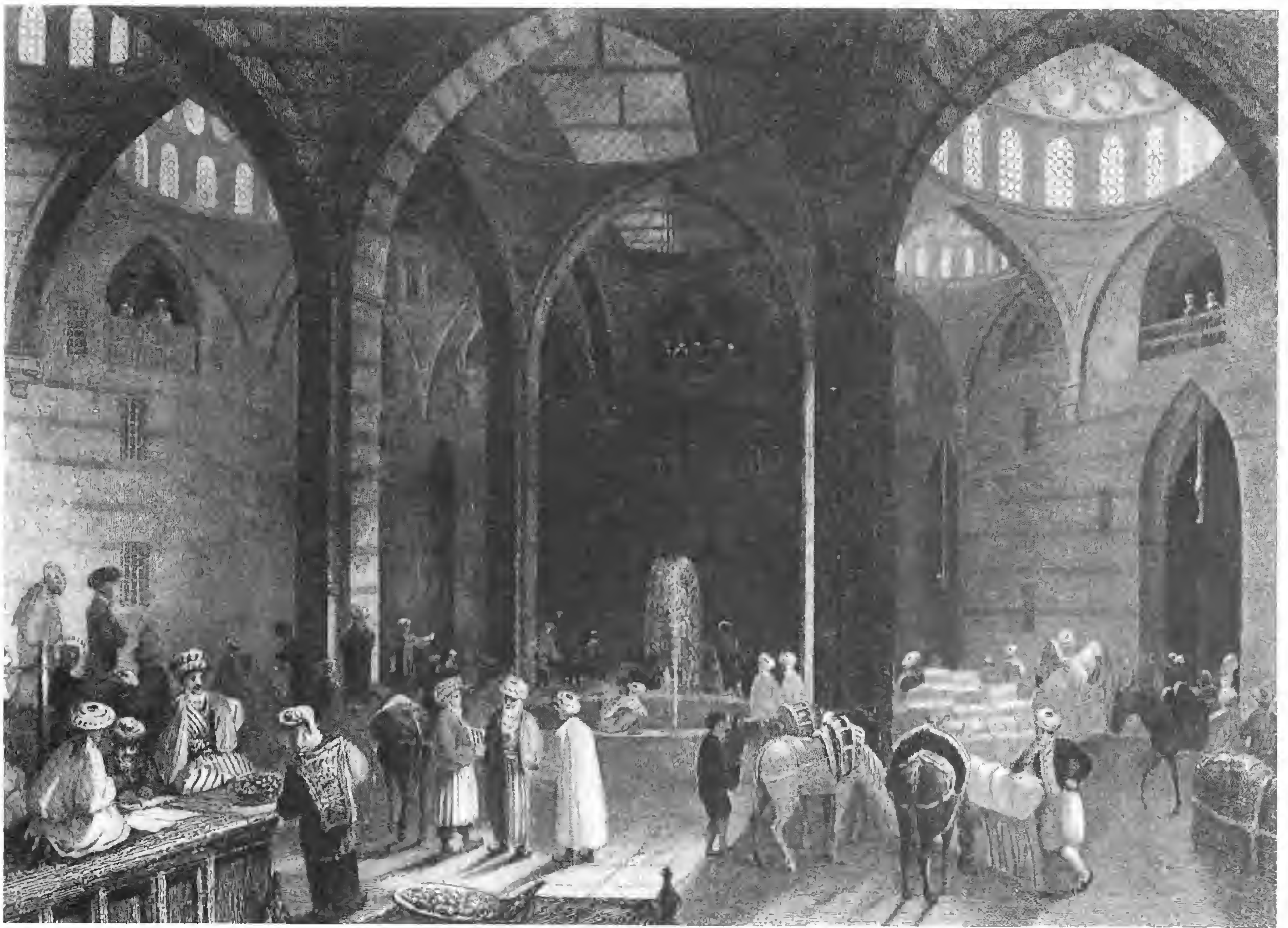
أما في ألمانيا فقد سمحت لنا السيدة جيزيلا دومبروفسكي Gisela، من متحف علم الشعوب في برلين، وبكل طيبة، بنشر بعض القطع النادرة من مجموعتها التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر، كما ساعدنا البروفيسور يوجين ويرث Eugen Wirth من جامعة إيرلانجين بخرائطه. وزودنا كل من الدكتور دوروثي ساك Dorothie Sac من فرانكفورت والأستاذ هانز غاوبي Heinz Gaube من جامعة توبيغين بالإرشاد والمعلومات، ومن حقهم علينا أن نشكرهم وكل المؤلفين الذين ساهموا بمقالاتهم وبالرسوم التوضيحية في هذا الكتاب، فقد استفدنا كثيراً من أعمال كل من كريس Chris ونيكو هايزينش Nico Heiznsh.. قام السيد هايزينش بكل أعمال التصوير الفوتوغرافي ورافقنا كلاهما إلى سوريا على نفقتهما الخاصة، وبهذا تم إغناء مجموعتنا بالصور التي تم التقاطها على أرض الواقع (خلال البحث الميداني).

نشكر أيضاً العاملين في متحف ليندن، وخاصة السيدة أورسولا ديدوني Ursula Didoni التي ساهمت في إعادة إنتاج الصور الفوتوغرافية، وكذلك السيدة إينا شنايدر Ina Schnider التي قامت بطباعة المخطوطات اليدوية.

وأخيراً نخص بالشكر السيد سيباستيان فورميل Sebastian Wormell الذي ساعدنا في ترجمته، ولسوء الحظ لا يسعنا أن نذكر أسماء كل أولئك الذين قدموا لنا الدعم والمساعدة في إنجاز هذا الكتاب. نتقدم إليهم بتقديرنا الخالص وخاصة للشعب العربي السوري كله الذي نهدي إليه هذا الكتاب.

شتوتغارت/أيار/١٩٩٢.

جوهانز كالتر
مارغريتا بافالوي
ماريا زيرنيكل



٤. خان أسعد باشا في دمشق.

٢

الطريق الطويل لمعرفة الذات

أنطون توما

«رغم أن الناس يدعونني بالإفريقي، إلا أنني لست من أفريقيا ولا من أوروبا ولا من الدول العربية. أنا لم آت من أي بلد أو مدينة أو قبيلة.. أنا ابن الطريق. وموطني هو الكارافان (البيت المتنقل على العجلات) وحياتي أقضيها مع أكثر الجوالين المجهولي الإقامة».

حسن الوزان (ليو أفريكانو)

مؤرخ ورحالة عربي

القرن السادس عشر

يعد النضال من أجل هوية اجتماعية غريزة بشرية. وقد سعت الكائنات البشرية إلى الأمان المقدم لها ضمن العشيرة، وفي ظل حماية شيوخ القبائل والملوك، عرفوا الرسل والأنبياء، وتوحدوا ضمن أديان جديدة.. تنازعوا فيما بينهم من أجل السيطرة والسيادة والبقاء. وميزوا أنفسهم عن غيرهم من خلال شعارات، لغة وعادات.. والرموز بحد ذاتها مجرد مواد للقانون واللغة التي يتحدثون بها فيما بينهم، وهي لا تقل غموضاً عن الرسائل المنقولة عبر مواد عينية أخرى: حجاب المرأة المسلمة، عمامة الشيخ، الشهادة الجامعية الاعتبارية، الرايات، و« بيوت » الأسلحة.

أحياناً، توظف الرموز لأغراض خاصة: فالنبالة الأوربيون اقتبسوا بعض شعاراتهم من الحيوانات التي كانت مرسومة على تروس المقاتلين العرب. تم الحصول على هذه التروس كغنائم حرب أثناء الحروب الصليبية في سوريا خلال القرن الثاني عشر الميلادي. وأصبحت تلك الصور رموزاً للنبالة الأوروبية: الأسد الإنكليزي، النسر الألماني، الديك شعار ملوك فرنسا.. وفي الأساس كانت هذه كلها رموزاً مملوكية.

تحدد الهوية الإيديولوجية أكثر الصراعات الهامة في العالم، ففي شبابي، عندما كنت طالباً مغترباً في مدرسة فرنسية في لبنان، واجهت متاعبي الأولى مع مشكلة الهوية. فقد ناداني رفاقي في المدرسة «شامي» وهو التفسير العربي لكلمة دمشقي وكذلك الأمر بالنسبة للمصطلح القديم لسوريا. شعرت بأنني لا أنتمي إلى مجتمعهم: فلم أكن فرنسياً أو بيروتياً أو لبنانياً، لقد كنت فقط «الآخر». ومن خلال النظر عبر زجاج نافذة غرفتي نحو المياه الزرقاء للبحر المتوسط، بدأت أفكر بالبحث عن جذوري الثقافية... من أنا حقاً؟ هل أنا شرق أوسطي بطريقة غير محددة، هل أنا عربي، سوري، مسيحي أم مشرقي؟ وبدأت من المنزل في دمشق باكتشاف عالمي كسائح يريد معرفة كل شيء عنها.. ومن خلال تجوالي في أيام العطل الصيفية بدأت أتعلق بفن العمارة في المدينة، ثم توصلت الى أن العمارة هي أم الفنون. أردت اكتساب ما هو أكثر من الشعور الفطري بما يجعل عالمي متفرداً، كان ذلك سلاحي لمواجهة المتاعب التي واجهتني في تلك المدرسة، وصار بإمكان الشامي الآن البدء بالتركيز على هويته الوطنية.

المحزن في الأمر، أنه في كل مرة كنت أعود فيها إلى دمشق، كانت تبدو لي وكأنني في بداية قرون أخرى جديدة.. أبنية قديمة وساحات كبيرة تم هدمها وحلّت مكانها أبنية مكتبية وشوارع عريضة حديثة... ومع انهيار الأبنية القديمة انهار قلبي.. الاتجاه الآن نحو الاستعادة، وتحديداً، نحو إعادة بناء المدينة القديمة، ولا أدري ما هو المحزن أكثر، مراقبة الكنوز المعمارية القديمة، وقد انهارت منذ ثلاثة عقود مضت، أم رؤية مظاهر «العصرنة الحديثة». لقد استحوذت مدينة دمشق، في كافة أركانها، سحر استوديوهات هوليوود!!

أثارت التغيرات الحاصلة في المدينة القديمة فضولي وهلعي: فقرأت الكتب، وبحثت في الخرائط، وفي كل شيء أمكنني العثور عليه عن سوريا، من القصص الرومانسية للرحالة الأوروبيين إلى التاريخ الغربي، والعربي، للمنطقة. ازداد شغفي بالتمسك بإحساسي بنفسي، وجودي، بالمكان وبالثقافة وأصبح ذلك أكثر الحاحاً عندما انتسبت إلى جامعة هامبولدت في برلين. وهناك تعاملوا معي على أنني شخص شرق أوسطي غامض. شخص سوري؟ ماذا يعني ذلك؟ أقحمت نفسي مرة أخرى في القراءة ولكن هذه المرة لبلورة أفكاري وعرضها أمام جمهور أكثر تخصصاً.

وبصرف النظر عن تحديات التيارات السياسية التي تواجهها الهوية السورية الآن، فقد وجدت أن الدلالات التابعة لحضارة عريقة وغنية يمكن الحصول عليها بسرعة أكبر بين الفنون والمهن اليدوية والتقاليد والعادات الشعبية التي ما تزال موجودة في المنطقة. لقد كرّست نفسي لمشروع الهوية الوطنية الخاصة عن طريق البحث في الفولكلور الشعبي والنتاج

الصناعي اللذين يوضحان بعضاً من الروابط الثقافية السورية. وكنت مسكوناً بكل شيء يجعل من سوريا بلداً متكاملاً.. إن الأساليب العلمية التي استخدمها الدكتور ج. كالتر لتوضيح الأعراق البشرية، والتي تركز على المواد المستخدمة في الحياة اليومية، كالأدوات والحلي البسيطة المصنعة محلياً، التي تعطي بعض مواد هذه المجموعة ميزاتها الخاصة بها، تلك المجالات سمحت لي باكتشاف كيف يمكن للمطرزات، والمجوهرات والحلي، مطاحن القهوة والكليشهات المطبوعة والأختام أن تتوحد في غرضها وتصميمها، مهما بدا لنا مظهرها متنوعاً من النظرة الأولى. استغرقت هذه الأشياء البسيطة مني وقتاً طويلاً وأعطتني سبباً للمطابقة في المبادئ الأولية للغة. وقد اختفت مؤخراً عدة قطع من هذه المجموعة، منصهرة، ممزقة أو متحولة إلى أشلاء عديدة بسبب جشع التجار. استدعت الآنسة مارغريتا بافالوي الخياط الدمشقي الذي مزق آلافاً من الملابس اليدوية من أجل تصدير القطع المطرزة القماشية.

شعرت أنني وحيد بين السوريين نتيجة ولعي في المحافظة على المواد والأشياء الرمزية التي نشأت في كل من ثقافات البدو والحضر الموجودة في سوريا وضمن بلاد الشام، بين مزيج من العائدين إلى سورية، من التجار المهاجرين المزارعين، ورجال الفكر، سواء كانوا عرباً أو أرمناً، أكراداً، شراكساً أم تركماناً. وبعد سنين طويلة من البحث والتنسيق.. وعندما سلمت عملي، ومجموعتي هناك، إلى متحف ليندن في شتوتغارت، علّق الدكتور كالتر بأنني ربما بالغت في إنجاز العمل المطلوب. وبروح الجامع الشغوف كان هدفي جمع أكبر قدر ممكن من كل تصميم لكل مادة أو تقنية، وأردت أن أسهب في وصف كل همسة وكل صغيرة وكبيرة عن المهن والحرف اليدوية الرائعة.

وفي الوقت ذاته الذي تكوّن فيه سورية بشكل أساسي منطقة جغرافية تضم لغات عديدة وحقباً متنوعة من الأديان السماوية المختلفة، وفي طرائق التفكير والمعتقدات، فهي مليئة بالضالات المنشودة من المعرفة المرافقة لأغنى الفترات ولمعظم الحضارات. وبسبب استمرار تيار القوافل والخليط المتنوع الأعراق ومغامرات الجيران كان هناك نزعة في المنطقة لامتصاص الجديد واستيعابه وخلق كل ما هو مفيد وممتع، وتم الاستقرار الزراعي الأول في سوريا.. حيث كانت بعض المدن الأكثر شهرة باستقرارها واكتفائها الذاتي مثل إيبلا، ماري وأوغاريت، أكثر من مجرد طريق للمرور أو هدف للبدو منذ آلاف السنين الماضية.

وقد زودنا أرشيف دولة إيبلا المكتشفة حديثاً بالوثائق الأولى عن هذه المنطقة التي تمت كتابتها من وجهة نظر سورية.. نفترض أن سوريا لم تكن ميداناً ثانوياً لصراع بين قوتي بلاد الرافدين والمصريين الكبيرتين. بل ربما كانت القوة الثالثة الكبيرة. فقد حكمت قطاعاً كبيراً من بلاد الرافدين إلى سواحل البحر المتوسط. وأقامت روابط تجارية مباشرة مع مصر، وبما يثير الدهشة أنها أقامت علاقات ديبلوماسية مع مملكة خماسي الفارسية شرقي بلاد فارس في عام ٢٢٥٠ قبل الميلاد.

شجعت التجارة الكثيفة على قبول طرائق أجنبية للمعيشة تمثلت في بعض الحرف والمهن اليدوية (نذكر مثالاً عليها هنا نسيج الإيكات الذي وجد، وما زال مستمراً بعد أن جاء إلى المنطقة من أفغانستان أو من اليمن، وأصبح تدريجياً أحد أهم التقنيات المعروفة بين النساجين في شمال سوريا). كانت مدينة حلب القديمة المحطة الآسيوية الأخيرة على طريق الحرير، وما تزال مشهورة بإنتاجها الجميل والمصقول لقماش الحرير،حتى أن النماذج المطبوعة للأوشحة البسيطة لم تتغير إلا قليلاً منذ إنتاجها الأول. فما تزال النساء الفلاحات والبدويات، يرتدين الوشاح، بكل فخر، ليميزهن عن سكان المدينة.

حمل السوريون مراحلهم التاريخية فوق كواهلهم مثل طبقات المدن القديمة المطمورة تحت تلال الصحراء السورية. لقد عرفوا الثراء والفقر، السلطة والتبعية التي تجسدت كلها في تقاليدهم وعاداتهم ومهنهم.

الثقافة السورية غنية بالنشاط والحيوية، وخاصة بين البدو، مما زاد من ولعي بمهمة توثيق أكبر قدر ممكن من الأشياء التي استطعت إيجادها. وهذه المجموعة طريفة وقديمة الطراز مما جعلني أحافظ عليها لتكون وصفاً أميناً ودقيقاً للمناحي الثقافية التي استمرت زمناً طويلاً، وما تزال قائمة بيننا حتى اليوم.

ربما يعود أصل بعض الاختراعات المستخدمة حالياً في معظم أنحاء العالم إلى سورية، جاءت الأبجدية الأولى التي نقلت الأصوات الفردية إلى حروف، ومن دون الاعتماد على الرسوم الفينيقية حوالي العام ١٥٠٠ ق.م. ثم نشر الفينيقيون الأحرف الأبجدية المكتشفة في أوغاريت عبر البحر المتوسط إلى بلاد الإغريق والرومان وايتروسكان (غرب إيطاليا اليوم). بعدها بقرون فتحت الأرقام العربية مجالات جديدة في علم الرياضيات.. وأخيراً فإن رموز دائرة الأبراج الاثني عشر، المألوفة جداً في الغرب الحديث، تعود في أصولها إلى بلاد الرافدين تماماً كما تعود إلى سوريا.

قرابة العام ١٠٠٠ قبل الميلاد أصبح الملك آرام في دمشق الملك السوري الأول الذي حاول توحيد الإقليم ضمن مملكة مرنة قادرة على مقاومة غزو الملك «داوود» في الجنوب وصد الآشوريين في الشرق. وبعد مئتي سنة هزم الآشوريون مملكة الآراميين ولكن لغتهم الآرامية، المعروفة بالنسبة لنا على أنها اللغة التي نطق بها السيد المسيح، وضعت الأسس لتراكيب اللغة العربية الحديثة، وما تزال لغتهم تستخدم حتى الآن في عدد من القرى القريبة من مدينة دمشق الحديثة.

كان على سوريا التكيف، وبشكل مستمر، مع القوة السياسية والثقافية التي اجتاحت المنطقة عبر آلاف السنين. نذكر هنا على سبيل المثال، مقاومة صور للأسكندر الكبير التي أصبحت رمزاً للبطولة. وعلى الرغم من أنه، وبعد سنين، في ظل حكم السلوقيين، أصبحت سوريا مندمجة مع الإمبراطورية اليونانية، إلا أن عاصمتها حينذاك مدينة أنطاكية صارت مركزاً هلنستياً للتنوير، وصل تأثيره إلى أماكن بعيدة كالهند. وقد كان ترتيب مدينة أنطاكية الثالث في أهميتها بعد أثينا والاسكندرية.

عندما غزا الرومان المنطقة، كانت مقاومة الملكة زنوبيا لهم أكثرمن أسطورية، الأمر الذي جعل الأمبراطور أورليان يعلق قائلاً: أولئك الذين يقولون بأنني هزمت امرأة،لايعرفون أي نوع من النساء هي، وكم هي نيرة في قراراتها، ومتحفظة في خططها، وكم هي شديدة مع جنودها..» ورغم ذلك، وقبل ثلاثين عاماً، أصبح الحاكم السابق لبصرى الامبراطور الروماني فيليب العربي، فيما رفضت الامبراطورة السورية جوليا دومنا من حمص، وزوجة الامبراطور سيبتموس سيفروس، الركوع أمام الآلهة الرومانية حتى أقاموا تماثيل الآلهة السورية في روما.

يدين الفن البيزنطي بالعديد من مبادئه إلى الأصول الأساسية الأولى لفن العمارة السورية القديمة ولفن الأيقونات ولمبادئ الديانة الجديدة، وتعود أصول المباني الرومانية القديمة إلى فترة المدن المنسية (الميتة) مثل قلب لوزة والقديس سمعان التي تقع شمالي سوريا.

تحالف الشعب الآرامي السوري مع الفرق العربية القادمة ضد البيزنطيين، وشجعوا حاكم دمشق، معاوية، لقيادتهم وساعدوه في بناء الإمبراطورية التي امتدت من إسبانيا في الغرب إلى الصين في الشرق. وقد استمر حكم الأمويين لإسبانيا خمسة قرون.

عندما دمر المغول بقيادة تيمورلنك كل ما بقي سليماً من غزوات سابقة، أسروا بمكر شديد كل الحرفيين المهرة السوريين، صانعي السيوف، النساجين، النحاسين وصانعي الزجاج وأرغموهم على الإقامة في عاصمتهم سمرقند. والأساطير هي أكثر الأمثلة عن انتشار الثقافات السورية في أنحاء العالم كافة. يبدأ الدارسون بتبيان روابط متينة بين الأدب السوري والأدب الأوروبي. إحدى الحالات المثيرة للجدل بشكل كبير تُقارن «الكوميديا الإلهية» لدانتي بكتابات المعري «سقراط العرب» الذي عاش قبل قرنين من دانتي. ويبدو أن دانتي، وبواسطة الترجمات اللاتينية المتوسطة، قد نسخ بعضاً من أفضل أشعاره من المنجز الشعري السابق. أوضح مجال آخر من الدراسة أصول قصص العهد القديم. وهناك عناصر ومواد من الميثولوجيا السورية القديمة التي نقشت في لوائح إيبلا، تحمل توافقاً كبيراً لبعض أشهر القصص المكتوبة في الإنجيل.

أخيراً، فإنه من الإنصاف القول إن بعضاً من المواد الثقافية السورية الأكثر شهرة موجودة في باحات البيوت القديمة الخاصة المبنية في مدينتي دمشق وحلب.

يمكن أن يجد دارسو فن العمارة الذين قضوا حياتهم في توثيق وتوضيح الإنجازات العظيمة من خلال الأبنية الصرحية، متعة في بساطة وسهولة المساكن المقامة حسب الفصول والأزياء والعادات المتأصلة في المجتمعات البدوية السورية عند استقبالهم وترحيبهم بأي شخص يدخل بيت أحدهم، وضمن مراكز المدينة، فإن الجدران العالية تحيط بالمنزل الخاص الذي يضم بحيرة ماء، أشجار فاكهة وبناء مكوناً من دورين أو ثلاثة: الطابق الأرضي للطهي والمعيشة قرب أرض الديار (الفناء) في الصيف، والطوابق العلوية للمعيشة في الشتاء. من المميز أن يتمكن أي شخص ولد وترعرع في دمشق من دخول البيوت القديمة التي ما تزال تحافظ على طرازها المعماري مؤمنة الراحة الأبدية الخالدة نفسها التي عهدها الدمشقيون لمئات السنين.

هناك أبعاد ثقافية أخرى خاصة بسوريا، مثل الثروة الموسيقية التي تحمل هوية مميزة ورموزاً متواصلة للمجتمعات، ما تزال حية ونشطة بين البدو وتحتاج إلى التوثيق قبل اندثارها في رمال التاريخ.

بعد كل ما ذكرته أود التأكيد بأنني حاولت إيجاد تمثيل للإلهام التقليدي في كل قطعة منتقاة للمعرض. وكلي أمل أن تعكس هذه المعروضات نوعية معينة من الأشكال والألوان تروي للزائر ميراثها الفني.

بوركت آلاف الأيادي للفنانين المجهولين الذين تركوا وراءهم رسالة مفتوحة من الحب والعاطفة لكل البشرية.



٥. مخيم لبدو الرولة.

٣

المصورات الطبيعية والناس

المصورات الطبيعية وطرق الحياة

ج. كالتر وم. بافالوي

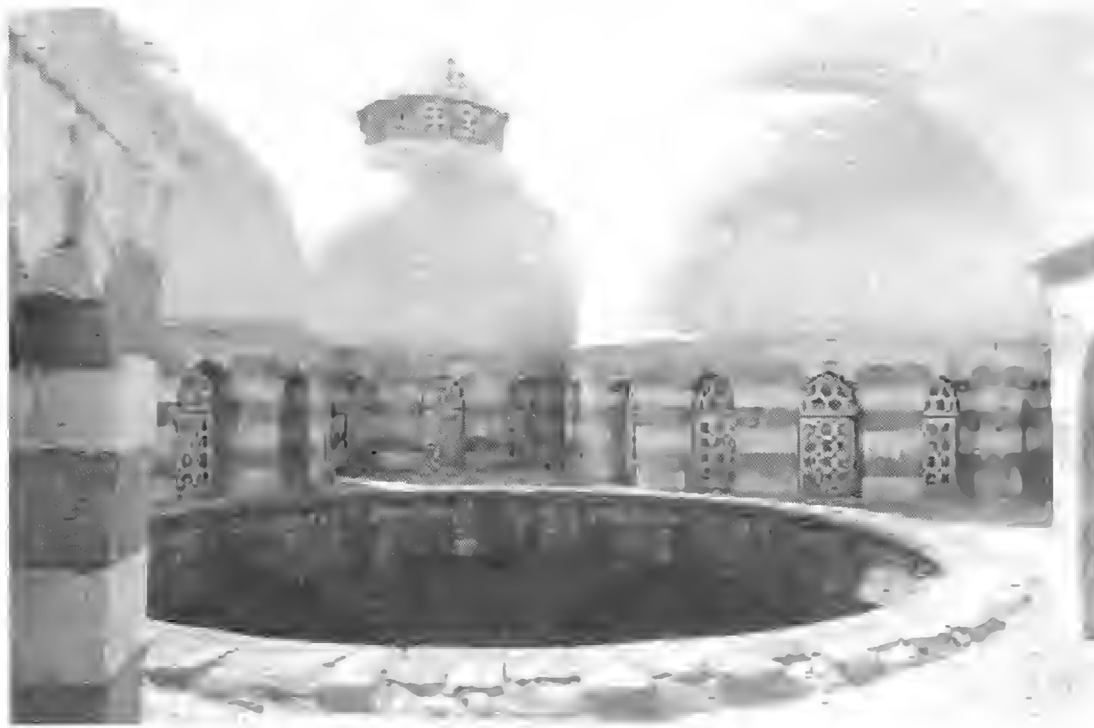
ظلت سوريا، على الدوام، من أي زاوية ينظر المرء إليها، أرضاً تحيط بكثير من مراكز القوى. إن غربي سوريا لا يتميز فقط بمناخه المتوسطي بل إنه كان دوماً، وعلى المستوى الثقافي، جزءاً من المشرق، أعني شرق المتوسط. ومنذ العهد الفينيقي، وما بعده، كان لها روابط واتصالات مع الساحل الإفريقي الشمالي، ومع الشمال الغربي الإفريقي وإسبانيا. وفي القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد شهدت سوريا تتويج أربع أباطرة رومان. وفي الشمال كان لسوريا حدود مفتوحة على الأقاليم الجبلية لشرقي الأناضول. وقد حافظت سوريا على علاقاتها مع الإمبراطورية الأرمنية، وخلال الفترة العثمانية مع كل ما يسمى اليوم بتركيا حتى اسطنبول والأجزاء الأوروبية من الإمبراطورية العثمانية. أدت تنقلات الشعوب في القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين إلى تدفق عدد كبير من الشركس والأبخاز والأرمن إلى سوريا. وقد اندمجت سوريا من جهة الجنوب في الصحراء الكبرى لشبه الجزيرة العربية. ومن الجنوب أيضاً، كانت سوريا مرتبطة مع الأناضول عبر طريق البخور الذي بدأ من اليمن. أما من جهة الشرق فقد كانت منفتحة على بلاد الرافدين. وتم نقل بضائع وأفكار كثيرة من الصين والهند وإيران إلى سوريا عبر وادي نهر الفرات من خلال المسارات التجارية القديمة لطريق الحرير. وهكذا كانت سوريا جسراً بين الشرق والغرب وأرضاً عبرت من خلالها التجارة لمسافات بعيدة الأمر الذي أدى إلى إغناء المدن السورية الكبرى إضافة إلى كونها أيضاً الأرض التي شهدت انتشار وتفاعل وتصادم الأديان والثقافات.

تتلاقى ثلاثة مناطق مناخية عند السلاسل الجبلية اللبنانية والسلاسل المقابلة لها والتلال الواقعة عند سفوحها: المتوسطي، الشبه الاستوائي، الجاف. يعتبر وادي الفرات الذي يجري عبر الصحراء السورية من الشمال والشمال الغربي نحو الجنوب والجنوب الشرقي خطاً حيوياً للتواصل ومساراً مفضلاً لطريق القوافل على الدوام. وقد أصبح بالإمكان في نهاية الألفية الأولى، وبواسطة تدجين الجمل العربي، اجتياز الصحراء السورية بأقصر طريق من دير الزور على نهر الفرات عبر واحة تدمر إلى دمشق. يمكن أن يتم توضيح أهمية التجارة البعيدة المدى بمثالين قديمين. فقد بيّن الكشف عن الآثار في منطقة ماري شرقي سوريا أنه حوالي عام ١٨٠٠ قبل الميلاد، كانت ماري، البلدة، ولاحقاً عاصمة الدولة، تعمل في تجارة النحاس من قبرص والتصدير من بلاد فارس وكذلك في تجارة بضائع أخرى، كالأخشاب، الأحجار الكريمة، الزيوت، الخمر، والبهارات تمت المتاجرة بها بين بلاد بعيدة كجزيرة كريت وإيران. وقد كشفت عمليات التنقيب عن الآثار في تدمر، (عاصمة لدولة عاشت لفترة قصيرة وبرزت أهميتها في التجارة خلال القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد) عن بعض أجزاء من قماش الحرير الصيني والأنسجة القطنية المصرية.

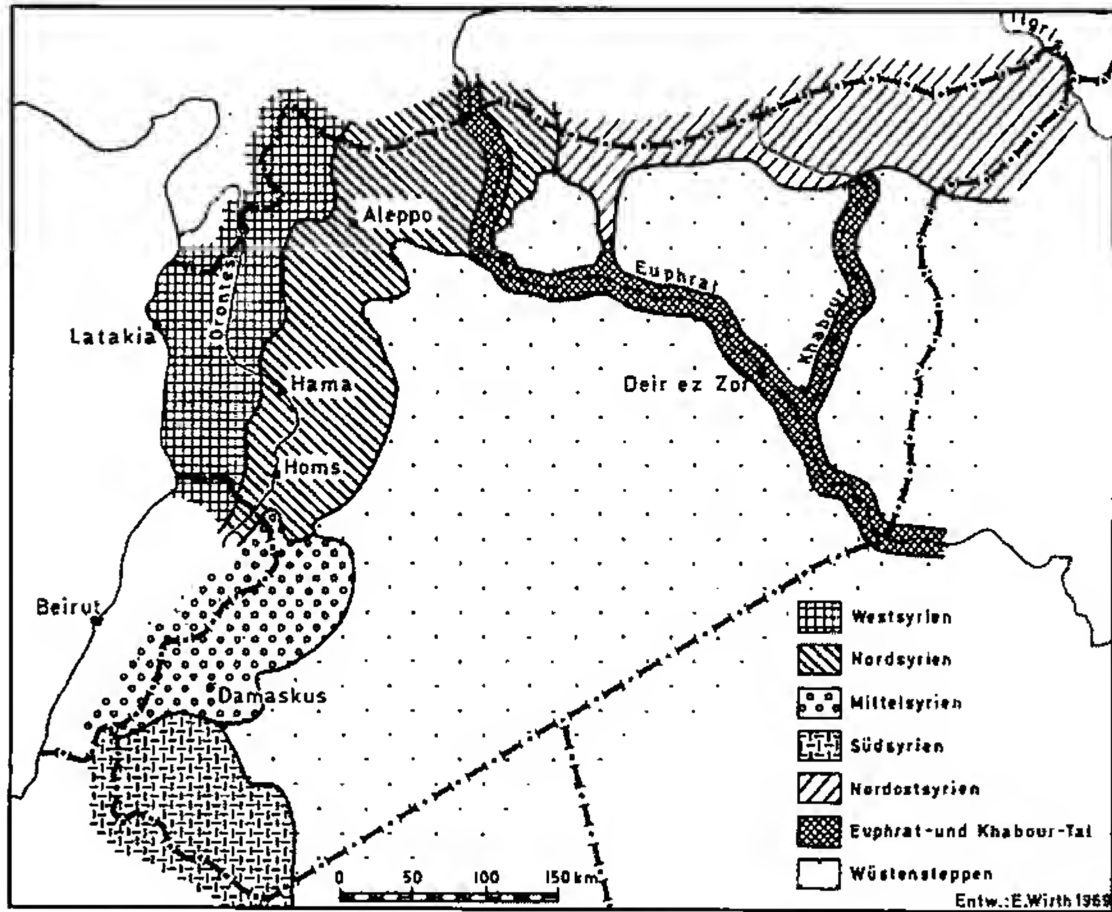


٦. مسلة مع رسم لجمل، تدمر، القرن الثاني بعد الميلاد.

٧ و٨ سقف وداخل قبة خان أسعد باشا العظم في دمشق.







المصور الطبيعي العام لسوريا.

الموقع الجغرافي لسوريا، وطبيعة أرضها منعها دائماً أن تغدو مركزاً امبراطورياً بحد ذاتها، فهي ببساطة تفتقر إلى الموارد. أما مظاهر ومميزات التاريخ السوري فهي الدويلات الصغيرة المتنازعة مع بعضها البعض، والداخلة في تحالفات مستمرة معتمدة على القوة أو الضعف الذاتي المسيطر بشكل نسبي (يزيد ويقل) على المناطق المحيطة بها، ومن أهم تلك الدويلات تاريخياً كانت دمشق وحلب وقد بقيتا كذلك حتى يومنا الحاضر.

تميز التاريخ السوري بالصراع المتواصل بين الاحتلال الأجنبي والحكم الذاتي. وقد حاولت كل دولة من الجوار، ذات سلطة قوية، اغتنام الفرصة بين الحين والآخر، للسيطرة على هذا الإقليم. كانت سوريا في الألف الأول قبل الميلاد جزءاً من امبراطورية البابليين ثم أصبحت جزءاً من امبراطورية الكسندر الأكبر وسلالته من السلوقيين.. وثم صارت منذ عام ٦٤ قبل الميلاد، وحتى عام ٣٩٥ بعد الميلاد، مقاطعة رومانية، ومن ثم مقاطعة في بيزنطة المسيحية والتي آل إليها إرث روما.

توزع المجموعات اللغوية والدينية (لمحة عامة).

Verbreitung der wichtigsten Religions-und Sprachgemeinschaften

(Versuch einer Überblicksdarstellung)

	Arabische Sprachgemeinschaft (Ausnahme: Armen. Christen)						Sunniten (Ausnahme: Jezidi)		
	Sunniten	Christen	Alaouiten	Drusen	Ismailiten	Metoualis	Kurden incl. Jezidi	Türken incl. Turkmenen	Tscherkessen
Gebiete geschlossener Verbreitung bzw. starker Mehrheit									
Verstreute Vorkommen bzw. starke Minderheit									
Einzelne Siedlungen mit Mehrheit oder starker Minderheit		+ ⊕	∘	^	v		△		T

0 50 100 150km

Entw.: E. Wirth 1969 (unter Verwendung von unveröffentlichten Unterlagen des Institut Français de Damas)

أصبح شاؤول في دمشق حوارياً ودعي ببولس الرسول. وغدت سوريا، بعد سقوط القدس عام ٧٠م، مركزاً لنشاط البعثات التبشيرية المسيحية.. ووجدت الأديرة المسيحية الأكثر قدماً في العالم في غربي سوريا، وخاصة على سفوح جبال لبنان. وأحد هذه الأديرة موجود في قرية معلولا (حيث ما يزال ٧٠٪ من سكانها من الروم الكاثوليك و١٠٪ منهم من الروم الأرثوذكس) وهم يحافظون إلى يومنا هذا على الآثار المقدسة «للقديسة تقلا»، إحدى أتباع القديس بولس والتي يتم تقديسها كونها أول امرأة شهيدة مسيحية.



٩. قاعة الفرسان في قلعة الحصن.

فتحت الجيوش الإسلامية دمشق عام ٦٣٥ م، وصارت جزءاً من الإمبراطورية العربية. وفي الفترة ما بين ٦٦١ وحتى عام ٧٥٠ انتقلت سوريا من محيط الأحداث إلى مركزها. فمن دمشق حكم الخلفاء الأمويون وسلالتهم من بعدهم إمبراطورية إسلامية عالمية تمتد من المحيط الأطلسي حتى الهند، لكن بعد انتقال الخلافة إلى الدولة العباسية وعاصمتها بغداد، أبعدت سوريا من مركز إلى حالة ملحقة مرة أخرى.. كانت فترة الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ذات أهمية ثقافية كبيرة جداً بالنسبة لأوروبا أكثر منها إلى سوريا. وبالنسبة للأندلس وصقلية كانت سوريا قناة هامة للغرب ليس في مجال تجميع الآثار والحكمة التي حافظ عليها الدارسون المسلمون وحسب، بل في أسلوب الحياة الرفيعة المستوى. فقد اتبع الفرسان الصليبيون، على سبيل المثال، الثقافة الشرقية في الاستحمام، استخدام الآلات الموسيقية الشرقية مثل العود، تقاليد شعر الحب (التي أثرت في فرق المغنين والعازفين) ولعبة الشطرنج. ومن الأبنية الباقية كتذكار عن فترة الصليبيين الحصن المعروف بقلعة الحصن التي تقع على ارتفاع ٧٥٥ متراً في أعلى جبل خليل، مشرفة على المحيط الريفي لوادي حمص. سقط هذا الحصن الخاص بأمراء حمص في أيدي الصليبيين عام ١١٠٢ وبقي حتى عام ١٢٧٠ قاعدة أمامية لهم. كانت سوريا خلال هذه الفترة مجالاً واسعاً للتسوق ولصناعة البضائع العالية الجودة للقصور والبلاطات الأميرية ونبلاء أوروبا: الزجاج المحلي المحلى بالمينا، الدامسكو ونسيج البروكار من دمشق، السيوف الدمشقية المصقولة والأعمال المعدنية المرصعة.



١٠. الباحة الداخلية للتكية السليمانية - دمشق.

ومن أجل معرفة سوريا اليوم، فإنه من الضروري أن يمتلك المرء الراغب بذلك إطلاعاً كبيراً على الأسس الهامة لتلك الفترات الهامة من ماضي سوريا. تميز التاريخ السوري في ذلك الوقت، بشكل عام، بالصراعات المستمرة مع القوى الكبرى الموجودة في ذلك الوقت والتوترات الداخلية الدائمة. كان الفلاحون في الجبال، الذين تميزوا، عموماً بارتباطهم القوي عبر الدين والمعتقدات، في صراع مع سكان السهول والبلدات الذين كانوا يناضلون من أجل السلطة. في حين وجد فلاحو السهول أنفسهم في صراع مستمر مع بدو الصحراء. كان هناك أيضاً صراع دائم بين كل من ذكرناه أعلاه من فئات والسلطة المركزية التي حاولت أن تبقى سيدة الموقف بواسطة عقد معاهدات مع الحلفاء المتغيرين، ومن خلال طلب الجزية والضرائب وأداء الخدمة الإلزامية. كانت سوريا مفتوحة للغزوات المتكررة، سواء من جهة البحر المتوسط أو من جهة الصحراء العربية، وهذا ساهم في إعطاء سوريا تنوعها وغناها الثقافي، لكنه جاء أيضاً عبر توازن صعب أثناء أزمنة السلم ونظام سياسي غير مستقر.



١١. كنيسة الدير في صيدنايا.



١٢.أشجار النخيل في واحة تدمر.



١٣.منظر لنهر الفرات قرب زلبية.

١٤. جمال في صحراء البازالت جنوب شرق دمشق.





١٥. فتيات من جماعة بدوية ترعى الأغنام مع قطعانهن في شمال شرقي سوريا.



١٦. مزرعة لرعاة ماشية بدو بعد استقرارهم. في شمال شرقي سوريا.

إن بقـاء دليل مادي حـي وملموس من تاريـخ سوريا الذي يزيد علـى سبعـة آلاف عام، يعني أنه بإمـكان أي مهتم أن يقوم برحلات عبر عـدة حقب زمنية، وثقافات متنوعة. لكـن المرء يكون حذراً في تحديـد تأثير المحيط الطبيعي للمدن التـي يتوضح دورها نسبة إلى موقعهـا على الطـرق التجارية أو مركزهـا الاستراتيجي في التحكم بهـذه الطرق، وتأثير هيمنة الثقافة العربية الشرقية أو ثقافة البحر المتوسـط، وخصوصاً تنـوع السـكان واللغات. فإلى جانـب السكان الناطقـين باللغـة العربيـة، هنـاك نسبة تعـادل ٥٪ مـن السوريين الذيـن يتكلمـون الكرديـة كلغـة أساسيـة، والتركيـة والتركمانيـة والشركسية (إضافـة إلى اللغة الآراميـة واللغة العبرية التي يتحدث بعضـ السـكان بها. وهنـاك حوالي ٧٥٪ مـن الشعـب السوري من الإسـلام السنـة وهنـاك بعضـ الشرائـح السكانيـة مـن الشيعة، العلويـين، الإسماعيليين والدروز في المناطـق الجبلية. ويشكل الروم (أي الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس) أكبر نسبة في المسيحيين، ٧٪ من السكان. يتبع لهم الأرمن (الأرمن الكاثوليك والغريغوريان)، المسيحيـون السوريون (السوريـون الكاثوليـك واليعقوبيـون) وفرق صغيرة (أقـل مـن ٠,٥ ٪ مـن الشعب السـوري حسـب إحصائيات ورث) من المارونيين، البروتستانـت، اللاتين، والنساطرة (السريان والكلـدان). وكمـا ذكرنا، ما يـزال هنـاك بعض القـرى المسيحية القليلـة، وأشارت إحصائيات القرن التاسع عشر إلى عدد لا بأس به مـن القرى التي يقطنها المسيحيون بشكل كامل. وعلى كل حال، فإن التجمعـات المسيحية تتركز الآن في ستة مـدن كبيرة، دمشق، حلب، حمص، حمـاة، اللاذقية ودير الزور. ووفـق سجلات ورث (١٩٧١) كان في تلـك المدن عـام ١٩٤٧ أكثر من ربع مسلمـي سوريا يعيشون مقابل أكثر من نصف عدد المسيحين. انخفض عدد اليهود في سوريا إلى عدة آلاف، منذ حرب ١٩٦٧ بين إسرائيل وسوريا، تركزوا بشكل خاص في دمشق وحلب رغم أن بعضاً منهم أغنياء جداً.

ساهم كل هؤلاء الناس، والفرق اللغوية، وأفراد الفرق الدينية المتنوعـون والكثيرون في التعدديـة الثقافية لسوريـا. ولكن بسبب سلوكهـم الأساسـي القائـم على التسامـح رغم التنـوع المدهش، فتقاسمـوا تجارب تاريخية مشتركة بينهـم، وصار من من الممكن رؤيـة التنوع منـذ العصور القديمـة، عندما كانـت سوريا الأرض التقليدية لدول المدن الشرقية القديمة، ولم تكن أي واحدة من هذه الـدول تمتلك نزعات استعمارية. وقد تجدد تاريخها وثقافتها من خـلال دورها كوسيط بين بلاد الرافديـن، مصر، وشبه الجزيرة العربية، ووصـل كثير من أبنائها (وبناتها) لينالوا الشهرة والقوة في روما، والمدن الأخرى في الامبراطورية الرومانية.

إن سوريـا تشبـه حجراً كريمـاً تم تقطيعه، إنهـا تضم عدة جوانـب من البلـور، ولكنها ظلت حجـراً واحـداً، والضوء الذي يصدر عن كل جانب من الحجر الكريم هو نفسه.



١٧. شجرة زيتون هرمة في جبال الساحل - غرب سوريا.



١٨. بقايا (أطلال) لكنيسة الحجاج في دير سمعان، (قلعة سمعان)، شمال غربي سوريا. القرن الخامس والسادس بعد الميلاد.



١٩. صف من بيوت سكنية ومحلات قديمة بنوافذها وشرفاتها التقليدية المصنوعة من حواجز وقضبان خشبية -حلب.



٢٠. صورة عائلية، رجال شركس في بداية القرن العشرين.



٢١. شيخ الجماعة وسط باحة منزله في حلب.

٢٢. راقص خارج قلعة حلب.





٢٣. قرية في الشمال الغربي من سوريا بمنازلها ذات القبب الطينية، وفق النموذج المعروف منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

٢٤. مخازن قمح وبرج حمام في مزرعة شمال غرب سوريا.



٢٥. منزل قروي ومخازن قمح في المزرعة نفسها.





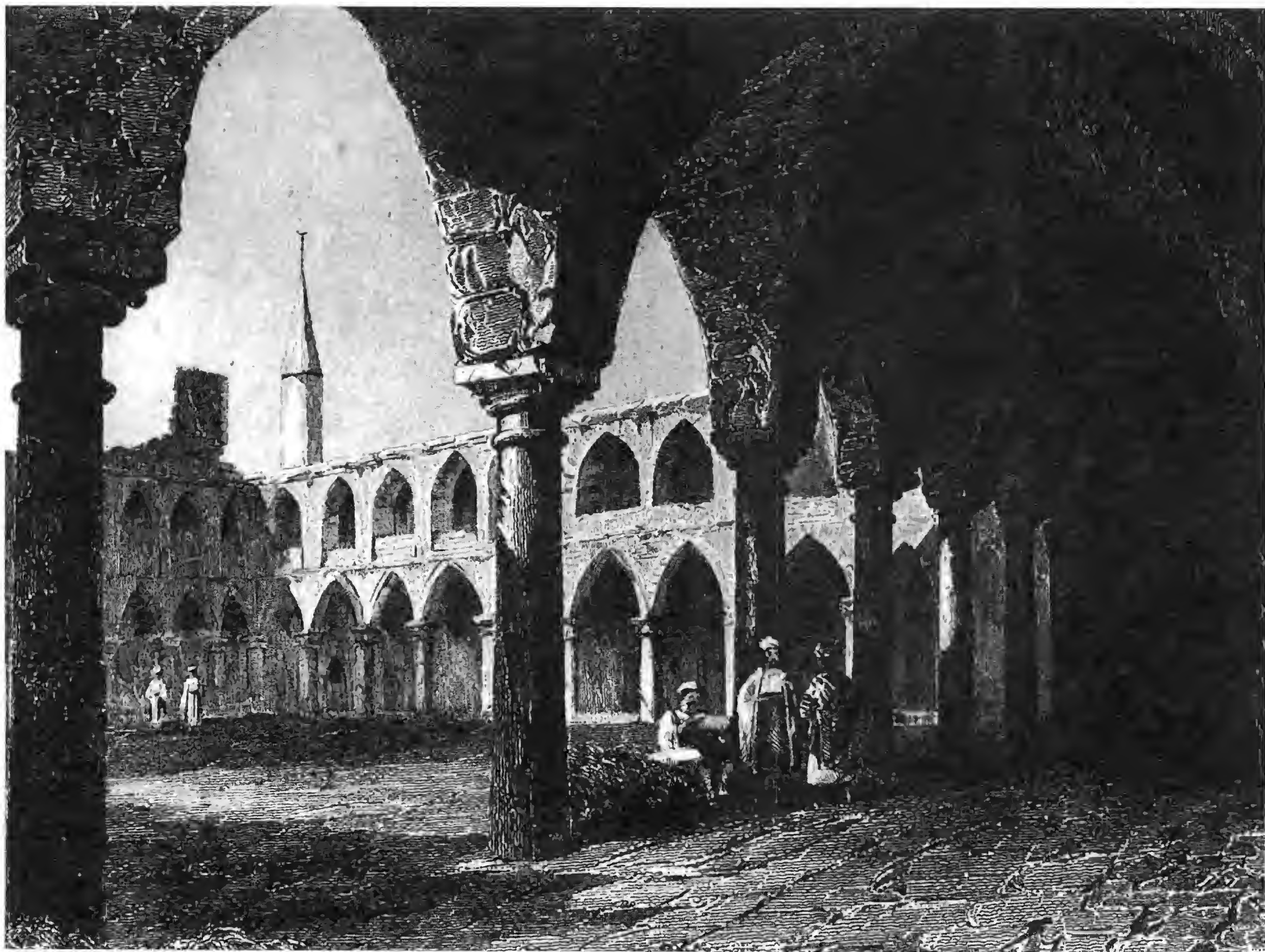
٢٦. قطيع من الماشية بين تدمر ودمشق.

٢٧. منظر ربيعي في جنوبي جبل العرب.



٢٨. قطعان ماشية على السفوح المنحدرة في غربي سوريا في جبال الساحل قرب قلعة الحصن.





٢٩. خان في عكا.



سورية عشية العصر الحديث

هانز غاوبي

١. السوريون - العرب:

نشأت "سورية" كفكرة سياسية في القرن التاسع عشر في عقول بعض المفكرين. كانت فكرة "سورية"، مشوشة جغرافياً وتداخلت لفترة طويلة مع فكرة الوحدة العربية. إن فكرة القومية العربية - لا من الناحية العسكرية بل من الناحية الثقافية - لها أيضاً جذورها في سوريا. كان مركز هذه الحركة السياسية الثقافية والفكرية في بيروت، وهي آنذاك الميناء الأكثر أهمية في سورية. وفي عام ١٨٦٦ أنشأت البعثات التبشيرية الأمريكية في بيروت "الكلية البروتستانتية السورية" التي تحولت فيما بعد إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. وبعد سنوات قليلة وتحديداً عام ١٨٧٥ أسس اليسوعيون جامعة القديس يوسف. لم تبذل هاتان المؤسستان جهودهما المكثفة في التأثير فقط على الحياة الفكرية في سوريا، بل أيضاً كان لها تأثيرها البعيد المدى خارج نطاق سوريا وحتى سائر أنحاء العالم العربي وإيران وباكستان.

كان الشباب السوريون/العرب على تواصل مع أوساط المعلمين الأجانب وطلابهم (سرعان ما أصبحوا هم أنفسهم معلمين) كما تواصل بعضهم الآخر مع المعاهد والمؤسسات الآنف ذكرها. وقد كانوا متعطشين للعلم وسعوا إلى التعليم الغربي وفهم لغاتهم وثقافاتهم الخاصة بشكل أفضل وإبداع أشكال جديدة للتفكير ونماذج فنية مبتكرة. كان اهتمامهم الأول هو اللغة وقد تم نشر أول قاموس عربي - عربي حديث في بيروت، وكذلك أولى الأشكال الأدبية الجديدة، وفي كل الأوساط الدراسية كانت تدور مناقشات عن الثقافة، القومية، الحرية الإنسانية، والسياسية.

وسرعان ما أصبح تحديث الثقافة والإحساس بالهوية السورية موضوع صراعات مختلفة. وغالباً ما كانت تتطرق هذه الأمور إلى أسئلة أساسية كان من الصعب الإجابة عليها، إلى أي مدى يمكن للسوري أن يكون عربياً ومع ذلك يظل سورياً؟ ومن هو السوري بأية حال؟

عرف العرب سوريا في القرون الوسطى ببلاد الشام، يمكن ترجمة ذلك بالأراضي السورية. ولكن ماذا تعني "سوري" (الشام) في ذلك المعنى؟ لغوياً تعني الإقليم الشمالي للجزيرة العربية المقابل للإقليم الجنوبي العربي، اليمن.

بلاد الشام هي الأراضي السورية وفق المصطلحات الغربية، وهي سوريا الكبرى، التي تمتد من البحر الأحمر وغزة في الجنوب إلى نهر الفرات في الشمال الشرقي، وثقافياً حتى الأقاليم التي تعرف اليوم بالعراق وتركيا. وبمواجهة هذا التقسيم اعتقد المفكرون الرواد لفكرة سوريا قرابة نهاية القرن أن بإمكانهم أن يكونوا سكان منطقة الإقليم واسعة متنوعة ثقافياً وتاريخياً من بلاد الشام، وفي الوقت نفسه أن يكونوا عرباً خاصة في مصر، حيث وجد عدد من المفكرين السوريين ملجأ لهم من السلطات التركية العثمانية المستبدة.

وهكذا ظهر تياران سياسيان رئيسان من الحلقات الفكرية لمدن بلاد الشام: الاتحاد العربي والقوميون السوريون. التيار الثالث وهو التيار الأضعف تمثل بالتيار العثماني الذي سعى إلى مطلب سياسي يأتي ضمن إطار امبراطورية عثمانية محدثة ومطورة ومنظمة.

رأى تيار الاتحاد العربي في الدولة العربية فرصة جيدة للتحرر الأكيد من احتلال الإمبراطورية العثمانية وتحدياً لكل من القوى العثمانية والغربية. وبالنسبة لهم فقد كان أمراً أساسياً لا مفر منه كون سوريا، بشاطئها المتوسطي وقواها الكامنة التعليمية والاقتصادية جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية.

أما القوميون السوريون فقد كانت نظرتهم على العكس تماماً. فهم يرون أن سكان بلاد الشام يشكلون بتاريخهم وثقافتهم دولة مستقلة منفصلة عن غيرها وليست جزءاً من الوطن أو الدولة العربية. ويرون أن سوريا دولة متوسطية وبذلك تكوّن صلة وصل، أو رابطاً متيناً بين الامبريالية الغربية والقومية العربية، وأرادوا أيضاً أن يكونوا صلة اتصال ثقافي بين أوروبا والأراضي العربية، وآمن القليل منهم في رغبة العرب الآخرين بإجراء تغيرات اقتصادية واجتماعية شاملة.

من خلال الأحداث، أصبح حلم القوميين السوريين (دولة سورية منفصلة) - ولو لم تكن ضمن الحدود التي تمنوها - حقيقة. وعلى الرغم من أن سوريا تعتبر جزءاً نشيطاً وفعالاً من مجموعة الدول العربية الديمقراطية فإن هذا يناقض أيضاً ما كان يتمناه القوميون السوريون في نهاية القرن. السوريون هم عرب ولكنهم أولاً سوريون. لهم تاريخهم وثقافتهم الخاصة، وبسبب اللغة المشتركة فإنهم يعتبرون جزءاً من التاريخ والثقافة العربية الواسعة مثل التاريخ والثقافة الألمانية اللتين تعتبران جزءاً من التاريخ والثقافة الأوروبية.

بدت خصوصية سوريا (من الآن فصاعداً سوف أستعمل على الأغلب كلمة سوريا للدلالة على بلاد الشام - سوريا الكبرى أو الأراضي السورية - سيكون هذا واضحاً من خلال النص) واضحة للتو من مصطلح العصور الوسطى "بلاد الشام" التي تعني "الأراضي السورية": وحدتها وتنوعها منذ العصور القديمة، عندما كانت سوريا الأرض التقليدية لدول المدن الشرقية القديمة التي لم تظهر أية رغبات امبريالية توسعية.



٣٠. مشهد علوي من أسطحة المنازل المبنية من حجارة البازلت في مدينة بصرى القديمة.



٣١. نواعير على نهر العاصي في مدينة حماه القديمة.







٣٢. أعلى اليمين: شيخ يزيدي من قرية سورية في الشمال.

٣٣. أسفل اليمين: فلاحات في سوق حماه.

٣٤. أعلى اليسار: رجل يصلي في الجامع الكبير في حلب.

٣٥. اليسار الأوسط: نساء إيرانيات في الساحة أمام الجامع الأموي في دمشق.

٣٦. الأسفل الوسط: فلاحة من جبال القلمون في دمشق.

٣٧. أسفل اليسار: بائع جوال في زي أفريقي في دمشق.







وصـل العثمانيون كمنظمين. وكانـوا مسؤولين في الفترة الأولى مـن حكمهـم عـن سجـل الضرائـب المفصـل، الذي يعتـبر مصـدراً مميـزاً للمعلومـات عمـا كان موجـوداً في الواقـع. وسرعان ما اتبعت الدولـة العثمانية خطا أسلافها، البيزنطيـين والفرس، حيـث حافظت على نظـام الضرائب وطريقـة الحكـم الخاص بهما بشـكل كبير. أصبـح الفساد والرشـوة والمحسوبيـة في المحاكـم وشـراء المناصـب أمـراً طبيعيـاً. وحالما أصدر الحكام العثمانيـون أوامرهم بتقسيم بـلاد الشـام إلى مقاطعـات وأقاليـم، سارعـوا إلى تقليـد القناصلة الرومان والحكام البيزنطيين والفرس في الاهتمام بملء جيوبهم.

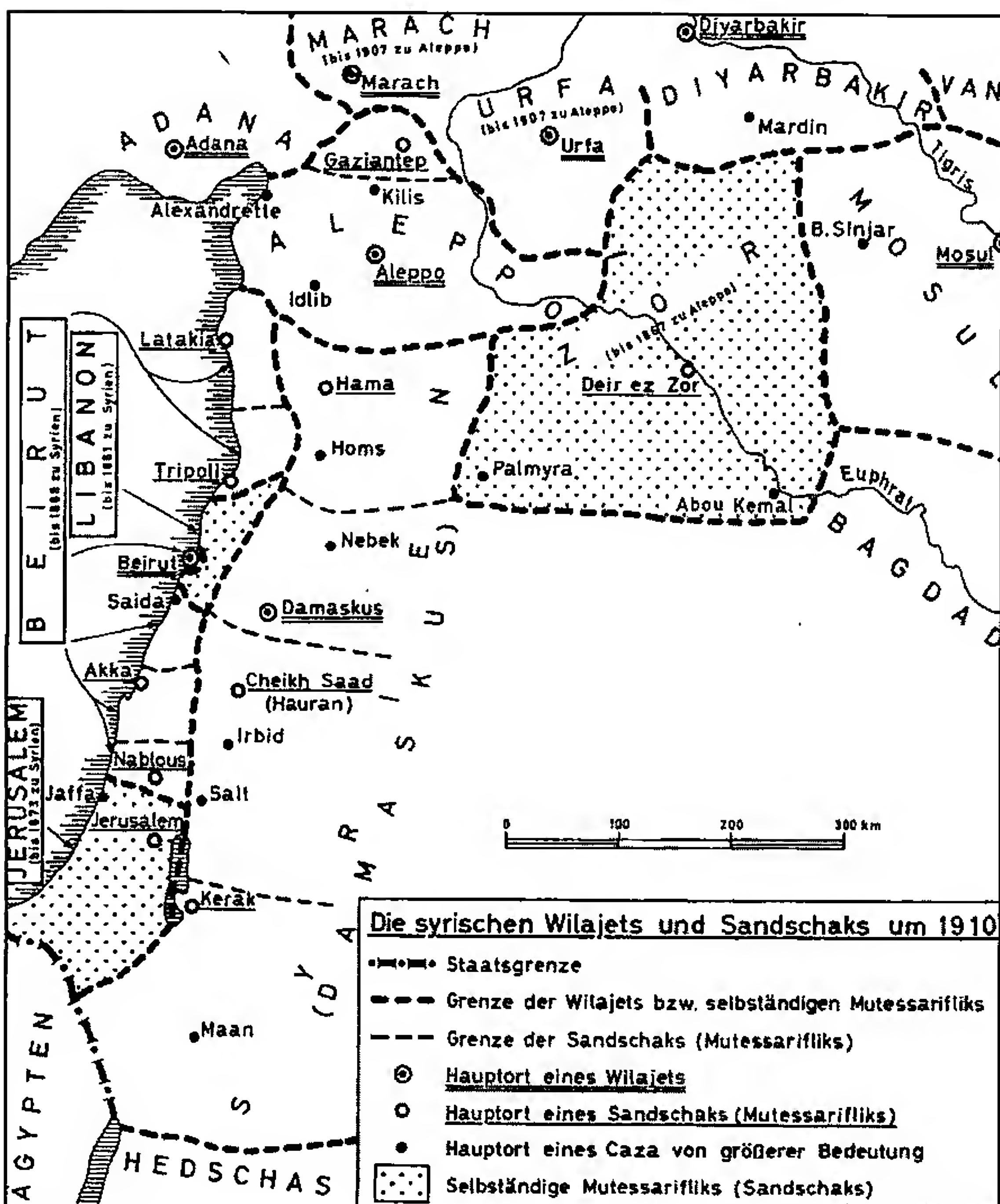
ورغم كل ذلك، فقد ارتكـزت إدارة المقاطعات العثمانية علـى العقلانيـة، وإلا أنه لم يكـن هناك أي ضمـان بفعالية حكمهـا، حيـث أنهـا تداخلـت مـع نفسهـا واصطدمـت مع المبدأ القـديم للعقلانيـة الشرقية للحكومـة: "من سيراقب الحراس؟" وقـد أدى ذلـك إلى الفوضى وعـدم الاستقرار بشـكل مستمـر علـى مستويـات الحكومـة كافـة، كمـا دفع السلاطين حياتهم أكثر من مرة.

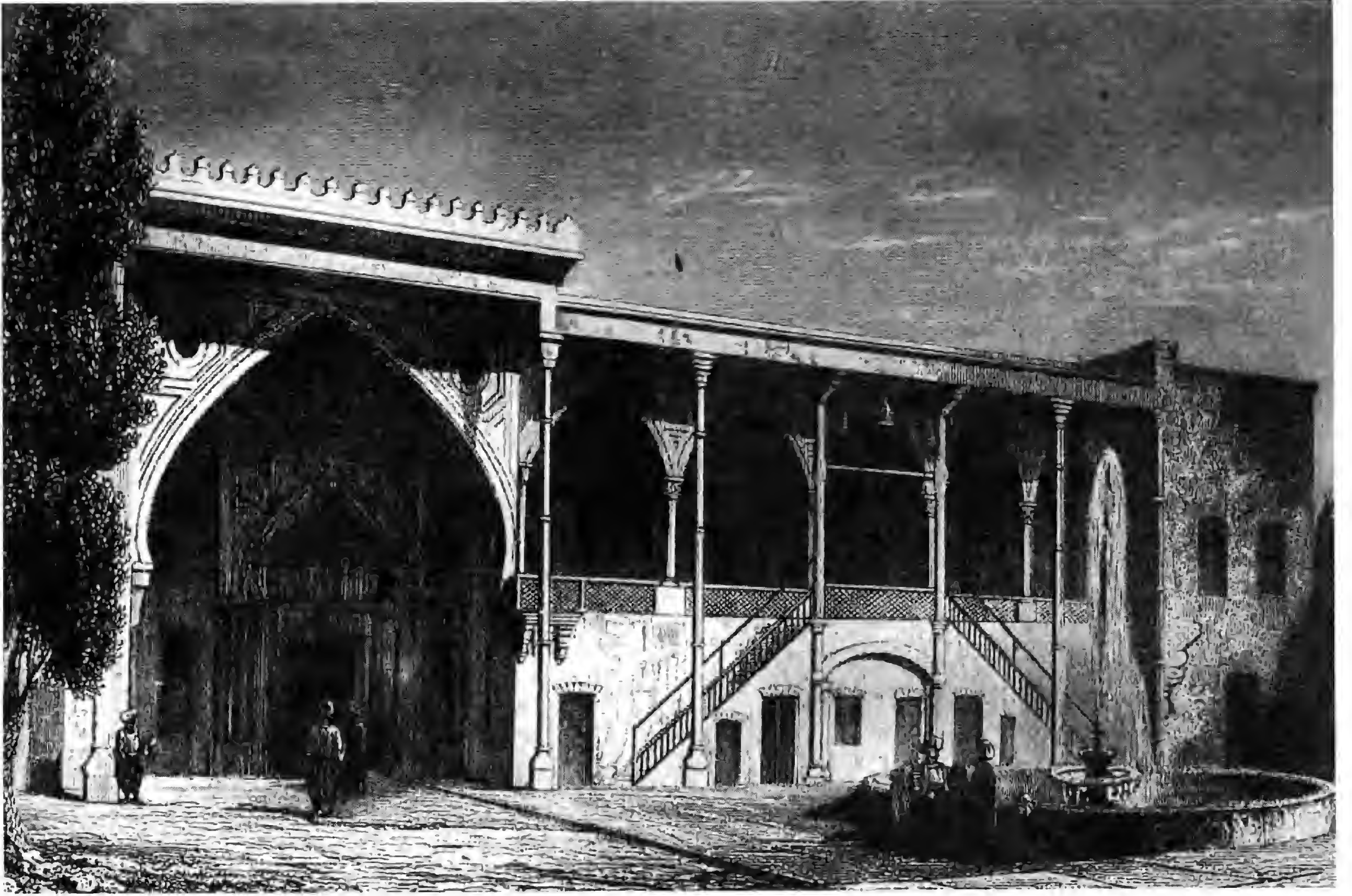
في عهـد الإمبراطوريـة العثمانيـة كانـت قـوة السلطـة كلهـا تتركـز في شخـص السلطـان المقيـم في اسطنبـول، وامتدت امبراطوريته من البلقـان إلى شمال أفريقيا وجرى تقسيمهـا إلى ولايات. تعددت هـذه الولايات في سوريا خلال الحكم العثمـاني، واختلـف مستواها وكانـت أبرزها دمشق وحلـب. عـين في كل مقاطعة حاكم (والي) مخـول بسلطات غـير محدودة. حاز على السلطة السياسيـة العليا ومسؤولية تحصيـل الضرائـب والدفـاع عـن الولايـة وأمـن الطرقات وغيرها من السلطـات.. أما السلطة القضائية فقد كانت في أيدي القاضي الأعلـى، ويوجد معاون للحاكم (المتسلم)، أما معاون القاضـي الأعلى فقد كان (المفتـي). يشرف القاضي الأعلى أيضاً على رئيس الشرطة (المحتسب) الذي يقود قوى الأمن (الشرطـة). وكانت الضرائـب تجمع من قبل موظفين متخصصين (المحصلـون)، وكان لـكل هـؤلاء الموظفـين الكبـار عمال وموظفـون تحت إمرتهم يتبعـون لهم وينفذون خططهـم، وقـد تركزت فـرق المشـاة مـن الإدارة العامة في عواصـم المقاطعات الكبرى. كانـت كل الجيوش الانكشارية، وغيرها، تحت إمرتهم الخاصة أيضاً، بينمـا كان للوالي فرقه المنفصلة الخاصة به.

لم يتمكن الممثلون الاتحاديـون الموفدون من قبل السلطة المركزيـة بالطبـع من حكـم المقاطعة بأنفسهـم. نجد غالباً مزيجـاً من فئـات عليا من الموظفـين الموفدين مـن المركز، وآخريـن معينين من المكان نفسه. يتم عـادة إرسال الحاكم والقاضـي الأعلـى بينمـا يعـين معاونوهـم من بـين النبلاء المحليين.

يبدو أن نظام الحكم العثماني الذي تم وصفه هنا بطريقة سطحية ومثالية جداً، قد تم توظيفه جيداً في سوريا بمناطق مختلفـة، ولفـترات متفاوتة مـن الزمن حتى القـرن الثامن عشـر. ولكن حتـى في هذه الأوقـات "الحسنـة" من الحكم العثمـاني، لم تخضع سوريا كلياً لسلطة القوة المركزية. حول المـدن، حيث حكم الـولاة وأتباعهـم، بقيت أنظمـة السلطة القديمـة على ما هي عليه حيث كان قادة العشائر الإقطاعية مسؤولـين عـن أنفسهم. أما في الصحـراء والمناطق الجبلية فقـد تمكنت الحكومـة والإدارة العثمانية مـن توسع سلطتها بشكل مشتت. كانت العمليـات العسكرية ضد البدو وقاطني الجبـال عديمة الجـدوى إذ حالما تنسحب الفـرق العسكرية يعود كل شيء على ما كان عليه.

مصور الولايات السورية ١٩٠٠.





٣٨. إيوان في مدخل قصر بشير الثاني - بيت الدين.

سرعان ما تمكنت إمارة معن الدرزية، على سبيل المثال، من التطور إلى ولاية مستقلة في جبال لبنان. وقد تمكن قائدها الرئيس فخر الدين(١٥٩٠-١٦١٣) و(١٦١٨-١٦٣٥) من تطوير الزراعة كما أقام روابط وعلاقات تجارية مع أوروبا، واستطاع أن يحكم إلى ما وراء حدود أقاليم أسلافه، جبال لبنان، جنوبي بيروت. حتى أن بناء قلعة تدمر ينسب إليه. تصدى العثمانيون له في نهاية عام ١٦١٣ وجمعوا ضده جيشاً كبيراً مدعماً من البحر بالأساطيل والسفن الحربية، إلى أن فرَّ إلى توسكانا على متن سفينة أوروبية. ولم يتمكن من العودة الا بعد خمس سنوات ليتابع سياساته القديمة من جديد. وخلال سنوات عدة كان قادراً على بناء قوة كبيرة أرهبت العثمانيين لدرجة أرغمتهم على تعيينه وصياً على الأقاليم الريفية ما بين حلب والقدس.

جرت هذه الأحداث في فترة ضعف مركز السلطة للعثمانيين، وفي عام ١٦٣٥ تمكن المركز من استعادة عافيته، وأرسل جيشاً آخر لمحاربة فخر الدين الذي تم أسره وأرسل إلى اسطنبول حيث تمت معاملته كضيف على البلاط في بداية الأمر ولكن في النهاية تم إعدامه. تمكن خلفاؤه من بعده من حكم مقاطعة غير ذات أهمية حتى عام ١٦٩٧ إلى أن مات آخر خلفاء فخر الدين. (يذكر أن أحد أبنائه عاش في اسطنبول). انتخب الوجهاء في المجلس المحلي في جبال لبنان الجنوبية قائداً جديداً، اسمه بشير الأول من عائلة الشهابي.. تابع الشهابيون الجدد السياسات الضعيفة لإمارة معن القديمة. داخلياً، كان هناك صدامات كبيرة بين تيارات درزية متنوعة، أولئك الذين بدلاً من أن يحملوا هموم السكان في هذا الجزء من سوريا إلى العالم الخارجي بدأوا بمعاداة ومحاربة بعضهم البعض. انتهت هذه النزاعات عام ١٧١١ في معركة كبيرة هاجر بعدها الطرف المهزوم من جبال لبنان ووجدوا موطناً جديداً لهم في التلال البازلتية جنوبي دمشق، تلك المنطقة التي لم يقطنها أحد منذ العصر القديم، والذي يسمى اليوم بجبل الدروز أو جبل العرب.

لم يتمكن الشهابيون من تعيين قائد ذي قدرة متينة على الإمساك بزمام الأمور إلى أن تولاها بشير الثاني الذي عمل على ربط السياسات المعقدة للعلاقات بين الجبال والساحل، وبين العثمانيين ومصالحه الشخصية. تمتع سكان الجبال اللبنانية والمناطق المجاورة لهم أثناء فترة حكمه الطويلة من عام ١٧٨٩ وحتى عام ١٨٤٠ بالاستقرار والازدهار. كان التهديد الأكبر له ولقوته يتمثل بأحمد الجزار، والي عكا (الميناء الواقع على الساحل الشمالي من فلسطين، والذي كان في بداية توليه الحكم آخر حصون الصليبيين في سوريا). وفي نهاية حكمه تعرضت سوريا للغزو المصري عام ١٨٣٢ مما أدى إلى بداية مرحلة جديدة من تاريخ سوريا.



٣٩. لفافة من أوراق التوراة من دمشق. حبر أسود على جلد بقري مع حامل خشبي مدهون.



٤٠. ملعقة للاحتفال بالقربان المقدس، مزينة بنقوش فضية مطلية مع جزء من دثار كاهن مسيحي. دمشق. القرن التاسع عشر.





٤١. إطار فضي منقوش لصورة السيدة العذراء مع هدايا تمثل نذوراً منقوشة بالفضة، دمشق القرن التاسع عشر.

٤٢. لوحة زجاجية ملونة بنقوش بالخط العربي تحمل كلمة «الله» - دمشق - القرن التاسع عشر.

٤٣. سياط من أجل مواكب شهر محرم الشيعية. حديد وخشب، السوط في الجهة اليسرى مرصع باللؤلؤ. دمشق. القرن التاسع عشر.

٤٤. ميدالية منقوشة بالفضة لتتم حياكتها على راية الموكب.







لم يكـن الحـكام في الجبال والأجـزاء النائيـة، قادرين على الحكـم ذاتيـاً بعيداً عـن السلطـة المركزية في اسطنبـول فقط، بل أيضـاً عند سواحل البحر المتوسط. فعلـى سبيل المثال، تمكن الحكام في عكا، الذين كانوا يتبعون للسلطة العثمانية اسمياً، من فرض استقلاليتهم في الحكم والنفـوذ. وأفضل مثال على ذلك، أحمد باشا الجزار الذي دعي بالجزار لشدة بطشه.

عاش أحمد الجزار المولود في البوسنة حياة صاخبة، قضاها في اسطنبول ومصر إلى أن عين حاكماً على مدينة صيدا الواقعة علـى الساحل السـوري ومن بعدها مدينة عكا عـام ١٧٧٥. وقبل توليه الحكم على عكا كان ضاهر العمر والياً عليها منذ عام ١٧٤٦ وقد حكمها حكماً ذاتياً مستقلاً مع بعض المناطق الأخرى النائية القريبـة منها، حتى قتـل في حملة عسكرية شنَت عليه في السنة ذاتهـا. وعلى عكس ضاهـر العمر، لم يكتف أحمـد باشا الجزار بحكـم عكا وتلـك المناطق النائيـة قربها، بل كانت لـه طموحاته التوسعيـة الكبرى. وقد ذكرنـا سابقاً محاولاتـه المستمرة لوضع الجبـال اللبنانية تحت سيطرته. وهنا تصـدى له بشير الشهابي الثـاني، وقـد استطـاع أحمـد الجـزار استخدام بعض الحكام وجعلهم تحـت إمرته ليسيطر على الساحل حتى منطقة طرابلس في الشمال التي صارت تحت تصرفه ومن ثم هاجم دمشق.

وقبـل أن يصبـح أحمد الجـزار حاكمـاً فعليـاً لدمشق عام ١٧٨٥ (رغـم حكمه لها من عكا) قاوم وبنجاح حصار الفرنسيين لعـكا بقيـادة نابليـون. وكان الجزار قـد تولى حكم دمشـق أربع فـترات متتالية إلى أن توفي عـام ١٨٠٤. وفي الحقيقة فإن مجرد مكافـأة حاكم متمرد مستبد بمساحة واسعة من الساحل السوري لفترة ثانية من الحكم في سوريا، دليل واضح على ضعف السلطة العثمانية المركزية في سوريا.

لكـن الوضع في دمشق لم يبد مختلفـاً عما هو عليه في الساحل وفي جبال لبنان، فهنا أيضاً، وحتى قبل تسلم الجزار الحكم، وطدت عائلة واحدة حكمها (عائلة العظم) وبدرجة كبيرة من الاستقلالية عـن السلطة المركزيـة. في عام ١٧٢٥، تـولى إسماعيل العظم، أول فرد من العائلـة حكم دمشق، وكذلك تولى أفراد من العائلة نفسها الحكم على مدن سورية أخرى، في طرابلس، حماه، ومعرة النعمان، كان الحاكـم الأهم من عائلة العظم، أسعد باشا العظم الذي تولى حكم حماه قبل توليه دمشق. حكم أسعد باشا العظم دمشق لمدة ١٤ سنة تميزت بالأمن والازدهـار. يعتبر قصره الموجود الآن في وسط مدينـة دمشق القديمة (المتحـف الشعبي الآن)، وخـان أسعد باشا العظم الشهير بقبابه المرتفعة فوق الأبنية المحيطة به وببنائه الرائع المنشأ من مداميك الحجارة البيضاء والسوداء «الأبلق»، دليل يُذكّر بفترة حكم أسعد باشا العظم في دمشق.

وهكذا فإن المدن الساحلية الصغيرة التي اتبعت مثال عكا لم تكن وحدهـا، إذ لم يكـن الأمر مختلفـاً في طرابلس، حيـث حكمتها عائلة واحـدة لفـترة طويلة والأمـر نفسه يصح في الجبـال، حيث لم تتمكن قبضة العثمانيين من السيطرة عليها أبداً بحكمهم المباشر لها.





٤٥ و٤٦. باحـة المسجـد الأموي والحرم، المسجـد الأموي في القرن الثامن في دمشق.

٤٧. باحـة المسجد الكبيـر في حلب القرن الثامن حتى القرن التاسع عشر.



كان ضعف العثمانيين أيضاً واضحاً في المدينة الثانية الأكثر أهمية في سوريا وهي دمشق.. فهنا واجهت الحكومة العثمانية صعوبات أكثر بسبب الصراع القائم بين حزبين داخليين يقودهما فريقان متناقضان من الجيش الانكشاري.

كان الجيش الانكشاري نخبة مشاة العثمانيين، وقد تشكل من الصبية الذين أُخذوا من الأجزاء المسيحية في الإمبراطورية (البلقان)، وقد تم تدريبهم عسكرياً بشكل جيد. كانت رواتبهم مرتفعة جداً ومنحوا امتيازات خاصة مثل محاكمهم القضائية الخاصة بهم، كما ساهموا بشكل فعال في توسيع وحماية الإمبراطورية العثمانية. لكن وبحلول القرن الثامن عشر، انخفضت رواتبهم بشكل كبير (مع بقاء امتيازاتهم) واضطرت مجموعة غير منظمة من المحاربين القدماء من أجل تأمين معيشتها للعمل في البلدات، ولم تتشكل الفرق الانكشارية من الأطفال الذين تم أخذهم، بل من بعض الأفراد من مجموعات سكان محليين (تركمان وأكراد وبدو).

في دمشق، حيث أقام الجيش الانكشاري، خاصة في الجزء الجنوبي منها وفي الشارع الذي يتم فيه ذبح الحيوانات وسلخ جلودها، كان المجندون المحليون والجيش الانكشاري يتنافسون على السيطرة على المواد الغذائية الرئيسية ومراقبة أسعارها بواسطة المضاربة والمناورة بالأسعار حيث استطاعوا، مع آخرين مثلهم، تحقيق الغنى والثراء لأنفسهم.

في ذلك الزمن كانت دمشق تعد المدينة الثانية في سوريا. أما حلب، الحاضرة القديمة للتجارة الخارجية، فقد كانت أكبر بكثير. حتى أن حلب كانت قبل الاحتلال العثماني تتمتع بازدهار وتعاظم اقتصادي كبير، واستمرت كذلك إلى ما بعد الغزو الذي أدى إلى سقوط الحدود العثمانية - المملوكية التي كانت تشكل عقبة كبيرة للتجارة الحلبية مع الشرق وخاصة إيران. توسع السوق (البازار) خلال القرنين الأول والثاني من الحكم العثماني بشكل ملحوظ. وقد بنى الحكام العثمانيون والموظفون في المناصب العليا الخانات الكبرى وأنشأوا الأسواق التي ترتبط مباشرة بهم.

استحقت حلب الاستثمار فيها، لأنها كانت إحدى المدن التجارية الأكثر أهمية في الإمبراطورية. وعبر حلب وصلت التجارة الرابحة للحرير الفارسي إلى أوروبا. حتى أن العديد من الدول الأوروبية أقامت محطات وقنصليات لها فيها. وهكذا،

٤٨. دير القمر، عاصمة أمير الدروز فخر الدين. نرى في الخلف بيت الدين وهو قصر بشير الأول.



كانت حلب المدينة السورية الوحيدة التي ظلت تحت الحكم العثماني المباشر خلال فترة الحكم العثماني. قمع العثمانيون أية محاولة لإقامة حكم محلي في حلب بكافة الوسائل الممكنة، ففي القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، حاولت عائلة جنبلاط، ذلك لكن تم قمعها وإرغامها على الهروب إلى جبال لبنان، حيث استقرت هناك ولعبت دوراً هاماً فيها حتى يومنا هذا. وهكذا نرى أن العثمانيين لم يتمكنوا من الهيمنة والسيطرة حتى على حلب ولم يأمنوا أنفسهم من الصراعات والمنازعات أيضاً.

نتيجة لعدم الاستقرار هذا، كان يظهر حاكم عثماني جديد في حلب كل عام تقريباً. وكان عدد كبير من بين هؤلاء الحكام يعين من الموظفين الأكثر أهمية في الإمبراطورية، وبعض منهم ترفع فيما بعد إلى مرتبة الوزير الأكبر، وهو المقام الحكومي الأعلى في الإمبراطورية. لم تستفد باقي أجزاء سوريا، أو ربما بشكل قليل نسبياً، من التجارة ما بين أوروبا والشرق، وقد كانت حلب استثنائية بسبب المكاسب المادية التي حصلت عليها من التجارة، والتي ترافقت مع تطور المهن والقطاع الصناعي بشكل واسع وازدهار المناطق النائية حولها. لم يكن من الممكن أن يحدث في حلب ما سبق وحصل في عكا، ولكن ظروفاً مشابهة لمثيلاتها في دمشق ظهرت في حلب بعد انهيار امبراطورية الصفويين في إيران عام ١٧٢٢. وعندما غرقت إيران في الفوضى ومن ثم الركود، وانهار إنتاج الحرير الإيراني الشرقي الذي كان يعتبر مصدراً اقتصادياً وتجارياً هاماً في مجال التصدير، خسرت حلب أحد أهم سلعها التجارية.

وهكذا تساوت حلب في أهميتها مع دمشق، ومنذ ذلك الحين، صارت تجارتها الأكثر أهمية ليست القوافل الكبيرة القادمة والمغادرة إلى الشرق بل ذبح المواشي وسلخ جلودها، والحبوب واللحوم، كما أنها أصبحت ممزقة داخلياً بسبب الانشقاقات والنزاعات الحزبية كما هو الحال في دمشق.. وبدأت المجموعات المهتمة بالاقتصاد المنافسة داخل المدينة بالمضاربة بالأسعار والسيطرة على مكاسبها المادية، عن طريق المضاربة في سوق السلع الغذائية (المواد الخام منها والأساسية). شكلت تلك الفرق حزبين نقلا الصراع الاقتصادي إلى الشارع.

لم يكن هناك في حلب فرقتان انكشاريتان، كما هو الحال في دمشق، بل كان هناك فريق من الانكشاريين يعارض "الشرفاء" الذين يعتبرون من سلالة الرسول محمد (ص). ويمكن وصفهم كنوع من التكتل العمالي. يتبدل الحكام والموظفون الرسميون باستمرار. وفي بعض الأحيان يمكنهم السيطرة على المدينة، ولكن يجبرون في أحيان أخرى على الهروب والعودة ثانية معززين بقوات كبيرة للسيطرة عليها من جديد.

إن التنوع القبلي والديني والجغرافي والعرقي لم يمكن العثمانيون من حكم سوريا بالطريقة التي نفهمها.. وبالوقت نفسه فإن الانتهازية، والبحث عن المنافع الذاتية والجهل (في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على الأقل) والأنانية وعدم تحمل المسؤولية من قبل المسؤولين الرسميين في استنبول، كل ذلك تسبب في الدمار الاقتصادي الشامل لكل مقاطعة، ولذلك الاقتصاد الذي كان يستند أساساً على الزراعة.

لم تكن تجبى الضرائب في الأرياف عن طريق هيئات حكومية نظامية، إنما عن طريق متعهدي الضرائب، الذين استحوذوا حق جمع الضرائب لأنفسهم بوسائل ملتوية، وعن طريق التحدي الواضح أو حتى الرشوة، ولكن مهما تنوعت الطرق التي اعتاد الجباة على استعمالها، كان الغرض منها واحداً دائماً.. امتصاص دماء الفلاحين لأقصى درجة ممكنة وبالقوة. لم يهتم هؤلاء المستفيدون ولو قليلاً ما إذا كان الفلاحون يمتلكون بذوراً للسنة التالية، أو إن كانوا قادرين على الاستمرار والحياة لنثرها وبذرها ورعايتها. في الواقع كان لهم اهتماماتهم الأخرى.

كان على جباة الضرائب أن يكسبوا بأقصى سرعة ممكنة أكبر قدر ممكن من الضرائب باعتبارهم يعيشون في ولاية يخشون فيها من إمكانية خسارة رأسهم أو ثروتهم بشكل مفاجئ. كان هذا الظلم الجائر يتجه من الأعلى نحو الأسفل - المعضلة الشرقية التقليدية - وهكذا بدأ أساس الاقتصاد السوري - الزراعة - بالانهيار شيئاً فشيئاً.

لم ير ٨٠٪ من الفلاحين السوريين (أولئك الذين لم يعانوا من الجوع حتى الموت أو الذين تم قتلهم من قبل جباة الضرائب) بديلاً عن الهروب إلى البلدات ليكونوا عبئاً إضافياً وزيادة على المشاكل الموجودة مسبقاً. وهكذا بدأوا ينضمون إلى أحزاب وزمر موجودة بالبلدات معرضين أنفسهم وحياتهم للخطر من الأشخاص الذين كانوا يهددون وجودهم وكيانهم من قبل بشكل مباشر، أو غير مباشر. وفي النهاية، هم أنفسهم ساهموا بإيصال الإدارة العثمانية في سوريا إلى حافة الانهيار في بداية القرن التاسع عشر.

أدرك البعض الوضع المتقلقل الذي وجدت الإمبراطورية العثمانية فيه نفسها حتى في اسطنبول.

وفي شبه الجزيرة العربية بدأ الوهابيون الحركة الإسلامية الأصولية التي استلمت العائلة المالكة سلطة الحكم على أساسها في المملكة العربية السعودية بالثورة، وبعدها بقليل اندلعت الانتفاضة اليونانية، وفي مصر كافح محمد علي من أجل الاستقلال.

وجدت دوائر التوجه الإصلاحي في اسطنبول نصيراً في السلطان محمود الثاني الذي استلم العرش عام ١٨٠٨ الذي حاول جاهداً قمع عدد من المعارضات من أجل تعزيز السلطة المركزية وإضعاف القوى المحلية عن طريق بعض الإصلاحات الإدارية. ترافقت حكومته بشكل خاص مع قرار تشتيت الفرق الانكشارية التي سعت باستمرار إلى إعاقة الإصلاحات، والتي جلبت للإمبراطورية العثمانية كارثة عسكرية إثر أخرى.

٢ - الغزو المصري لسورية عام ١٨٣٢ وآثاره خلال تلك الفترة وحتى الحرب العالمية الأولى:

بالنسبة لسوريا، فإن الدافع الأقوى للإصلاحات لم يأت من اسطنبول بل من القاهرة، حيث تولى محمد علي الحكم فيها عام ١٨٠٥، أي قبل ثلاث سنوات من تعاظم قوة محمود الثاني. وبقي تأثيره الكبير على تاريخ مصر حتى بعد الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٨٤١ سلمه السلطان في اسطنبول الحكم على مصر وراثياً، جاعلاً بذلك مصر ولاية ذات حكم ذاتي مستقل عن العثمانيين. ولم ينته حكم سلالته حتى الثورة المصرية عام ١٩٥٢.

ولد محمد علي في كافالا (الواقعة فيما يعرف باليونان اليوم) ونشأ وترعرع فيها، وبعد فترة قصيرة من ممارسته العمل تسلم المنصب الهام: "حاكم مصر". خلفت حملة نابليون على مصر صدمة كبيرة في البلاد، وكان من أسباب نجاحها: التكنولوجيا الأوروبية المتطورة جداً والانضباط والنظام. أدرك المصريون ذلك وأصبحت الدعوة إلى تحديث الولاية والاقتصاد تكبر وتزداد. وغدا محمد علي المنفذ الوحيد لفكرة التحديث بواسطة التغيير المنظم للجهاز الإداري في مصر ولقوتها العسكرية، وبواسطة إعادة صياغة القوانين والبنى الاقتصادية وفق الخطا الأوروبية نفسها وبمساعدة من مستشارين أوروبيين. في الحقيقة، كان محمد علي يرغب في جعل مصر ولاية توازي الدول الأوروبية. وحقيقة عدم تمكنه من تحقيق هدفه بالنهاية لا تعود إلى إخفاقه شخصياً بل إلى تدخل الدول الأوروبية التي لا تخدم مصالحها بروز دولة حديثة في الجهة الأخرى من البحر المتوسط.

لسنا هنا في مجال بحث ومناقشة هذه المحاولة من قبل الدولة العربية لتحرير نفسها من قيود السيطرة الأوروبية، وكيف تم إحباط هذه المحاولة من قبل القوى الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا العظمى. وهنا نود أن نركز على سياسة محمد علي في سوريا، الذي احتاج إلى ستار يحميه من العثمانيين من أجل تنفيذ سياساته في مصر دون تدخلهم، وكانت سوريا بالنسبة له هذا الستار. لذلك بدأ ابنه إبراهيم بفتح البلاد عام ١٨٣٢. وانهارت السلطة العثمانية في سوريا خلال بضعة شهور، وفي نهاية العام أصبح إبراهيم وجيوشه داخل قونية (الواقعة في ما يسمى اليوم بتركيا).

عقدت معاهدة بين مصر والإمبراطورية العثمانية في السنة التالية، بمساعدة من القوى الأوروبية.. أعطت المعاهدة محمد علي الحق في حكم سوريا بكاملها مدى الحياة. وقام محمد علي بعمليتين إصلاحيتين بعيدتي المدى كان لهما تأثير قوي على سورية حتى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

وهكذا، أصبحت سورية (بلاد الشام) مقاطعة واحدة تحكم من دمشق. وتم تعيين نائب حاكم في كل بلدة تابعة للمقاطعة. وكانت سلطة إبراهيم، كقائد عام لجيش كبير التعداد في ذلك الوقت (في الفترة ما بين ١٨٣٢-١٨٤٠) وقد ازداد عدده تقريباً من/ ٣٠٠٠٠٠/ إلى حوالي/ ٩٠٠٠٠٠/ مجند، تفوق سلطة نواب الحكام جميعهم، وتفوق سلطة الحاكم.

قام إبراهيم بتجريد الأسر الحاكمة في المدن من سلطاتها ونزع الأسلحة من السكان. ووفر الأمن للنظام الشرعي وترك للقضاة بعض المسؤولية فقط لقانوني الملكية والأحوال الشخصية. كما تم إصلاح نظام الضرائب وعملية الجباية، وفرض إلزامية الخدمة العسكرية للمسلمين، وتحققت المساواة أمام القانون بين المسلمين وغير المسلمين (في ظل القانون الإسلامي التقليدي السائد في تلك الفترة والذي يعتبر غير المسلمين مواطنين من الدرجة الثانية).

تحقق أمن الأرياف في عهد إبراهيم، وتمكن الفلاحون ثانية من الاستقرار دونما خوف، واستطاع التجار قيادة قوافلهم من بلد إلى آخر دون أي مخاطر. تم فرض كل هذه الإصلاحات والمعايير لتحقيق النظام بواسطة حزم إبراهيم ودعم وحماية جهازه العسكري الضخم. لكن ذلك لم يتوافق مع اهتمامات جهات عدة: البرجوازية المدنية التي تم تجريدها الآن من سلطتها، وأجبرت على دفع الضرائب بانتظام. والسكان المسلمون، الذين وجدوا أنفسهم فجأة متساوين مع اليهود والمسيحيين. والقوى الأوروبية التي وجدت "الرجل المريض في البوسفور" أكثر تفهماً وملاءمة للأوضاع من الدولة السورية - المصرية المتجهة نحو التطوير والتحديث.

بناء على اتفاقية لندن عام ١٨٤٠، فرضت كل من إنكلترا، روسيا، النمسا وبروسيا شروطاً على السلطان العثماني، وعلى محمد علي، رغم المعارضة الفرنسية التي دفعها موقفها المعارض لبريطانيا للوقوف إلى جانب محمد علي. ووفق الشروط، اضطر السلطان العثماني إلى منح محمد علي الحكم وراثياً على مصر، على أن ينسحب من سوريا (ما عدا عكا)، وظهرت السفن النمساوية والإنكليزية في بيروت والاسكندرية لتزيد من قوة المطالبة. انسحب المصريون من سوريا، وعلى الرغم من أن فترة حكم إبراهيم على سوريا كانت فترة جيدة بالنسبة إلى الكثيرين الذين قيموها على أنها فترة أمن ونظام، فإنها كانت بالنسبة للآخرين عكس ذلك تماماً، وخاصة بالنسبة للدروز في جبل العرب الذين ثاروا ضده.

وبكل الأحوال لم يعد بالإمكان العودة إلى الوراء... ففي اسطنبول ساعد نجاح محمد علي على تأييد الإصلاحات التي قام بها محمود الثاني وابنه عبد المجيد الذي خلفه عام ١٨٣٩.

إن القيام بالإصلاحات هو الطريق الوحيد للامبراطورية العثمانية إذا أرادت الاستمرار. بعد عام ١٨٢٩ ألغي الجيش الانكشاري وتم استبداله بجيش حديث على الطريقة الغربية، واتخذت خطوة حاسمة للإصلاح عام ١٨٢٩ عندما وقع السلطان على "حاتي شريف" وهي المرسوم العالي، تعطى السلطة بموجب القانون حق القيام بإصلاحات شاملة في الإدارة، وفي مجال القانون المدني والعسكري. واكب ذلك فترة جديدة من تاريخ الدولة العثمانية دعيت بفترة "التنظيمات" أو فترة "الإصلاحات". وعلى الرغم من بعض الإعاقات والمعارضات في البلاط وبين السكان، التي أثارت

العنف والشغب من المسلمين في حلب ١٨٥٠ ودمشق ١٨٦٠ ضد المسيحيين واليهود الذين أصبحوا الآن متساوين أمام القضاء، إلا أن هذه الإصلاحات أكسبت تلك الفترة مظهراً مميزاً في تاريخ الحكم العثماني لسوريا.

أصبحت القيادة المركزية (السلطة المركزية) أقوى وانتشر الأمن أكثر في الأرياف. وأدت قوانين الأراضي الصادرة عام ١٨٥٨، رغم أن نتائجها جرت عكس ما توقع واضعوها الذين سعوا إلى نشر الملكية بين الفلاحين، إلى ظهور ظروف إنتاجية جيدة في المناطق الريفية، ومنذ ذلك الوقت، تمت مراقبة هذه الأمور وأعيد ترتيبها من قبل ملاحظين في الريف والمدينة الذين شكلوا طبقة جديدة من ملاّك الأراضي. كانت سياسة الدولة العثمانية نحو البدو تهدف، بالدرجة الأولى، إلى توطينهم، ومن ثم إرغامهم على ترك الأجزاء السورية التي يمكن الاستفادة منها لأغراض زراعية، مما شجع أكثر الاستيلاء على الأقاليم الزراعية من البلاد، كما ساعد أيضاً على توطين الشركس في مستوطنات محمية. هاجر الشركس المسلمون إلى الإمبراطورية العثمانية على دفعات عديدة ما بين عامي ١٨٦٤ و١٨٩٠، فمنذ حروب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ أصبحت بلادهم الأصلية شمال القوقاز تابعة لروسيا وحكمت من قبل المسيحيين. أقيمت أغلب المستوطنات المحمية للشركس في مواقع مستوطنات أخرى قديمة هجرها سكانها منذ العصور القديمة.

نرى هذه السياسة فيما يخص البدو والمستوطنات الجديدة، بوضوح أكثر، في الإقليم الذي يعرف الآن بالأردن. فقد أعيد إحياء العاصمة عمان (فيلادلفيا قديماً) التي هجرت منذ العصور الإسلامية المبكرة، واستوطن فيها الشركس، والأمر نفسه بالنسبة لجرش (جيراسا قديماً) شمال عمان. أما بالنسبة لسوريا فقد استوطن الشركس في القنيطرة والجولان، وفي الأقاليم الواقعة غرب حمص وحماة وسط سوريا، وشرق حلب حتى الرقة على نهر الفرات.

في البلدات والمدن أيضاً أدت سياسة الإصلاح العثمانية إلى نتائج عدة، فقد انتعشت التجارة والصناعة ثانية، وأصبح هناك كم هائل من العمارة والبناء وازدهرت دمشق، وازدادت أهميتها بعد أن أصبحت عاصمة سوريا في ظل حكم إبراهيم. وكذلك ميناء بيروت، الذي أصبح مركزاً فكرياً للبلاد، كما رأينا في القرن التاسع عشر، ومركزاً هاماً للقوميين السوريين والحركات القومية العربية.

نجم عن التطور ازدهار سريع في المجالات كافة، وازداد التأثير الغربي مع ازدياد المؤسسات التعليمية الغربية أو المؤسسات التعليمية، التي تم إنشاؤها على الطراز الغربي، ومع النمو الكبير للتجارة مع أوروبا. كما تم إنشاء الخطوط الحديدية والطرق الحديثة. وحالما وصلت البضائع والسلع من أوروبا، أصبح تأثير الأفكار الغربية أكبر على البلاد، وكثرت المطالبة بالديمقراطية والأحزاب السياسية والحرية وحرية الفكر. هكذا كان الوضع في الفترة التي تسبق مباشرة الحرب العالمية الأولى.

أدى كل ما حصل عام ١٨٣٢ مع بداية الفتح المصري لسوريا، من تحديث وتطوير لكل مجالات الحياة، والانفتاح على الأفكار الأوروبية الغربية على المستويات كافة، إلى تجديد الثقة بالنفس، وإلى تعاظم القوة الاقتصادية، الأمر الذي حدا بدمشق وبيروت لتصبحا مدينتين قويتين على حساب حلب.

أنذر دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى، إلى جانب ألمانيا وتحالفها معها، بنهاية آخر الامبراطوريات الشرقية العظمى. ولم يلق أي نبأ آخر ترحيباً مثل ذلك النبأ نسبة إلى بريطانيا وفرنسا وروسيا. فقد اختارت كل منها نصيبها الخاص من بقايا الإمبراطورية العثمانية، إلا أنه بعد الثورة الروسية بقيت فرنسا وبريطانيا وحيدتين في الساحة تخططان لتنفيذ مآربهما.

في كانون الأول من عام ١٩١٤ أعلنت بريطانيا العظمى انتدابها على مصر، وهذا يعني (كما هو الحال في الخليج العربي والهند) أن بريطانيا تحكمت بمصر التي تمر عبرها قناة السويس، الممر البحري إلى الهند. وأصبح الآن الشريف حسين، الحاكم المحلي لمكة، - الذي كان تابعاً للعثمانيين -، أداة في أيدي البريطانيين في صراعهم مع الحكم العثماني في أجزاء من شبه الجزيرة العربية وسوريا. لقد تبنى الشريف حسين الأفكار العربية كافة، وتمنى، من خلال ثورته ضد العثمانيين التي بدأت عام ١٩١٦، كسب الإمبراطورية العربية لنفسه ولورثته من بعده، تلك الإمبراطورية التي رسمت حدودها بريطانيا العظمى قبل عام بطريقة جائرة كلياً وبتأنٍ وتعمد.

وبناء على وعد بريطانيا، فإن الأقاليم الموجودة غرب الخط المار بدمشق وحمص وحماة وحلب تبقى خارج الإمبراطورية، كما هو الحال بالنسبة لبصرة وبغداد. وفي الوقت نفسه تقريباً الذي وعدت فيه بريطانيا الشريف حسين، دخلت في مباحثات مع فرنسا. وكان من نتائج هذه المباحثات "اتفاقية سايكس - بيكو" التي ما يزال يعاني منها سكان المنطقة حتى الآن وتلهب ذكراها مشاعرهم بالحزن والأسى. لقد قسمت سوريا بموجب هذه الاتفاقية، والقطاعات التابعة لها، بين بريطانيا وفرنسا. ومع تعديلات لاحقة عديدة تشكلت الأسس التي وضعت بناء عليها الحدود الحالية للمنطقة.

ومما زاد من الأمر خطورة، ومن هواجس الشعوب العربية، وزرع بذور المشاكل الحالية ومن عدم ثقة العرب بالغرب، أن بريطانيا، وبكل وقاحة، أعلنت ما سمي بـ "وعد بلفور" كجزء من أوامرها الجديدة في الشرق الأوسط. وهذا قبول صريح لإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تأسيس "دولة إسرائيل" في المنطقة.

وبسبب الأخطاء المتعددة، وغير المتعمدة، ساعد العرب البريطانيين على إخراج تركيا من سوريا، وفي الأول من تشرين الأول من عام ١٩١٨ دخل المنتصرون دمشق. وبعد شهر من تاريخه دخلوا حلب، وبعدها بقليل، وبموجب اتفاقية مودروس، شارفت الدولة العثمانية التي كانت طرفاً في الحرب العالمية الأولى على نهايتها.

سبقت هـذه الحوادث أعواماً من الاضطهـاد الوحشي، المجاعة التي أثرت على المناطق كافة، والآثار السلبية الأخيرة للحكم العثماني التعسفـي الجائر في سوريا. وقـد كان الإعدام الجماهيري للقوميين العرب مثالاً واضحاً على جزء بسيط من هذا الجور والعنف. وهنـاك أيضـاً عدد لا يحصى من الضحايا الأرمن جراء ذلك. عاصر ت. ي. لاورنس وفرانس ويرفيل هذه الفترة ووثقوا تلك الأحداث في كتاباتهم.

وبناء على الوعود والآمال الكاذبة، تم الإعلان عن الدولة العربيـة في دمشق في الأول من تشرين الأول من عام ١٩١٨. لقد كانت آمال الدولة في حدودها كبيرة، ولكن واقعياً لم تكن موجودة وهذا أصبح جلياً فيما بعد.

كان هنـاك مساومـات بـين بريطانيا وفرنسـا وقد أدلى الرئيـس الأميركي ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأميركية بآرائـه الخاصـة في هـذه اللعبـة الخسيسـة للدبلوماسيين الأوروبيـين القدمـاء حول حوض البحر المتوسـط، التي لم يفهمها بشكل حقيقي على الأرجح.

تم تقسيـم سوريا والعراق، بناء علـى مقررات فرساي عام ١٩١٩، بـين بريطانيـا وفرنسا. كانت حصـة انكلترا: فلسطين، الأردن والعراق بما فيها من آبار نفط. أما الفرنسيون فقد كانت حصتهـم سوريا، وما يدعـى الآن بلبنان، وكذلك قطاع أنطاكية في الشمال الغربي من سوريا، الذي ألحق بتركيا عام ١٩٣٩.

الشريف فيصل، ابن حسين، الذي قاد الجيوش العربية ضد الأتراك، عاد محبطاً من مؤتمر فرساي وسعى بكل الوسائل الموجودة تحت تصرفه لحمايـة الدولة العربية، وجعلها مملكـة دستورية تحت قيادته. لقد اعتقد أن بإمكانـه المناقشة والمحـاورة مع الإنكليز، ومـا زال يعتقد ذلك، لكنهم كانـوا دائماً ينكرون كل وعودهم له. أما الفرنسيـون الذين لم يستخدموا أي قـوة عسكرية فقد اقتطعوا أفضل جزء مـن سوريا القديمة (أي سوريا ولبنان الحالية) بينما كان على البريطانيين أن يدفعوا من أجل سياستهم غـير المشرفة في فلسطين عن طريق رشوة إمـارة الأردن، رغم أنهم كانوا قادرين على الاستفادة من نفط إيران. العراق.

في ٢٣ تمـوز مـن عـام ١٩٢٠ هـزم الجـنرال الفرنسي غـورو جيوشـ فيصل العربيـة الضعيفة في منطقـة ميسلون على الطريق مـا بين بيروت ودمشق، وانتهـت أحلام فيصل في بناء وحكـم دولة عربية عاصمتها دمشـق، نهاية حزينة. أعطـي فيصل "جائزة ترضيـة" بتتويجه ملـكاً على العراق التي تحكمهـا بريطانيا وأصبح أخوه عبـد الله أمير الأردن، الدولة التي لم تكن لتتمكن من الاستمرار بالحياة وحدها.

وهكـذا حقق الإنكليز أمنهم بطريقة تظهـر الاحتقار والازدراء للنـاس. انهـارت البنى التـي أسسوهـا في العراق إثر ثـورة ١٩٥٨. وتعلـم حفيـدا عبـد الله كلاهما في بريطانيـا، وهمـا الآن يحكمان المملكة الأردنية الهاشمية" التي كانت الأقل كثافة للسكان من ضمن أقسام سوريا في نهاية القرن التاسع عشر. انهارت القوة الامبريالية لبريطانيـا العظمـى وفرنسـا. وأعـادت سوريا استقرارهـا وترتيب نفسها. والآن ليس هناك أي مجال للشك في وجود مساهمة أدت إلى فترة ثالثة من الإصلاحات خلال فترة الانتداب الفرنسي لسوريا.

٣- الفترة ما بين حكم فيصل والجلاء عام ١٩٤٦:

كتب مؤرخ عربي بعد مناقشة ودراسة نقدية لفترة الانتداب في سوريا ولبنان يقول: "على الرغم من أن هناك بعض الأشياء التـي يدين بهـا لبنان لحكومـة الانتـداب، ومن بينهـا إدخال نظـام إداري حديث متطور وعادات وضرائب جديدة، وتسجيل الأراضي وإدارة الآثار والمنشآت التاريخية وإنشاء طرق عديدة، كذلك تم الحفاظ علـى الأمن والهدوء الجماهيري، وفي سوريا اتبعـت السياسـة نفسهـا، لكـن العقوبـات كانـت أكـثر شدة، والخسائـر أكبر، باعتبـار أن المقاومة كانت أقـوى. وفي سوريا كان هنـاك استثمار عام أقل وتم بناء بضعة طرق فقط.

إذاً، لا يمكننا القول بأن تلك الفترة كانت جيدة نوعاً ما، لقـد بدأت بداية ناجحة جـداً.. وبعد غزو دمشق والاستيلاء عليها، كان مـن أول النشاطات التي قـام بها الجنرال غورو زيـارة إلى ضريح صلاح الديـن الذي يعتبر في أوروبا الرجل الذي هزم الصليبيين وأخرجهـم من سوريا، رغم أن هنـاك أشخاصاً قبله وبعده قاموا بالأمر نفسه.

لم يقم الجنرال غورو بزيارة ضريح صلاح الدين إكراماً لشخصيتـه المتسامحـة.. وهذا بدا واضحـاً جلياً من كلماته التـي تلاها هنـاك "إن وجودي هنا الآن يكرس تفوق الصليب علـى الهلال" والذي يوضح فيها أن زيارته تعتبر تأكيداً على الأخـذ بالثأر للحملـة الصليبية المهزومة وهـو الشعور الذي كان سائداً في تلك الفترة.

بعـد نهايـة الحـرب العالميـة الأولى، اتخـذت فرنسـا الإجـراءات اللازمة، وبشكل سريـع، لتنفيذ اتفاقية سايكس -بيكـو. وفي ١٥ أيلـول مـن عام ١٩١٩ عقد اجتمـاع بين لويد جـورج، رئيس مجلس الوزراء البريطـاني، ونظيره الفرنسي كليمنصـو، تم الاتفاق فيه على انسحـاب القوات البريطانية مـن سوريا، واستبدالها بقـوات فرنسية. وعلـى أساس هذه الاتفاقيـة التـي كانـت مفاجأة لسوريـا وللسوريـين أنفسهم استـولى غـورو علـى دمشـق، وكانت تلـك بدايـة الانتداب الفرنسي والحكم الفرنسي على سوريا.

من ناحيـة، تم إذلال المسلمين واحتقارهـم بزيارة غورو وكلماته المحرضة الدالة على الثأر عند ضريح صلاح الدين. ومـن ناحية أخرى، تلك الشروط الرئيسية التي وضعتها بعد ذلك هيئة الأمم فيما يتعلق بمهمة سلطات الانتداب:

"لم تعد تخضع المستعمرات والأقاليم التي تم الاستيلاء عليهـا بعد الحرب الأخـيرة لحكم الدولة التـي حكمتها من قبـل والتـي يسكن فيها شعب غير قادر بعـد على حكم نفسه في ظـل الظـروف والتحديات الموجودة في الفـترة الجديدة. ويعتبر تطبيق قواعد وأنظمة تضمن تحقيق الرفاهية والتطور لهؤلاء الشعوب واجباً إنسانياً مقدساً".

"أفضل الوسائل لإدراك ذلك يكمن هو في أن تهتم الأمم والـدول المتطورة بهؤلاء الشعوب، باعتبـار أنها أقدر على تحمل المسؤولية على شكل الانتداب وتحت وصاية هيئة الأمم".



٤٩. عكا - منظر من الجبال.

ومنذ البداية أثبتت هذه الفكرة النبيلة والمهمة الفعلية للحكم أنها تتضارب مع الأهداف التي وضعت لأجلها وتتعارض معها. ولم تكن أسباب هذه التغطية في اقتطاع سلطات الانتداب أجزاء من الإقليم، بل كان هناك عوامل داخلية أيضاً. فبينما كان الشعب الفلسطيني والشعب السوري (سوريا اليوم) يفضلان توحيد سوريا الكبرى التي ستقوم أمريكا بمساعدتها بشكل أفضل أو ربما لإفشال ذلك من قبل البريطانيين. كانت هناك قوى أخرى تعمل في لبنان. فقد طالبت طائفة الموحدين وطائفة المسيحيين الكاثوليك، اللتان قدمت لهما فرنسا الحماية في ظل الحكم العثماني للمنطقة بإقامة دولة مستقلة تحت الحماية الفرنسية. وقد تحققت لهم أمنيتهم. ففي ١ أيلول من عام ١٩٢٠ أعلن غورو استقلال دولة "لبنان الكبير" (بعكس لبنان التاريخية التي تتضمن فقط الجبال) مع القطاع الساحلي بين صور في الجنوب وطرابلس في الشمال والبقاع، الوادي الكبير بين جبال لبنان الغربية والشرقية.

مضت ثلاث سنوات قبل مصادقة القانون الدولي على هذا الانقلاب. وفي تموز عام ١٩٢٠ استولى غورو على سوريا وفي أيلول من العام نفسه على لبنان. لكن لم يتم الاعتراف بالانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان من قبل عصبة الأمم حتى أيلول من عام ١٩٢٣، بالرغم من معارضة غالبية السكان في سوريا التاريخية وصارت دولة سوريا المستقبلية تشكل جزءاً فقط من الوحدة الثقافية القديمة.

استثمر الفرنسيون وقتهم لاتخاذ الخطوات الأولى نحو جعل كل من سوريا ولبنان دولتين. وفي عام ١٩٢٦ أعطي لبنان دستوراً خاصاً به وضع في باريس، ولكن في سوريا كان على الفرنسيين التصرف بحذر. ففي عام ١٩٢٨ أقيمت انتخابات محلية من أجل وضع الدستور. وفي عام ١٩٣٠ قدمت مسودة الدستور ولكن الفرنسيين رفضوها لأنها حددت سورية الكبرى كوحدة سياسية مستقلة وأعطوا عدداً كبيراً من الحقوق والصلاحيات لرئيس سوريا المستقبلي.

بعد أن انفصل لبنان عن سوريا وأصبح دولة مستقلة، تم تقسيم الجزء الباقي من سوريا إلى دويلات منفصلة. وفي عام ١٩٢٠ أسس الفرنسيون دولة العلويين في القسم الشمالي الغربي من البلاد. تبع ذلك في عام ١٩٢٢ بدولة الدروز في الجنوب الشرقي، وما تبقى من سوريا تم تقسيمه إلى دولتي دمشق وحلب.

كان هذا حلاً ممتازاً للفرنسيين في بادئ الأمر، حيث أن ذلك يمكنهم من اللعب بالمشاعر الطائفية والأحقاد القديمة بين دمشق وحلب. لقد مارسوا سلطتهم بالطريقة التقليدية "فرق تسد". ولم يكن ذلك سهلاً كما تصوره غورو. ولم يكتف خلفاؤه من بعده بهذا الحل، حيث استمر التقسيم والضم في البلاد حتى عام ١٩٣٩. وكما تغيرت السياسات تغير أيضاً المفوضون الرؤساء لإدارة الأقاليم المنتدبة.

لم يحقق الفرنسيون الكثير جراء احتلالهم البلاد على هيئة انتداب. فلم يكونوا قادرين لا على الحكم ولا على جلب المنافع المتعددة للبلاد بالطريقة التي أرادوها. فقد اتحد السوريون ضدهم في ثورة ١٩٢٥-١٩٢٧ عندما حصل قتال مرير بين الجانبين.. تم قصف دمشق، وبرز أبطال جدد على الساحة مثل قائد الموحدين سلطان باشا الأطرش وثورته في جبل العرب نقطة البداية للثورة الشاملة. لقد قام أحد قادة الدويلات الصغيرة التي أوجدها الفرنسيون من أجل تسهيل حكمهم، بالثورة من أجل الوحدة (توحيد سورية). لقد تعلم الموحدون الآن، الذين هاجروا إلى هنا منذ مئتي عام مضت كيف يصبحون سوريين.

ورداً على ثورة ١٩٢٥-١٩٢٧، سعى الفرنسيون للتصرف في سورية بأسس أكثر شرعية. وبعد أن حل الفرنسيون وألغوا الدستور المثير للجدل الذي وضع عام ١٩٣٠ بدل الفرنسيون الدستور بآخر يتناسب مع رغباتهم. وأصبح موضع التطبيق بعد الانتخابات البرلمانية عام ١٩٣٢، وبعد أن انتظم البرلمان تم انتخاب أول رئيس لسورية "علي العابد"، ومن ثم بدأت المناقشات على مستوى متباين. فقد حل المفوضون الفرنسيون البرلمان وغيروا الإدارات. ولكن كيفما، وأينما، وضع الفرنسيون حدوداً، وجدوا أنهم في النهاية لن يتمكنوا من مقاومة إرادة السوريين.

في التاسع من أيلول من عام ١٩٣٦ تم عقد اجتماع بين إدارة الجبهة الشعبية الفرنسية، برئاسة ليون بلوم، والوفد السوري الذي وافق على أن فرض السلطة المطلقة الفرنسية يجب أن تستبدل بالتعاون. وقد اعتبرت هذه الخطوة بداية جريئة نحو الاستقلال. لاقت الاتفاقية القبول في أوساط مناهضي الاحتلال في فرنسا. لقد رأوا أن ذلك إنجاز عظيم تطبيقاً لتفويض عصبة الأمم لفرنسا كقوة انتداب.

أجريت الانتخابات البرلمانية في سورية، وصار الرئيس الجديد لسوريا "هاشم الأتاسي" وشكلت الإدارة الجديدة بنجاح، وبدأت مهامها لجعل سوريا دولة. وتراجع ممثلو دولة الدروز ودولة العلويين وتشكلت سوريا الحديثة ضمن حدودها الحالية. وهكذا قطعت التعددية السياسية شوطاً كبيراً نحو الوحدة الوطنية.

لم يتم التصديق على الاتفاقية السورية - الفرنسية. فالمباحثات التي منحت بموجبها الحكومة السورية حملت أكثر من محتوى المعاهدة الأصلية، مما أدى إلى زيادة المعارضة في سوريا. وفي فرنسا، أصبح تأثير أولئك الذين يريدون استعمال القوة المباشرة في سوريا أكبر. وفي عام ١٩٣٩ شارفت المرحلة الأولى القريبة من استقلال سوريا على الانتهاء. استقال الرئيس وحل البرلمان من قبل المفوض السامي الفرنسي، وتم استبدال الدستور وبدأ المجلس الإداري عمله.

خلق انفصال دولتي الدروز والعلويين عن مركز الدولة ظروفاً مشابهة لفترة ما قبل ١٩٣٦. فقد ازدادت سلطة الدولة الفرنسية مرة أخرى وتسلم السوريون بعض المراكز الهامة. لكن الإدارة الفرنسية تراجعت خطوة نحو الوراء مرة أخرى، وأدى ضعف الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية إلى فسح المجال لإمكانية الاستقلال الحقيقي.

كان سلوك الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية أقل قسوة، ولكنه مشوش مثل تصرف العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من الاتفاقية السلمية الفرنسية، ويوم ٢٧ حزيران من عام ١٩٤٠ صرح المندوب الفرنسي ميتل هاوزر قائلاً: "ليس هناك أي تغيير في وضع سلطة الانتداب، سيستمر العلم الفرنسي مرفرفاً فوق هذه المناطق، وستستمر فرنسا بمتابعة مهامها في الشرق". كان العلم طبعاً، علم فرنسا الفيشية.

بدأت قوات فرنسا الحرة، بدعم من بريطانيا والعراق، هجومها على فرق فيشي في سوريا ولبنان في حزيران عام ١٩٤١. وبعد شهور عدة أخرى هزمت قوات فيشي. وقد كان الجنرال كاتروكس قائد قوات فرنسا الحرة قد صرح عند بداية العدوان: "يا سكان سوريا ولبنان، في الوقت الذي تدخل فيه فرق فرنسا الحرة مع فرق الإمبراطورية البريطانية (وحلفائهما) أراضيكم، سأتولى القيام بمهمات ممثل فرنسا في الشرق وسأقوم بذلك باسم "فرنسا الحرة" التي هي فرنسا الحقيقية. وبدوري هذا سأقوم بالتحضير لنهاية الانتداب وأعلن حريتكم واستقلالكم".

وبعد انتصار التحالف أعلن كاتروكس في ٢٨ أيلول من عام ١٩٤١ قائلاً: "باسم فرنسا الحرة وقائدها الجنرال ديغول، أود أن أعيد الاعتبار لسوريا وأعلنها دولة مستقلة ذات سيادة". وبعد عامين من ذلك الحدث عقدت الانتخابات البرلمانية في سوريا في أيلول من عام ١٩٤٣ وحصلت سوريا على حكومتها المستقلة لأول مرة.

في الواقع، كان الاستقلال على الورق فقط. فسياسة كل من حكومة ما قبل فيشي وحكومة فيشي وحكومة فرنسا الحرة كانت كلها امبريالية. وكلما ازداد أمن فرنسا الحرة وثقتها بنفسها كلما تراجعت عن الوعود التي قطعتها على نفسها، وباسم الأمن استمرت فرنسا بممارسة حكمها على سوريا.

ولكن في عام ١٩٤٤، وبموجب معاهدة جديدة، منحت البلاد الاستقلال البعيد المدى وأدى الضغط الأميركي البريطاني على فرنسا إلى تقدم جديد حتى أنه كان هناك اشتباكات عسكرية بين فرنسا وإنكلترا في سوريا. وفي ١٥ نيسان من عام ١٩٤٦ غادرت كل القوات الأجنبية سوريا ومنذ ذلك الحين أمسك السوريون زمام أمورهم بأنفسهم.

٥

السوق العالمي والوضع في الشرق الأدنى
الاقتصاد السياسي في سوريا

بيتر بافيلكا

رغم أن علماء التاريخ، والاجتماع، قد استخدموا وسائل مختلفة للبحث عن السيرورات التاريخية وتفسيرها إلا أنهم أجمعوا على أنه منذ بداية القرن التاسع عشر، تعرض الشرق الأدنى إلى عمليات مستمرة من التحديث والتطوير. صحيح أن التحول الاجتماعي الاقتصادي قد حدث على مراحل، وبوسائل مختلفة، في الأجزاء المختلفة من المنطقة، وأنه كان هناك في بعض الأحيان حالة توقف تام لكن من خلال السعي الطويل، أدى التواصل مع الرأسمالية الأوروبية إلى تجديد اقتصادي، وإلى نضال الطبقات الاجتماعية وبذلك تغيرت بنى الشرق الأدنى مرة واحدة وللجميع. يقال إن التحديث في سوريا بدأ في عهد إبراهيم باشا عام ١٨٣٠ وأنه قد استمر على فترات، ودرجات متعددة، من الركود والديناميكية حتى يومنا الحاضر. ولا أشارك الباحثين في هذه النظرة الأفقية للتطور، بل إنني سأعرض تاريخ سوريا الحديث على أنه عملية متناقضة يرافقها تكرار دوري لعوامل حديثة وتقليدية، وكلاهما لهما جوانب مزدهرة، وفي الوقت نفسه لا تخلو من بعض المشاكل. من وجهة نظري فإن تشكل وتطور سوريا الحديثة تميز بالصراع بين قوتين متعارضتين: النظام الاقتصادي العالمي الشامل من جهة، بآليته وزعمائه السياسيين ومقاومة الدولة البيروقراطية الشرقية مع القوى الاجتماعية التي تدعمها من جهة أخرى. بينما كانت المراكز التجارية الكبرى للنظام الاقتصادي الدولي تسعى بشكل أكبر، بمساعدة من الطبقات الاجتماعية العليا، إلى دمج أكبر لسوريا اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً. لقد ناضل عدد كبير من الفئات البيروقراطية للسيطرة على السلطة الحاكمة للدولة وتوجيه وإدارة عملية الانتقال التي كانت تدار سابقاً من الخارج. يمكننا هنا أن نميز ثلاث فترات لهذه العملية:

- شهدت المنطقة حتى الحرب العالمية الأولى دخول سوريا الاقتصاد المنظم عن طريق السوق الرأسمالي الدولي. وهذا أدى إلى نشوء طبقة عليا بورجوازية جديدة، رأسمال تجاري ومالي ومالكي العقارات الكبرى. لقد ناضلت الدولة الشرقية عبثاً لمنع هذه القوى من الحصول على استقلاليتها ولكنها تمكنت من منعها من الوصول إلى السلطة السياسية.

- بعد الحرب العالمية الأولى، جعلت الامبريالية سوريا تعتمد على النظام الاقتصادي العالمي. فرضت البورجوازية الجديدة نفسها كطبقة حاكمة أيضاً، رغم أن ذلك لم يتم بدون صراعات، وضمنت دمج سوريا في النظام الاقتصادي العالمي. وتم تنظيم مقاومة لهذا الحكم المزدوج ضمن التكتلات الريفية عن طريق الأقسام المسيسة للطبقات الوسطى المثقفة الحديثة (البعث) وهذا أرغم النظام السياسي على حل نفسه.

- لقد تحررت سوريا من الفوضى والتشوش عن طريق "الثورة من الأعلى.." أنهى البعثيون حكم البرجوازية القديمة وجددوا القوة الموجهة للدولة، وحاولت دمج الكتل الفلاحية التي تم إهمالها كلياً بالدولة المتوجهة نحو التنمية.

سوف أحاول في هذا القسم من الكتاب عرض تفسير أكثر تفصيلاً ودقة لهذه المتناقضات بين قوى النظام الاقتصادي العالمي والدولة الشرقية.

١- الامبريالية الكلاسيكية ودولة الإصلاح الشرقية:

شهدت سوريا التاريخية (سوريا اليوم ولبنان وفلسطين والأردن) تدهوراً اقتصادياً واجتماعياً للحضارة التي كانت مزدهرة في الشرق الأدنى تحت تأثير الإمبراطورية العثمانية. ربما يعود السبب في هذا التدهور إلى التعارض ما بين حالتين مختلفتين تماماً للإنتاج: (تنظيم اجتماعي سياسي للعمليات الاقتصادية) واحدة منها متعلقة بالجزية، والأخرى الطريقة الرأسمالية. أدت الأزمات الداخلية والتدخل الخارجي في دورة الأموال والبضائع للاقتصاد الشرقي إلى إنهاء السيطرة الاجتماعية الاقتصادية التقليدية للدولة العثمانية وإلى عدم مركزية القوة السياسية والركود الاقتصادي، في وقت لم تعد فيه الدولة قادرة على ضمان أي أمن داخلي وتم خصخصة عملية جمع الضرائب ووضعت في أيدي النبلاء المدنيين ورؤساء القبائل.. انحدر الاقتصاد إلى حالة شلل مستمر. ولم يستثمر الرأسمال المستهلك، وتم تنظيم ومراقبة الحرفيين تماماً، في نقابات مهنية، الأمر الذي منعهم من إبداع المزيد وتقديمه في تقنية العملية الإنتاجية. وفي ظل الضغط المستمر من البضائع الصناعية العالية الجودة القادمة من أوروبا انحسر الإنتاج الصناعي وازدادت كمية الصادرات من المواد الخام بشكل ملحوظ عن المنتجات الجاهزة، إضافة إلى ذلك الضعف الخارجي للامبراطورية لدرجة خسارة التجارة المربحة إلى الدول الأوروبية. بقي الشرق الأدنى ناشطاً فقط في القرن الثامن عشر لأنه أثناء حروب نابليون دخلت القوى التجارية في أوروبا، وما وراء البحار، في منافسة مريرة فيما بينها. لكن مع بداية القرن التاسع عشر، وفي ظل قيادة بريطانيا العظمى، عادت أوروبا ثانية إلى الشرق الأدنى وهذا ما دل على بداية انهيار البنى القديمة.

وبدعم من التدخل العسكري والحكومي المباشر، فرضت التجارة الأوروبية نفسها بشكل منظم في الأناضول وسوريا ومصر. وغدت سوريا الممول الأكبر للمواد الخام الزراعية (الحبوب، القطن، الحرير، الصوف والفواكه) وسوقاً للبضائع الصناعية الأوروبية وعلى رأسها المنتجات النسيجية. وهذا ساعد على الزراعة، حيث غيرت رعاية

الصـادرات الإنتاجيـة البنى الزراعية المحليـة، وركزت على مكاسب الطبقات المدنية المزدهرة في السيطرة على الأرض.

وبينمـا كان علية القوم في الأراضي يعملـون على تكديس الأربـاح الكبـيرة مـن المكاسـب الزراعيـة عن طريـق جباية الضرائب من الفلاحين، ازداد استغلال الفلاحين بشكل أكبر. وذهبت كل روابطهم التقليدية مع زعمائهم أدراج الرياح.

ظلت صناعة الأنسجة السوريـة خاضعة لشروط السوق بسبب المناورة على مستوى الأسعار المتدنية بينما تراجعت بعض الصناعات الأخرى، والمهن المتنوعة، بسبب هيمنة البضائع الأوروبية.

في منتصـف القـرن التاسع عشر، اندمجـت سوريا بشكل كبـير في النظام الاقتصادي الدولي لدرجة أنها غدت خاضعة مباشـرة لـدورة التجـارة العالميـة. وفي نهاية عـام ١٨٥٠ أدى تراجع التوازن الأوروبـي إلى انخفاض الأسعار في مادة القمح التي خفضت بدورها الأرصدة المتوفرة للطبقات العليا السورية، مما نجم عنها تراجع في صناعة الأنسجة وإلى قلق اجتماعي. مـن جهة أخـرى وضع هذا التراجع عـام ١٨٧٠ حداً لاستيراد الأنسجـة الفرنسية مما أدى إلى ازدهـار صناعة الأنسجة في سوريـا. كانت مـدن سوريا الداخليـة: حلب، دمشـق، حمص وحماه هي الأماكن الرئيسية التي استفادت من ذلك كله.

شهـد عـام ١٨٩٠ انفتاحـاً في بعض أجـزاء الإمبراطوريـة العثمانيـة بواسطة تقـديم تقنيـات المواصلات الممولـة برأسمال أجنبي (السـكك الحديديـة)، وكانت سوريا أيضـاً جزءاً من هذه العملية. وبما أن البنى التحتية توسعت فقد نمت المناطق الزراعية. وكما سمحت فرص التصدير المتزايدة (والأمـن الكبير) لرجال الأعمال، وعلية القوم وقـادة القبائل، بالاستثمار الزراعي وإعادة تأهيل قطع الأراضي التـي تم إهمالها لمدة طويلة. وأثناء العقدين الأخيرين، قبل الحرب العالمية الأولى، توسعت الصادرات السورية الزراعية (الحرير، الحبـوب، القطـن، التبغ، الصـوف، الجلود والحمضيات) بشكل ملحوظ. ومع مرور الوقت أصبح هناك فائض كبير من المكاسب الزراعية بين أيدي الطبقات العليا المدنية الغنية. ومع ذلـك، ما تبقى لأهـالي الأرياف الفقـراء كان كافياً لترسيخ الصناعة النسيجية المحلية على أدنى مستوى في السوق.

أخـذت الصناعة النسيجيـة التقليديـة السورية مكانها في السـوق الشرقيـة حتى الحـرب العالميـة الأولى من خلال المناورة بالموضة والجهود المبذولة في مجال الإنتاج. لكن رغم هذه الإنجازات لم تتمكن الصناعة من التخلص من التقنية التقليدية (الأنـوال الميكانيكية) والبنيـة التنظيمية (ورشات عمل عائلية مع التقسيم الأدنى لعملية الإنتاج).

تمكنت المهن اليدوية والصناعات الصغيرة من الاستمرار بدورهـا، في ظـل غيـاب المنافسـات الأجنبيـة. ونتيجة لذلك ركـزت الطبقة العليا الفنية نشاطاتها على الزراعة والتجارة. وكان الاستثنـاء الوحيـد لذلـك هو صناعة الحرير في جبال لبنان (المناطـق النائيـة من بـيروت). كان الاهتمام بصناعة الحريـر الفرنسي سببـاً في تأسيس إنتاج حريـري استثماري في وقـت مبكـر من عـام ١٨٥٠. وقـد أدى نموهـا إلى تشكيل نظام اقتصادي اجتماعـي خاص، مما سبب باقتطاع الإقليم الساحلي سياسياً عن المناطق النائية لسوريا مع مرور الأيام.

ولكـن حتى في لبنان كانت العمليـات الصناعية تابعة، وبشكل كامل، للاستثمارات التجارية التي لم تكن قادرة على تحقيق تنمية اقتصاديـة مكتفيـة بذاتهـا. أدى الاندماج السـوري في الاستثمار الاقتصـادي العالمي إلى تغير تـام في البضائع. وعلى أرض الواقع، كان هنـاك ازديـاد كبـير في كميـة الصـادرات المحلية مـن المواد الخـام، ولكن كان يقابلها استيراد مـواد تعادلها وحتى أكبر منها، وفوق كل ذلك أرخص منها: الواردات: الأنسجة الأوروبية، البضائع المتوسطية (الغـزل القطني، الحديد، الخشب)، والبضائع المدارية الزراعية (مثل السكر) والمنتجات الترفيهية للمستهلك.

كان تحقيـق التـوازن في عمليـات الدفع يتـم عن طريق عائـدات المواد المصـدرة إلى دول الجـوار الشرقيـة، أرباح التصديـر، وفـوق كل ذلـك الأرصـدة والمنـح الاستثماريـة للحركات السياسية والدينية (البعثات، الصهيونية) والأموال التي كان يرسلها المهاجرون العاملون وراء البحار.

لقد غيَّر المدخول الاقتصادي لسوريا أيضاً البنى الاجتماعية في البـلاد. فقـد بـرزت فئـات اجتماعيـة جديـدة، سيطر قلق واضطـراب اجتماعـي على العلاقـات السلطوية بـين الطبقات الاجتماعية وبدأت الصراعـات الطبقية. وفي الساحل اللبناني، بـدأت عمليـات إعـادة البنـى الاجتماعيـة الكثيفة بـين الدروز والموارنة وفي سوريـا أيضاً، كان هناك ثورات اجتماعية، امتازت بشكل عام بالصراعات بين الفرق الدينية. ما يهمنا أكثر في هذا المجال، هو تشكيـل الطبقة العليا الجديدة التـي تدين بوجودها إلى النظام الاقتصادي الدولي. وفي ظل الإمبراطورية العثمانية التـي هزتهـا المصائـب، كان نظـام جبايـة ضرائـب الفلاحين (الالتزامـات) العمل الذي يدر الدخـل الأكبر لها، رغم أنه كان الأقـل إنتاجية. وقد تمكن عدد من عليـة القوم وقادة القبائل في مقاطعـات الإمبراطوريـة من استخـدام هذا الدخـل في تعزيز استقلاليتهم. ومنحت مكاسب الرأسمـال الأجنبي الديناميكية اللازمـة لهـذه الطبقـات. فسحـت التجـارة والملكيـة التجارية للعقـارات الكـبرى المجـال لفرص كثـيرة (لم يكـن يحلـم بها أحـد) من الثراء لكنها أيضاً غيرت علاقـات القوى الاجتماعية التقليدية. منح التعاون مع الأوروبيين امتيازاً لرجال الأعمال من بـين الأقليات (المسيحيـة، اليهودية، الأرمـن، اليونانية... إلخ) الذين كان يتم تمييزهم مسبقاً كونهم غير مسلمين. وكان هؤلاء للأوربيـين أقرب ثقافياً من الأوروبيين، الذين كانوا بالنسبة لهم أكـثر ثقة، وحيث أنـه كان لهم تجاربهم الثقافيـة المتعددة، فقد أظهـروا أنفسهم على أنهـم الممثلين والناقلين الأهـم للرأسمال الأوروبـي من خـلال التنسيـق للتوسـع الإمبريـالي. كان رجال الأعمـال المسلمـين يتعاملون فقط من خـلال تجارتهم الداخلية ضمـن الإمبراطوريـة العثمانية والتجـارة الخارجية مـع آسيا. وبسبـب الامتيازات التي أعطيـت للأقليات علـى شكل الحماية الأوروبية وفتـح الاعتمادات الأوروبية، حتـى في أوقات المصائب

والأزمـات فقد جلبوا لأنفسهم كره السـكان المسلمين. وهذا أثار الاضطرابـات في دمشق عام ١٨٦٠. لكـن طبقة التجار المسلمين كانـت قادرة أيضـاً على تعزيز مكانتها في ظـل الإمبريالية. لقد استخدموا سيطرتهـم على الزراعة، (الأرض، وسائل الإنتاج، الأرصـدة والقروض) للمتاجـرة بالمنتجـات الزراعيـة وكسب مزيـد مـن الأرباح في هـذا المجال. وفي تلك الفـترة (عن طريق الإيجـارات، جبي الضرائـب، معايير الحمايـة، الاستغلال) تم تجريد الفلاحين من كل شيء وترك لهم مقدار ضئيل ليستطيعوا العيش من خلاله. وهكذا، وفي القرن التاسـع عشر، تم تأسيس "طبقة الحكام" (الأقليات، الرأسمال التجاري والمالي، التجار والملكيـة التجاريـة للعقـارات الكبـيرة) بالتعاون مـع الرأسمال الأجنبي ضمن الإمبراطورية العثمانية. انتُزعت هذه الطبقة من المجتمـع الشرقي عـن طريق مراكز التجارة وجُعلـت أداة للقوى الخارجيـة ممثلة، وللمرة الأولى في التاريـخ الشرقي الاستقلال الاقتصادي الاجتماعي، لقسم من المجتمع عن الدولة.

في العقـود التالية ألحت هذه الطبقة، الحديثة في المجتمع العثماني، في طلبها للوصول إلى السلطة السياسية. لكنها كانت تعارض الدولة الشرقية في عملية إصلاح ذاتها حتى الحرب العالميـة الأولى رغم كونها غير قادرة على المبادرة للقيام بأي شـيء لتوازي المصالح الأوروبية، مـا تزال قادرة على الوقوف في وجـه الطبقة الحاكمة سياسيـاً. لم تتهاون الدولة الشرقية التقليدية مـع أي ديناميكية أو آلية اجتماعيـة مستقلة وكانت تمنـع ذلك دائمـاً طالما سمحت لهـا قوتها بذلـك، كانت تلك حقيقة واقعة أيضاً في دولة الإصلاح في القرن التاسع عشر.

لم تـأت مقاومـة الدولـة الأولى للإمبرياليـة مـن الدولة العثمانية بل من مصر. فقد حاول محمد علي، الممثل الرسمي للبيروقراطيـة العثمانيـة، بناء مصر وجعلها مركـزاً صناعياً للشـرق (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨). تشبـه هـذه التجربـة، بشكل ملفت للنظـر، المثـال اليابـاني (ترميـم مايجـي). وقـد استطاعت بريطانيا العظمى أن تضع حـداً، وبالقوة، للتنمية الاقتصادية المعقدة التي بدأها محمد علي. لكن سورية كانت قد شاركت في هـذه التنمية كطرف في وحدة الدولـة المصرية. وقد سعى ابن محمـد علي، "إبراهيم باشـا"، أيضاً، إلى إدارة حكم فعال في سوريا، كما أراد تحويل تجارة الحرير السوري كاملاً، مع بعض القطاعات التجارية الأخرى، إلى احتكارات دولة. كانت الأرباح المتوقعة من هذه الاحتكارات تستخدم لتمويل الصناعات رغم أن ذلك قد ساد مسبقاً في مصر وليس في سوريا.

مضـى هذا النظام الاحتـكاري ضد مبـدأ التجارة الحرة البريطانيـة، وقد عارضه الأوروبيون بشدة. كما أنه هـدد أيضاً مصالح طبقة التجار السوريين ودفعها إلى الائتلاف والتحالف مـع بريطانيـا العظمـى والإمبراطوريـة العثمانيـة. وبواسطة التدخـلات السياسية والعسكرية من قبـل بريطانيا العظمى، عارضـت القوى الأوروبيـة السياسـة الاقتصاديـة لإبراهيم في سوريا وفي النهاية أدت إلى سقوط مفاجئ لمصر أيضاً.



٥٠. صورة لإبراهيم باشا بنقش معاصر.

اعتـبرت هـذه الفـترة، مـن سيطـرة الدولـة القوية في التاريخ السوري، بداية للتحديث. استطاعت سوريا وبفاعلية مـن إدارة شؤونها، كما شجع الأمـن والنظام القائمين النمو الاقتصـادي. لكـن هذه الفـترة القصـيرة للازدهار رمزت إلى شـيء أكـبر، الدولـة الإصلاحية الشرقيـة التي تدخلت بنشـاط في الاقتصـاد لتشجـع القطاعـات الإنتاجية (المهن اليدويـة والصناعات الصغيرة)، كما أنهـا هوجمت من كل من الإمبريالية والبرجوازية التجارية المحلية.

عندمـا عـادت الإدارة العثمانيـة ثانية عـام ١٨٤٠، غرقت سوريـا مرة أخـرى، وبشكل أكـبر، في الفوضـى والاضطرابات الناجمة عـن المظاهرات والمواجهات الشعبية. كان لا بد أن يمر عقدان مـن الزمن قبل بـدء الإصلاحات في الدولـة العثمانية، للتأثـير على الظروف الاجتماعية في سوريا. لم يكن لدى الدولة الإصلاحيـة العثمانية الآمـال الاقتصادية نفسهـا الموجودة في مصر. وقد حاولت فقط بضغط من التمويل الأوروبي، والمصالح الاقتصادية، تجديد نظامها الإداري والسياسي. ولهذا احتاجت إلى ريـع أكبر من جبي الضرائب لذلـك سعت لجعل إدارتها في سوريا أكثر فعالية. كان لهذه السياسة نتائج متناقضة:

– أولاً: تقوية الإدارة السورية (السيطرة العسكرية، الإصلاح الإداري، الاستعمار) زاد من زيادة الأمن والنظام، وهكذا شجعت نمـو الاقتصـاد لصالح الطبقـة الحاكمة والرأسمـال الأجنبي. صحيـح أن الإدارة العثمانية حققت فائـدة كبيرة ولكنها لم تكن كافيـة لجعلهـا مستقلة عن "جبايـة الطبقة الحاكمـة لضرائب

الفلاحين". وهكذا، كان على الدولة (رغماً عنها) المشاركة بقوتها مع علية القوم ورؤساء القبائل في المجالس المحلية.

– ثانياً: استمرت الدولة بالوقوف في وجه الملكية الخاصة للأراضي. صحيح أن كبار ملاك الأراضي السورية كانوا قادرين على السيطرة على مساحات أكثر اتساعاً في الأناضول والمقاطعات العراقية، لكن مقاومة برجوازية الدولة الراعية للطبقة الحاكمة، التي تأثرت بالقوى الخارجية، ظلت منفتحة على دمج أكبر قدر ممكن من ملكية الأراضي الخاصة.

تعززت حالة الشك هذه بين الدولة والطبقة الحاكمة، بين البنى ما قبل الرأسمالية غير المستقلة، بشكل كبير في ظل تركيا الشابة بالصراع الإيديولوجي بين الطورانية والقومية العربية. بالنسبة للتطور السوري كانت هذه مشكلة غير مرضية. تم تحصيل الإنتاج الفائض من الاقتصاد السوري، ولكن لم يتم استثماره رأسمالياً، ولم يستخدم من الدولة لأهداف إنتاجية في سوريا. تم دفع حصة واحدة كفائدة للشركات الأجنبية، واستخدام حصة أخرى لمساعدة الدولة العثمانية على الاستمرار، ومع ذلك تبدد جزء آخر من قبل البرجوازية المحلية (في بناء المنازل والبضائع الكمالية).

٢. حكم الاستعمار ودولة البرجوازية:

دفعت حسابات الإمبراطورية العثمانية الخاطئة، في تحالفها مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، المراكز التجارية الغربية لاغتنام الفرصة للقضاء على البقايا الأخيرة من سلطة الدولة العثمانية في الشرق الأدنى. وأدى تقسيم الإمبراطورية ما بين القوى المنتصرة إلى إدخال المجتمعات العربية ضمن المجتمع الرأسمالي بشكل متتال وبوصاية من قرارات الانتداب الدولي (سان ريمو ١٩٢٠) استولت بريطانيا العظمى على العراق وفلسطين، المنطقتين الأكثر أهمية اقتصادياً (بسبب النفط) واستراتيجياً (بسبب قناة السويس)، بينما أخذت فرنسا سوريا الزراعية. وفي ظل الحكم الفرنسي المباشر بدأ نظام الخصخصة للزراعة السورية (أراضي الدولة، أراضي القبائل، وفي حالات الأراضي المشاع أيضاً) وفي نهاية فترة الانتداب، كانت ٧٥٪ من الأراضي التي استخدمت لأغراض زراعية في أيادي مالكي الأراضي الكبار. أدت التجارة الزراعية (القطن) إلى تخفيض إنتاج الحبوب وزيادة الاعتماد على المواد الزراعية المستوردة. وأدى الفقر المدقع جداً للفلاحين، الذين سمح لهم الآن كمستأجرين بالحصول على ٣٠٪ من إنتاج محاصيلهم إلى تدمير صناعة النسيج السوري، حيث أنها فقدت الطبقة الأكثر أهمية من الزبائن. ففي حلب وحدها انخفض عدد العاملين في النسيج من ٨٦٠٠٠ عامل عام ١٩١٤ إلى ٢٥٠٠٠ عامل عام ١٩٢٦. ووقعت صناعة الحرير ضحية الأزمة الاقتصادية العالمية. وملأت البضائع الصناعية الفرنسية السوق السورية بكافة المستويات. كانت كل صناعات البنى التحتية (السكك الحديدية، المياه، الكهرباء وغيرها) في أيادي رجال الأعمال الأجانب وتحكمت المؤسسات المالية الفرنسية بسوق المال والقروض والاستثمارات في البلاد.

انسجم هذا التدخل الاقتصادي مع البنية الاجتماعية التي شملت كلاً من أولئك الذين جنوا الفوائد من البنية الاقتصادية الاجتماعية والذين تم تهميشهم. كانت المجموعات المفضلة هي البرجوازية التجارية المحلية، والتجار من ملاك الأراضي الكبيرة، كما ساهم المستثمرون السوريون أيضاً في الأعمال المصرفية المربحة. من جهة أخرى، لم تكن هناك أي فرص للتطور والتنمية في مجال الصناعة والمهن الحرة. ولم تتطور المنتجات الصناعية للبضائع بمجالاتها المتعددة في سوريا، وللمرة الأولى، إلا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما انهارت التجارة الأجنبية. لكن، بعد الحرب، سرعان ما أرغم زعماؤها للعودة مرة أخرى إلى بيئتهم الملائمة الأولى بواسطة البضائع الصناعية الأميركية. كانت القوة العاملة الصناعية صغيرة نوعاً ما ومهددة باستمرار البطالة. وعمل ٧٠٪ من السكان بالزراعة وشكل الإهمال الكلي لهذا القطاع مرة أخرى عوائق بنيوية لأي تطور صناعي، حيث لم يكن هناك سوق داخلي لتصريف البضائع، وكانت الطبقات الغنية تشتري البضائع العالية الجودة من الدول الصناعية. وحمل هذا الإطار الاجتماعي مسبقاً معه صراعات طبقية ستظهر على الساحة، لكنها الآن أكبر من أن يحملها الاستعمار.

تمكنت بريطانيا العظمى من فرض حكمها المباشر على العراق بمساعدة من الطبقة الحاكمة، لكن فرنسا لم تكن مهيأة بعد لاستخدام هذه الاستراتيجية. فالبرجوازية في سوريا أكثر تطوراً وكانت قد فرضت حدوداً أكثر شدة لميزان الاستغلال الإمبريالي. حاولت فرنسا حكم سوريا بواسطة جهاز إداري فرنسي (البيروقراطية والمحاكم القضائية، الشرطة، القوة العسكرية) وعن طريق تقسيم الإقليم (فصل لبنان، تقسيم سوريا إلى خمس وحدات) وبتشكيل البنى الطائفية (ممثلة بالطوائف الدينية والعرقية)، ما أدى إبعاد الطبقة الاقتصادية المتميزة عن السلطة السياسية مرة أخرى، وإلى حرب استمرت لعقود بين سلطة الاحتلال والطبقة الحاكمة. نجم عن هذه الصراعات حرب الاستعمار١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ والصراع السياسي الدبلوماسي بين مجلس الشعب والإدارةوالتي انتهت إلى استقلال سوريا عام ١٩٤٦، لكنها تسببت في خسائر دائمة للقدرات السياسية البرجوازية. فقد كان النظام البرجوازي عام ١٩٥٠ عاجزاً عن إعادة تنظيم أساسه الاقتصادي الاجتماعي، ولم يكن لديه الآلية السياسية اللازمة لتسلم نضال الطبقة الأولى.

تشكل النظام البرلماني للطبقة البرجوازية بواسطة أشخاص متمرسين، محنكين، مهتمين بحركة الاستقلال (الجابري، القوتلي وغيرهم). لكن الأحزاب السياسية التي وجدت بواسطة هؤلاء الممثلين للطبقة الحاكمة لم تكن إلا أداة في أيادي أصحاب المقامات الرفيعة دون أي إيديولوجية أو برنامج أو تنظيم.

على المستوى الإقليمي تم تنظيم (الكتلة الوطنية) ومركزها في دمشق، (حزب الشعب) في حلب وحمص، وقد حرك المراقبون السياسيون مرشحيهم على أساس البنى التابعة لها:



٥١. قوافل جمال للجيش الاستعماري.



٥٢. سلطان باشا الأطرش.

زعماء محليـون لضواحي البلدات (القبضايات) الذين يخبرون الناس من ينتخبون. كمـا هو الحال بالنسبة لـ ٧٦ ممثلاً لهذه الأحزاب، ٣١ ممثلاً مستقلاً من الطبقة الحاكمة أيضاً للحصول علـى مقاعدهم مـن البرلمان. ترشـح مقابلهم سـتـة من النواب المنشقين من أحزاب صغيرة غير هامة آنذاك (ومن بينها حزب البعـث)، ورغم سيطرتهـا المطلقة بقيت السلطـة الحاكمة غير قادرة سياسياً على القيام بأي عمل. ونظراً لاهتمامها بمشاكلها المحلية والصراعات الإقليميـة لم يكن لها مفهوم سياسي وطني أو اقتصـادي. وكانـت توجهاتهـم الأكـثـر تميـزاً حـول التعاون الخارجـي مع العراق أو مصر. وكممثلـين عن المصالح التجارية القديمة، رأى أهالي حلب أن علاقاتهم الأهم مع الموصل وبغداد، بينما جردت دمشق من اتصالاتها مع فلسطين والحجاز ومصر. انعكسـت المكاسـب السياسية والتجاريـة المتعارضة مع القطبين التجاريـين لسوريا في خلافـات برلمانية لا تحصى حول السياسة الأجنبية ووعودها الكثيرة الكاذبة.

هدفت التداخـلات العسكرية الأربعـة في السياسة التي بـرزت بعد عام ١٩٤٩، (الزعيـم ١٩٤٩، الشيشكلي ١٩٤٩، ١٩٥١، و١٩٥٢) إلى اعتبـار النظـرة الماضويـة لهذا الوضع حجر زاوية للعلاقـات الاقتصادية الاجتماعية. وكان هدفها محـو نظام الأحـزاب والبرلمـان. وقد حذا حكـم المتسلطين العسكـر حـذو أتاتـورك في تركيا، لكنـه ترسخ علـى أساس اقتصـادي اجتماعي مختلف عنه تماماً. وفي سوريا انعكست ديكتاتورية الشيشكلي في محاولة لتحديث الحكم البرجوازي بمساعـدة الدولـة، كما ناضلـت من أجل دولـة منظمة أكثر فعاليـة علـى أساس وطنـي للمـرة الأولى (إصـلاح النظام الوظيفي، دعم التعليم، تجانس المجتمع، فصا الإدارة وبعض الفرق ذات المصالح الخاصة في المجتمع).



٥٣. العقيد أديب الشيشكلي.

كان تأثير الرأسمال الأجنبي محدوداً (توطين بعض البنى التحتية الصناعية، نقد الظروف المرافقة لبرامج المساعدات الأجنبية، تأميم المصارف وتنمية وتطوير البنك المركزي). وأعطيت مساعدات من الدولة لتوسيع المقاولات الأهلية. وكان للنظام موقف إيجابي نحو فرنسا فقط، حيث أمن ضعف الاقتصاد الفرنسي ظروفاً ملائمة لذلك. كانت هذه السياسة من ضمن اهتمامات الصناعة الوطنية (عملية حلج القطن، الإسمنت، تكرير السكر، الصابون، الزجاج، والعطور) التي انبثقت الآن من كمونها والرأسماليون الزراعيون الجدد (تجار التراكتورات) الذين استخدموا آلية الإنتاج لتوسيع عملية إنتاج القطن بشكل خاص وعلى أعلى مستوى. شكل كل من الطرفين حزباً مبتكراً وجديداً في سوريا البرجوازية. برز هذا الاتحاد بين الدولة والبرجوازية الوطنية أيضاً في التعاون مع القوى الراديكالية النامية (الحزب الاشتراكي العربي. البعث) التي كانت تهاجم الإقطاعيين والمتطفلين، كبار ملاك الأراضي، باعتبار أنهم يدعمون الحزب الرأسمالي الزراعي فقط. فضلاً عن أنه كان على البرجوازية الصناعية اتخاذ خطوة نحو تحسين مستويات المعيشة لدى الفلاحين من أجل السوق الداخلية. ربما كان هذا الدمج بين الطبقات المتخاصمة مؤقتاً، وذا فائدة وتقوية للراديكاليين ولمركزهم بين الأطراف السياسية السورية.



٥٤. أكرم الحوراني.

أسقط نظام الشيشكلي البيروقراطي البرجوازي النامي عام ١٩٥٤ بواسطة اتحاد موسع تألف أعضاؤه من الأحزاب التقليدية والبرجوازية (الكتلة الوطنية وحزب الشعب) النخبة التي كانت ضد التحالفات، الأحزاب الراديكالية، التي كانت تعتبر الدولة البرجوازية القوية مصدر خطر كبير لها (حزب البعث الاشتراكي- الحزب الشيوعي)،كما في عراق ما بعد الإنكليز. وفوق ذلك كله خشيت بريطانيا العظمى من أن تنتشر نزعات البرجوازية الوطنية السورية في العراق بما يمكنها أن تؤثر على المصالح الغربية للنفط. بغياب الشيشكلي خسرت سوريا قائداً وطنياً رفض كل المطالب الخارجية، وفقدت ممثلاً عن الرأسمالية الوطنية كافح من أجل توطيد وتحسين وتحديث البيروقراطية.



٥٥. الرئيس شكري القوتلي.

النظام الحزبي، ونظامه البرلماني، وجد نفسه مشلولاً عاجزاً منذ البداية. فقد جلبت الانتخابات البرلمانية الجديدة (١٩٥٤) أزمة سياسية بين الطبقة الحاكمة والقوى الراديكالية الجديدة. كان للبرجوازية أكثرية برلمانية، لكنهم ظلوا منقسمين، غير منظمين، وبدون برنامج تطويري. كما أنهم نجوا بأصوات قليلة. وكانت القوى الراديكالية (حزب

البعث الاشتراكي والحزب الشيوعي) قادرة على تشكيل كتلة متطورة متحررة منفصلة (العظم) نتجت عن الاستقلال. وهكذا وقفوا ضد البرجوازية بتفوق إيديولوجي أكثر قوة. أخذت الاختراقات الكبرى الأولى في الطبقات التقليدية للناخبين مكانها في حماة وجبل الدروز ودمشق.

نجم عن المكننة الزراعية، وتباطؤ العمل الصناعي، والتطور التعليمي في سوريا المستقلة تغييرات اجتماعية كبيرة في العام ١٩٥٠. وفي الأرياف، حررت حركة التحرر الفلاحين من خضوعهم التقليدي وأعطتهم صبغة ذاتية. ووجد الكثير من المزارعين مهناً جديدة خارج نطاق الزراعة. وفي المدن، لم يعد بإمكان الإدارة والأعمال امتصاص الطبقات الوسطى التي أصبحت ذات ثقافة متطورة. وعندما وجدوا أن طريق فرص التنمية، والتطوير الخاصة بهم، مسدود، أصبحوا متطرفين بشكل متزايد تماماً مثل المزارعين غير المنظمين عندما حصلوا على التعليم الحديث والأفكار الراديكالية. وعلى هذه الأرضية تم دمج حزبي البعث (عفلق والبيطار) الذي كان حزب المفكرين المدنيين، وحركة الفلاحين الاجتماعية الثورية (حركة الحوراني). الحزب الاشتراكي العربي. ناضلت هذه الحركة الموحدة من أجل إعادة تنظيم الحركة السياسية على حساب الإمبريالية والطبقة الحاكمة. وضمن إطار البنى العربية الشاملة أعلن عن بروز دولة مدنية قوية ترتكز على مساهمة اجتماعية واسعة، سوف تتدخل بشكل فعال ونشيط في الاقتصاد و(إصلاح الأراضي، تأميم المصارف، والصناعات الرئيسية والقوانين الصناعية) وتلتزم بنظام اجتماعي متوازن (دولة الرخاء).

رغم أن ذلك البرنامج كان نتاج المفكرين المدنيين المتأثرين بالغرب إلا أنه انتشر أولاً بين الطبقات الريفية المتوسطة وخاصة بين الأقليات (الثورة الاجتماعية - غير الطائفية) وبسبب ضعف الثورات المعاكسة للغرب، التي تبعت حلف بغداد، وأزمة قناة السويس، أخذت هذه الحركة مكانها في المدن. وللمرة الأولى في التاريخ السوري تغلب الاتحاد الموسع للقوة الاجتماعية (المفكرون والموظفون والمزارعون) على الصراع القديم بين المدينة والريف والانقسامات الإقليمية على مسارات المجتمع كلها.

بواسطة قوى الطبقة المتوسطة الراديكالية، طغى كفاح الطبقة (المشاكل الاقتصادية الاجتماعية) وبشكل متزايد على الصراعات الداخلية ضمن الطبقة البرجوازية (التحالف مع العراق أو مصر، القومية العربية، تحديث الأساس الرأسمالي). كانت المواجهة العربية عاملاً إضافياً ضمن هذه الصراعات السورية الداخلية، بين تحديثات الثورة الاجتماعية (مصر في ظل حكم جمال عبد الناصر) وقوى الاحتلال الجديدة المحافظة (العراق في ظل حكم نوري السعيد). كما وقفت وراءهم القوى العظمى أيضاً.

التأم النظام السياسي في سوريا فقط وخرج إلى الملأ بالضرورة من خلال التآلف الكبير لكافة الأطراف المتخاصمة في ظل رئاسة صبري العسلي لمجلس الوزراء. كان داخلياً منشقاً إلى فرق مرتبطة لقوى سياسية عالمية وعربية متعددة. ووافقت معظم الحركات والأحزاب السياسية على دعم مادي من مصادر خارجية، وهكذا أصبح «الكفاح من أجل سوريا» عملاً دولياً. إن المبدأ الأساسي الذي جعل من سوريا حركة ضد الإمبريالية هو أحد المحاولات الساذجة التي قامت بها الولايات المتحدة ضد وصول مفترض للاشتراكيين إلى السلطة. في هذا الجو، تمكن حزب البعث، الذي كان ضعيفاً سياسياً آنذاك لكنه منظم أكثر من غيره، من القضاء على هذه الأزمة السياسية. وعلى كل حال، لم تسعَ قيادة البعث، إلى الثورة من الأسفل. بل إنه رأى أن الاتحاد مع ثورة ناصر في مصر فرصة للتفوق على الطبقة الحاكمة القوية لسوريا ضمن محتوى وطني، ومن جهة أخرى السيطرة على الثورة بوسائل بيروقراطية. وأخيراً تمكنت قيادة البعث وبشكل منظم (بواسطة مناوراته الدبلوماسية الخاصة به وبتحريك الكتل الجماهيرية) من نقل الدولة السورية للاتحاد مع مصر. كان لهذا التصرف أهداف متعددة، فقد قاموا بأنفسهم بدور النخبة المبرمجة والأيديولوجية، بينما شاهد العالم العربي نهضة سياسية وسوريا ثورة اجتماعية. رغبت القوى المحافظة أن تحمي نفسها من التغيرات المتطرفة بدلاً من ذلك. في الواقع، سيطرت المصالح المصرية على الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨ - ١٩٦١) بسياسة اقتصادية أجنبية والتنظيم البيروقراطي المصري.

٣- الثورة ودولة المؤسسات:

رغم أن البرجوازية السورية كانت نتاج التطور الرأسمالي غير المستقل، وأنها تدين بقوتها الاقتصادية والاجتماعية إلى الإمبريالية، فقد تمكنت من الحصول على كسب قوتها السياسية بعد كفاح مرير مع سلطة الاستعمار الفرنسي. وباعتبار أن الدولة البرجوازية انبثقت بعد الحرب العالمية الثانية لأول مرة في تاريخ سوريا، فقد عكست الحكم القانوني للطبقة الاجتماعية. مثلت المؤسسات التابعة للنظام السياسي، وبشكل أساسي، اهتمامات البرجوازية الحاكمة، ولكنها لم تتطور لتلائم التغير السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الخمسينات. إن إعادة تنظيم الأساس

الرأسمـالي للدولة لم يكن ناجحاً. كانت الثورة تبدو واضحة للعيان بين الكتل الفلاحية. وبذلك وجهت قيادة حزب البعث بسوريـة ثانيـة إلى الدولة الشرقيـة. وللمفارقة عادت مصر مرة أخرى إلى ما كانت عليه في ظل حكم محمد علي، تناضل من أجـل تجديد منظـم ومؤسساتي للعـالم العربي في فترة كبـت إمبريالي في الشرق الأدنـى، وأخذت سوريا ثانية تحت حمايتهـا كجـزء من خطتهـا. وبسرعة انتهت هـذه التجربة نهاية حزينـة بسبب «سياسة الاحتـواء» في مصر (انفصال ١٩٦١)، لكـن دولـة سوريـا البرجوازيـة لم تعد قـادرة على الانبعاث مـن جديد. وجاءت ثـورة ٨ آذار عام ١٩٦٣ ،لتنهي النظـام البرجـوازي. وتطيـح بقـوة الاحتـكار البرجوازيـة الريفية لصالح الفلاحين. كيف حدث ذلك؟

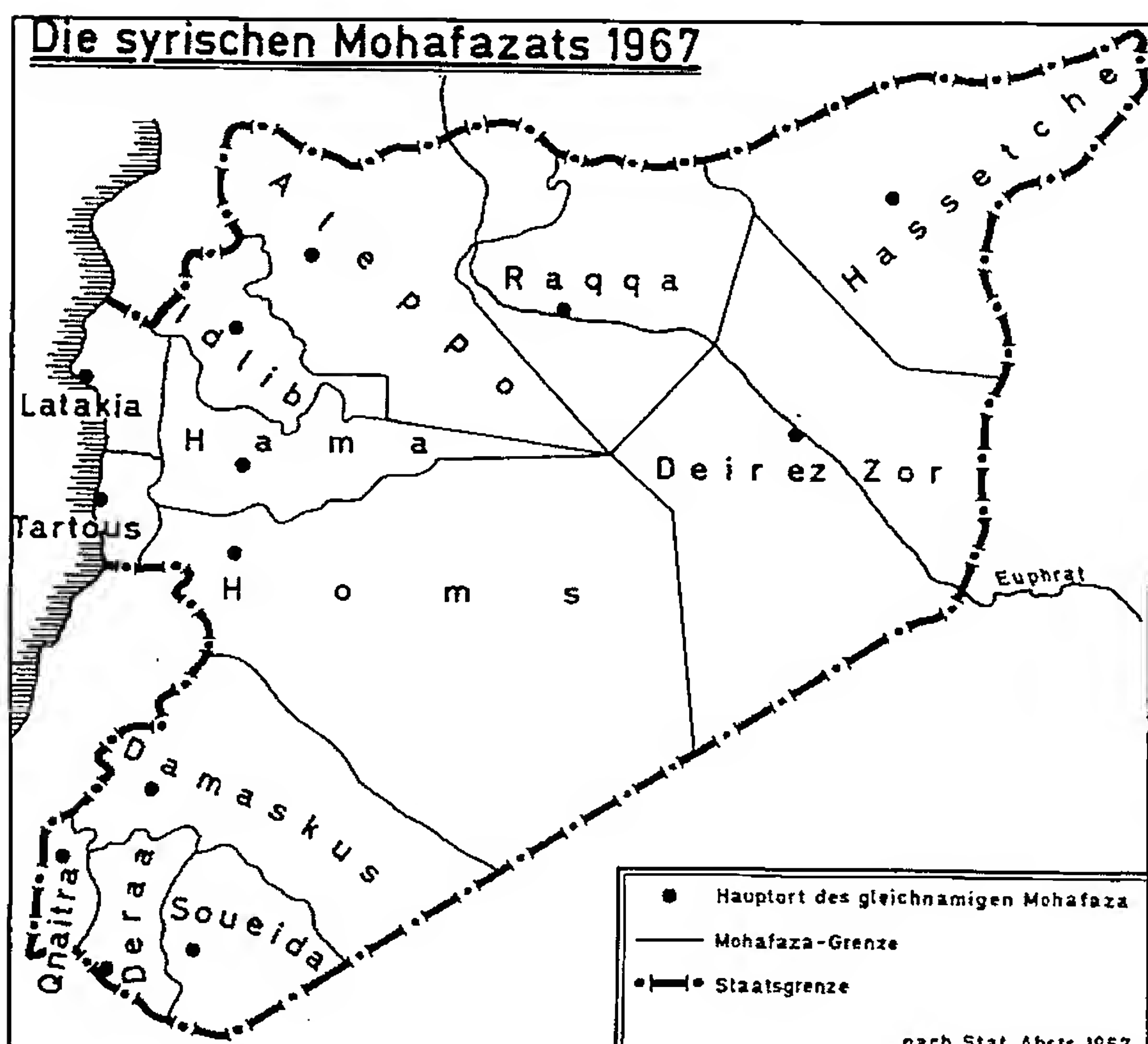
ضم سلك الموظفين الذي كان يعكس كل القوى السياسية في حينـه، وبشـكل منظـم، المؤيدين الشباب للبعـث[1]. وهو مـا أدى توسـع البعـث كحـزب جماهـيري التف حولـه أهل الفكـر المدنيين مـن أجل السلطـة. وفي وسط هـذه الأعمال وقف الفلاحـون، وبمساعدتهم، تم إنهـاء سلطة كبار ملاك الأراضـي. وحصـل تغيـير جذري في مجـال إصـلاح ملكية الأراضـي الزراعية وحدد مستوى الملكيـات الزراعية بمزيج من صغـار ومتوسطي مالكـي الأراضي. أخـذت الدولة على عاتقهـا عدداً كبيراً من المهام التي سيطر عليها الإقطاعيون (كبـار مالكي الأراضي) وكانت تهتم بالبنى التحتية ـ وسائل الإنتاج والقروض، التسويق وتنظيم الإنتاج (التعاوني)..

ناضل حزب البعث مـن أجل سياسة اقتصادية في سبيل تنمية معقدة، لم تكن الدولـة البرجوازية قادرة على إنجازه بسبـب محدوديـة السـوق الرأسمالي الخاص بهـا. في ذلك الوقـت، وبعكس التيـار، تم توجيـه القطـاع الزراعي بعدها نحـو السوق الداخلي (إنتاج المـواد الخام الأولية للصناعات المحلية، والمواد الغذائيـة) بينما تابعت الدولة إدارة عمليات التصنيـع. وتم إدماج كلا القطاعـين في العملية. وفي الوقت نفسه دعمت الدولة أساسها الاجتماعي رغم توسع قطاعات الخدمـة وجهاز الدولـة لصالح الطبقـات المتوسطة الريفية مـرة أخـرى بسبـب الفعاليـة الاقتصاديـة. وهكـذا حددت العوامل الهامة لآلية متقدمة لعملية التطور[2]. وخلال سنوات (١٩٦٧-١٩٧٠) دخلت سوريا في صراعات اجتماعية بسبب المبالغـة في تقييم قدرات البلاد، وبسبـب الصراعات ضمن طبقة الدولة الجديدة. وهكذا عام ١٩٧٠ تمت السيطرة على الأزمة من خلال حركة التصحيح التي قادها الرئيس حافظ الأسد.

ومـرة أخـرى، وعلـى أسـاس اجتماعي موسـع، تم دمج الأقسام المدنيـة للسكان في عملية التطويـر والتنمية. قامت القيـادة السياسيـة بتصميـم للبنـى الاقتصاديـة الموجودة التـي تلقت حوافـز جديدة في مجال زيـادة النصيب العربي مـن عائـدات النفط. إن بنـاء دولة قوية في عـام ١٩٧٠ ميز عـودة سورية إلى تلك التقاليد في الشرق الأدنى. الأمر الذي مكـن الدولة مـن السيطرة على كافة العمليـات الاقتصادية والاجتماعيـة وحمايـة الفلاحـين مـن المصالـح الخاصـة الاقتصادية والعدوانية.

المحافظات السورية ١٩٦٧.

ملاحظة: الخارطة ليس فيها لواء اسكندرونة.



(١) حذفنـا هنـا فقـرة لاحتوائها علـى مغالطـات تاريخية لم نجـد سبباً لوجودها هنا (المترجم).

(٢) تم حذف فقرة كاملة لأنها لا تضم معلومات صحيحة (المترجم).

٦ المدينـــة

هانز غاوبي

١ - المنشأ والجغرافيا:

ينظـر أغلب علماء الجغرافيا في العصور الكلاسيكية القديمة إلى سوريـا بوصفها وحدة شبيهة لسوريا الكبرى (بـلاد الشام) في الفترة اللاحقة. لذا فإنهم ينظرون دائماً من الساحل نحو الداخل ويرون سوريا علـى أنها إقليم حدودي لعالم البحر المتوسـط. تغدو معلوماتهم هزيلة كلمـا تحركوا من الساحل نحو الداخل، ولا يتم ذكر إلا تلك المناطق من سوريا الداخلية المرتبطة مع أحداث تاريخية خاصة، أو مع الشخصيات الأسطورية أو الشخصيات (الكبرى) في التاريخ. وبعد سوريا الداخلية تمتد حدود العـرب وفارس التي يحددها نهر الفرات. ليس هناك، بأي حـال، مفهوم لسوريا بحد ذاتها وهي الحقيقة التي نراها واضحة جلية في دراسة ستاربو، الذي توفي عام ٢٥ قبل الميلاد، لهذا الاقليم.

لم يتمكن علماء الجغرافيا من دراسة الشرق إلا بعد ألف سنة، حيث أنها كانت قبل ذلك عبارة عن روايات قصصية، ومـن وجهة نظـر علمية دقيقـة كانت خاطئة بشـكل واضح، وجاءت الدراسة منهجية ومتحررة من النماذج الكلاسيكية، وذات قدرة على وصف الشرق من داخله بتجرد وتعاطف..

وضع المقدسـي (العالم الجغرافي العربـي المولود في القدس في نهاية القرن العاشـر)، خارطة للمدن السورية، وضمنها ذلك الجزء من إقليم بلاد الشام، الذي يدعى اليوم سوريا، على ثلاثة خطـوط (طرق) تجري من الشمال للجنوب. يبدأ الخط الشرقي مـن نهـر الفرات مـن مدينة بالـس (مسكنة) ويختـرق خناصر (جنوب شـرق حلب) وتدمر، والسلمية (شـرق حماة) إلى درعا ثـم إلى خليج العقبـة، وهي طريق لا تكاد تتبـع الطرق الرومانية القديمـة، وعل الأرجـح لم تكن موجودة قط، كمـا تم الربط بين تدمر وسلمية، وهي على الأغلب خطيئة أحد النساخ.

هـدف علماء الجغرافيا، من رسم هـذا الخط، توضيح أن هنـاك أماكـن تقع على حافـة الأراضي المزروعـة وإلى الشرق منها يبدأ عالم البدو. وفي خط الوسط، ما بين حلب في الشمال ودمشـق في الجنـوب تقـع قنسرين، كفـر تاب، شيـزر، حماة، حمص، بعلبك، بينما على الساحل تظهر اللاذقية، وطرطوس. وهناك ثماني مدن أخرى على طول الساحل حتى غزة.

يتطابق ترتيب هذه التجمعات الكبيرة، والكبيرة جداً، في ثلاث مناطق مـن الشمال نحو الجنوب مع نمـاذج التجمعات السكنية في سوريـا التي حددتها الطبيعة. يمكن حدوث كثافة سكانية في القطاع الساحلي ووسط سوريا فقط (كما يبدو من الغرب إلى الشرق)، وإلى الشـرق منها فقط يمكن إيجاد تجمعات مبعـثرة هنا وهناك. وهذه علـى اتصال قـوي مع عالم البدو وتـتراوح بين الازدهـار والانحدار إلى حـد كبير أكـثر من أماكن الاستقرار في القطـاع الساحلي أو في سورية الوسطى حيث يصبح السكان هنا ضحايا عندما تغدو الدولة المركزية ضعيفة، ولكنهم الفائزون إن كانت الدولة القوية قادرة على إبقاء البدو بعيدين عن الأقاليم التي يمكن للفلاحين استخدامها.

وكما كانت الصلات بين مدن سوريا الداخلية وتلك الواقعة على حدود البادية (السهول الصحراويـة الواسعة) مشتتة، فكذلك بدت الصـلات بين المـدن السورية الداخلية وتلك الواقعـة على السـاحل.. كانـت طرابلس ولعدة قرون ميناء هاماً ولم يكن هناك صعوبة كبيرة لدخولهـا عـبر الفتحة ما بين جبـال لبنان ولبنان وجبـال اللاذقية. وكذلـك فـإن الطريـق من خـلال هذه الفتحـة (عبر حمـص) كان الرابـط الأكـثر فعالية بـين سوريـا الداخلية والساحـل، وللمدن بين حلب في الشمال ودمشق في الجنوب. وبما أن التطور المتزايد أدى إلى إمكانية إنشاء طرق مناسبة للآليات ذات العجلات، فإن هذه الصلة القديمـة بين المدن في سوريا الداخلية والبحر المتوسط قد حل محلها روابط أخرى: من حلب إلى الاسكندرون ومن دمشق إلى بيروت. وقد ازدادت أهمية هذه الطرق منذ القرن الثامن عشر. وكان الطريق إلى حلب،ولمسافـة كبيرة طريقاً رومانياً قديماً، وما تزال هناك بقايا من الحجارة الكبيرة متناثرة على ذلك الطريق الروماني. بينما الطريق مـن دمشق لبيروت، الذي يخترق الوادي بين جبـال لبنان ولبنان، لا يحتوي على بقايا مؤثرة لماضٍ قديم كسابقه.

ما بين المدن الواقعة على السـاحل، التي تتحدد أهميتها حسب الوضـع العام للبحر المتوسط، وجدت تجمعات بشرية في الطرف الشرقـي لسوريا، والتي تخضع ثقافتهـا إلى التقلبات المستمرة، وهنـا تقع المدن السورية الداخلية: حلب. دمشق. حمص. حماه، المدن الأربعة التي صنعت منذ أزل بعيد وما تزال، الثقافة المدنية لسوريـا. وكل منها بقيت مأهولة بالسكان على مدى خمسة آلاف سنة، وهذه حقيقة مميزة حتى بين دول المشرق كافة.

أيـن يمكـن أن نجـد أيضاً مدنـاً لها هـذا التاريـخ الطويل المتواصل؟ ليس في أوروبا ولا حتى إلى الشرق أو الغرب من سوريا. كانت بابل قديماً أكثر روعة من تلك المدن ولكنها انتهت منذ زمن طويل. وكذلك الأمر بالنسبة لسوسة وبيرسيبوليس وآشور وهناك أسماء عديدة أخرى. فقد ازدهرت مدينة أوغاريت على الساحل السوري في الألفية الثانية قبل الميلاد. في ذلك الموقع تم اكتشاف الحـروف الأبجدية وهو ما يدعـى الآن برأس شمرا «تل الشمار» التـي نقبت فيها بعثة أثرية فرنسية قبل نصف قرن، والتي تحف بهـا الآن أشجار الأوكاليبتوس (الكينـا) وأشجار الفاكهة. كانت لمدينـة اللاذقيـة، الواقعة في الجنـوب من هذا الموقـع، أهميتها في عصـر ما قبل الرومـان ولكن آثارهـا استخدمت في العصور الوسطـى كمقلع حجارة للمدن البعيدة التي كانت في طور البناء، والتـي اندثرت تباعاً مثل مدينة سامراء في العراق.. ويلاحظ أن مدينة اللاذقية لم تنتعش مرة أخرى إلا في العصور الحديثة.

وكما هو واضح من الناحية الانتروبوموفية (من الناحية البشرية) فإن القطاع الواقع حول الخط الواصل ما بين حلب ودمشـق يعتبر جذع سوريـا مع وجود ذراع يحيـط بالساحل والآخر بالسهوب الصحراوية.

تديـن سوريـا الداخليـة باستمراريتهـا إلى الاتصال ما بـين البحر المتوسط وعالم البـدو، العالم الذي يدعوه العرب "البادية" حيث تكون الحياة مستحيلة إذا أقام المرء باستمرار في مكان واحد، وحيث تكون حياة الترحال ضرورية.

حقيقة أن المدن السورية الداخلية قد تمكنت من البقاء لآلاف السنين لا تعود فقط إلى موقعها الهام بين عالمين، البحر المتوسط والبادية بل أيضاً إلى وجود الجبال التي تحمي الجهة الشرقية من الشريط الساحلي الرطب الخصب، حيث مورست الزراعة هناك أيضاً. ليست البادية مصدر تهديد فقط من البدو لكنها أيضاً مصدر لمنتجاتهم، فالجمال تؤمن اللحوم، الصوف والنقل، فيما تؤمن الماعز والأغنام الصوف واللحم. ولم يكن ممكناً تسويق هذه المنتجات بشكل مربح دون المدن السورية التي لعبت دور الوسيط والمستهلك..

ولما كان الطريق نحو الغرب عبر البحر المتوسط مفتوحاً، جرى معالجة المنتجات الصوفية من البدو، وكذلك الخامات الحريرية من الجبال الغربية في المدن ثم تجمع من السوق ويتم تصديرها عبر البحر المتوسط. تعالج النسب المتفاوتة من كميات هذه المواد في المدن لتعطي المنتج النهائي للأسواق المختلفة. واليوم تمتلك كل من المدن الأربعة التالية: دمشق، حلب، حمص، حماة، خصوصية محددة في تجميع وتصنيع الصوف والقطن (وهو المادة الأولية التي بدأ إنتاجها في البلاد منذ فترة ليست بعيدة). اشتهرت تلك المدن بأشياء أخرى أيضاً: فهي محاطة ببساتين الزيتون وكروم العنب وحدائق الفاكهة والخضار، وحولها أقاليم مزروعة، قمح من النوع السوري القاسي والممتاز، وأنواع أخرى من الحبوب.

إن سوريا هي بلاد المدن، ولكنها ليست أرضاً نشأت عليها المدن. وهناك نماذج عدة لمنشأ المدينة والدولة مشابهة بها. يمكننا أن نذكر هنا من معلوماتنا الحالية، أن المدينة والدولة قد ظهرت أول الأمر في بابل جنوب العراق. تعود النظريات الحديثة في دلالتها الأثرية ذات الصدقية إلى فكرة (ما بعد الطوفان)، رغم أنها لم تتشكل بهذا المصطلح الكتابي.. ففي الجهة الجنوبية من العراق الغنية بالخصوبة والرواسب اللحقية، أصبحت هذه المنطقة منفتحة وقابلة للاستقرار بسبب انخفاض مستوى البحر والروافد التي تغذي الخليج العربي. حيث أن مستوى المياه الأرضية ما يزال مرتفعاً والتربة ما تزال رطبة. وبذلك أمكن لـ "الحضارات الأولى المبكرة" أن تنشأ هناك منذ حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

بعد ذلك تم اختراع الكتابة بالتأكيد في بابل، وبعد ذلك بوقت قصير نشأت الكتابة في سوريا حيث استخدمت لأغراض محلية. وهكذا لم يتم اعتماد الكتابة ببساطة في سوريا لكن تم تكييفها حتى أمكن استخدامها لكتابة اللغة المحلية.

اكتشف علماء الآثار هذا في إيبلا، جنوب حلب. وفي نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد وجدت هذه الدولة المدنية هناك وانتعشت ثقافياً واقتصادياً وبنيوياً. ومع النصوص المرتبطة بالأعمال (كان هناك أيضاً نصوص أدبية بينت وجود مصادر الوحي الخلاقة أو الإبداعية). أصبحت فيما بعد مجتمعاً غنياً عالي الثقافة يهتم الناس فيه بأمور أرقى من مجرد تأمين لقمة عيشهم.

ومن وجهة نظرنا التاريخية المحدودة إلى حد ما، والتي تعد مرور عدة قرون مجرد فترة قصيرة، نرى أن مظاهر المدنية قد عبرت سوريا مثل البرق. وقد أمدنا التنقيب في إيبلا، التي تقع اليوم معزولة بين الحقول، واستمرت في حماة منذ عدة عقود مضت، بدلائل على ما نذهب إليه. وبرأيي أنه، وبالصدفة فقط، لم توجد أية نصوص مشابهة لتلك الموجودة في إيبلا.

لم تقم أية حفريات أثرية في حمص التي اعتبر مركزها القديم قطباً عسكرياً لعدة عقود. أما دمشق وحلب فقد ظلتا مستمرتين ومأهولتين بالسكان بكثافة، لدرجة أنه لا يوجد تلال لا تحوي على تجمعات فيها (التلال هي آلاف الهضاب الاصطناعية التي وجدت في إيران والعراق وتركيا وسوريا والأقاليم المجاورة التي تعتبر دليلاً على مناطق السكن وترجع عادة إلى آلاف السنين الماضية، رغم أنها هجرت ودمرت في أوقات معينة).

ومع ذلك، هناك وجود للتلال حتى في دمشق وحلب توضعت في وسط المنطقة المدنية، ولهذا لم يتم التنقيب فيها (رغم أن هناك أيضاً إهمال غريب لها من قبل الآثاريين). وهكذا يمكن رؤية تاريخ منشأ المدينة من خلال التباين بين العراق وسوريا. وهناك دلائل كثيرة على أن هذه الخطوة الحاسمة في تاريخ البشرية قد تمت في العراق.. ولكن كم عدد الخطوات التي تمت في المناطق المجاورة كإيران وسوريا. وتأتي حيرتنا في هذا المجال مشابهة لما ورد في العهد القديم: قسم واحد من الشعب السوري، اليهود، خلقوا لأنفسهم صورة للتاريخ تتضمن العراق (إبراهيم) ومصر (موسى). هذه نظرة واهية ولا تفتقر إلى العمق.

كان لسوريا، أرض المدن القديمة التي كانت مأهولة وما تزال حتى الآن، مشاكلها مع جيرانها، دول بلاد الرافدين ومصر (المتصارعة جداً) منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد. وحتى ذلك الحين كان التفرد السوري عن طريق الروابط الأسرية والأفكار المشتركة، حراً وغير حر في الوقت نفسه إلا أنه كان منفتحاً على التأثير الخارجي وليس فكرياً فقط. كان الشعب السوري ماهراً في التجارة كما يمكننا ملاحظة ذلك من الفينيقيين (السوريون الذين عاشوا على الساحل) الذين أثروا بكافة مناطق البحر المتوسط منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. كان هانيبعل القرطاجي الذي شن هجوماً على روما، "حفيداً لسوريا، انحدر من الساحل السوري.

٢- شكل المدن:

يعتقد المؤرخون أنه منذ حوالي ٦٠٠ قبل الميلاد، تطورت التجمعات الفردية على أنقاض المناطق المأهولة القديمة، ومع مرور الوقت، تشكلت مراكز بين هذه المناطق الفردية. ربما كان هناك أسباب عديدة لذلك: موقع ملائم على الطرق أو المياه على سبيل المثال، أو لأهمية دينية. وضمن تلك المراكز، أخذت المراكز الرئيسية (المدن) شكلها في الفترة حتى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وفي كل الأحوال لم نزل عاجزين تماماً عن متابعة هذا التطور خطوة بخطوة. فمن المنطقي تطبيق "نظرية المركز" التي تطورت في البداية في الطرح الجغرافي عام ١٩٣٢ فقد تم قبولها اليوم من عدة أنظمة أكاديمية بالنسبة للتطور التاريخي لأنظمة التجمعات البشرية القديمة.

المدينة في النهاية هي مركز، وإن كانت المراكز أكثر من نواحٍ صغيرة أو أسواق ولكنها أيضاً شكلت مدناً متطورة

تماماً، فهي إذاً تختلف بشكل واضح عن المناطق المحيطة بها بالمصطلحات الاجتماعية الاقتصادية.

المدينة هي المكان الذي لا يتم فيه إنتاج زراعي، بل هي مركز تجاري، مركز للخدمات ولمجالس السلطة الإدارية. لكنها لا يمكن أن تكون مركزاً لكل ذلك لو لم توجد مناطق تحيط بها تهتم بالزراعة. تنتج هذه المناطق الأشياء التي لا تنتجها المدينة: الطعام، وتشتري ما تنتجه المدينة. إنها تؤمن المواد الأولية للصناعات المدنية والبضائع لتجارتها. وتستفيد من الخدمات التي تقدمها سواء من الكاهن أو الحلاق أو المشعوذ أو الكاتب بالعدل أو العلماء. وبواسطة الضرائب التي تدفعها فهي تمول الإدارة التي تتخذ من المدينة مقراً لها. وأكثر من ذلك فإنها تؤمن جزءاً من الطبقة العليا المدنية، طبقة ملاك الأراضي الذين يعيشون في المدينة بالرأسمال الذي يمكن أن يستثمروه في عملية الإنتاج، أو المضاربة به في المدينة.

تشكل المدينة والأرياف المحيطة بها وحدة متماسكة مترابطة لا يمكن أن يعمل كل منهما بمفرده وبمعزل عن الآخر، وإذا كان المحيط هو الجسد فإن المدينة هي العقل. هنا تعمل كل المراكز الحسية والعصبية، كما يتم التخطيط والمراقبة والتوجيه وإعطاء الأوامر لكل شيء، ومن هنا تأتي الاستثمارات والابتكارات، إذ في المدينة تفيض المنافع والمكاسب.

إذا كانت الأراضي المحيطة هي المصدر الرئيسي للمواد الغذائية والحيوانية والنباتية والمواد الأولية، فإن المدينة هي المكان الذي يقوم الجميع فيه بعمليات إنتاجية غير زراعية: في التجارة وفي المواد الخدمية المتنوعة. وفي المدينة يتم تجميع كل هذه الأدوار في كتلة منظمة تعمل بفاعلية أكثر وكلفة أقل.

لقد تحقق كل ما ذكرناه في المدينة الشرقية الإسلامية بشكل واسع، وهذا يعني (بصرف النظر عن الجذور التاريخية المتعددة، سواء كانت رومانية هيلنستية أو حتى قبل ذلك في الغرب الإسلامي، أو الرافدي، والإيراني القديم في الشرق) أن هناك وحدة في تنظيمها ومظهرها. وهكذا يمكننا أن نتحدث بشكل عام عن المدنية الشرقية الإسلامية وعواملها الأساسية، أي الفعاليات المذكورة بشكلها المادي والتي يمكننا رؤيتها بشكل أفضل من خلال نموذج مخطط.

إن باب المدينة الذي يعتبر المعلَم الأساسي الخارجي تقريباً لكل مدينة إسلامية شرقية، ويكون له عادة مخطط غير نظامي يعكس نمو وتراجع المدينة. يتراوح عدد الأبواب في كل مدينة. وعادة ما تكون القلعة جزءاً من الأسوار ولكن يكون لها صلة وصل مع الخارج وهي مجلس السلطة الحكومية. تؤمن المدينة، بواسطة أبوابها المتعددة، مدخلاً للطرق البرية للمدينة. ومن الطرق الأكثر ازدحاماً تتفرع الضواحي التي تتشكل فيها مراكز اقتصادية ثانوية قرب البوابات.

تشكل الطرق البرية ضمن بوابات المدينة المحاور الأساسية للمواصلات. وكقاعدة، يتوضع الجامع الكبير، في أحد هذه المحاور الرئيسية. كما توجد غالباً أبنية إدارية ومدارس في المناطق المجاورة له. يتدفق التيار المتواصل من عابري السبيل على المحاور الأساسية للمدينة الداخلية فيستقطب التجارة والصناعة، هكذا تتوضع على المحاور أسواق وورشات تألف "سوق المدينة" أو البازار. ومن أجل حماية الزبائن، والبائعين وأصحاب المهن اليدوية، من الشمس والمطر، يتم تزويد أجزاء السوق في المحاور الأساسية بأسقف مصنوعة من الخشب أو الحجارة أو بالأقمشة تمد فوقها. تكون الكثافة الأكبر من عابري السبيل في مركز السوق، وعادة قرب الجامع الكبير حيث يتم بيع أكثر البضائع غلاءً: الأنسجة، المجوهرات وغيرها.

وتوجد المتاجر التي تبيع الأشياء الأقل ثمناً في محيط السوق. يوجد عادة قرب البوابات متاجر وورشات يتحرك مخزونها وفق متطلبات الزبائن القادمين من الريف.

يكون السوق أو البازار (وهو كلمة فارسية) المظهر المميز الأكثر للمدنية الإسلامية الشرقية، ولا يوجد شيء مماثل له أو يمكن مقارنته به في العصور ما قبل الإسلامية أو في الحضارات الأخرى. إنه المركز المدبر أو المتحكم باقتصاد المدينة والمناطق المحيطة بها. يتجمع تجار الجملة وتجار التجزئة، الحرفيون وأصحاب المعامل والسماسرة مع بعضهم البعض ضمن كتلة أساسية داخل إطار معماري موحد. وتوجد خلف المتاجر، والورشات، الخانات وساحات بيع الجملة وتصدير البضائع وساحات التجارة والمخازن والمكاتب.

لا يوجد عادة في سوريا، كما هو الحال في عدد من الدول الإسلامية الأخرى، منازل للإقامة في السوق. تم تقسيم المناطق السكنية والمناطق الخاصة بالأعمال بشكل محدد. نجد الأحياء السكنية منتشرة ضمن المدينة، داخل وخارج بواباتها. كانت هذه الأحياء في الماضي تغلق عن بعضها البعض بواسطة أبواب وهناك مرافق عامة وأخرى خدمية ضرورية للمنازل في الأحياء السكنية الكبيرة: مساجد، حمامات، مخابز، سبيل ماء عام، ومدرسة وسوق صغير (السوق المحلي) تؤمن الأشياء اليومية التي يتطلب شراؤها من السوق المركزي وقتاً ومالاً كثيراً.

يكون الدخول إلى المنازل السكنية من المحور الأساسي عبر محاور ثانوية، أزقة وحارات مسدودة. تشكل هذه الحارة المسدودة أصغر وحدة من تنظيم المنازل. ومن هذه الوحدة تبنى عدة منازل. كانت هذه الحارات تغلق سابقاً بواسطة بوابات عن باقي الساحات والأحياء.

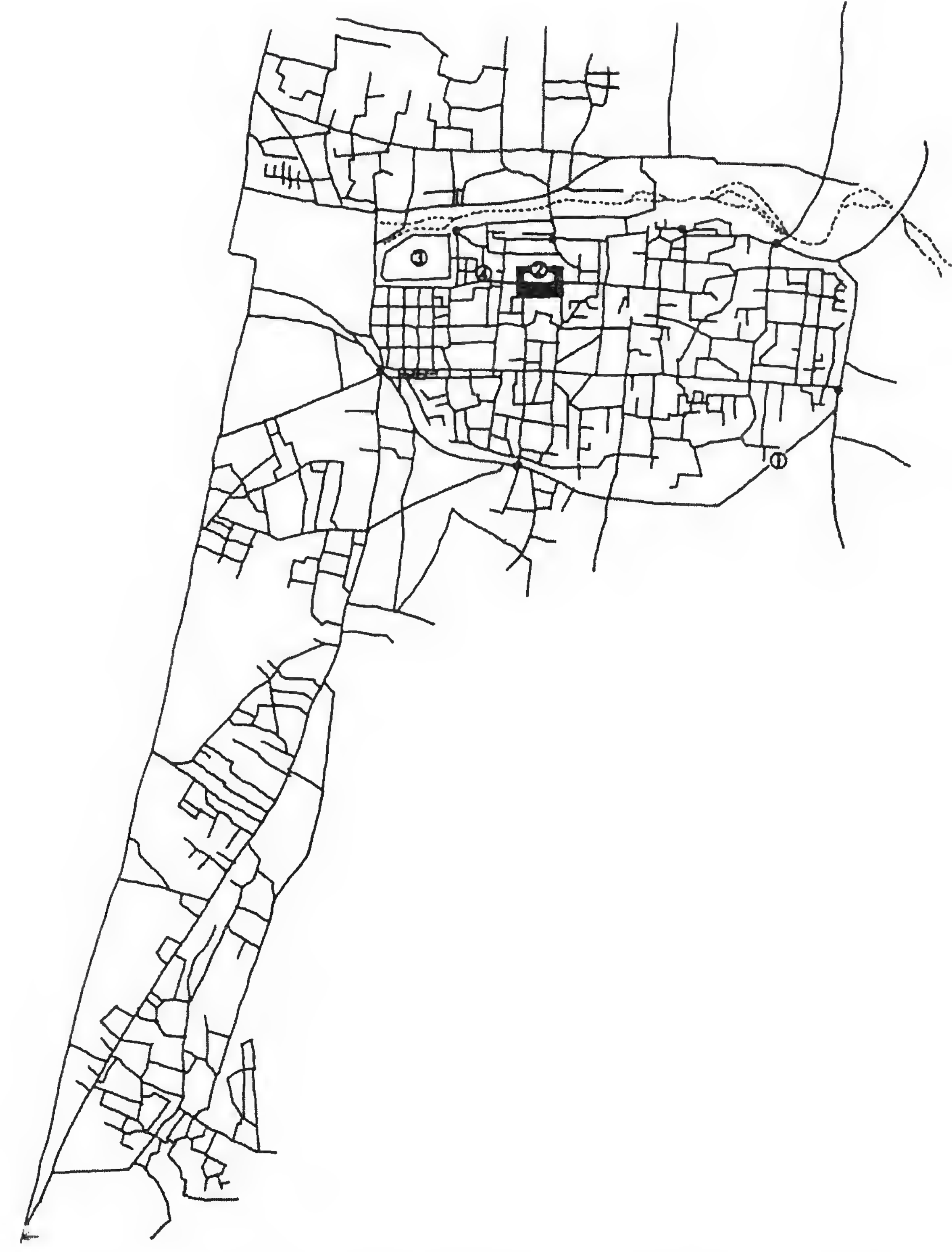


٥٦. مدرسة العظم. دمشق.

٣- أمثلة ملموسة: دمشق وحلب:

دعونا نعود الآن إلى أمثلة واقعية لمدينتين كبيرتين من سوريا، دمشق وحلب، التي تمت دراستها منذ القديم من الناحية التاريخية والنظرية. وسنتعامل هنا مع المدن بمنظور واسع، وسيتم إدارج التفاصيل خلال الفصول اللاحقة.

تبين الرسوم التوضيحية ٥٧ و٥٩ مخططاً تنظيمياً للمدينتين في القرن التاسع عشر. ومركزاً لكلٍ من المدينتين القديمتين محاطان كان الآن طبعاً بمناطق واسعة من الأبنية الحديثة، وهي لا تهمنا هنا. سور المدينة في دمشق له سبعة أبواب تحيط بمنطقة غير نظامية تأخذ شكل مستطيل تقريباً. وكانت تتصل حتى وقت قريب، بكاملها بسور المدينة الذي أحاط بدمشق في العصور الرومانية (الذي قد يكون تم بناؤه على أساسات أقدم من تلك). وضمن السور، يوجد المسجد الكبير والقلعة، السوق أو البازار الممتد بينهما. وهناك أبنية عامة هامة أخرى: مدارس، مستشفيات، أضرحة تتوضع في القطاع الشمالي الغربي من المدينة المسورة التي لها مخطط شطرنجي يتعاكس مع الضواحي في الشمال والجنوب ويتميز بأزقة منبسطة وشوارع ترتكز على خطوط ممتدة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. ويعود شكل هذا المخطط إلى المدينة الرومانية الهلنستية التي توضعت فوق طبقات أقدم، تركزت تماماً في القسم الجنوبي الغربي من المدينة المسورة. وليس معروفاً ما إذا كان الحرم المقدس الأساس للمدينة ما قبل الهلنستية المكرس للإله الآرامي حدد الذي كان موجوداً في المكان وبعد ذلك تم إشغاله بالمسجد الكبير، لكن هذا ممكن، حيث أن بقايا المعبد الروماني والكاتدرائية البيزنطية موجودة في الموقع نفسه.



٥٧. دمشق سنة ١٩٠٠م، مخطط تنظيمي: ١- سور المدينة. ٢- الجامع الكبير. ٣- القلعة. ٤- السوق/ البازار.

٥٨. منظر عام لمدينة دمشق القديمة مأخوذ من جبل قاسيون.

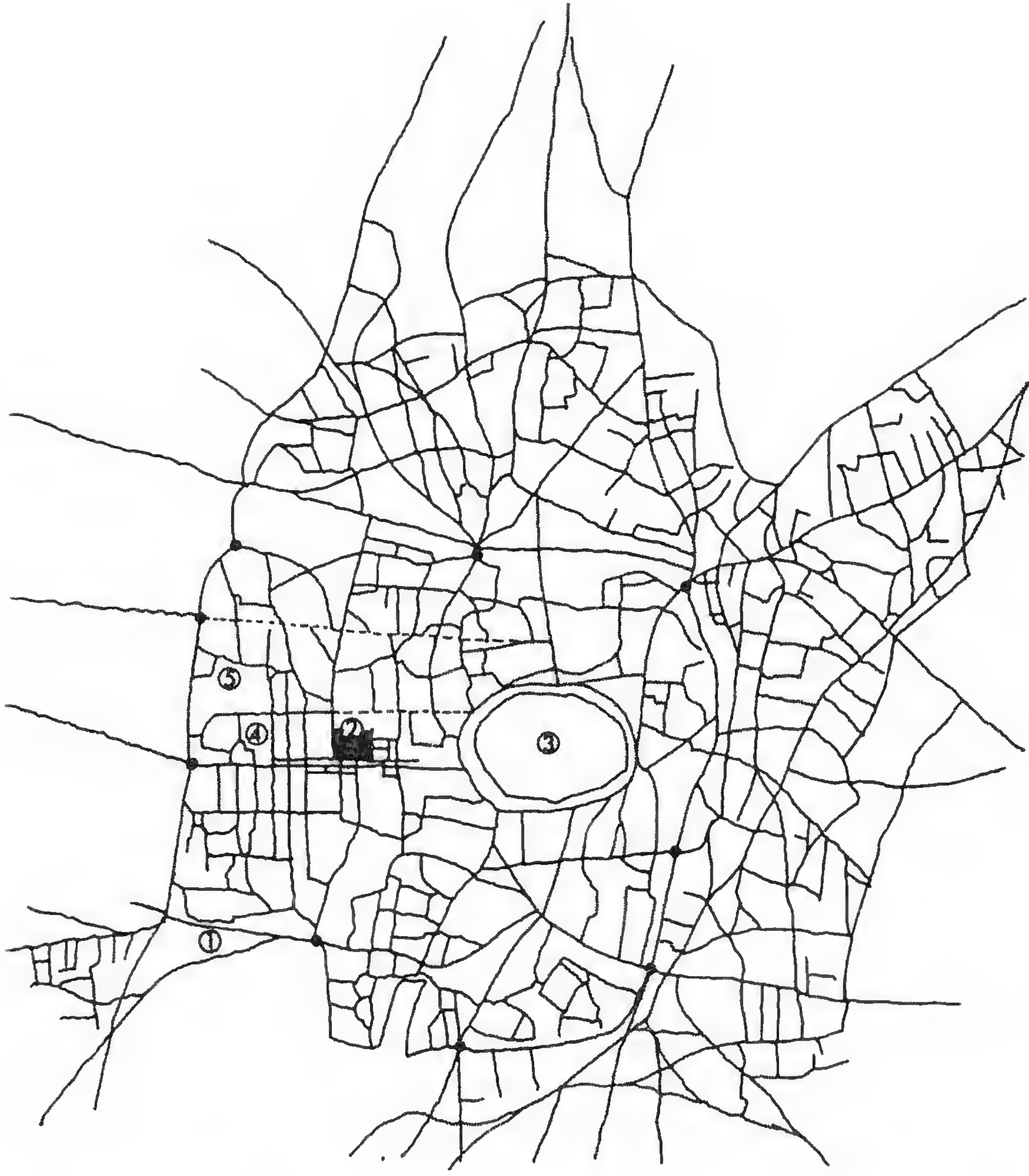


يعتبر نظام الأزقة والشوارع، الذي يتبع الجهات الأصلية الأربع الذي يميز عادة المدينة المسورة القديمة، أساس مخطط أحياء المدينة القديمة خارج السور من جهة الشمال. إنها الأجزاء الأقدم في المدينة خارج الأسوار وتندمج مع المدينة «داخل السور» لتشكل قطعة واحدة. يحتمل أن تكون هذه الأقسام من مدينة دمشق القديمة قد وجدت في القرن العاشر بعد الميلاد، ويوجد هنا جامع قديم هام. يمر السوق المحلي على طول المحور الرئيسي غرب. شرق وله فرع جنوبي يربط هذه الضاحية مع المدينة المسورة.

إن الأحياء في المنطقة الجنوبية الشرقية مختلفة. فهي تمتد على طول الطريق التي تربط منطقة زراعة الحبوب في قطاع حوران في جنوب سوريا مع المدينة ومخططها التفصيلي حدد بواسطة وجهة مسارها القديم.

توجد المظاهر، التي وصفناها أعلاه بالمصطلحات التنظيمية والنظرية، بشكل مميز في دمشق. يعكس هذا الشكل تاريخها ووضعها الخاص، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لشكل حلب إلا أنها ليست ممتدة مثل دمشق. يعود سور مدينة حلب، بوضعه الحالي، إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد. وقد امتدت حلب في ذلك الوقت باتجاه الشرق، وبذلك خسرت القلعة موقعها وشكلها الخارجي الكلاسيكي، الذي احتفظت به حتى ذلك الحين وكان يحصرها ضمن إطار المدينة المسورة. نرى هنا أيضاً آثار المخطط الهلنستي النظامي في القسم الغربي من المدينة المسورة. يربط الشارع القديم ذو الأعمدة (المحور الأساسي للسوق) البوابة الغربية مع القلعة. وإلى الشمال من هذا المحور الأساسي يوجد الجامع الكبير الذي يقف على موقع الكاتدرائية البيزنطية السابقة وقربه يقع مركز السوق حول الجامع الكبير.

يمكن أن يكون النموذج النظامي للشوارع، والأزقة للمدينة الهلنستية التي تلتف حول تلة في القسم الشمالي، مركز حلب في العصر ما قبل



٥٩. حلب ١٩٠٠. مخطط تنظيمي: ١. سور المدينة. ٢. الجامع الكبير. ٣. القلعة. ٤. السوق/ البازار.

الهلنستي. لا يمكن حتى الآن تحديد أقسام المدينة القديمة شرق القلعة، سواء داخل السور أو خارجه التي تعود إلى ما قبل العصر الهلنستي أو بعده. ولكنهما كلاهما كانا مأهولين بالتأكيد قبل الإسلام. بينما لم تأخذ الضواحي الشمالية شكلها الحالي حتى القرن الخامس عشر.

تتميز كافة الضواحي، والمناطق المدنية الداخلية التي لا تعود للعصر الهيلنستي، بنظامها الشعاعي أو نصف القطري الذي تمتد فيه المحاور الأساسية من المركز وحول القلعة. تمتد هذه المحاور خارج الأسوار في المناطق المحيطة بها. وفي القسم الغربي، من المدينة أيضاً، يغطي المخطط الشعاعي المخطط التنظيمي الهيلنستي ويصل المركز عبر سبعة أبواب مع الضواحي، الريف المحيط والطرق التجارية البعيدة.

٦٠. قلعة حلب.





الحياة المدنية

الأبنية والدور (نموذج حلب)

آنيت غانغلر

١. النماذج المدنية للأبنية:

يشبه النموذج الأساسي لبيوت الفلاحين في سوريا الداخلية كثيراً النموذج الأساسي لبيوت المدنيين. وهذا ليس غريباً، حيث أن المنزل في المدينة يبنى لنفس الظروف الاجتماعية والمناخية التي يبنى من أجلها المنزل الفلاحي التقليدي. لكن سرعان ما تطور المنزل المدني مع مرور الوقت إلى شكله الخاص به كما خضع للتأثيرات الأجنبية، بينما بقي المنزل الريفي إلى حد كبير محافظاً على نموذجه الأصلي.

يذكر كتاب إي. راسل «التاريخ الطبيعي لحلب» والمطبوع عام ١٧٩٤، معلومات مفصلة عن شكل أبنية حلب في تلك الفترة. فقد وصف المؤلف في كتابه قصور كبار الموظفين العثمانيين وأماكن إقامة التجار الأغنياء وهذه المعلومات تعبر أيضاً عن بيوت دمشق في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر.

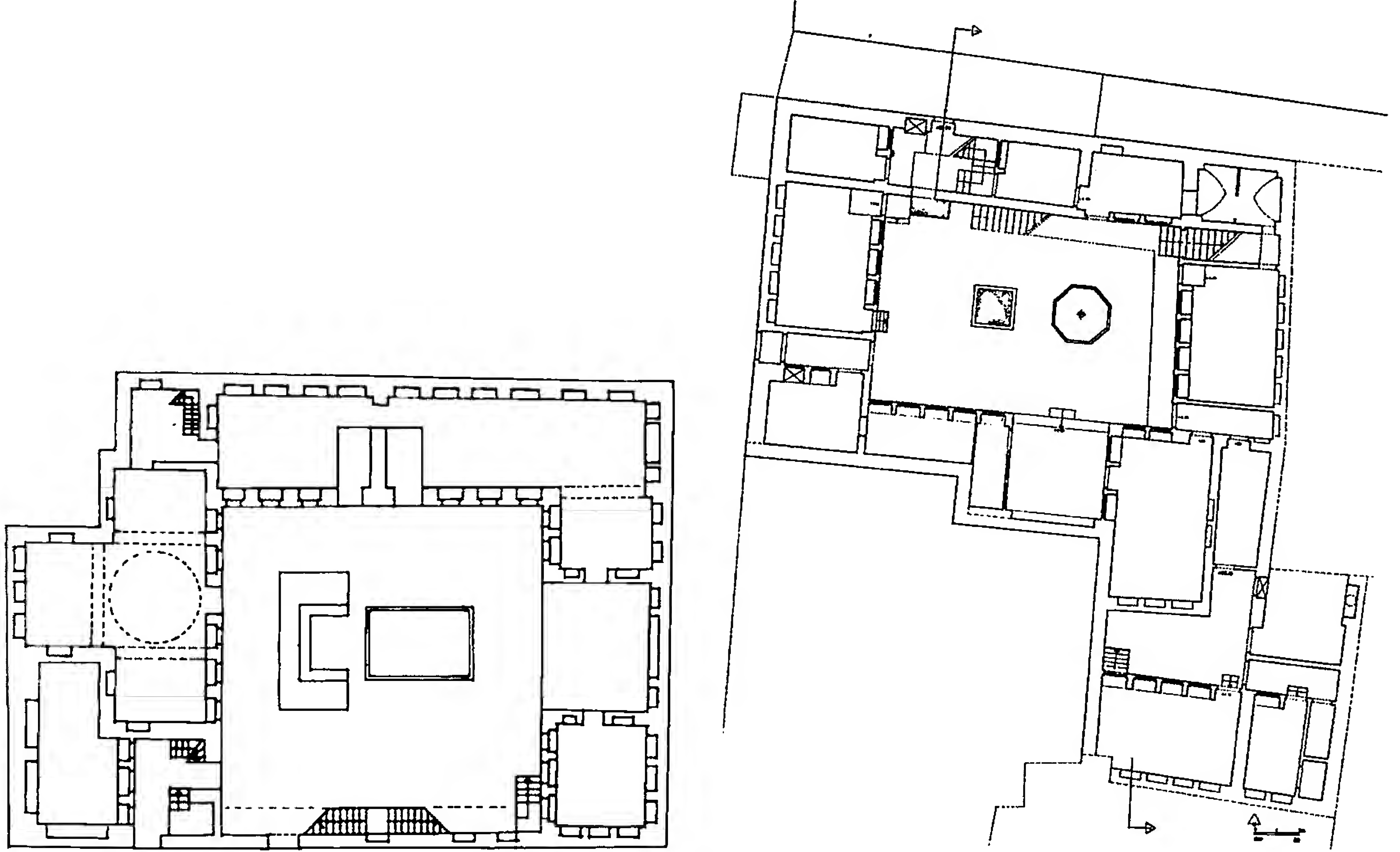
يصف راسل، بعد ذكره وباختصار لسرايا الباشا في حلب وكذلك لسرايا الحكام السابقين، القصور "الحديثة" أي الأبنية التي يمكن أن تكون قد أنشأت في القرن الثامن عشر وكذلك مظاهر فن العمارة للعقود التالية. فهو يقسم أولاً البيوت إلى ثلاثة فئات: "السرايا"، القصور أو المنازل الفخمة، ومنازل التجار الأغنياء ومنازل الناس البسطاء (وهو يميز بين منازل المسلمين واليهود والمسيحيين). ويركز على أنه لا أهمية على الإطلاق للفصل بين المجالين العام والخاص في منازل المسيحيين وهي تحتوي على فسحة سماوية واحدة. كما هو الحال في بيوت المسلمين البسيطة التي تحتوي عادة إلا على باحة واحدة كبيرة. أما عند الأغنياء ومنازل المسلمين الأنيقة فتوجد ثلاث باحات تتضمن باحة للضيوف، باحة كبيرة للمعيشة وباحة للمطبخ.

يبدو أن القصور الحديثة التي تحدث عنها راسل، تحتوي على مجمع من ثلاث باحات كبيرة من هذا النوع. وهي تتألف، حسب وصفه، من مجموعة أبنية متفردة غير متناظرة ولكن لها جمال خاص وبنية متلائمة مع المناخ. بعد عبور الفناء غير المعبد، الأمامي الذي يحتوي على إسطبلات، نأتي إلى فناء آخر مخصص للاستقبال. يمكن للأشخاص ذوي المقام العالي العبور راكبين أحصنتهم إلى أقصى حد ممكن حتى للسلالم التي تؤدي إلى رواق ذي الأعمدة والأسقف الخشبية المطلية المزينة بديكورات مذهبة وملونة خلفها غرف الاستقبال. لقد وصف راسل كافة العناصر المتفردة الهامة في غرف الاستقبال، التي تشبه غرف الاستقبال في الكثير من القصور والمنازل الأكثر تواضعاً.

تكون الغرفة الرئيسية مستطيلة الشكل ولها سقف ملون ومذهب.. فيها مناظر من المدن والحدائق مرسومة فوق الأبواب ونقوش فوق النوافذ والكوى الموجودة في الجدران. والفراغ مقسم إلى الديوان (منطقة الجلوس) الذي يرتفع (٤٥سم) والعتبة السفلى (وهي مكان انتظار الزائرين الأقل أهمية والخدم وكذلك مكان لخلع الأحذية) وهي مزينة بالرخام المرصع..

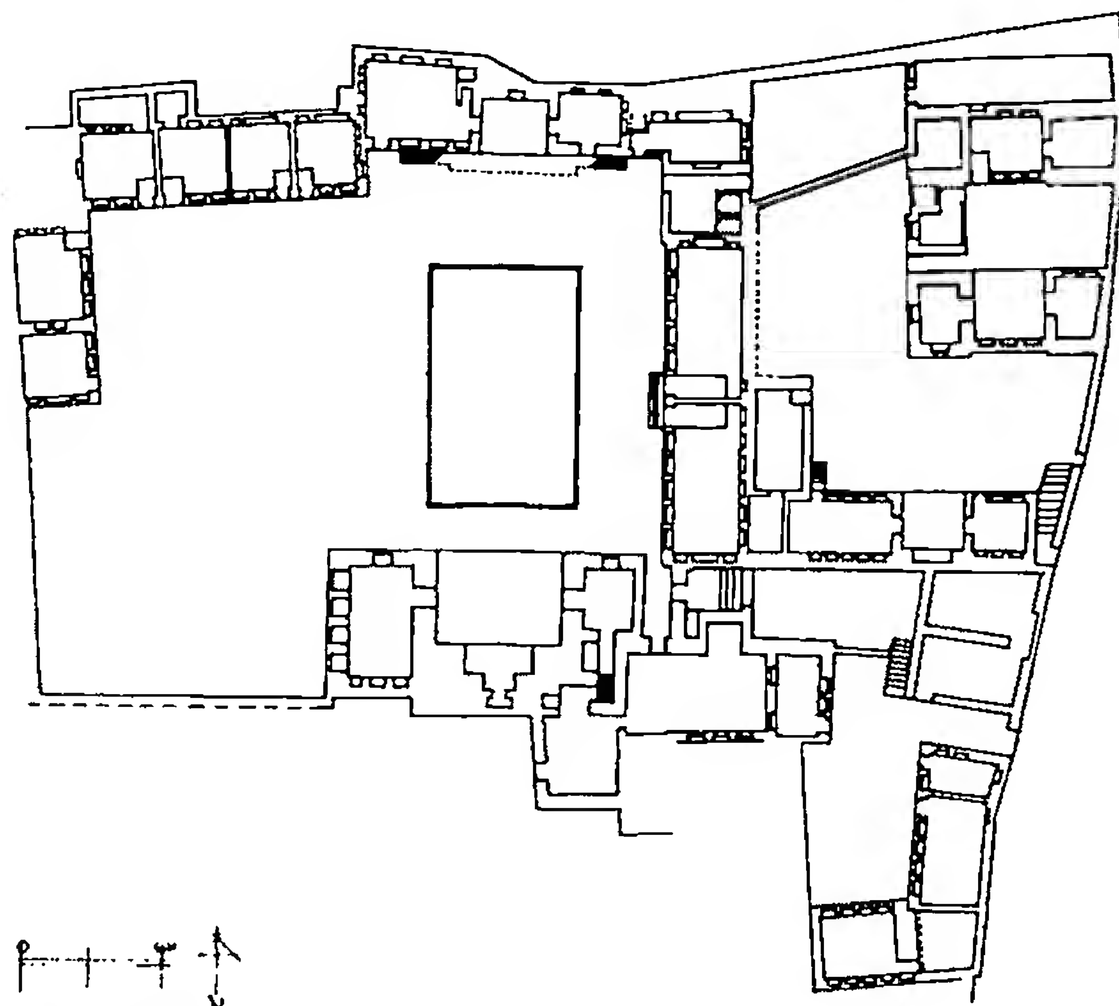
يتألف الديوان من مقعد خشبي عرضه أكثر من متر وارتفاعه عشرة سنتمترات يلف الجوانب الثلاثة للغرفة، وهو مغطى بفراش، له أغطية مطرزة بخيوط الذهب مع شراشيب في نهاياتها. وتوضع أرائك منجدة بالمخمل مقابل الجدران. كما يوجد عند زاويتي الديوان الذي له شكل حرف (U) بالإنكليزية، مفروشات ناعمة إضافية ترفع عن منسوب الجلوس يحتفظ بها كأماكن للتشريفات، لاستقبال الأشخاص ذوي المكانة الرفيعة في الغرفة. تفرش أرضية الديوان بسجاد تركي أو فارسي. ويمكن أن يكون لغرف الاستقبال تلك مشربية بارزة خشبية مع نوافذ. أما غرف الاستقبال الموجودة في الطابق الأرضي فلها نوافذ من جانب واحد فقط من الغرفة يقابلها كوى في الجدران المقابلة. يتم تبريد الغرف أحياناً بواسطة مياه البحرة في العتبة.

توجد أماكن الموظفين ذوي المقام العالي والخدم أيضاً حول الساحة الثانية، بينما يحتفظ بالفناء الثالث (وهو الأكبر عادة) للنساء (الحريم) ومنطقة المعيشة الخاصة. يرتبط هذا الفناء مع الفناءات الأخرى الأصغر منه، ويوجد الحمام والمطبخ الخاص بالقرب منها. توفر الأشجار والأزهار، والعرائش المتسلقة فوق التعريشة الخشبية والياسمين، رطوبة وملجأ لأهل البيت، وتنتشر رائحة الياسمين مع عبق الأزهار المتفتحة والنباتات العطرية الأخرى.



٦١. منزل في الشمال الشرقي من مدينة حلب القديمة.

٦٢. منزل باصيل في حلب.



٦٣. منزل جنبلاط في حلب.

وفي منتصف فناء البيت نجد حوض مياه يجري الماء منه عبر أقنية وبحيرات فيبرد الجو ويعكس الضوء ويعطي خرير المياه صوتاً جميلاً وعند هذا الحوض يوضع ديوان خشبي مرتفع فوق المصطبة.

يشغل الإيوان القسم الجنوبي من الفناء ويرتفع حوالي ٤٥سم وهو مفتوح على الفناء وله قوس عال، وهو مفروش بأريكة لها مساند للظهر من أجل فصل الصيف الحار. أما الغرف الجانبية الصغيرة المتصلة مع الإيوان فتستخدم من أجل الاستراحة وتدعى (القبة). وفي النهار، عندما تنعكس أشعة الشمس بشدة، يمكن أن يحتمي الشخص بها، وهي ذات قبة مربعة كبيرة في القسم الشمالي من الفناء.

ترتبط (العتبة)، المعبدة بالمرمر تحت القبة، بالأقواس لفصل الأواوين المرتفعة. بينما توجد غرفتان صغيرتان في الزوايا تدعيان أيضاً قبة، خلف التعريشة الخشبية. يستخدم الإيوان والغرف المرتبطة كأماكن معيشة في الصيف بينما تستخدم القاعة في الشتاء. أما الغرف المقابلة للفناء في الطابق الأرضي فهي تستخدم كغرف نوم. وهي مزخرفة بشكل غني ومبردة بواسطة أقنية هوائية (بادينج). أما الغرف الفسيحة الجميلة في الطابق الأول (المربع) التي لها نوافذ ذات مشربيات في بعض الأحيان، فيتم الوصول إليها عبر درجات حجرية خارجية وتستخدم فقط من أجل المناسبات والاحتفالات.

تختلف واجهات الفناء في ارتفاعها وتوجد أقبية مقنطرة (مغارات) في بعض أقسام البناء. في حين أن القبو الأكثر عمقاً يستخدم كخزان كبير للمياه (صهريج). تشبه تفاصيل القصر الذي وصفه راسل قصر العظم في دمشق (١٧٥٠) ومنزل جنبلاط في حلب في القرن السابع عشر. ومن الصعب التعرف على الشكل الأصلي لمنزل جنبلاط بسبب الإضافات المتعددة المتكررة عليه. لكن ربما كان الفناء الشمالي الشرقي مركز منطقة الاستقبال، والجزء الجنوبي الشرقي احتفظ به من أجل معيشة العائلة وشغل بإيوان في الجهة الجنوبية منه يقابله إيوان مرتفع أصغر منه (الصورة ٦١).

وحسب وصف راسل، فإن قسم الحريم، فناء العائلة الكبير مع القاعة أو الإيوان المتصل به يمكن أن نجدهما أيضاً في الأماكن الصغيرة وفي المنازل الغنية وليس هناك فناء غير مسقوف. يكون الفناء الخاص بالاستقبال أصغر وأقل أهمية ويستخدم من أجل ترفيه الزائرين. يستخدم قسم الحريم كله كفناء للاستقبال عند وجود احتفالات خاصة.

توجد تلك المنازل، التي تتألف من فناء للاستقبال مع مدخل مباشر من الشارع وفناء معيشة كبير وفناء للطبخ مجاور له، في مناطق تقليدية للمسلمين في حلب ودمشق. يعتبر منزل السباعي نموذجاً عن تلك المنازل في دمشق: حيث يوجد فناء آخر أصغر قرب فناء الاستقبال، ومنزل نظام: الذي يحتوي على فناء استقبال كبير الذي يتم الوصول إليه من المدخل الرئيسي عبر ممرات صغيرة (دهاليز) وفناء عائلي أصغر ومطبخ بينهم.

يشمل وصف راسل المنازل الأكثر تواضعاً ذات الفناء الواحد، ونادراً ما يكون له قاعة، ويكون فيه غالباً إيوان وغرفة كبيرة (غرفة استقبال) ذات ديكورات بسيطة، ويمثل بيوتاً عديدة في المدينة القديمة.



٦٤. لوحة جدارية لتزيين حائط كوة جدارية مزخرفة ومنقوشة بأشكال هندسية، زخارف كتابية، حلب (حوالي ١٨٩٠). متحف الفن الشعبي. برلين.

٦٥. صنابير مياه من بحرة دمشقية مصنوعة من البرونز. القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر.

٦٦. تفاصيل بحرة. مقطع جانبي مع رسومات على شكل شجرة السرو. دمشق. القرن التاسع عشر.





مـن جهة أخـرى، لا تمثل الأمثلة المنشـورة للمنازل ذات الفناء الواحد الواسـع في حلب نماذج البيوت الإسلامية. إن أغلبها بيوت مسيحية وهي نادراً ما تحتوي على عدة فناءات. وكمثـال على ذلك منزل باصيل في حلب (المصور ٦٢) الذي يحتـوي على فناء صغـير خاص بالمطبخ مـع مدخل منفصل وفناء كبير للمعيشة ولا يوجد فناء خاص بالضيوف.

يتوافـق الترتيب تقريباً مع المعطيـات التي أوردها راسل (المصـور ٦٣): التقسيـم إلى فنـاء صيفـي وآخـر شتـوي والعناصـر المعماريـة المتفـردة مثـل القاعـة ذات الأجـزاء الثلاثـة، الإيوان الجنوبي مع الغـرف المرتبطة به التي يمكن الدخـول إليها منـه، الغرف المبنية بشـكل منفصل مع نوافذ مطلـة علـى الفناء والكـوى الجدارية. والتقسيـم إلى العتبة المنخفضـة وأماكن النوم والجلوس المرتفعة وكذلك البحرة والمصطبـة على محور الإيوان وسـط الفناء مع سلم خارجي واحد يؤدي إلى شرفات السطح والغرف العلوية.

وهكذا نجد أن وصف راسل هو نموذج البيوت الإسلامية المعمارية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

تتميـز الأبنيـة في دمشـق، عن تلـك الموجـودة في حلب، بمخططهـا الأرضـي التنظيمـي، وتختلـف عنهـا أكـثر في استخـدام مـواد البنـاء وشـكل الواجهات. ففـي حلب تبنى، حتى البيوت الصغيرة البسيطة من داخلها، من حجر الكلس الرمـادي، بينما تتألـف أغلب البيوت الدمشقيـة من أساس حجـري مع طابق علوي يشـرف عادة على باحـة البيت وهو مبني من هيكل خشبي يتم ملؤه بالآجر الطيني (اللبن) وقطع الحجـارة. يؤثر هـذا الاختلاف في تقنية البنـاء على مظهر المدن والشوارع. فالجـدران العالية والناعمة في حلب تضفي طابعاً من الرقي والوضوح مع قليل من الانطواء، بينما الأزقة في دمشـق تكون منخفضـة وطوابقها العلويـة المعلقة تجعلها تبـدو أكثر حركية وحيويـة وأقل أناقـة. ولا يوجد في الطابق الأرضـي فتحات عدا بعض النوافذ الصغيرة للنور والتهوية، ولكن الغـرف العلوية لها نوافذ مفتوحة علـى الشارع. توجد المشربيـة الخشبية (الشرفة)، التـي ذكرها راسل في وصفه لغـرف الاستقبال الرئيسية، في كل مـن حلب ودمشق. كانت المشربيـات، في حلب غالبـاً وفي أواخر القـرن التاسع عشر، ترتبط مـع بعضها البعض لتملأ المساحـة الإجمالية للطابق العلوي المتدلي من الواجهة. تعطي هذه الظاهرة ميزة خاصة لمجموعات كاملة من الشـوارع (على سبيل المثال، شارع باب النصـر). تتميز واجهات البنـاء للقصور الكبـيرة والمنازل الغنيـة في دمشـق باستخدامها لتقنية (الأبلـق) وهذا يعني مداميـك متناوبة، حجارة متعـددة الألوان (حجارة البازلت والحجر الكلسي).

ترتبـط واجهات الفنـاءات الداخلية للبيـوت الدمشقية أفقياً وألوانها وأروقتهـا متعددة أكثر من نظيراتها في حلب. وهكـذا فإنها تبـدو أوسع وأخف من الفنـاءات الأضيق منها الموجودة في حلب.





٦٧. شمعدانـات ذات طابع عثماني من الشمال، إلى اليسار القرن السادس عشـر، إلى اليمـين القـرن السابع عشـر، مع أداة لنـزع الجزء المهترئ من الشمع. دمشق.

٦٨. أواني مزينـة بنقوش كتابيـة، تم استخدامهـا كصحـون للصابـون في الحمام. من اليسار برونز، ومن اليمين فضة مع آثار تذهيب.

٦٩. إيوان منزل دمشقي.



يصعب أن نرى الزخارف المكثفة المبدعة والتي تتصف بالاستعمال المتكرر لمزيج الديكور المتنوع والمتطور في حلب، حيث أن الواجهات، هناك حصراً، لها شكل محدد مسطح وزخارف بارزة. يتشابه الديكور الداخلي في كلا المدينتين ما عدا استخدام الزخارف الملصقة في حلب.

يمكن أن نجد أمثلة على تلك المنازل المدنية في أحياء المدينة القديمة في القسم الشرقي من حلب، حيث تزايدت حركة البناء فجأة في منتصف القرن التاسع عشر، بعد فترة طويلة من الأزمات والكوارث، حيث أصيبت المدينة بعدد من الزلازل والأوبئة في نهاية القرن الثامن عشر.

تلعب أحياء المدينة القديمة في الجزء الشرقي منها دور وسيط بين البلدة المحيطة والمدينة باعتبار أن تجارة المنتوجات الزراعية من المناطق المحيطة بحلب أصبحت إحدى العوامل الأكثر أهمية في الاقتصاد. وكذلك الأمر بالنسبة لتجارة المنسوجات المنتجة محلياً. ويمكن تحقيق مكاسب عالية، على سبيل المثال، من التجارة بالحبوب التي وصلت وخزنت في الجزء الشمالي الشرقي من حلب. وقد تم بناء مخازن كبيرة من أجل هذا الغرض في الجزء الشمالي الغربي من المدينة في تلك الفترة وبتمويل كبير من تجار حلب. سكنت العائلات التي جاءت من الأقاليم الزراعية شرقي حلب في الجزء الشرقي من المدينة القديمة في منتصف القرن التاسع عشر، عندما سمح القانون العثماني بتسجيل ملكية الأراضي. وبذلك وجدت طبقة جديدة من كبار مالكي الأراضي. كان الثراء الحديث واضحاً للعيان من خلال نشاطات البناء المكثف في الأحياء الشرقية. ويتبين ذلك من خلال العدد الكبير للنقوش الكتابية التي يعود تاريخها إلى فترة ما بعد ١٨٥٠. بنيت ربع المنازل في هذا الجزء من المدينة وفق نموذج الفترة ما بين ١٨٥٠ و١٩٠٠.

تضم منازل تلك الفترة بشكل عام فناءات أصغر لا تشبه تلك المنازل الريفية والأخرى التي تم بناؤها في الفترة السابقة (فترة الازدهار) وتتصف الأبنية المحيطة بها بأنها أكثر اكتظاظاً. وهذا يعني أن مساحة البناء التي لها طوابق عليا في المنطقة قد ازداد، وأنه وبناء على ذلك كانت الكثافة أكبر وتتسم أكثر بالمدنية. كما أصبحت الأقبية الموجودة تحت أقسام من الأبنية مظهراً أساسياً لغالبية الأبنية. وهناك نوافذ صغيرة غير محددة الشكل، من أجل النور والتهوية في الأقبية العميقة الأولى التي ذكرناها مسبقاً.

تتألف الأقبية من قناطر برميلية تتضافر مع بعضها وتتقاطع فوق النوافذ. وتتوضع في القطاع الشمالي، ومن الجهات الأخرى من البناء، في وسط الطبقة المتوضعة تحت مستوى الفناء، لكنها يمكن أن تكون أعمق من الجهة الجنوبية في حال وجود ديوان جنوبي. وعندما تظهر هذه الأقبية في الطابق الأرضي فإنها تدعم الطابق العلوي الذي يتألف في البيوت الأولى القديمة من قسم صغير للضيوف منفتح إلى الغرب باتجاه الرياح.

والطوابق العلوية لا تغطي كامل الفناء كقاعدة أساسية في الأبنية الأكثر تعقيداً، ويعود تاريخها إلى فترة أحدث.

نجد تأثير البناء الطابقي من خلال الواجهات المندفعة للأعلى، مع نوافذ علوية وفتحات للأقبية، وكلاهما له الشكل نفسه، وكذلك النوافذ الكبيرة للغرف الواقعة فوق الأقبية والعتبة التي ربما يبلغ ارتفاعها نصف متر فوق مستوى الفناء.

وهذه الغرف المزينة بشكل جميل هي غرف المعيشة والنوم فيما تستخدم غرفة واحدة للاستقبال. تقع القاعة في بعض البيوت الكبيرة في الجهة الشمالية. لكن الشائع أكثر أن القاعة هي الإيوانات الجنوبية التي يبلغ ارتفاعها حوالي ستة أمتار وحوالي نصف المتر فوق مستوى الفناء، وهي مرصوفة بالرخام، ولها شوادر (طوان) للحماية.

يتلاءم الاتجاه شمال- جنوب، الواضح في الأبنية الذي تم اعتماده بعد عام ١٨٥٠، مع تبدلات المناخ. وقد تغير هذا النموذج الكلاسيكي للأبنية في نهاية القرن التاسع عشر الماضي.

لا تشبه الأبنية المتوسطة الحجم، المبنية في فترة ما بعد نهاية القرن السابق، الأبنية السابقة لها. وهي نادراً ما تتألف من فنائين أو ثلاثة. وقد تم بناؤها كوحدات صغيرة ضمن البنى الأولى متركزة فوق بقع أرضية كبيرة، أو ربما بنيت على أنقاض منازل قديمة موجودة.

تطورت فناءات الاستقبال في البداية إلى أبنية منفصلة مستقلة ثم تحولت الفناءات الكبيرة المخصصة للمعيشة إلى فناء واحد أصغر. وازداد البناء على شكل طوابق في المناطق بنسبة أكبر من تلك الواضحة في الخريطة. وأصبحت الفناءات أقل اتساعاً. كما غدا من المألوف بناء منزل من طابقين بعد عام ١٩٠٠.

وقد استخدم الطابق الأرضي، في الأبنية الأكثر تعقيداً، كخان يتوضع فوقه منزل له فناء داخلي تقليدي فوق دعائم ثقيلة.

٢- نماذج مدنية للمسكن وطرق الحياة:

يتأثر تطور نماذج البناء بالظروف المناخية ومواد البناء المتوافرة والموقع ضمن المدينة. بينما يتم تحديد التنظيم الداخلي للمنزل بواسطة أسلوب المعيشة للعائلة. وإذا قارنا ما بين عادات المسلمين في القرن الثامن عشر، كما وصفها راسل مع الطرق الآنية للحياة في المدينة القديمة، نجد أنها متشابهة إلى درجة مدهشة. وبما أن الفصل بين الحياة العامة والخاصة، الرجال والنساء، يكون عاملاً محدداً في الحياة الاجتماعية والمعيشة اليومية فإنه يؤثر بطريقة تنظيم المنزل وبالتالي بنموذج المسكن.

كما أننا نجد فروقاً كبيرة بين نماذج مساكن الأشخاص البسطاء من الأحياء الريفية ونظرائهم من سكان الأحياء المدنية الأغنى.

يصف راسل الحياة اليومية للأتراك الأغنياء، والأتراك الأقل غنى، أي التجار وأصحاب المهن المدنيين.. ويبين أسلوب الحياة التقليدية للعرب، التركمان والأكراد الذين يعيشون في الضواحي والذين ما تزال ترتبط عاداتهم وأسلوب حياتهم كثيراً بنمط حياة الفلاحين والبدو.

يرتدي العرب، الذين يدعون البدو، رغم أن البدو الحقيقيين يعيشون في الخيام في فصل الصيف وفي الكهوف قرب المدينة في الشتاء، ألبسة مختلفة عن الأتراك ولا يتزوجون من خارج نطاق جماعتهم. وقد تعمل نساؤهم في خدمة منازل الأغنياء. أما التركمان الذين يتميزون عن البدو فإنهم يعيشون أيضاً في منازل بسيطة ويعملون في الزراعة، ويركبون الجمال.

ومع ازدياد التقدم والرفاهية، يطغى أسلوب الحياة المدنية على أسلوب حياة البدو والفلاحين بشكل كبير. ويمكن تفصيلها كما وصفها راسل خلال يوم عند العائلات الغنية: يستيقظ الرجال عند الفجر، يشربون القهوة ويدخنون الغليون ثم يتناولون طعام الإفطار المكون من الخبز، الفاكهة واللبن في الفناء أو قاعة الاستقبال. وإن لم يغادروا منازلهم للعمل أو للقيام بزيارات فإنهم يستقبلون الضيوف الذين تقدم لهم القهوة والنرجيلة. تقدم وجبة الظهيرة حوالي الساعة الحادية عشرة على طاولة مستديرة حيث تصطف الصحون، الملح، السلطات، اللبن، والخضار المحفوظة.. يقدم الحساء في البداية، ثم الأطباق المكونة من لحم الخروف والدجاج، الكبة، الخضار المحشية والأرز. وعندما ينتهي الطعام، يشرب الأشخاص الماء ويغسلون أيديهم. ولا تبقى الوجبة لفترة طويلة ويتناول الرجال طعامهم بشكل منفصل عن النساء. وبعد استراحة الظهيرة التي تدوم لساعة أو ساعتين يذهبون إلى أعمالهم.

يتم تناول الوجبة الرئيسية عادة في وقت مبكر عند المساء، وهي تتكون من الأطباق ذاتها التي قدمت عند الظهيرة. ثم يأتي الوقت الذي تقوم به الأسرة بزياراتها حيث يتناولون القهوة ثانية وتدور النرجيلة فيما بينهم. أما وقت النوم فيكون بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة مساءً. حيث تنشر الفرشات التي تكون مرتبة في الديوان أثناء النهار ويوضع فوقها شراشف قطنية ويستخدم قماش من الحرير (الناعم أو السميك حسب أوقات العام) كغطاء. وهناك مصباح يضيء كل الليل ومجمر أو منقل من الفحم النباتي يؤمن التدفئة في الشتاء. وفي الصيف ينام أفراد الأسرة في أرض الديار، أو على السطح.

تلد النساء الأطفال وترعاهم وتقوم بترتيب المنزل وبالأعمال اليدوية مثل حياكة الصوف، الخياطة والتطريز. وفوق كل ذلك فإنهن يقمن بإعداد الطعام. يقوم الرجال في بيوت الذوات والأغنياء بجلب لوازم الطعام، ويمكن أن تقوم النساء بشرائه من الباعة (النساء الجوالات) اللواتي يأتين للبيع عند الأبواب.

تغادر النساء المنزل للقيام بزيارات عائلية أو للاستحمام في الحمام العام، حيث تقام فيها احتفالات لمناسبات خاصة مثل ولادة طفل، الشفاء من مرض، مناسبة قبل أو بعد الزواج، حيث تجتمع النسوة في الحمام ويحتفلن هناك. وعندما تقوم النساء بزيارة أقاربهن يغادرن المنزل باكراً في الصباح ويرجعن قبل غروب الشمس ويقضين المساء مع العائلة.

وتعتبر زيارة مقابر العائلة، حجة أخرى لمغادرة المنزل وتكون عادة أيام الخميس. حيث ترسل رسائل على شكل تنسيقات ورد تحمل معانٍ سرية في طريقة ترتيبها وألوانها.

تعيش النسوة مع بعضهن بشكل مشترك في المنزل. لكن الزوجة الأولى للأب لها امتيازات خاصة. وإذا كان الأب متزوجاً من عدة نساء، وهذا نادر، فلكل منهن الحق في غرفة خاصة بها ولأولادهن حقوق متساوية.

عندما يبلغ الصبي سن الزواج تبحث له والدته عن عروس بين بنات أقاربها. وعندما يتزوج تجهز له غرفة خاصة: غرفة العروس والعريس. وعند وفاة الوالد تعود الامتيازات التي كانت مخصصة لزوجة الأب الأولى إلى زوجة الولد الأكبر وتبدأ عمليات تقسيم المنزل بين أفراد العائلة والأبناء الكبار.

وحسب ما أورده راسل في كتابه، تعيش عدة أجيال في منزل واحد، عدة أجيال وهذا ما زال سارياً حتى الآن ضمن الطبقة المتوسطة الدنيا. هذا يعني أن الأسر تتألف من عائلة مركزية ووالدي الابن الكبير لهذه العائلة. وعند الزواج تغادر الفتاة منزل والديها لتعيش مع زوجها في منزل أهل زوجها. وكقاعدة عامة فإن الابن الأكبر يتزوج أولاً. ولأسباب مالية يقيم عدد من الأبناء المتزوجين وأسرهم مع بعضهم في منزل أسرة والدهم، ولكن عند وفاة رئيس العائلة (الأب) يتغير نموذج الحياة المشتركة للعائلة عادة، فيأخذ الابن الأكبر مكانة والده ودوره في الأسرة ومن ثم تعيد الأسرة المتوسعة دورتها الأسرية ثانية.

يكون عادة للأب والأم غرفة واحدة خاصة بهما، بينما يتقاسم الأولاد الغرف الأخرى عندما يكبرون من أجل النوم. ويأخذ الابن المتزوج وعائلته غرفة مجهزة لاستخدامهما الخاص. في الفترات المبكرة، يمكن، وبسهولة، بناء غرفة إضافية عند الحاجة لذلك في البيوت التي لها باحات كبيرة وتتألف من طابق واحد.

أما في منتصف القرن التاسع عشر، فقد بنيت غرف احتياطية إضافية في المنازل المدنية الأكثر ثراء، ويمكن أن يتم إضافة طابق ثان فيما بعد. كل هذه الغرف المستخدمة من الأفراد المتعددين لعائلة، لها الأثاث الأساسي ذاته وتحتوي على العناصر نفسها مثل بيوت الفلاحين والغرف البسيطة للبيوت القديمة، وما تزال الغرف الفردية مستخدمة على هذا الشكل حتى اليوم. لكن الغرف التي تستخدم لأغراض خاصة، مثل غرف الاستقبال وغرف الضيوف، فقدت بعضاً من أهميتها، وبالكاد يستخدم الإيوان والقاعة. وهما يبقيان كما هما دون أي إصلاحات ويتم بناؤها من ضمن الغرف الأخرى دون غاية محددة لاستعمالها. ومن جهة أخرى، أصبحت الحمامات مظهراً أساسياً لكل المنازل. وكما ذكر راسل، وجدت الحمامات فقط في بيوت الأثرياء الكبيرة. حيث اعتاد الرجال والنساء من كافة الطبقات الاجتماعية على زيارة الحمامات، الموجودة في كافة أحياء المدينة بانتظام. وما تزال زيارة الحمام تعتبر حدثاً هاماً في الحياة الاجتماعية، وخاصة بالنسبة للنساء، حيث

تسنح لهن الفرصة للاجتماع مع بعضهن والتحدث عن شؤون أسرهن والاحتفال بالمناسبات الخاصة.

وكما هو الحال بالنسبة للحمامات، كانت المطابخ ذات الأفران المفتوحة المدخنة والصهريج أو البئر مع مضخة في حائط أرض الديار، مظهراً أساسياً للبيوت الكبيرة. ثم استبدال الموقد المفتوح اليوم بأفران غاز للطبخ، كما تم طمر الصهريج ولم تعد تستخدم المضخة الموجودة في الباحة.

كذلك تغيرت الحياة الاجتماعية أيضاً. ولكن قيام الرجال بعمليات التسوق ما يزال على أرض الواقع امتيازاً لهم، أما بالنسبة للمقاهي حيث يتم عزف الموسيقى وعرض مسرحيات الظل ورواية القصص فلم يعد لها وجود على الإطلاق. الأمر ذاته بالنسبة لتربية «وكش» الحمام، التي وصفها راسل، فهي موجودة فقط في بضعة بيوت حيث يبدو أن هذا النموذج الغريب من الأعمال والمهن قد حل محله التلفزيون. وفي الواقع فإن جهاز التلفزيون أصبح اليوم (في حينه) رمزاً لوضع الأسرة المادي.

وحتى اليوم فإن أغلب النساء من المستوى الاجتماعي الأدنى يمضين كل يوم من حياتهن بعضهن في المنزل وكقاعدة فإنهن لا يغادرن المنزل إلا لزيارة أقاربهن من العائلة أو إلى الحمام أو لزيارة المقابر. وعندما يكون الرجال في عملهم فإنهن يدرن شؤون الأسرة. إنهن يستخدمن المكنسة وخرطوم المياه لتنظيف الأرضيات الحجرية للغرف والباحة، ويحضرن الطعام ويقمن بأعمال يدوية في المنزل مثل الخياطة والتطريز لكسب مزيد من المال.

يبدو أن الحياة العائلية ما تزال تتبع القواعد التقليدية، رغم أن الناس اعتادوا على مشاهدة التلفزيون واستخدام الراديو والبراد وأجهزة التهوية والفرش الأوروبي مثل الأسرة والطاولات والكراسي. ولكن في الواقع يبدو أنه تحت ضغط التطور والتحديث للتأثير الغربي فإن الأسرة المركزية قد حلت مكان الأسرة الممتدة كأساس وطبيعة اجتماعية. كما تلاشت الروابط العائلية التقليدية من الداخل والخارج.



٧٠. غطاء منجد للكرسي، حرير منسوج دمشق، حوالي ١٨٩٠.



٧١. إعادة تصور لغرفة استقبال الرجال في قصر العظم، دمشق.



٧٢. إعادة تصور لغرفة استقبال النساء في قصر العظم بدمشق.



الثقافة المادية المدنية

جوهانز كالتر

تم وصف تاريخ الثقافة المدنية في سوريا الذي يعود لآلاف السنين من عدة وجهات نظر: أهمية المدن كمراكز إدارية والتركيز على العلاقة التبادلية للسكان المدنيين، الفلاحين والبدو، وبالتالي أهميتها كمراكز دينية وصناعية وتجارية. كما وصفت بنية المدينتين الأكثر أهمية، والمتنافستين جداً: حلب ودمشق وكذلك تطور العمارة المدنية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

كما يشير قسم آخر إلى أمثلة عن المهن والصناعات اليدوية المدنية متعلقة بالثقافة المدنية السورية بشكل خاص. يمكن وصف العديد من المظاهر المذكورة حتى ذلك الوقت فقط وتوضيحها بالصور، باعتبار أنه لا توجد أدلة مادية يمكن عرضها. سيتم في هذا القسم تحديداً مناقشة الإنتاج الصناعي المدني باستخدام أمثلة من مجموعتنا المأخوذة من متحف ليندن. وفي هذا المجال «المدني تحديداً» لا يعني أن نقول إن البضائع الترفيهية المدنية غير موجودة على الإطلاق وبشكل استثنائي في منازل الفلاحين الموسرين أو حتى ـ أن كان بالإمكان نقلها بسهولة ـ في خيام النبلاء والبدو الموسرين.



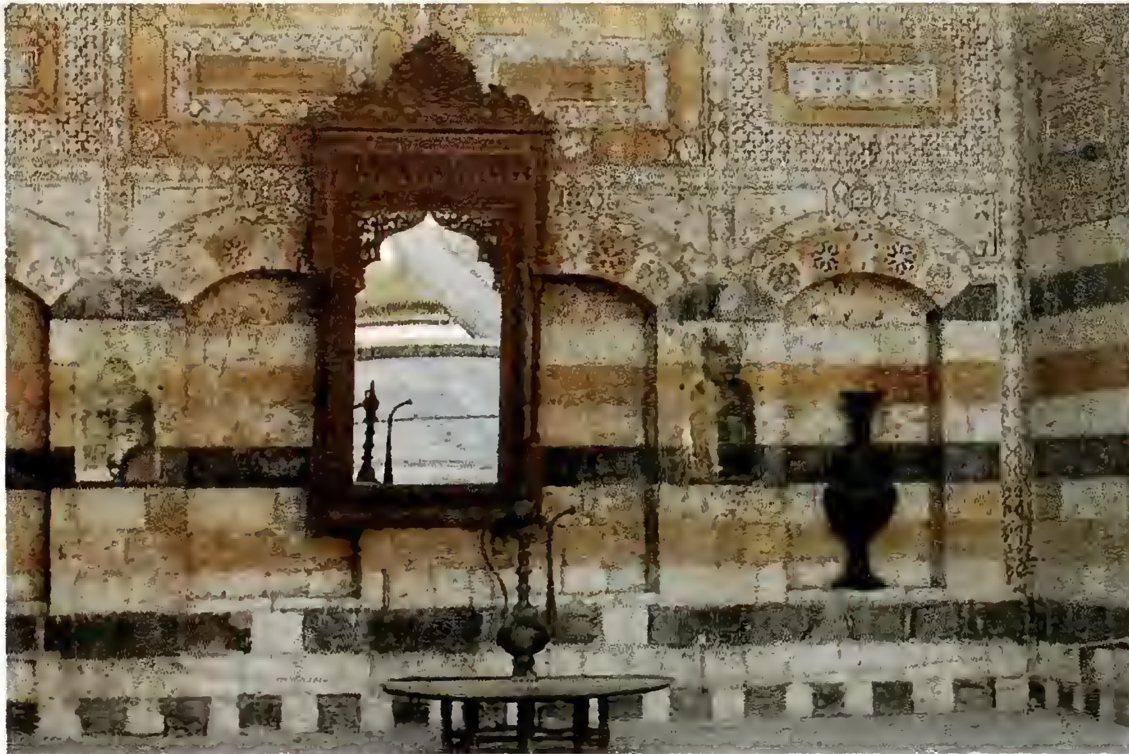
٧٣. تفصيل لسقف خشبي مطلي وديكور من الجبصين البارز في قصر العظم.



٧٤. مصباح من البرونز. قصر العظم.



٧٥. باحة قصر العظم. دمشق.



٧٦. تفصيل عن واجهة الباحة لقصر العظم ومرآة زجاجية مرصعة ومنقوشة بالحفر.

تبدو الأهمية الاستثنائية للثقافة المدنية في سوريا واضحة أيضاً في نسبة سكان المدينة إلى العدد الإجمالي للسكان. وحسب ما أورد ورث (١٩٧١) يشكل سكان المدينة على الأقل نسبة ٢٥٪ من نسبة سكان سوريا في العام ١٩٥٠. وتحدد هذه النسبة رسمياً في عام ١٩٦٠ بـ ٤٢٪ وبذلك يكون التناسب المدني للسكان قد ارتفع بشكل ثابت.

كانت المنتجات الصناعية الخاصة، التي ستتم مناقشتها لاحقاً، تخص دائماً الطبقة العليا الصغيرة المؤلفة من مالكي الأراضي الذين يعيشون في المدينة ومالكي الأعمال الصناعية المدنية والتجار الأغنياء والموظفين والإداريين والعسكريين ذوي الرواتب العالية والطلاب.

لا تختلف ممتلكات الأشخاص العاديين المقيمين في المدينة مثل تجهيزات العائلة والحاجيات الشخصية المهمة كثيراً عن نظيراتها عند الفلاحين. بينما تتميز حاجيات الأسرة والأثاث لدى الطبقة العليا المدنية عن الأخرى الريفية بعددها وبالمواد المصنوعة منها، وجودة صناعتها اليدوية وإنهاءاتها الملائمة لمتطلبات الحياة المدنية.

إلى جانب العوامل السورية، التي أثرت بقوة على الثقافة العثمانية المدنية والتي نقلت بسرعة من وإلى اسطنبول، وجدت العوامل الأوروبية طريقها إلى سوريا إما عن عبر اسطنبول أو في الفترة ما بين ١٨٣٠ - ١٨٤٠، فترة حكم إبراهيم باشا على سوريا، عبر القاهرة أو من خلال الاتصال المباشر بين المدن السورية وفرنسا وخاصة ليون ومرسيليا.

تضم مجموعة متحف ليندن أشياء تمثل نواحي الحياة المدنية كافة. تتضمن المجموعات حاجيات ذات استعمال خاص، وكذلك أدوات شخصية خاصة بالرجال وبالنساء. وكذلك أشياء تستخدم كثيراً بين الأوساط العامة والشعبية في الجامع، وفي المدرسة، كأماكن للحياة الفكرية والدينية، القلعة كمكان للإدارة، السوق كمركز للمهن اليدوية، والتجارة، ومركز الإدارة الاقتصادية للإقليم، ومركز التجارة الخارجية، التي تعتبر أمراً هاماً جداً للمدن السورية، المقهى كونه المكان الرئيسي المريح لقضاء أوقات فراغ الرجال، وأخيراً وليس آخراً الحمام، الذي ربما يكون مكان الاجتماع الأكثر أهمية بالنسبة للنساء إلى جانب أهميته في تلبية احتياجات كلا الجنسين من النظافة والراحة والصحة، إضافة إلى إقامة بعض الطقوس والشعائر الخاصة.

يظهر تمازج المستلزمات العائلية الشرقية والأوروبية واضحاً في الأثاث الخاص بغرف الاستقبال النسائية والرجالية في منازل المدينة الكبيرة. وبالطبع، يعتمد أغلبها على الأشياء المفضلة للسكان: الدواوين مع الوسائد المنجدة بقماش مقصب والتي تمت تغطيتها لاحقاً بأقمشة إنكليزية مستوردة. وقد تم استبدالها بكراسي مطوية مزخرفة، أو بكراسي كبيرة منجدة تعود إلى منتصف القرن الماضي. إن لمادة الحرير المستخدمة لتغطية هذه الكراسي عام ١٨٨٠ وعام ١٨٩٠ رسوم وألوان مشابهة للفن الأوروبي الحديث. توجد قطعة الأثاث الشرقي النموذجية في منطقة النساء: خزانة أو صندوق كبير من الخشب الفاخر المطعم بقطع من الصدف. وتستعمل في مناطق الرجال والنساء صواني مدعمة بقوائم خشبية مطوية كطاولات. هناك نماذج من قطع الأثاث المدنية العالية الجودة تكون ثقيلة: الصواني النحاسية المطعمة بالفضة والمزينة بتزيينات من الفضة ورسومات ذات أجزاء تحمل نصوصاً كتابية وصواني أخرى من النحاس المختلط مع معادن أخرى ومطلية بماء الذهب، لحمايتها وحفظها من فقدان لمعانها.

وفي نهاية القرن، أصبحت الطاولات، ذات النمط الأوروبي والجوانب المطوية، أكثر شعبية واستخداماً. هناك أنواع من المهن والحرف اليدوية، مثل القطع المبرومة المصنوعة من الخشب الملون، مزخرفة بنقوش محفورة ومطعمة بالصدف، تشكل نماذج من المنتوجات السورية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

وعلى العموم، فإنه من الصعب أن نقرر ما إذا كانت المنتوجات السورية الحرفية مصنعة من أجل السوق المحلية أو من أجل التصدير. لا يمكننا إغفال مثال آخر عن الأثاث الفاخر هنا: المرايا ذات الإطار المنقوش والمرصع بقطع من الصدف. يكون للزجاج الظاهر عادة شكل المشكاة. أما تاج المرآة فهو مؤلف من عمل فني متشابك يشبه الشمعدان. صنعت النهاية العلوية منه على شكل المقرنص. أما الكوى الجدارية فتضم مواد نموذجية فاخرة للطبقة العليا مثل زجاج الكريستال المرصص مع رسومات مذهبة حمراء وزرقاء مصنوعة بشكل خاص من السوق الشرقي، البورسلان الصيني والسيراميك من تركيا.

أما الصناديق المصنوعة من الخشب الفاخر أو المطعمة بالصدف فهي موجودة في كل أماكن المعيشة. تستخدم النساء الصناديق الكبيرة منها لحفظ أدوات الزينة والعطور والصابون والمجوهرات. وكذلك في منطقة الرجال والنساء حيث يتم تقديم الحلويات الشرقية بهذه الصناديق. وتستخدم في قسم الرجال الصناديق الصغيرة منها كعلب للسجائر. وفي المنازل والجامع والمدرسة، تستخدم كطاولات لحفظ القرآن ذو النموذج المملوكي. وكذلك تستخدم في صنع حاملات القرآن المشغولة بأعمال مصدفة وزخارف مثلمة إضافة إلى فتحات النور السقفية التي تكون موجودة في الشرق الأدنى، مع حوامل من الزجاج للزيت. تم استبدال هذه الأشياء في نهاية القرن بالمصابيح الكهربائية والشمعدانات المصنوعة من البرونز بنموذج عصري جديد. وقد تغير نموذجها قليلاً عن الشكل المعروف في العصر المملوكي حتى نهاية الفترة العثمانية، كانت أدوات التنظيف المكونة من أباريق وصحون كبيرة قاعدية تزين وتزخرف بشكل لائق بحيث لا يمكن الاستغناء عنها لضيافة فاخرة كريمة.

يستقبل سيد المنزل الضيف عند وصوله ويضع الحوض أمامه ويناوله الصابون ومن ثم يصب الماء فوق يديه ويناوله منشفة مصنوعة من القطن الفاخر الذي يمتص الماء بشكل جيد. ثم تمرر زجاجات الماء المعطر من حوله. تصنع هذه الأدوات حسب ذوق وغنى مالك المنزل إما من الذهب، الفضة، أو من النحاس المطلي بالذهب (تقنية عثمانية نموذجية) أو

الفضـة المذهبة. ثم يمرر مشعل البخور أمام الضيف لإنعاشه برائحـة عطـرة وطـرد أرواح الشياطـين بعيداً عنـه. صنعت مشاعل البخور، التي وجدت في القرن الثامن عشر، من البرونز أو النحاس الأصفر وهي مميزة بأشكالها المفتوحة.

هذه الأشياء التي يعود تاريخ تصنيعها إلى القرن التاسع عشـر مزخرفة علـى نحو مبالغ فيـه على الطـراز الباروكي ومصنوعة من النحاس المذهب أو الفضة.

بعد انتهاء طقوس الاستقبال تلك، التي تعتبر راقية جداً من وجهة نظر غربية، تقدم القهوة التركية بمصبات فاخرة مزخرفة مصنوعـة من الفضة أو النحاس المذهـب أو المطلي بالفضة. ثم يتم تقديم وجبة مؤلفة من عدة أشياء، إما بأطباق من البورسلان الصيني، أو بأطباق رقيقة من النحاس المغطى بالقصدير الغني بزخرفـات مزهرة. يتم تقديم الشـاي بعد هذه الوجبة السخية. وتصنـع أباريق الشاي وعلـب السكر من الفضة أيضـاً أو تطلى بالفضة. بعد ذلك، يشعل الخدم البابيات بواسطة قطع من الفحم المشتعل المأخوذ من المنقـل الموجود في وسط الغرفة مستخدمين ملقطـاً يكون عـادة مزخرفاً بطريقة جميلة رائعـة. ويحضر كل شخص معه قطعة «مبسم» التدخين الذي يوضع في الفم. وتكون هـذه القطعة مصنوعـة أيضاً من الفضـة أو النقوش المزخرفة، وغالبـاً ما يكون لهـا رؤوس كهرمانية اللـون. لا يمكن مقارنة أي مقهى محترم بالأسـر الخاصة الثرية عندما يتعلق الأمر بجودة نراجيلهـا. أصبـح تدخين السجائـر مألوفاً بشـكل متزايد منذ منتصف القرن الماضي إضافة إلى استخدام النراجيل.

يتم تدخين السجائر بواسطـة مباسم متنوعة في نقوشها وزخارفهـا أكثر من مثيلاتها المستخدمـة في النراجيل. تضم مجموعـة محتويـات متحـف لينـدن نمـاذج مصنوعـة مـن الكهرمـان الأصلي والتقليدي، مع، أو بدون، تطعيم بالفضة أو العظم مع تخزيمات تزيينية. ويعتقد أن أكثر حوامل السجائر قيمة هي تلك التي صنعت من المرجان الأسود المطعم بالفضة. كان المرجان الأسود عام ١٨٩٠ يتم تقليده غالباً بالبالكيت.

هنـاك أمثلـة نموذجية عـن نتاجـات صناعيـة مدنية، كانـت في الوقـت ذاته دليـلاً علـى انتمائها لطبقـة خاصة: وهـي حاجيـات الدارسـين والخطاطين (وحتـى الفنانين). أدوات الكتابـة ووسائلها التي صنعت مـن البرونز وفي بعض الأحيان من الفضـة. تتألف هذه الأدوات من أوان اسطوانية لوضع ريش الكتابة فيها وإناء للحبر، وكذلك مقصّات الورق بمسكاته المنقوشة المزخرفة والمطعمة بالذهب. وهي غالباً ما تـدل على الورشة التي تم تصنيعهـا فيها. ويتم أحياناً تلميع الحواف الفولاذية للمقصات.

ومـن ضمن النمـاذج أيضاً، هنـاك الأوعيـة ذات الطبقات المتعددة والتي لها مسكة مصنوعة من البرونز أو النحاس المطلي بالقصديـر، كانـت تستخدم على سبيـل المثال لإحضـار الغداء أو العشـاء إلى التجـار في السوق. استـوردت أغلب هذه الأواني ولكنها صنعـت في دمشق أيضاً، وهناك أوعية مماثلة مثل العلب ذات الغطاء والقاعـدة المخرمة، التي استخدمت لنقل الصابون المنتج محلياً (يكـون أساسه عادة من زيـت الزيتون) والأنسجة الناعمـة الصوفية إلى الحمام. تم تصنيع قاعدة علبة الصابون بنقوش مخرمة تسمـح للماء بالسيلان منها للخـارج. وما تزال بعض المعامل الصغيرة في حلب تنتج هذا النموذج المحلي الممتع جداً من الصابون ويختم بطابع مميز. استخدمت أيضاً الصحون الثقيلة المسبوكة من البرونز أو الفضة مع حافة مزهرة ذات الطابع التيموري (في القرن الرابع عشر) والمنقوشة بتخريمات وزخارف يدويـة من حولهـا، في حمل قطع النسيج الناعمـة والصابون في الحمـام. تعطي بعض القطـع الموجودة ضمـن مجموعة متحف لينـدن، المصنوعة مـن الفضة الثقيلة مع آثـار قليلة من الذرات الذهبية، فكرة عن رفاهية بعض تجهيزات الاستحمام.

تحمـل أدوات تجميـل العيـون ضمـن صناديـق معدنيـة مزينـة بالنقوش وعلب فضيـة لها نموذج زخـري في على شكل شجـر السرو. يتم تعزيز هذه الأشياء غالباً بقضبان تستخدم لعمليـات التجميل وغالباً ما يتوجها عصفور علـى رأسها. إن القطـع الأكثر تأثيراً في النفس من تجهيزات الحمام النسائية هي الصنادل العالية الكعب «القباقيب» المصنوعة من الخشب الغالي المزخرف بالعظـام والأصداف وشريط مخملي مطرز بالفضـة (خيوط فضية). يحمل خـادم أو خادمة مستلزمات الاستحمام ويسير خلف السيد أو السيدة. تلف هذه المستلزمات بقطعة قماش مربعة لونها على الأغلب بنفسجي أو أحمر داكن مع مطرزات فضية على الطراز العثماني.

ومنذ الحرب العالمية الثانية طرأت بعض التبدلات الجذرية علـى الحياة المدنية في سورية أكـثر منها على حياة الفلاحين والبـدو. باستثنـاء بعض قطـع الأثاث التي ما تـزال تستخدم لأغراضها الملائمة. والنراجيـل (التي توجد الآن على الأغلب في المقاهـي وفي البيوت الخاصـة) استخدمت الأشياء التي تم وصفها في هذا القسم، إن وجدت، للعرض فقط.



٧٧. منظر من خلال غرف الحمام في قصر العظم.








٧٨. أعلى اليسار: أدوات الاغتسال، النحاس الأصفر مع الفضة، دمشق/ القرن التاسع عشر.
٧٩. مشاعل البخور: الصف الخلفي- برونز/ القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. الصف الأمامي. فضة مع النحاس، مذهبة- دمشق/ القرن التاسع عشر.
٨٠. دلات قهوة: من اليسار" نحاس. من اليمين: فضة/ دمشق. القرن التاسع عشر.

٨١. عطرية لماء الورد، نحاس أصفر، فضة، نحاس، مذهبة/ دمشق. القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.
٨٢. أواني الطعام/ نحاس أصفر مع نحاس عادي ملبس بالقصدير: أواني مع غطاء. نحاس ملبس قصدير/ دمشق. القرن التاسع عشر.
٨٣. مدقة لتكسير السكر/ برونز مرصع بالزجاج/ دمشق. القرن التاسع عشر.




٨٤. حاملة أقلام مع خزانات للحبر/ برونز قطعة واحدة مغلفة بالفضة/ دمشق. القرن التاسع عشر.
٨٥. مقص ورق/ فولاذ مع مقابض برونزية وعلامات الورشة المصنعة موجودة عليها بالذهب/ دمشق. القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.
٨٦. حقيبة مخملية مع مطرزات فضية نافرة لمستلزمات الحمام/ دمشق- القرن التاسع عشر.
٨٧. قبقاب أو صندل للحمام من خشب الأرز مطعم بالعظم والأصداف/ دمشق. القرن التاسع عشر.











٨٩. مقهى قرب قلعة دمشق.

٩٠. آلة عود برقبة منحنية وزخارف مصدفة وطبلات نقرية.

٩١. آلة عود برقبة طويلة ودف وكلاهما مزخرفان بترصيعات من الصدف.



٨٨. أواني لأدوات تجميل العين (الكحل) مع أدوات الكحلة، نحاس أصفر مع الرصاص، والخشب المرسوم/ دمشق. القرن التاسع عشر.



٩٢. ملاقط من أجل تشغيل النراجيل المائية/ برونزية واحدة بمقبض فضي/ دمشق. القرن التاسع عشر.

٩٣. أواني مياه للنراجيل مصنوعة من الكريستال البوهيمي جزؤها العلوي من الفضة.

٩٤. آنيتان لمياه النراجيل/ زجاج بوهيمي مرسوم، من اليسار: القرن الثامن عشر. من اليمين: القرن التاسع عشر.





٩ الحرف اليدوية المدنية

جوهانز كالتر

ظلت الملاحظة التي دونها المؤرخ والفيلسوف العربي الكبير «ابن خلدون» (١٣٣٢-١٤٠٦)، والمتعلقة بالظروف التي تم خلالها تطوير المهن اليدوية، صالح للتطبيق في سوريا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: «اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة، نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم. فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة على الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته. ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكماليات. والمتقدم منها في تعليم هو البسيط، لبساطته أولاً، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله، فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً. ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل، بالاستنباط شيئاً فشيئاً عى التدريج، حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة، لا سيما في الأمور الصناعية. فلا بد له إذن من زمان. ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة، ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايد حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة إلى الفعل.

وتنقسم بالأفكار التي هي خاصية الإنسان، من العلوم والصنائع والسياسة. ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها. ومن الثاني الوراقة، وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك. ومن الثالث الجندية وأمثالها. والله أعلم». (ابن خلدون، المقدمة -مقدمة إلى التاريخ، ف. روسينزال، نيويورك ١٩٥٨- الجزء الثالث). وبخصوص مستوى الحرف المتنوعة، وجودة المنتجات، فإن أكبر مدينتين في سوريا، حلب والعاصمة دمشق، تشكلان المركزين الأكثر أهمية للمنتجات الحرفية.

يعكس ازدهار، وتراجع، الحرف اليدوية المدنية بين بداية القرن التاسع عشر واليوم، التاريخ المتفاوت للمنطقة، ونجاح المنافسة الناتجة عن الأشياء الكبيرة المستوردة المصنعة بأثمان رخيصة من أوروبا، والتقدم الحاصل في الصناعة في سوريا واندماجها في التجارة العالمية الحديثة. من جهة ثانية.. عندما وصل الاستشراق إلى أوروبا، وأصبح رائجاً هناك في نهاية القرن التاسع عشر، انتعشت حياة جديدة ضمن الحرف التي انقرضت تقريباً والتي تنتج بضائع ترفيهية مثل الأعمال المعدنية المرصعة والأثاث والزخارف والديكورات الشرقية. ولكن ما بين الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، تراجع إنتاجها مرة أخرى.

ومنذ ظهور، واستثمار النفط، في العام ١٩٧٠، وجد حرفيو دمشق أسواقاً جديدة لهم في دول الخليج العربي. وازدادت صناعة السلع المخصصة للسوق السياحية وللتصدير إلى أوروبا (خاصة إلى فرنسا، إيطاليا وإسبانيا) وأصبح من المتعارف عليه بين أفراد الطبقة العليا السورية، وبين أبناء الطبقة الوسطى الناشئة، أنه من مقومات الأناقة، تأثيث منزل شخص ما على الطراز السوري التقليدي. وما تزال المهارات الحرفية متوفرة حتى الآن. تستبدل أحياناً المواد الأولية الغالية الثمن، والتي يوجد صعوبة في اقتنائها مثل الأخشاب القيمة والأصداف، بالمواد البلاستيكية ومواد أخرى يسهل التعامل معها مثل المعجون الخشبي المصنوع من النشارة ومعجون العظام الذي يتألف من العظام المطحون على شكل مسحوق. وقد أظهرت طرق العمل، التي لاحظناها، أنه رغم الدخل المنخفض المستمر للحرفيين (بنسبة لا تتجاوز ١٥٠-٢٠٠ مارك ألماني في الشهر) فإن عمليات الإنتاج مستمرة رغم الضغط المتزايد من المنافسة. لكن ذلك كان يمكن تحقيقه عند تقديم الآلية والتقنية الحديثة في ظل عدم وجود توصيف لآليات الإنتاج في الفترة الأولى لنشوء تلك الحرف اليدوية. ولسوء الحظ، تؤمن تعدادات الرحالة في القرن الثامن عشر أوائل القرن العشرين، سجلات غير مكتملة عن الحرف المتنوعة.

توضح ثلاثة تقارير للرحالة التاريخ المتغير للحرف اليدوية السورية. وجد الباحث (و. ج. براون) الذي تجول ضمن سوريا ما بين عامي ١٧٩٥-١٧٩٦ ازدهاراً في التجارة والصناعة. «يكون التصنيع في الدولة المزدهرة جيداً كونها تدار بروح متسامية من كلا المسيحيين والمسلمين وتعتبر مادتا الحرير والقطن من المواد الرئيسية...) بينما كتب ش. بيترمان، بعد رحلته في عام ١٨٥٢-١٨٥٣ يقول: «ازدهرت الصناعة والتجارة أثناء حكم إبراهيم باشا لسوريا، والآن تراجع كل شيء نحو الحضيض». كما وصف الباحث ر. أوبرهامر تسيميرير ١٨٩٩ التراجع العام للحرف اليدوية في دمشق. ولكن مقارنة مع الوضع في منتصف القرن، يبدو أن الإنتاج قد تطور وازداد ثانية: «فيما عدا حرفة الأسرجة الرائعة، ما تزال تصنع بعض القطع الفنية ضمن الحرف اليدوية مثل الأحذية الخشبية المعروفة والمطعمة بالصدف، الطاولات الصغيرة والقواعد والأطباق والأباريق المصنوعة من النحاس الأصفر الجميل.

يجد كل شخص أيضاً، في سوق الصاغة، كميات متنوعة من الأشياء الجميلة والمجوهرات، مثل البروشات الفضية المتدلية والأقراط، التي يتم تصنيعها بإتقان كبير وتباع بأسعار معقولة في الوقت نفسه». يتابع أوبرهامر وتسيميرير القول بأن كل شيء آخر تم جلبه من اسطنبول أو بلاد فارس.

قدم الكتّاب بأنفسهم تقريراً من حلب جاء فيه: «تفيض الأسواق والبازارات بالبضائع الأوروبية وتعتبر مرسيليا، بشكل خاص، قناة لاستيراد المواد، الأقمشة والسلع القادمة من المستعمرات» وقد شهدت تنوعاً وتطوراً متناقضاً منذ عام ١٨٩٠ وخاصة في دمشق. فقد ازدادت أهمية الحرف الشعبية السورية. وتتضمن هذه إنتاج الأثاث المطعم والمرصع، العلب الصغيرة وقواعد الألعاب، الأشياء البرونزية والمصنوعة من النحاس الأصفر والمطعمة بالفضة والنحاس وكذلك نصل السيوف المطعم بالذهب أو إضافة الترصيع للنصول القديمة. يستخدم الحرفيون القطع القديمة الأثرية من المتاحف كنموذج، إلى جانب الاستفادة من الفهارس واللوائح القديمة للعمل الذي تم إنتاجه لمعرض العالم في باريس في عام ١٨٩٧. والبطاقات البريدية التي يعود تاريخها إلى بداية القرن[1].

---

(١) المقصود هنا القرن العشرين المنصرم (المترجم).





٩٥. شارع في سوق الحميدية.

٩٦. شارع الأعمدة الرومانية عند المحور الرئيسي لسوق الحميدية في دمشق.

٩٧. رأس بغل مزين يجر عربة مياه في دمشق.





٩٨. سوق بائعي البسط والسجاد في حلب.

٩٩. تاجر غزل القطن والصوف في سوق دمشق.

١٠٠. بقال في سوق دمشق.





(لقد حافظ أصحاب الشركات والمعنيون بحذر شديد على هذه الفهارس وكأنها كنوز ثمينة). وقد تم تقليد بعض القطع بشكل دقيق. وقد تطورت النماذج الجديدة كنتيجة لمتطلبات الزبائن وذوق وإبداع رئيس الشركة الخاصة. ونلاحظ أن الجدارة الفنية والجمالية لبعض من هذه النماذج مثيرة للجدل بشكل كبير. ويمكن ملاحظة تطور مماثل في فن العمارة، وخاصة بين المعماريين والبنائين الذين يقلدون الموزاييك في الأسلوب المملوكي، وبين المتخصصين الذين يرسمون الأسقف والألواح الخشبية التزيينية في نماذج البيوت الدمشقية الثرية في الفترة ما بين ١٧٥٠-١٩٠٠. وقد تم إصلاح بعض المنازل القديمة بواسطة بعض الأفراد المهتمين بذلك وجمعية أصدقاء مدينة دمشق. تستلزم هذه العملية كمية هائلة من الترميمات لأن هذه المدينة أهملت لفترة طويلة وتم إتلاف الأقسام الداخلية منها بشكل مؤلم وبلا رحمة من قبل تجار الآثار والأشياء القديمة.

لا يتوقف عمل المرممين عادة على ترميم الأجزاء المصابة أو القائمة الموجودة. بل إنهم يبدعون نسخاً جيدة، سواء كانت النماذج متوفرة أو إذا كانت الرسوم والأفكار قابلة لإعادة البناء من الأشياء المتبقية. وإن لم يكن ذلك ممكناً، عندها يتم صنع شيء جديد وفق نموذج مناسب.

يرتبط الطلب المتزايد على الحرف اليدوية بأصول فن العمارة من الطبقة العليا الدمشقية والفنادق السياحية والسلطات المسؤولة عن الأبنية العامة. أوجدت دول الخليج العربي، الغنية والجديدة، هوية خاصة بهم «العرب الأصليين». تكاملت هذه الهوية بواسطة الديكور المعماري، الأثاث، الأعمال المعدنية المرصعة، الأسلحة المخصصة للعرض والأنسجة التقليدية وغيرها. وقد دعمت الحكومة هذه الحرف كونها تدر عملة أجنبية للبلاد.

استخدمت أعمال النحاسين: الصواني، القدور، الصدور، الأواني، الأباريق والمصابيح، في بيوت أغلب السكان السوريين في الريف والمدينة. ثم استبدلت الصواني ذات الدعامات المقلوبة التي كانت تستعمل كطاولات بأخرى ذات طابع أوروبي. كما حل محل القدور القديمة والأواني والأباريق بدائل أخرى مستوردة، ولم تعد الشمعدانات مهمة بعد الآن. وفي دمشق، ما يزال سوق النحاسين موجوداً حيث يتم تصنيع القدور الكبيرة جداً للطهي والمقالي المستخدمة خصيصاً للأعراس الريفية واللوازم العسكرية والمدارس وربما من أجل المشافي. وفي سوق النحاسين بحلب، ما تزال تصنع تجهيزات الأسرة الضرورية والبسيطة بشكل تقليدي جداً وبما يلبي احتياجات سكان الريف خاصة والمناطق الريفية المحيطة بالمدن. ومع ذلك انخفضت أهمية النحاسين بشكل كبير خلال الفترة التي شهدتها. وقد أخبرني مالكو بعض النماذج من الأعمال المعدنية العالية الجودة والقديمة التي رأيتها عام ١٩٨٠ في دول الإمارات العربية المتحدة وعمان أنهم أحضروها من دمشق... ولكن توقف هذا الإقليم عن كونه مستهلكاً للمنتجات الحرفية اليدوية البسيطة بسبب التغييرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية السريعة.


١٠١. نافخ زجاج في التكية السليمانية بدمشق.


١٠٢. صناعة قطع زخرفية في دمشق.


١٠٣. خراط في دمشق.







١٠٤. نحّاس يقطع ويصنع قاعدة الآنية.

١٠٥. نحّاس ينقش صدراً نحاسياً.

١٠٦. صدر مزين بنقوش وزخارف؛ سبيكة من النحاس مع مزيج ذهبي / دمشق - القرن التاسع عشر.

١٠٧. نحاس يطرق حواف الصدر في حلب.

١٠٨ و١٠٩. حانوت نحاس يعرض بضائع للبيع.







تعتبر مهنة الخزف والفخار، التي كانت أباريق الزيت والماء من أهم منتجاتها، من الحرف التي قاربت على الانقراض أيضاً، وقد استبدلت كلياً الآن بالعلب والأواني البلاستيكية والمعدنية. كما استبدلت صناديق العائلات الفلاحية المنقوشة أو المصفحة بواسطة ألواح معدنية بصناديق وخزائن أخرى مصنعة وفق النماذج الأوربية. ولا نعرف اليوم أين تصنع هذه الأشياء تحديداً. لقد تخصص النّجارون في دمشق في تصنيع قطع من نموذج الأثاث الفرنسي في القرن التاسع عشر.

كما قاربت حرفة الجلود على الانقراض. وتصنع الأحذية للاستهلاك المحلي وفق النموذج الأوروبي وهي منتشرة تقريباً في كل مكان. وينتج صانعو الصنادل الجلدية الآن سلعهم حصراً للسائحين رغم أنه وسطياً ما تزال تصنع تلك الأحذية الجلدية التقليدية وخاصة الجزمات للبدو.

يمكننا أن نرى تأثير قوانين السوق، بوضوح، في سوق صغير متخصص يؤمن احتياجات الأحصنة والبغال والحمير، قرب سوق الحميدية. تباع هناك سروج الركوب والتحميل وكذلك اللجامات والتعويذات والمركبات الخاصة بتلك الحيوانات. ونتيجة لتطور البنى التحتية، مثل بناء الطرق وتطوير الآليات، فقد فقدت أغلب الحيوانات أهميتها في الركوب والنقل. وبطريقة مشابهة، انخفض عدد منتجي الحاجيات الملحقة لها وخاصة السروج التي استمرت في الانقراض. نستثني من ذلك منتجي المركبات الخاصة بالأحصنة الغالية جداً كونها خاصة والتي تم تصنيعها ليس للسوق المحلية فقط بل لدول الخليج أيضاً.



١١٠. القلائد، في الأسفل: عقد لعنق الحصان، نموذج عثماني، الحلي المتدلية ذات الشكل الهلالي والنجمة (أعلى اليمين) توجد من منحوتات الأحصنة في الآثار القديمة. دمشق/القرن الثامن عشر والتاسع عشر.



١١١ و١١٢. من اليسار: سلاسل لقيادة الحيوان ومن اليمين" زينة لرقبة الحصان. دمشق/القرن العشرين.
يوجد في دمشق سوق خاص لسروج الركوب والتحميل، اللجامات، أعنة (جمع عنان) الحصان، وفي السنوات العشر الأخيرة قلت مجالات مبيعات هذه الأشياء بشكل كبير.

الحرف اليدوية المدنية

صانعو الترصيعات المعدنية:

نجد في الترصيعات الشرقية واحدة من أكثر التقنيات شعبية لتزيين الأشياء المعدنية. يتم مزج المعدن والمزين وذي الملمس الأكثر نعومة (الذهب، الفضة أو النحاس) مع معدن أشد قساوة (البرونز أو الفولاذ) عن طريق طرقه بواسطة مدقة لينغرس في السطح أو ليملأ أجزاء تمت تهيئتها بالمنقاش. يعود تاريخ الأمثلة الأولى المبكرة للأشياء المعدنية المرصعة من العالم الإسلامي إلى القرن التاسع والعاشر وهي: الهاون، المصابيح الزيتية، القدور، وهي من البرونز مع الترصيعات النحاسية، من الفترة التي حكمتها سلالة السامانيين الإيرانية الشرقية وسلالة الغزنويين الذين سكنوا في غزني الموجودة في ما يعرف بأفغانستان اليوم. ومن هنا انتشرت تقنية الزخرفة هذه نحو الغرب. وتعتبر مدينتي الموصل في العراق ودمشق، وإلى حد ما القاهرة، مراكز لإنتاج تلك السلع المعدنية.. وانتقل مركز صناعة الأعمال المعدنية المرصعة إلى دمشق في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر. وقد ارتفع سعر هذه القطع في العالم الإسلامي. بعد غزو المغول للموصل في القرن الثالث عشر.

توجد أوائل الأعمال المعدنية المرصعة (التي بقيت حتى اليوم) في متحف اللوفر في باريس. وقد صنعت على الأغلب في دمشق من أجل السلطان الذي اعتلى العرش ما بين عامي ١٢٣٧-١٢٦٠.

منذ منتصف القرن الثالث عشر، وحتى بداية القرن السادس عشر، صنعت الصناديق، وأواني الزهور والشمعدانات في دمشق من أجل السوق الأوروبية وتم تصديرها عبر فينيسيا. وكان يترك مكان فارغ، في العادة، على شكل شعار النبالة في زخارفها بحيث يمكن اكماله بالشعار الذي يريد مالكها في المستقبل. استخدمت هذه القطع كحافز على الإنتاج المحلي لتلك الأشياء الترفيهية في فينيسيا في القرن السادس عشر.

تفتقر مجموعة متحف ليندن إلى نماذج عن الأعمال المعدنية المرصعة السورية من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. ومن الواضح أن تقنية صنعها لم تضع أو تفقد، وقد انتعشت صناعة الأعمال المرصعة في دمشق في نهاية القرن التاسع عشر. نتج عن الطلب المحلي للطبقة البرجوازية التي ازدادت قوتها الاقتصادية تدريجياً ظاهرة الاستشراق في أوروبا وخاصة فرنسا، طرز مقتبسة عن الطرز التي استخدمها الحكام المماليك في سوريا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نذكر هنا مثالاً على ذلك تصنيع صناديق القرآن وطاولات القرآن ولوازم الاستحمام والصواني. أما نماذج أواني الزهور، وأحواض الزرع والقدور وعلب السجائر والأواني الصغيرة وغيرها، فقد تم تصنيعها وفق الطراز الأوروبي آنذاك.

تمثلت نهاية هذا التطور بصناديق الصدف الكبيرة المرصعة بالذهب والنحاس التي استخدمت الخزائن الشبيهة بها أيضاً كحاملات للمظلات والعكازات في المطاعم والفنادق السياحية.



١١٣. طاولة قرآن: نحاس أصفر مرصع بالنحاس مع الذهب والفضة. صنعها حرفيون مهرة. دمشق أواخر القرن التاسع عشر.



١١٤. صندوق قرآن: نحاس أصفر مع ترصيعات نحاسية وزخرفة نباتية منقوشة بالخط الكوفي والنسخي. دمشق، القرن التاسع عشر.





١١٥-١١٧. ورشة عمل دمشقية تقليدية للترصيع المعدني. الصورة في الوسط تمثل حرفي ينقش سطح طاولة- وفي اليمن: امرأة تضرب وتدخل خيوطاً فضية داخل السطح الجاهز.

إن الترصيع المعدني حرفة عالية تتطلب مهارة كبيرة. يستخدم الحرفيون قطعاً غير مزخرفة تم سبكها أو تشغيلها بالبرونز أو النحاس الأصفر من قبل صناع آخرين، بينما تتم عمليات الزخرفة في ورشات الترصيع فقط. أتيحت لنا الفرصة، في دمشق، للاطلاع على عمليات التصنيع وطرح عدة أسئلة على مالك لإحدى الورشات.. يملك موريس نصيري شركة تدعى البازار الأموي. توجد الورشة في حي اليهود في دمشق القديمة. أنشأها عام ١٩٢٧ سيمون نصيري والد المالك الحالي. في ذلك الوقت. تأسس عدد كبير من الأعمال من هذا النوع وأنتجت قطع من أجل السوق السوري وكذلك الأوروبي وخاصة فرنسا. استخدم الأب سيمون، في أيام الذروة، في شركته ستين عاملاً، أما اليوم فلا يتجاوزن ستة عمال. ولغاية عام ١٩٦٠ أنتج الابن خصيصاً للسوق الأوروبية ومنذ ذلك الحين انحصر زبائنه الرئيسيون فقط بدول الخليج والفنادق السياحية الكبيرة في سوريا وكذلك زبائن سوريون للأبنية العامة والخاصة. كان يصنع كل ما يطلب منه، من الأعمال المعدنية للأبواب وحتى صحون السجائر والمصابيح المرصعة وحوامل أواني الزهور. عرفت الشركة أوقاتاً من الازدهار والتراجع حسب «الحرفي الرئيسي» لها موسى صعيدية، الذي يقال أنه أحد أفضل الحرفيين في مجاله في دمشق. تعلم موسى الحرفة من والد المالك الحالي، وظل قرابة أربعين عاماً في الشركة، أي منذ أن كان في العاشرة من عمره. أما المالك الحالي للشركة فهو نفسه ليس حرفياً، وقد اتخذ مهنة مختلفة قبل إدارته العمل ولم يتقن الحرفة. وكذلك تلقى أولاده تعليماً مختلفاً. ومن المدهش أن نعلم أن والدة موسى عملت أيضاً لهذه الشركة فقد كانت تصنع خيوط الفضة وترصعها تماماً كما تفعل ابنة موسى بالطريقة نفسها التي تعلمتها من والدها. (يبدو أن من المألوف للنساء في سوريا ممارسة مهن يدوية في منازلهن). أشارت آنغريد نيبا في كتابها: «تعلمت بنات الصاغة اليهود في حلب الحرفة وهن صغيرات ومارسنها في البيت. وفي دير الزور، وقبل هجرة الصاغة اليهود، يقال إن بناتهم قد أدرن في منازلهن». كان تصنيع القطع يتم حسب الطلب بواسطة دليل أو فهرس.يملك المالك ألبوماً يزوده برسومات أو صور توضح مستوى البضائع وتنوع النماذج. ويمكن للزبون أن يعرض أفكاره ورغباته الخاصة به. كما يمكن للمالك أن يخترع نماذج جديدة بنفسه. وهو غالباً مايستلهم خطوطاً لمستويات الأعمال من الفن الإسلامي الذي يوضع على الرف وراء مكتبه.يمكن أيضاً طلب نسخ مماثلة لقطع قديمة. تعطي مهارة موسى الكبيرة كحرفي، جودة ممتازة لعمله. لا يعطي مالك الورشة موسى رسوماً تخطيطية تمهيدية.بل يتحدث عن تصميماته الجديدة معه ومن ثم يقوم موسى بتنفيذها. ويعتقد موريس بأنه لكي يكون النموذج جديداً بزخرفته التقليدية، يجب أن يرصع بطريقة مختلفة عما كانت عليه العادة في حينه. وحسب رأي موسى وموريس فإن هناك قواعد صارمة مبدئية تقريباً للتصميم. كما استخدمت ثلاث زخارف أساسية لذلك.

أولاً: توجد زخارف نباتية تدعى النباتي (المزهر) وزخارف تعطى أسماء خاصة حسب الفترة التي تصنع فيها مثل (الفاطمي) نسبة لسلالة الفاطميين. ثانياً: هناك زخارف هندسية تدعى الخطوط الهندسية (الأرابيسك). ثالثاً: هناك ما يدعى بالأسلوب الفارسي حيث يتم استخدام أشكال تصورية لتملأ النموذجين الأساسيين المذكورين أعلاه.

يمكن أن ينضم استخدام الخط مع كل هذه النماذج من الديكورات. ولكن النماذج المفضلة هي: خطوط الثلث والكوفي (عادة الكوفي المزهر)، حيث تجعلها صرامتها وضخامتها الأكثر ملاءمة لهذا النوع من تقنية الديكور. بعد عادة ما يكون صعباً طرق ونقش الخط المكتوب بأحرف متصلة صغيرة مثل خط النسخ على أرضية معدنية.

في الماضي، أي زمن والد موريس، كانت القاعدة الأساسية أن النموذج الأساسي يجب أن يكون إما نباتياً أو هندسياً ومن ثم يحدد الاختيار المظهر الكلي للقطعة. إن تغطية السطوح الناتجة بين الخطط الأساسية يمكن أن يكون بعد ذلك أشكالاً نباتية في حالة النموذج الأساسي الهندسي، أو هندسياً في حالة النموذج الأساسي النباتي. ويتم تزيين السطح بواسطة حواف أو دوائر. تتبع هذه التزيينات بشكل واضح قواعد صارمة. لقد تلقى موسى التعليمات من موريس على سبيل المثال، لتصنيع صدر بحواف هندسية أو دائرية المركز، يمكنه أن ينوع باقي الزخارف طبقاً لهذه القواعد. يقول موريس، ويستطيع المرء تصديقه، أن لديه مئات التصاميم المتنوعة في رأسه. ليس هناك كتاب أو فهرس لذلك. يصنع موسى بنفسه القطع الغالية والمعقدة التي يتم تكليفه بها من قبل زبائن من مستوى اجتماعي رفيع، في هذه الحالات، فإنه لا يصنع أي خطوط تمهيدية. أما في الحالات الأخرى، فيقوم موسى برسم النماذج البسيطة بالحبر الهندي على القطعة ومن ثم يتركها لينفذها العمال الآخرون. يبدو أن تقسيم العمل الواضح، كالذي رأيته في ورشة عمل موريس قد أصبح قاعدة. يضع الحرفي، رئيس العمال، الخطوط التمهيدية الأولى. ثم يحفر أحد العمال الخطوط التي سبق تعليمها بالمنقاش. ويدق عامل آخر خيوط النحاس أو الفضة في الخطوط المحفورة مسبقاً. لا تقطع هذه الخيوط بل يتم تمزيقها بضربة قوية بواسطة المدقة. يتطلب هذا القسم من عملية الإنتاج براعة كبيرة ولهذا السبب يفضل أن تعمل الفتيات والنساء في هذه المرحلة. بعد ذلك يقوم حرفي آخر بعملية ترصيص الخطوط بواسطة إزميل حاد فيقطع الأطراف الزائدة عن سطح القطعة المرصعة المراد صنعها. يتم إنهاء القطعة بعد ذلك بتلميعها بالرمل الممتاز أو بالكلس المطفأ. أما القطع المصنوعة من معدن رقيق فهي تغرس فوق طبقة على أساس ممعجن لمنع الأرضية من البروز للخارج مسببة التواء في النقش أو الترصيع. فيما يتعلق بالجودة، فإن القطع التي تنتج اليوم يمكن أن تتم مقارنتها بتلك التي صنعت في فترة المماليك. إنها تختلف بشكل أساسي من ناحية جمعها لأساليب متعددة من النقوش والزخارف كما وصفنا أعلاه.



١١٨. نموذج لراية مواكب المنشدين المسلمين بزخرفة منقوشة، قالب برونزي، دمشق/القرن العشرين.

١١٩. صينية مزخرفة منقوشة وخطوط هندسية ونقوش كتابية-قالب نحاسي أصفر مع ترصيع فضي. دمشق، القرن التاسع عشر.



١٢٠. سلع نموذجية للتصدير من دمشق أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. مزهرية، قارورة لماء الورد، إناء حرق البخور، صندوق، نحاس أصفر مرصع بالفضة.



الحرفيون العاملون بمهنة الترصيع:

الترصيع شبيه بالموزاييك، تستخدم فيه مواد مختلفة مثل الصدف وقشور اللؤلؤ والخشب المتعدد الألوان (البلاستيك في هذه الأيام) على أرضية من الخشب. يمكن العثور على نماذج قديمة مصنوعة بهذه التقنية في الشرق، أي في مصر القديمة. عرفت هذه الأشياء المرصعة من مدفن (توت عنخ آمون) في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أما النماذج الحديثة من الفترة الإسلامية فموجودة في متحف الفن الإسلامي في القاهرة فيعود تاريخها إلى القرن التاسع، بينما بقيت القطع السورية المشغولة بهذه الطريقة موجودة منذ القرن العاشر. وجدت هذه الأعمال الأولى ضمن المجال الديني مثل مساند كراسي الواعظين (المنبر)، حوامل القرآن (الراحلة) ونادراً على أبواب المساجد والمدارس وأبواب الأضرحة. انتشرت تقنية الترصيع نحو الغرب من مصر وسوريا إلى المغرب وبلاد الأندلس ونحو الشرق إلى إيران والهند. لقد احتفظ الترصيع السوري، والمصري، بأسلوبه الخاص وتعتبر حتى يومنا هذا من أفضل النماذج الباقية من المهن القديمة تقنياً. تبين الأعمال الأولى من القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر أن فن صناعة الخزائن النفيسة قد تطور كثيراً في الوقت الذي كانت فيه الأعمال الخشبية في العصور الوسطى في أوروبا ما تزال في مرحلتها الأولى والبسيطة. وهذا صحيح في كل من عناصرها المزخرفة وفي بنائها المكون من أقسام معقدة وأخرى مستقلة التي صنعت بدقة وإحكام غير عاديين وبأطر وفراغات مضلعة كثيرة الزوايا. ويبدو ذلك مدهشاً من النظرة الأولى مقارنة مع الأقاليم المليئة بالغابات في شمال ووسط أوروبا، حيث أن الخشب في الشرق قليل جداً نسبة لأوروبا. ومن جهة أخرى، يجب أن نتذكر أن العديد من الأخشاب القيمة قد جلبت لوسط أوروبا من قبل الرومان (فورلين ١٩٩٠) وبعدها أصبحت مألوفة خشب الأرز والكرز والجوز.

يقول الحرفيون بأن أعمالهم هي على الطراز المملوكي لناحية زخرفتها وأسلوب الأثاث المصنوعة فيه، وهذا صحيح نوعاً ما. ففي سوريا كما في المشرق كله، يكون الأثاث التقليدي متفرقاً وضئيلاً. يجلس الناس على الدواوين والوسائد ذات الأغطية القماشية المقصبة التي يتم ترتيبها حول الجدران في غرف الاستقبال. أما استخدام الطاولات فقد كان نادراً. حيث يقدم الطعام في صدور نحاسية أو من النحاس الأصفر وتوضع فوق دعائم قابلة للطي. أما في بيوت المواطنين الأثرياء فقد كانت هذه الدعائم مزخرفة بأعمال الترصيع منذ الفترات المبكرة الأولى. وكانت حاجيات الأسرة تحفظ في أمكنة خاصة داخل الجدران وليس في خزائن،هناك أمثلة عديدة وجيدة على ذلك، ويمكن رؤيتها في قصر العظم في دمشق، حيث كانت الخزائن والصناديق تستخدم بالدرجة الأولى لحفظ الأقمشة وربما المجوهرات. أما في الأرياف، فهذه القطع عادة منقوشة مزخرفة، أما في المدينة فمزخرفة بشكل عام بأعمال الترصيع. وقبل القرن الثامن عشر، كانت الكراسي والكنبات تصنع للأشخاص المهمين. وفي نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، عند ظهور النزعة نحو الغرب عند الطبقة البرجوازية وتقليداً لاسطنبول والقاهرة، تم استخدام النموذج الأوروبي في الأثاث.





١٢١. مواد أولية للترصيع. أصداف وعظام الجمل.

١٢٢-١٢٣-١٢٤. صقل الأجزاء المصنعة من الصدف وإدخالها في قوائم الطاولة. تفصيل عن أعلى الطاولة. توضع ترصيعات الصدف في التصدير.









١٢٥. حامل قرآن،محفور ومرصع، دمشق – القرن التاسع عشر.

١٢٦. قبقاب الحمام، دمشق منتصف القرن التاسع عشر (متحف الفن الشعبي، برلين، مجموعة بيترمان).

١٢٧. صندوق خشبي لأدوات الزينة والمجوهرات مرصع بالصدف والقصدير، دمشق القرن التاسع عشر.

١٢٨. صندوق مصنوع من خشب الأرز مرصع بعظام الجمل-دمشق، القرن التاسع عشر.

١٢٩. صندوق خياطة خشبي مصدف على شكل طاولة.

١٣٠. صندوق خشبي كبير مصنوع من خشب الجوز، مرصع بالصدف، دمشق-القرن التاسع عشر.









تم إنتـاج طاولات على شكل مثمن، دائـري، أو لها شكل النجم، وكذلك صناديـق ذات أدراج وخزائن كبـيرة وأرائك ضخمة، ومهد هزاز وبوفيهات وكراسي مطوية وإطارات مرايا كبيرة. ومن المستحيل تحديـد ما إذا كانت هذه المنتجات قد صنعت للطبقة العليا السورية أم للأوروبيـين الذين يعيشون في سوريا لغايـة التصدير إلى أوروبا، وتحديداً فرنسـا. الدلائل الوحيدة هي النقوش المرصعة المستخدمة لمناسبات خاصة. وإلى جانب هذه المنتجات الجديدة استمر تصنيع النـوع التقليدي للسلع والبضائع. كانت الأشياء الأكثر شعبية ومبيعاً من تلك البضائع هي القباقيب ذات الكعب العالي، والتي كانت تدعى عادة «أحذية العرس»، رغم أنها كانت تستعمل لزيارات الحمامات.

تبعت الزخرفة نموذجين أساسيين مختلفين وهما:

١- تقليد هندسي محدد وصارم، مشكل على الطراز القائم على أحجـار الأرضيات المرصعة في قصـور المماليك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. تأثر هذا النموذج بطراز الموزييك من قصـور الرومان والبيزنطيين. وجد هذا الطابع الزخرفي خاصة في أعمال الترصيع في الخشب باستخـدام أخشاب متعـددة الألـوان ومرصعة بالعظم والصـدف. (أود أن أصنـف هنـا الزخرفـة الإسلامية -الموشى- التي لها شكل نجمة كنموذج فرعي من هذا الطراز. إنها الرسومات المزخرفة الأكثر شعبية للسطوح الكبيرة مثل أبواب الخزائن المرصعة بالصدف).

٢- ترتبـط الزخـارف الهندسيـة، البسيطة جـداً على العمـوم، (المؤلفة عادة من أشكال المعين) مع أشكال نباتيـة كثيرة، مثل سعف النخيـل القصير المروحي، وأوراق النباتـات وزهـرة التوليب والقرنفـل وأواني الزهـور. يعتمـد هـذا الطـراز مـن الزخرفـة على التقليـد العثمـاني. وتزخرف قطع منـه فوق السطح بأكمله بقطع من الصدف ولذلك تكون غالية الثمن. أما اليوم فإن هذا النوع يستخدم بالدرجة الأولى في قطع الأثاث التي يراد تصديرها إلى دول الخليج.

يمكـن زخرفـة النموذجـين الأساسيـين في أمثلـة نادرة بواسطـة نقوش كتابيـة مرصعة بالخط الكوفي القاسي أو الخط النسخي الأنيق.

أتيحت لنـا الفرصة في دمشق لمعرفة نـوع العمل الذي يديره حسان سامي صناديقي في سوق الحريقة. وقد تمكنا من طرح عدة أسئلة على السيد حسان والاطلاع على العمل هناك. ظلت عائلته تعمل في هذا المجال منذ عام ١٨٨٥. وحسب ما أورده المالك فإنها الشركة الوحيدة التي استمرت في هذه الحرفة بدون انقطاع حتى خلال فترة التراجع الكلي لهذه الحرفة التقليدية ما بين الحربين العالميتـين. يديـر المالـك الحالي للشركـة أعماله كرجـل أعمال وكحرفي. إنـه يتقن تجارته جيداً ويلقب نفسـه بالمعلم، تستخدم الشركة اثنـين وأربعين عاملاً، يعملون ستة أيـام في الأسبوع لمدة عشر ساعات يومياً ويستمر تدريبهم حوالي ستة أشهر.

تحتفظ الشركة بقطع الأثاث القديمة وتصنع قطعاً جديدة من دليل خاص مطبوع أو بالتشاور مع الزبون. وتكون النماذج، هنا أيضاً، من فهرس محتويات معرض العالم في باريس لعام ١٨٩٧ الذي بقي مغلقـاً (بالقفل والمفتاح) واحتفظ به سراً تجارياً. كما استخدمت العظام والأصداف فقط في أعمال الترصيع تلك.

تتطلب عملية الإنتاج تقسيماً أكثر للعمل. ينقل المالك الزخرفات إلى هيكل قطعة الأثاث مستخدماً خطط العمل المرسومة بالكمبيوتر. وبالنسبـة له فإن والده ما يزال يعمـل كلياً بدون قوالب. تصنع بعض أعمال الترصيع عن طريق تحديد مكان الترصيع بالقصدير وبعضها ليـس له تنضيـد لترصيعات الصدف. في المرحلـة الثالثة، تكون تلك الترصيعات محاطة بمعجـون خشبي لونه بني، يعزز بشدة الخطوط الرئيسيـة للزخرفة. يتخصص المساعدون في عمليات متنوعة، الأول علـى سبيل المثال، يطـرق قوالب القصدير والثـاني يقطع الأصداف إلى قطـع مناسبة من أجل الصقل. ويصقل شخص آخر القطع بدقة باستخدام آلة كهربائية من أجل جعلها تلائم مواقعها بالترصيع. يقوم المساعد الأخير بإدخالها في القطعة. أما في الماضي، فكانت العمليات الفردية تجري في ورشات عمل منفصلة. الهدف من هذا أن العامل لا يعرف العملية الإنتاجية بكاملها، وأن لا يكون هناك أي منافس للمعلم ذاتـه. أما اليوم فإنه يتذمر ويعترض لأن عماله الذين دربهم بشكل جيـد انتقلوا أو أسسوا أعمالاً خاصة بهم وذلك لأنهم يتقنون العملية الإنتاجيـة بكاملها. يجب أن يكون المبتدئ قـادراً على ترصيع حوالي عشـرة قطع في حدود عشر ساعـات، بينما العامل الجيد جداً يمكنه إنجاز (٥٠٠ قطعة) في عشر ساعات بعد خبرة سنتين في العمل.

صنع عمال متخصصون الحواجز المصنوعة من قضبان متصالبة من الخشب المعاكس لاستعمالها في صناعة الطاولات والخزن، أما اليوم فيتم تصنيعها بواسطة مخارط كهربائية، وقد انحدرت جودتها مقارنة مـع القطع الأقدم بشكل واضح. أما الخشب الأكثر أهمية للأثاث فهو خشب الجوز المأخوذ مـن الأرياف حول دمشق. بينما يستخدم خشب الورد والليمون والزان من أجل قضبان وألواح الخشب المعاكس.

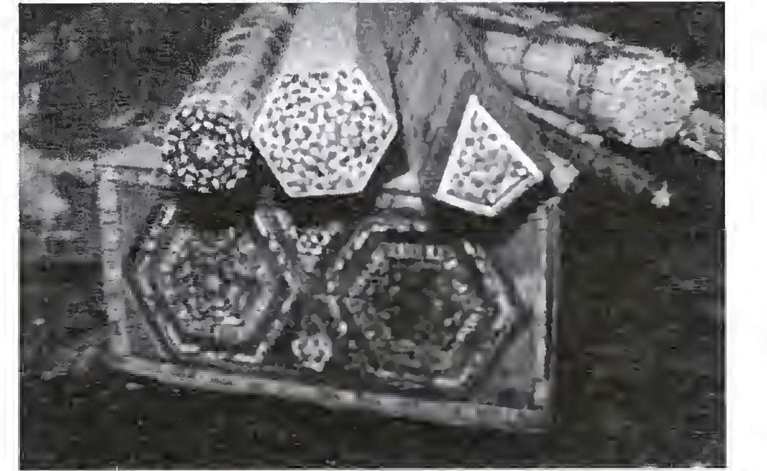
توجد فوارق واضحة في جودة الصدف. فالنوع الرخيص منها، غير اللامع، يؤخذ من دير الزور، ويستخرج من نهر الفرات. بينما اللامع منها، الغالي الثمن، فيؤخذ من بحيرة طبريا. يتم استيراد الصـدف اليوم من اليابان والفلبين وغالبـاً ما يكون له بريق ميال للخضـرة. تصنع الترصيعـات العظمية بشـكل أساسي من عظام الجمل، ولكن اليوم تستخدم بودرة العظام المضغوطة بشكل رئيس.

يستخدم القماش المقصب المنتج في دمشق لتلبيس قطع الأثاث المنجـدة. في الحقيقة، تشكل القطـع الصغيرة من هذه الأنسجة المقصبة نماذج من الأنسجة التي صنعت للألبسة. وقد استخدمت أنسجة التنجيد الأقل خشونة، في الماضي، بشكل كبير في لبنان.

لم تعـان جـودة الترصيع بسبـب تطور الإنتـاج. بل على العكـس، ذلـك أن إدخـال الملمعـات الكهربائيـة لم يسبـب ضربة قوية لدقة وجودة عمليـة صقل الترصيعات الصدفية

مقارنــة مع القطع المشابهة لها مــن منتصف القرن الماضي. وعلــى الرغم من هــذا، فإن صورة المنتــج الحالي قد تغيرت بشــكل واضح مقارنة مع تلــك القطع التي تعود للقرن التاسع عشــر. يمكن استيراد أصداف اللؤلــؤ الآن بأية كمية نريدها وهي تستخــدم كعنصر تزييني في أكثر مــن طريقة وبزيادة عمــا كانت عليــه في الماضــي. إن النقوش البــارزة النباتية والهندسيــة البسيطــة والرائعة جداً (خاصــة التي لها شكل أوراق النباتــات) المرتبة تناظريــاً وتبادلياً، لا يمكن إنتاجها بــدون جهد وعمل يدوي طويــل ودؤوب. ولهذا نجــد أنها قد اختفت كلها. كمــا أننا نجد أثنــاء عمليــة التفتيش والبحث الحاليــة أن قطــع «الأثــاث الســوري التقليــدي النموذجــي» المنتجــة اليوم تختلف بشــكل واضح عن مثيلاتهــا في القرن التاســع عشــر. أما المشــترون الرئيسيــون للبضائع الحديثة فهم من الطبقة الوسطى الدمشقية ذات الحركة المتصاعدة وكذلك مواطنون من دول الخليج، والسياح نوعاً ما. ولا يلعب التصدير المباشر إلى أوروبا تحديداً أي دور حتى الآن.







إنتاج أعمال الترصيع الخشبية:

تمكنــا أيضاً من الاطــلاع على عملية الإنتاج هــذه في ورشة عمــل دمشقيــة. حتى أنها كانــت أكــثر وضوحاً من غيرهــا. إن العصــي الخشبية والبلاستيكيــة المستطيلة الشــكل أو المثلثية أو الشبيهــة بالمعين والتي لها حواف يبلغ مقاسهــا حوالي ٣-٨ ملم تجمــع مع بعضها لتشكل نموذجاً يبلغ طوله ٨٠-١٠٠سم وتتصل مع بعضهــا بأطر خشبية قاسية بواسطة الغــراء. وبعد أن يجف الغــراء تستخرج القوالب المختلفــة الأشكال من أطرها الخشبية وتقطــع بمنشار كهربائــي ذي حواف رائعة جــداً إلى قطع رقيقة تبلغ ثخانتها ١ ملم. ومن ثم ينقش المخطط التمهيدي على ثخانة الترصيع بواسطة إزميل على القطعة التي سيتم تزويدها بها. يتم الترصيع على قطعة واحدة ويغرى ثم تفرك القطعة بورق الزجاج الجيــد وتطلى بطبقة من الزيت اللامع. إن الاختلاف في الجودة يكون بشكل خاص وفق المواد المستخدمة. تكون القطع المصنوعة من الخشب الحقيقي أكثر غلاء من تلك المصنعة من البلاستيك أو الخشــب البديل، رغم أنهــا لا تبدو مختلفة بالنسبة للشخص العــادي. ولهذه القطع قيمة خاصــة إذا كان لها مثلثات مصدفة صغــيرة أو شبيهة بالمعين مدخلة بها كمــا في أعمال الترصيع. لا يمكــن أن يتضمن هــذا النوع من أعمال الترصيــع تبريراً لإنتاج الترصيع الخشبية الموصوفة أعلاه، حيث يجب أن تلمع كل قطعة مصدفة وإدخالها بشــكل إفرادي. وهذا يعني أنه بالرغم من أن أغلب العاملين في هذا الجزء من العملية هم من الأطفال والشباب فإنهــا ما تزال تتطلب كلفــة إضافية واضحــة. تستخدم العملية الموصوفة هنا لصناعة علب أو صناديق لأي مقاس مطلوب. تباع هذه القطع غالباً في أي متجر لبيع القطع التذكارية. يتم تصنيع الطاولــة (لعبة النرد) وألــواح خشبية لها من أجل السوق المحلي والسائحــين. بالإضافــة إلى لعبــة الــورق فإن طاولــة الزهر هي واحدة من النشاطات الترفيهية الشعبية جداً للرجال في المقاهي. أما المنتجات الأقل شعبية فهي سطوح الطاولات ودعائمها. يبدو أن استخــدام الصــدف والعظــم والترصيع بالخشــب جنباً إلى جنــب من أجل تزيين قطع الأثاث لم يعــد مألوفاً وشعبياً في هذه الأيام، رغم أنه يمكن إيجادها بالتوازي مع القطع التي يعود تاريخ إنتاجها إلى القرن التاسع عشر.



١٣١-١٣٤. منتجات الترصيع الخشبية في دمشق وصناديق خشبية مرصعة.

مهنة صياغة الفضة:

انقرضت مهنة صياغة الفضة تقريباً في أيامنا هذه في سوريا أكثر من الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي، وتعتبر الحلي والمجوهرات شكلاً من الأمان الاجتماعي للنساء. فيما عدا التمائم والتعاويذ والحجب، والحلي الرخيصة المصنوعة من حبات الخرز الزجاجي، التي يستطعن جمعها بأنفسهن أو الحلي المصنوعة من المواد الطبيعية، فإن الفتيات والنساء غير المتزوجات لا يرتدين أية مجوهرات أخرى. ويعتبر الاحتياط الأساسي من المجوهرات جزءاً من مهر العروس. إنها الملكية الخاصة للمرأة، وهي غير قابلة للتحويل.. وللمرأة الحرية الكاملة لتتصرف بها كما تشاء بعد الزواج،تتلقى المرأة المجوهرات من زوجها، كما تشير أنيرغت نيبا، ليس كهدية فقط بل كمكافأة لمساهمتهن بدخل العائلة في السنة السابقة. وهكذا كان إنتاج المصنوعات الفضية يعتمد كثيراً، وعلى الدوام، على فصول السنة والمواسم. كما اشترى الفلاحون المجوهرات لزوجاتهم بعد الحصاد. أما اليوم، وفي كل مكان تقريباً من سوريا، فقد استبدلت المجوهرات الفضية، وبكثرة، بالحلي الذهبية التي تم تصنيعها بنموذج لا يختلف عن ذلك المصنع في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي. وهذا يمكن تفسيره أن المجوهرات قد فقدت وبشكل كبير أدوارها الأخرى كونها عنصراً مميزاً لإقليم أو فريق عرقي أو إثني محدد. وبسبب التغير من مورد الرزق الشخصي إلى السوق الاقتصادي الذي حل في أنحاء سوريا كافة فقد فقدت الفضة أهميتها كعملة احتياطية متداولة، تتراوح قيمتها في السوق العالمي بشكل أكبر بينما يحافظ الذهب على قيمته. تقول نيبا: «يشتري صانعو الذهب في دير الزور موادهم الأولية من حلب بسعر السوق العالمي، وتباع المجوهرات بسعر الشراء مضافاً إليها ٢٠٪ أجرة الصناعة و١٠٪ إضافي وفق العلاقة بين البائع والشاري وإمكانية المقايضة مع الشاري، وهكذا فإن عدداً كبيراً من صائغي الفضة أصبحوا ميكانيكيين (اختصاص سيارات) بينما تحول عدد منهم إلى صياغة الذهب».

يبدو أن صائغي الفضة قد عملوا فقط في دمشق، حلب ودير الزور. حتى أنه لم تتم الإشارة في إحصائيات الرحالة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى أي نشاط لصياغة الفضة في حمص، حماة أو المدن السورية على ساحل البحر الأبيض المتوسط. ونظراً إلى كمية المجوهرات الفضية التي ما تزال موجودة، فإن عدد صياغ الفضة كان كافياً. واليوم ما يزال هناك عدد من المعلمين القدماء الذين يعملون في دمشق، ولكنهم يتابعون الآن إصلاح بعض الأعمال فقط وقد تحولوا إلى بيع المجوهرات الفضية والأثريات للسياح، أو يعملون على تزويد هذه المواد لمحلات



١٣٥-١٣٦. خزانة عرض لمصنوعات فضية وأساور فضية. حرفة يدوية معاصرة/دير الزور.



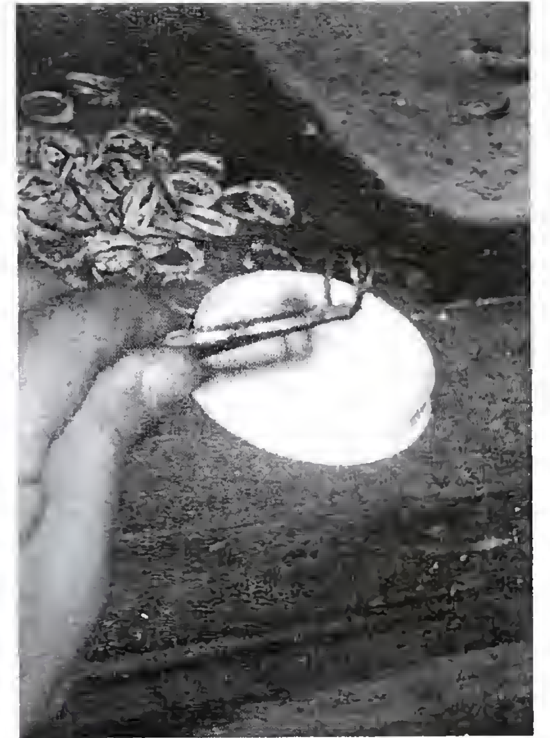
١٣٧. صائغ فضة في ورشته في دير الزور.





١٣٩ و١٣٨. عملية صهر نقود فضية وإحدى الرقاقات الفضية المنجزة.







١٤٠ و١٤٢. صائغ فضة حلبي يصنع خاتماً فضياً، ومراحل صياغته من التفريغ إلى خليط المعدن المصنع للخاتم قبل الغسيل.



١٤٣. مسدس له زند مصّون مع قرابة جلدية، وخنجر شركسي، برؤوس فضية. شمال سوريا أو تركيا. القرن الثامن عشر، أوائل القرن التاسع عشر.

الأثريات. يصعب تخمين العدد الحقيقي لصائغي الفضة، باعتبار أن مصطلحا صائغي الفضة والذهب قد استخدما بشكل مترادف من قبل الرحالة الأوائل. كتب أوبرهامر، عن صائغي الذهب الذين صنعوا مواد رائعة عديدة من المجوهرات، مثل العقود، القلائد.. إلخ، من الفضة وربما يكون من المهم القول أني شاهدت صدفة عدداً كبيراً من قطع المجوهرات التي أعتقد أنها صنعت في بداية القرن أو ما قبل ذلك، بينما تكون القطع القديمة من المجوهرات الذهبية التي تعود حكماً إلى القرن الماضي[١]، نادرة جداً.

يمكن أن نفسر ذلك، من ناحية أخرى، بأن الزوجات عندما يتركهن أزواجهن (ويبدو أن ذلك كان كثير الحدوث في الماضي مقارنة مع أيامنا هذه) فإنهن يقمن بإعالة أنفسهن ببيع المجوهرات التي غالباً ما تكون أملاكهن الوحيدة. ويفترض أن الجواهر الذهبية يمكن بيعها بسهولة أكثر، حيث يتم بعدها صهرها وإعادة صياغتها بعد ذلك. ومن الممتع أن نلحظ وحسب ما أخبرونا به في دمشق وحلب وكذلك من خلال ملاحظاتنا ومن الأدب القديم، أن مهنة صياغة الفضة قد مارسها المسيحيون الأرمن والكاثوليك في دمشق، بينما كان صياغ الفضة والذهب كلهم من الأرمن في حلب. وفي دير الزور

(١) المقصود القرن التاسع عشر الميلادي (المترجم).

عمـل اليهود وبشـكل استثنائـي في صياغة الفضـة حتى عام ١٩٣٠، عندمـا هاجروا إلى فلسطين ربمـا كان فيها عدد من صياغ الفضة الأرمـن في الماضي. أما اليوم فإن نسبة الصياغ المسلمين إلى الأرمن تشكل ثلاثة إلى واحد على التوالي.

يصعـب إيجـاد نمـوذج إقليمـي خاص بـين المجوهرات الفضية. هناك انتقال مـرن للمجوهرات من تركيا الحديثة مـن جهة ومـن فلسطين والعـراق وخاصة الموصـل من جهة أخـرى. والشيء الأكثر وضوحاً هو التميز والتفرد فيما يتعلق بمجوهـرات الشعوب في شبـه الجزيرة العربيـة. حيث تأثر نموذجهـا، وبشكل خاص السعودية وعمـان، على نحو مميز بالصياغة الفضية اليهودية اليمنية.

سوف نبحث وبشكل مفصـل في مستوى المجوهرات والحلي التـي تم إنتاجهـا من قبل صائغـي الفضة السوريـين في القسم الثـاني. سـوف ألفت انتباهكـم هنا إلى إحدى الميـزات التقنية لأعمـال صياغة الفضـة السورية، حيث يعتـبر الخليط المعدني ذو اللـون الفاحم من أكثر التقنيـات الزخرفية غير العادية من بين مثيلاتها التي استخدمها صياغ الفضة السوريين. و "النيلو" عبارة عـن خليط من الفضـة والنحاس والرصاص والكبريت مـع مادة البورق التي تساعد على صهـر المعادن. تغسل مكونات الخليط،ثـم تسحق وتصهـر إلى أساس معـدني بواسطة النار. وحسـب النسب الداخلـة في المزيج تكتسب الخلطـة لونها الذي يـتراوح مـا بين الأسـود المـزرق إلى الأسود الداكـن. يتم غسل وتلميـع الخلطة (التي تتحـول إلى قطعة جامـدة) بعد صهرها وتبريدها.تعتبر هذه العمليـة تقنية زخرفية خاصة جداً وتوجد فقـط في أماكن عدة من العالم الإسلامي. وقد عرفت في جنوب المغـرب (ربما العمل لحـرفي يهودي من تيجمـاوا وتارودانت)، وفي القوقـاز، وفي مدينة الموصل غربي العـراق، ومدينة بخارى في أوزبكستـان وحرات وكابـول في أفغانستان وفي مراكز الإنتاج في شرقـي تركيا الحديثة. تمـت صناعة هذه الأعمـال الفضية في فـترة الامبراطوريـة الغزنويـة ومركزها أفغانستـان وفترة السلاجقـة الإيرانيـين في القـرن الحادي عشر والقـرن الثاني عشـر. وفي سوريـا، استخدمـت المديـة ذات الغمـد وحمـالات الخناجـر ذات النمـوذج القوقـازي (الخناجـر الشركسية هي الأكـثر شيوعـاً هنـا)، وفي سنـادات زنـود المسدسـات وعلـب السجائـر وحاملة السيجارة، وكذلـك في الأساور العريضة ذات النمـوذج الـذي يذكرنـا بأساور تركيـا الشرقيـة. وفي الخواتم الفضيـة وفي القطـع المعدنيـة المحاكـة على القلنسـوات. يعتبر نموذجهـا وأسلوبها تذكاراً كبيراً لقطع مشابهة لها من القوقاز. ومن هنا يمكننا افتراض أن تقنية الخليط المعدني الآنف الذكر الذي دعي بالمينا من قبـل الحرفيين السوريين،نقلت عن طريق الحرفيـين الأرمن أو الشركـس. هناك دليل آخـر على أنه منذ منتصـف القرن الماضـي كانت أعمال المينا قـد قدمت من قبل الأرمن في القدس والشركس في الأردن في مدينة الكرك، حملت أغلـب الأعمال الموجودة والتي تعتبر إنجـازاً حقيقياً واستثنائياً في مجالهـا تواقيع وختم الحرفيين الذين صنعوها. (وحسب ما أشارت إس. واير في الصفحة ٦١، كانت الأساور ذات الزخارف المطعمـة بالمينا تدعى الأساور الشركسية في جنوب الأردن. وقد أشارت أيضاً إلى أن الأرمن والشركس كانوا صانعي المجوهرات بالمينا. ومـا يزال الحرفيون يزاولون أعمـال المينا اليوم في دير الـزور ناقشين عليها رسومات بسيطـة للجوامع أو براعم أزهار الشجـر المثمر. توجد نماذج منهـا في سوق الأثريات والفنون في دمشق. وما تـزال طلبات السياح على هـذه القطع ذات التقنية القديمـة البارعـة في صياغتها هي الحافز الوحيـد للاستمرار بتصنيعها حتى الآن.



١٤٤. أسـاور فضيـة مـع المينـا ذات نمـوذج شركسـي، جنـوب سوريـا، أوائل القرن التاسع عشر ١٩٣٠.



١٤٥. أساور ذات أقفال معدنية، مزخرفة بالمينا مصنوعة في دير الزور من أجل البدو - القرن العشرين.

١٠ المجوهرات الفولكلورية السورية

جوهانز كالتر

أقصد بالمجوهـرات الفلكلورية، الحلي والمجوهرات التقليدية لسكان المدينة والريف والبدو في سوريا باعتبارها منطقة حضارية واحـدة. (سوريا كمـا سبق وذكرنـا، ليست محصـورة بحدودها السياديـة الحالية). تزيـن أفراد من الطبقة العليـا في المدينة في الفـترة التي تهمنا، بمجوهرات مصقولـة، ناعمة عثمانية وكذلك بمجوهرات تم استيرادها من أوروبا، (لن نناقش ذلك في هذا الجزء مـن الكتاب). وكما شرحنـا في قسم المهن اليدويـة، كانت الحلي والمجوهـرات هي الملكيـة الأكثر أهمية للنسـاء المتزوجات. وكانت تقـدم لهن كجزء من مهر زواجهن أو كتعويض لهن لمساهمتهن في دخل العائلة. كان هذا يتم بـين الفلاحين والبدو بعد نهاية الدورة الاقتصاديـة السنوية، بينما بالنسبة لساكنـي المدينة فإنه متعلق بنتائـج أعمال العائلـة. وإذا كانت النسوة نشيطـات وفاعلات في الأعمال فإنهن يوظفن الفائض لديهن في المجوهرات.

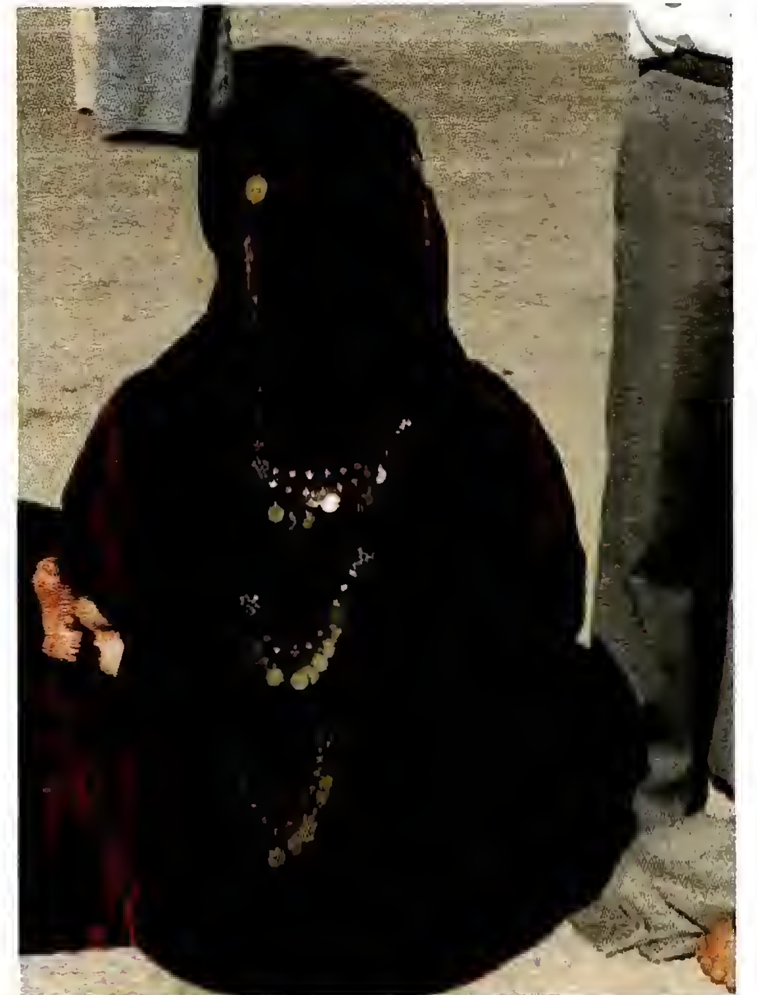
كانت الفضة بشكل تقليدي، المـادة الأكثر أهمية للمجوهرات ولكـن بالنسبة للناس الأكثر فقراً فقـد كانوا يستخدمون النحاس والبرونـز لهذا الغرض. وكانت الفضة المطليـة بالذهب والذهب الصرف أقل شعبية وتم استخدامها في بعض الحالات الاستثنائية. لم تلعـب الأحجار الكريمة أي دور في المجوهرات الفلكلورية، ولكن الأحجار نصف الكريمة كان يتم استخدامها أحياناً. وفي هذا المجال تعتبر أحجار العقيق والعقيق العـادي والفيروز والكهرمان الخيار الأمثل وكان ينسب لها خواص سحرية بسبب ألوانها الخاصة. وقد استبدلت بحبات الخرز الزجاجي من الألوان ذاتها.



١٤٦. تمثـال لامـرأة مـن الحجر، تدمـر، القرنـين الثاني والثالـث. توجد نفس مقومات مجوهراتها ضمن الحلي الفلكلورية السورية اليوم.







١٤٧. غطاء تزييني للرأس ومجوهرات رأسية لامرأة بدوية في خان شيخون.

١٤٨. امرأة فلاحة من خان شيخون.

١٤٩. امرأة بدوية، أصبحت من الحضر في منطقة قرب ماري.



١٥٠. من الأعلى والأسفل: عصبات للرأس لامرأة بدوية. في الوسط، عصبة رأس لامرأة فلاحة-دمشق أو حلب/القرن العشرين.





١٥١. طرابيش درزية مع عملة ذهبية متدلية على مقدمة الجبهة وأقراص للرأس مصنوعة من الفضة المخرمة.

كان دور المجوهـرات، كتوفـير للنقـود، وبوليصة تأمين، واضحـاً في استعمالها المتكرر للنقود كقلائد متدلية مرتبة في صفوف علـى عصبة الرأس وفي الأقـراط.. إلخ.. سادت أهميـة المجوهرات اقتصادياً بشكل واسع، ولذلك تم إنتاجها بكميـات كبيرة ليتم ارتداؤها كمجموعة متكاملة. وهنا تكون كمية المجوهـرات ووزنها أكثر أهمية مـن نوعيتها وجودتها. كانـت الحلي المتدلية، والأساور والخلاخـل، ترتديها النسوة عـادة كأزواج (اثنين). وكانـت كمية الفضـة الموجودة فيها المؤشـر الأكـثر أهمية لجودتهـا. وباعتبـار أن الفضة لم يتم استخراجهـا مـن المنطقة فـإن الحصول على المـواد الأولية لهـا يتم من خلال صهـر قطع الحلي القديمـة وقطع النقود الفضيـة. وإلى جانب قطع النقود الفضية (العثمانية) كانت دولارات ماري تيريز مألوفة بشكل خاص بسبب كمية الفضة الكبـيرة المستخدمة فيها. كانـت ماتزال تصك في فيينا، في القـرن الحـالي، خصيصاً للسـوق الشرقي. نوهـت كل من كتابات ميرش وفاير عن فلسطين والأردن على التوالي إلى أنه منذ عـام ١٩٤٠ تم استبدال إنتاج المجوهرات الفضية بشكل واسع بمثيلاتها الذهبية في نمـوذج خاص مميز. وهذا يعود بشـكل أساسي إلى التبـدل الاقتصادي في النصف الأول من هذا القرن. وحسب وصف ميرش، في عام ١٩٦٠، فقد توقف إنتـاج المجوهرات الفضية تمامـاً في الأردن. ووفق مصادري ومعلوماتـي يحتمل أن يكون استبدال الفضة بمعدن الذهب، قد أخـذ مكانه في سوريا خلال الفـترة الزمنية ذاتها. وكما ذكرنـا في القسم السابـق، ما يزال هناك عـدد من صائغي الفضة يعملون في سوريا، دمشق ودير الزور. وقد لاحظت أن صياغ الفضـة في دير الزور ينتجون كميـة محدودة جداً من الأعمال بسبب قلة المواد الأولية من الفضة. وما يزال صائغو الفضـة يعملون اليوم، رغـم حصر عملهم أساسـاً بإصلاح القطع القديمة.

مـن الصعب جـداً رسم خط بـين المجوهـرات الشعبية السوريـة ومجوهرات الأقاليم المجاورة لهـا، طالما أن تقاليد العصـور القديمة والبيزنطية ما تزال واضحة كمثيلاتها من الشـرق الأدنـى. بأي حال، يبدو أن المجوهـرات السورية قد تأثـرت بالمجوهرات المصرية واليمنيـة والفلسطينية وكذلك بالمجوهرات التركية الحديثة والقوقازية والإيرانية والقادمة من آسيـا الوسطى. ومع ذلـك، تعكس المجوهـرات الشعبية للإقليم الاتصالات التجارية المكثفة والتركيب الخاص للشعب السوري. تمثل الأساور والخلاخل خاصة نماذج شبيهة لتلك التـي وجـدت في أنحاء شبه الجزيرة العربيـة وحتى المناطق التـي أثر العرب بها علـى الساحل الإفريقـي الشرقي، لكن ليـس هنـاك أي معلومـات عن مجوهـرات الشمـال العربي الإفريقـي. تحتـوي مجموعـة أنطـوان توما، التـي اشتراها من سوريـا، على عدة أشياء تم تصنيفهـا من قبل واير على أسـاس أنها نموذج للبـدو الفلسطينيين وقـد وصفها ميرش كمجوهـرات مميزة شعبيـة أردنية. كما وصـف كمية كبيرة مـن القلائد والعقود المؤلفة مـن عناصر منضدة في صفوف كنموذج لمنطقة الكرك ومأدبا في الأردن. وهي موجودة أيضاً ضمن هـذه المجموعة. وقد ارتدتها النسـاء في أنحاء سوريا كافـة. صنعت أيضـاً سلاسل أطلق عليهـا «سلاسل القدس» بنسبة كبـيرة من القلائـد الموجودة في سوريـا. وقد وجدت أشـكال أخـرى متفردة أيضـاً، مثل القلائد المـدلاة التي لها شكل هلال أو صليب بين المجوهرات بالنموذج ذاته في (كافة



١٥٢. أقراص رأسية تتم خياطتها على الطربوش الذي يرتديه الرجال في جبل العرب، فضة مزينة بنقوش ذات تقنية عالية.

أنحاء بلاد الشام القديمة أعني: سوريا الحديثة الأردن، فلسطين ولبنان).

على الرغم من الفوارق في التفاصيل فإنه يمكننا التحدث عن القطاع «السوري» في مجال الحلي والمجوهرات. يعود ذلك على نحو ما إلى حقيقة أن هذه المجوهرات قد تم إنتاجها فقط في مراكز إنتاجية قليلة جداً. توجد هذه المراكز في سوريا (دمشق وحلب ودير الزور)، في الأردن، (الكرك وإربد). بينما توجد الأكثر أهمية في فلسطين هو القدس. وربما يكون السبب الآخر هو قابلية التحرك للحرفيين. وكما رأينا في القسم السابق، كان الحرفيون من المسيحيين بشكل خاص، بنسبة عالية من الأرمن الذين هاجروا من أقاليم خارج سوريا وكذلك اليهود. وهناك سبب آخر هام للطراز الموحد للمجوهرات ربما يتمثل في قدرة التحرك الكبير للسكان وخاصة البدو.

ختم بعض من الحرفيين عدداً قليلاً جداً من قطع المجوهرات. وتتضمن مجموعتنا بعضاً من هذه القطع المصنوعة في دمشق ودير الزور. أصبح واضحاً الآن أنه من الصعب جداً، إن لم يكن مستحيلاً، تصنيف المجوهرات وفق القبائل أو الشرائح المحلية. ويكون من المناسب أكثر إعطاء معلومات عن أماكن الإنتاج وبذلك يمكن الإشارة وبسهولة إلى الأماكن التي كانت ترتدى فيها هذه المجوهرات. من الممكن، في أغلب الحالات، تصنيف المجوهرات طبقاً لقطاعات اقتصادية أكبر، مدنية وزراعية ورعوية، على الرغم من أن الانتقال من قطاع إلى آخر يكون هنا مرناً أيضاً مثل الانتقال بين الفئات الاقتصادية ذاتها. ظلت المرأة البدوية، التي تمدنت الآن، ترتدي مجوهراتها البدوية ذاتها. لم يساعدنا حتى التمعن في إحصائيات الرحالة القديمة، على الإطلاق، في إيجاد بعض التصنيفات، وكذلك الأمر بالنسبة للملاحظين الشديدي التدقيق الذين أكدوا على وجود عدد من صياغ الفضة في دمشق وحلب وأن المجوهرات كانت ترتدى هناك بشكل مألوف، لكن أوصافها لم تكن كافية لهم للقيام بأي تصنيف. ربما يرجع ذلك إلى حد ما، للإهمال الكبير في إدراك أهمية المجوهرات الفولكلورية، لكنها تعود بالتأكيد إلى حقيقة أن الرحالة الذكور لم تسنح لهم الفرصة لرؤية المجوهرات النسائية، التي كانت غالباً تختفي تحت الملابس. حتى الصور القديمة لم تكن مفيدة كثيراً. والصور المتبقية القليلة التي تظهر الحلي التي تم ارتداؤها مثل صور بونفيس هي لقطات أخذت في الاستديو. وهكذا لا يمكننا التأكيد على أن المجوهرات الظاهرة تعود فعلياً إلى زي أو لباس معين.

إضافة إلى كون المجوهرات وسيلة لإظهار الجمال الأنثوي وفي الوقت ذاته وسيلة هامة للاستثمار (المجوهرات الجبهوية، والأقراط، الأساور والخلاخيل والقلائد وخواتم الأنف عند النساء البدويات) فإن لها أيضاً دوراً هاماً آخر: لقد كانت تستخدم كتمائم وتعاويذ.

١٥٣. دبابيس العمامة، مجوهرات مدنية من الطراز العثماني، دمشق- القرن التاسع عشر.

١٥٤. مجوهرات جبهوية وجانبية للبدويات في إقليم خارج حماة، أحجار ذهبية وزجاجية - القرن العشرين.

١٥٥. مجوهرات جبهوية ذات تخريمات فضية في أعلى اليمين نقشت كلمة "ما شاء الله"، وفي الأسفل زخرفة برسومات السرو والصنوبر-حلب أو دمشق-القرن التاسع عشر.



إضافـة إلى العـدد الهائل من التمائـم الصغيرة، يمكن أن تعـود أهميتها أيضـاً إلى أن بعض الأمثلـة منها يعود إلى التقاليـد والعـادات في الشـرق الأدنـى القـديم (مثل قرص التمائم المحمول)، هناك أيضـاً مجموعة كبيرة من التمائم الاسلاميـة (الحجـاب) تتضمـن حافظـات لمقتطفـات من القـرآن، نمـاذج سحريـة أو رقـى، يمكـن أن يكـون شكلها أسطوانيـاً، مثلثـاً أو مستطيـل الشـكل وفي حـالات نـادرة مستديـرة أو مثمنة الشكل. وغالباً ما كانت تتم حياكتها فوق الملابـس. بأي حـال، يربط العديد منهـا، في أكثر الأحيان، ويعلَّق في سلاسل ليتم ارتداؤها حول العنق أو فوق الأكتاف.

يعتـبر الحـزام النمـوذج الأكـثر أهميـة للمجوهـرات العمليـة. انتشـر استعمـال الحزام بشـكل واسـع في سوريا أكثر منـه في غالبية الأجزاء الأخرى مـن العالم الإسلامي. أُخذت مواصفات أشـكال الأحزمة بشكل رئيس من التقاليد العثمانيـة. فقد وجدت الأشكال اللوزيـة الكبيرة جداً للقطع المعدنية للحزام ضمن المجوهرات الشعبية العثمانية وكذلك في أجـزاء مـن الامبراطورية العثمانيـة السابقـة (بلغاريا، اليونـان وألبانيـا). وكمـا أن هناك صعوبـة في نسب نماذج معينـة للمجوهـرات لأقاليم بعينها، فإنه مـن الصعب أيضاً تأريخهـا. تم تصنيع بعض القطع الفريدة من مجموعة توما بشـكل مؤكد في القـرن الثامن عشر ولكن يعـود تاريخ صنع أغلبها إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بينما تكون النماذج الأساسية أكثر قدماً.



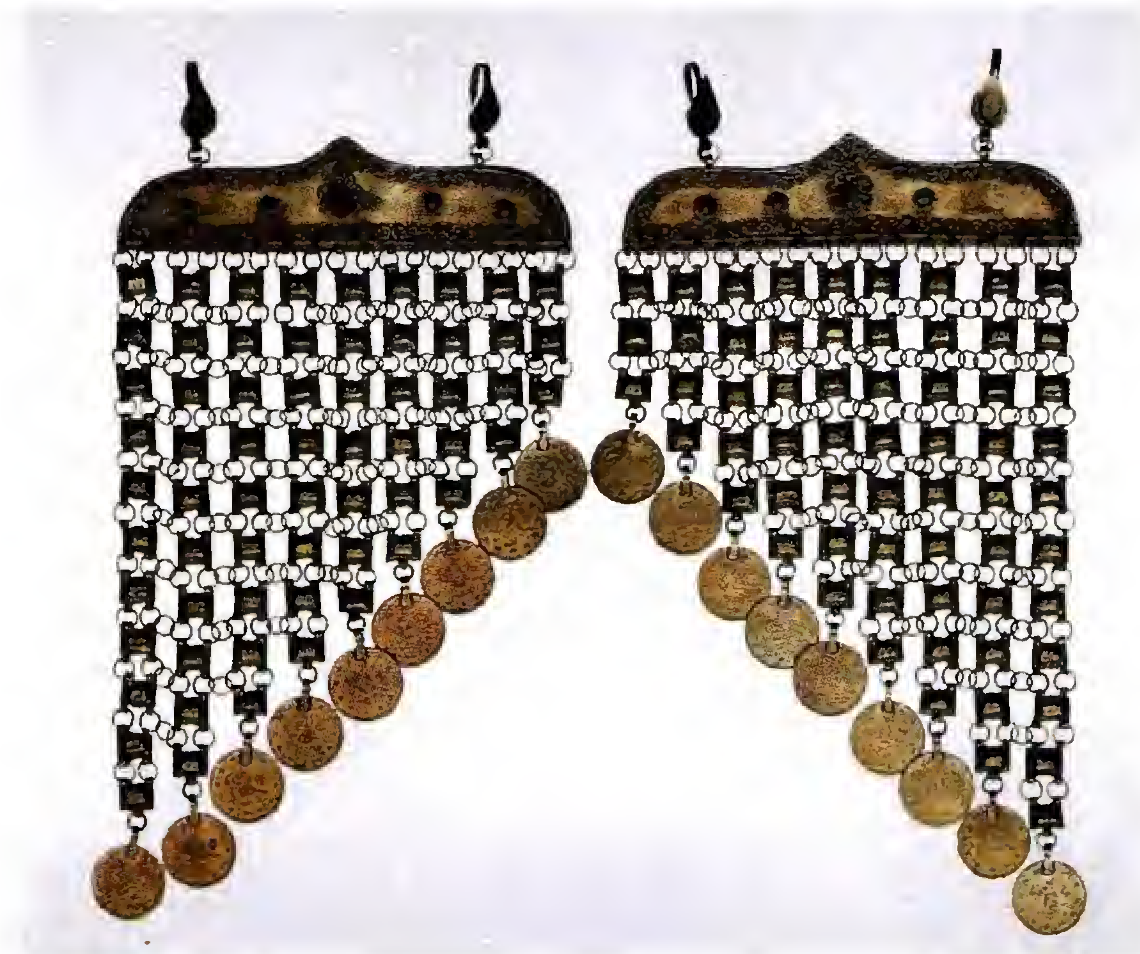
١٥٦. زوج مـن الأقراط للمرأة البدوية، نقوش ذهبية مع أحجار زجاجية، دير الزور بعد ١٩٤٠.



١٥٧. أقـراط فضيـة مذهبـة مـع قطـع نقديـة مـدلاة، أحجـار زجاجيـة ومرجانية- دمشق/القرن التاسع عشر.



١٥٨. قلائد بزخارف ذهبية يقال إنها من أعمال صائغي الذهب المسيحيين من حماه، صنعت للبدو.



١٥٩. قلائـد مدلاة للأصداغ، فضية مموهـة بالذهب ترتديها البدويات، حلب-القرن التاسع عشر.

ربما تعود بعض قطع المجوهرات إلى العهد الفاطمي، والأيوبي وعصر المماليك، وخاصة المجوهرات السورية والمصرية من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر. وبسبب صعوبة تأريخها فإن الأسلوب العملي لعرض المجوهرات في هذا الكتاب يكون بواسطة تصنيفها وفق الطريقة التي كانت ترتدى بها. يمنح أي انتساب لفرق دينية أو عرقية خاصة، مثل الأكراد أو الموحدين، فقط عندما يكون هناك دليل ثابت. تستند المعلومات المتعلقة بمواقع الإنتاج الخاصة على ورشات عمل الزخرفة، أو المعلومات المعروفة، التي تم الحصول عليها من هذه البقعة.

الحلي والمجوهرات الخاصة بالرأس:

للمجوهرات الخاصة بالإقليم، كما هو الحال في باقي أجزاء العالم الإسلامي، ميزة التركيز على الرأس.وذلك ليس بسبب الجمال فقط بل لها علاقة أيضاً بطرد عين الشيطان أو الحسد عن المرأة التي ترتديها.

مجوهرات الرأس:

تكون مجوهرات الرأس على شكل أقراص مستديرة تخاط فوق طربوش أو قلنسوة رأسية. يوجد هذا النموذج من الحلي بين الأكراد. وحسب ما أشار إليه برلينر ووبوروشاردت فإن الأقراص المستديرة يتم ارتداؤها فوق قلنسوة الرأس للذكور والإناث. بالنسبة لغطاء الرأس النسائي المستدير، تخاط صفائح معدنية رقيقة مسطحة وقطع من النقود أو قطع معدنية لها شكل اللوزة متدلية مع «عيون»، فوق الأقراص بواسطة سلاسل. أما حلي الذكور من هذا النوع فليس لها قطع متدلية. بل كانت الزخرفة إما منقوشة أو مؤلفة من أسلاك مخرمة وأحجار زجاجية مركبة في مواقع صغيرة. يعود تاريخ بعض هذه الحلي إلى القرن الثامن عشر بشكل مؤكد، يمتاز بزخارف نباتية مزهرة ورسم للنسر على شكل ميدالية بيضوية. تتوقف جودة القطع بمقارنتها مع أفضل القطع من ضمن الأعمال العثمانية المنقوشة في تلك الفترة.



١٦٠. تمائم جبهوية، فضية مموهة بالذهب مع أحجار زجاجية تدعى "العيون" حلب-القرن التاسع عشر، ارتدتها البدويات.

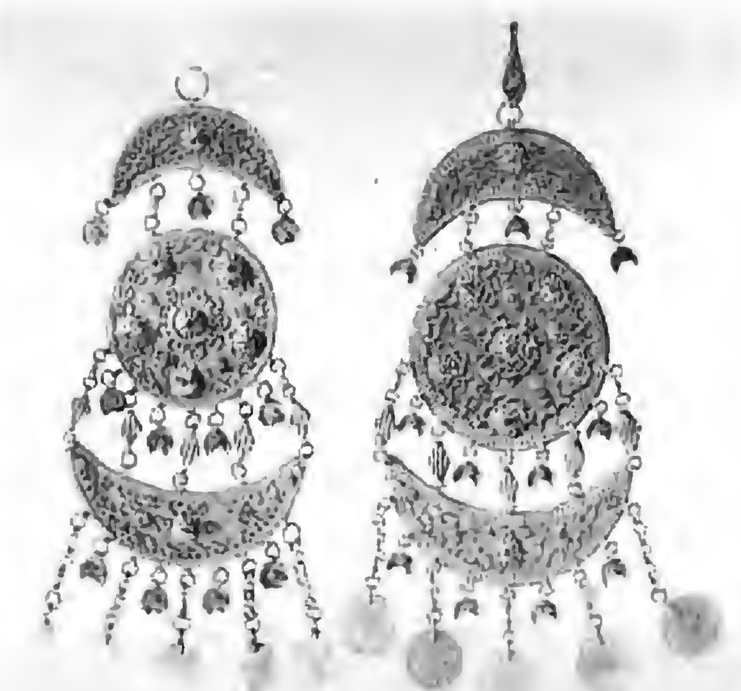


١٦١. حلي الأصداغ المترابطة وحلي مضفورة مشغولة على الطريقة التقليدية في وسط آسيا، للنساء البدويات -حلب أو دمشق القرن التاسع عشر.

١٦٢. زوج من حلي الأصداغ المزخرفة فضية مموهة بالذهب مع أحجار زجاجية، سراقب، القرن التاسع عشر.

١٦٣. زوج من الأقراط، فضة مذهبة القرن الثامن عشر.

١٦٤. أقراط بدوية: في الأعلى: ذهب، حلب-القرن التاسع عشر. في الأسفل: نقوش فضية، دير الزور، القرن العشرين.





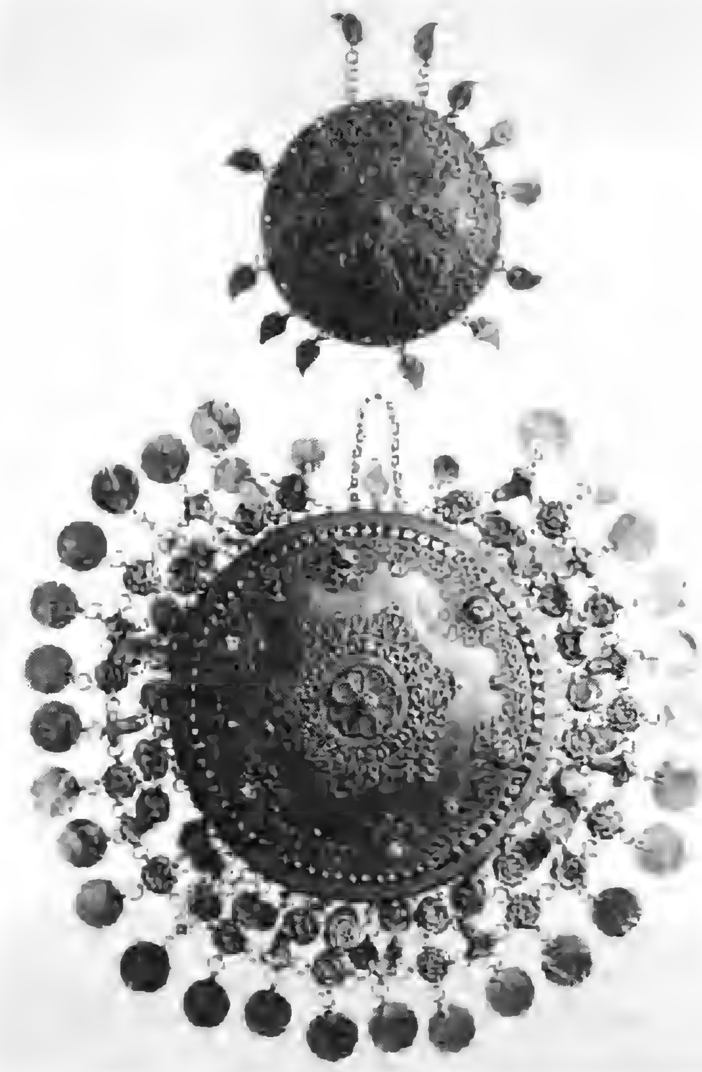


ربمـا كانت القطع العلوية المعدنية، التي تأخذ شكل أعلى الجمجمـة، مـن حلي الذكـور أيضـاً، وقد تمـت حياكة هذه القطعة فوق الطربوش. وهذه القطع جديرة بالملاحظة بسبب ترصيعاتها المتقنة التفاصيل والتي يمكن تأريخها وبكل تأكيد إلى القرن التاسع عشر. تزود أقراص لغطاء الرأس الخاصة بالموحدين بتخاريم وزخارف استثنائية رائعة ترتديها النساء فقـط، وكما يبين مثالنا فقـد كانت تحاك فـوق الطرابيش. ويمكن تعليـق صف من النقود المعدنيـة في المقدمة. كما يتم ترتيب صـف أو صفين من الأحجار الزجاجية في دوائر حول القبـة المركزية فوق أغلـب أقراص الرأسـ الدرزية. ارتدت النساء الفلاحات في سوريا، منطقة حوران والأردن، والنساء البدويات في المناطـق المشتركة الشرقية من دمشق، نموذجاً غير عـادي لحلي الرأسـ. تتألف تلك النمـاذج من سلاسل مترابطة ثقيلة تبـدأ عند الجبهة ثم تمر حول الرأس بكامله وتتصل فوق الرأس ثانيـة بسلسلة أخرى. يتم ربط سلسلتين إضافيتـين إليها تعلـق للأسفل فوق الأصـداغ. ومن الخلف، تغطـي سلسلة طويلة جديلـة الشعر. يمكـن أن يرتبط خيط مـن الخرزات الزجاجية مع نقود فضيـة أو ذهبية بالسلسلة حول الرأس. تحتوي سلسلة الرأس أيضاً على نقود أو أقراص معدنية مستديرة صغيرة علـى نسق النقود. وتنتهي الأجزاء الموجودة على طول الصدغين والقلائد المتدلية على الجديلة في الخلف بقطع أكبر من النقود في نهايتها. أما القطع النقدية المفضلة لهذا الغرض فهي دولارات ماري تيريز. تم صنع هذا النوع من حلي الرأس في دمشق خصيصاً للعروس.

توجـد ضمن مجموعتنا قطع تحمل طابعاً أو ختماً يحمل اسم (شـام) أعني دمشق، وختم الورشـة ليوسف أو عادل. تحيـك النساء البدويات الفقـيرات بديلاً عن ذلك النوع من حلـي الرأس قطع النقـود النحاسية المذهبـة أو المقلدة فوق شرائط وعصب قطنية.



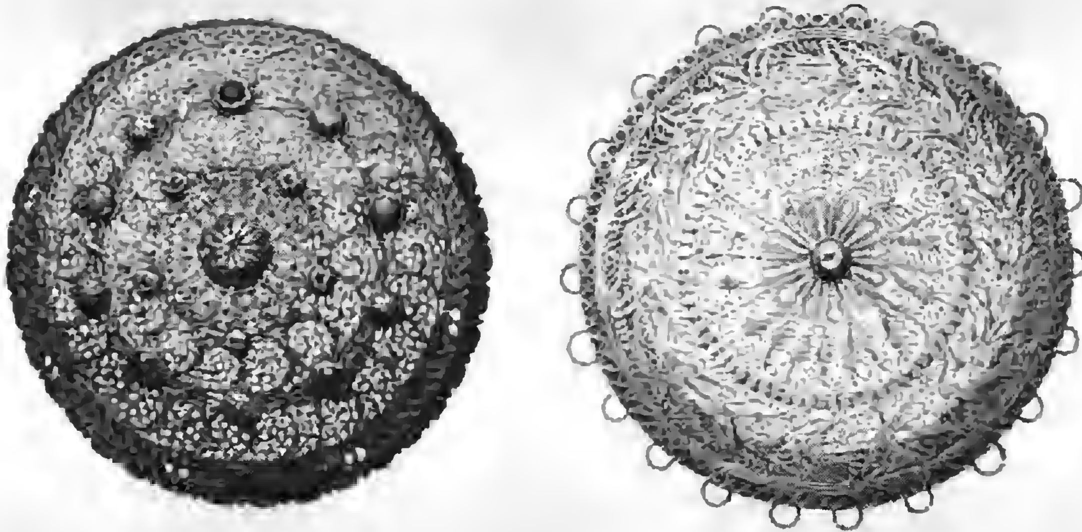
١٦٥. قرص رأس لنساء كرديات، صفيحة فضية/نحاسية-حلب، القرن التاسع عشر.



١٦٦. قرص رأس، سبيكة فضية/نحاسية مع خيوط مزخرفة-حلب، القرن التاسع عشر.



١٦٧. جزء من قرص الرأس مزخرف للأكراد مزين على النمط العثماني، القرن الثامن عشر.



١٦٨. قرص رأس مزخرف بتخاريم فضية للنساء الدرزيات/دمشق-القرن التاسع عشر.

ترتدي البدويات والفلاحات في أنحاء سوريا كافة السلاسل أو التيجان والأكاليل المرتبطة بمفاصل يتراوح عددها من ١-٥ صفوف. وتكون لها شراشيب مصنوعة من أقراص صغيرة معلقة، على شكل هلال أو أوراق لوزة، تعلق بقطع مثلثية الشكل وتربط على أغطية الرأس إما بعلاّقات خاصة أو تخاط عليها. توضع خرزات حمراء، وزرقاء، في نهاياتها. القسم الأوسط المقسم لأجزاء صغيرة إن وجدت)، يفضل عادة استخدام اللونين الأحمر والأزرق مع بعضهما في غطاء الرأس. نجد السلاسل والتيجان المترابطة الشبيهة بهذه ضمن الحلي الخاصة بالتركمان الذين يدعونها بالشنشولة. أما في سوريا فإنهم يدعونها عادة بالسنسال. الاحتمال الأغلب أنها أتت من الحلي التركمانية. يجب أن نشير أيضاً إلى بعض النماذج من الحلي، المشابهة جداً لسابقتها في هذا المجال، والتي يوجد في نهاياتها مثلث حاد الزاوية مع علاقة ومن الناحية الأخرى مثلث منفرج الزاوية مع خاتم. يتم ارتداء هذه الحلي بأزواج معلقة فوق الصدغين ومركبة على خلفية غطاء الرأس.

يتمثل ضم حلي الرأس والجبهة بنهايات مثلثية الشكل بواسطة علاقات تربط بسلاسل نحيلة وقلائد متدلية على شكل اللوزة موضوعة عند المنتصف في أعلى الرأس. يعلق هذا النوع من الحلي على جانب غطاء الرأس وتقرب السلاسل النحيلة إلى منتصف الجبهة. ويقال إن إحدى النماذج المميزة للحلي المترابطة مع بعضها، وجدت بين البدويات قرب دير الزور، وهي تتألف من قلائد متدلية هلالية أو مثلثية الشكل، تنبثق من جهة منها جديلة طويلة معلقة بها، ومرتبطة بسلسلة مشكلة بذلك عقد للصدر. وبحسب معرفتي فإن هذا النوع من الحلي المترابطة ارتدتها نساء أوزبكستان بشكل واسع.

يتألف نموذج آخر من القلائد المتدلية الهلالية من مثلثات مرتبطة بسلاسل أو شرائط قطنية تعلوها أبليكات فضية مزخرفة. يكون للقطع التقليدية القديمة المذهبة ذات الزخارف والأحجار الزجاجية سلسلة من القلائد المتدلية مع قطع نقدية مرتبطة إلى المثلثات بطريقة تنتهي بشكل مائل وبذلك تحدد ملامح الوجه، تكون هذه الحلي أكثر تعقيداً عن طريق ترتيب صفائح فضية ترتبط بها تسع سلاسل مؤلفة من عناصر مزخرفة معلقة على شكل متمايل. وهذا نادر جداً. وقد صنعت ربما في حلب وهي تذكر بالقلائد المتدلية الموجودة في الرسوم المصرية المتعلقة بالمملكة الوسطى. من جهة أخرى، تكون تلك القلائد التي لها شكل القبة واضحة في التقاليد الإسلامية. وربما تكون الصفيحة الفضية المذهبة ذات الشكل السداسي المنقوشة بزخارف ورسومات شجر السرو والأرز، هي أيضاً حلياً متدلية للأصداغ وليست كما يفترض أن تكون حلية توضع في وسط العقد.



١٦٩. حلي قرص الرأس للدروز، فضية منقوشة، حلب، القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.



١٧٠. عقد لنساء بدويات، ذهب مع أحجار زجاجية زرقاء، حماه أو حلب ١٩٤٠.

١٧١ و١٧٢. امـرأة تضـع حلـي الرأس وخلفيـة مترابطة وأمثلـة عن هذه الحلـي، قطع دمشقيـة. زينة عروس للبدويـات والفلاحات في جنوب سوريا.



١٧٣. عقد لفتاة بدوية، صنع من الخرز مع تمائم فضية جنوب سوريا.

١٧٤. عقود لفتيات بدويات- القرن العشرين.









١٧٥. حلـي بدويـة، عقـد للعنـق مصنـوع مـن أسـلاك متشابهـة وزوج من الأسـاور النحاسيـة (اليمـين) تم جمعهـا مـن قبـل يوتنـغ في القـرن الماضـي. تعمـل الحلي التـي تضم أصدافـاً منكمشة وقلائـد متدلية عمل التعويذة أو التميمة.

توضح العناصر التي لها شكل دموع مع الخرز الزجاجي والقلائد المتدلية ذات الشكل الهلالي أو المستدير بروابط كروية الشكل، تم ارتداؤها كتعويذات في منتصف الجبهة ويتم تمويهها غالباً بالذهب وخاصة المصنعة فيها بشكل جيد. كما تم تصنيع بعضها من الذهب المنقوش برسومات وتزيينات على شكل حبيبات صغيرة. يتحدد المركز دائماً بقطعة زجاجية لونها أزرق تدعى «العين» وهذا يرتبط بفكرة الحسد. يعود مفهوم الحسد إلى الزمن القديم ويرجح أنها نشأت في إقليم البحر الأبيض المتوسط وانتشرت بشكل واسع في أنحاء العالم الإسلامي.

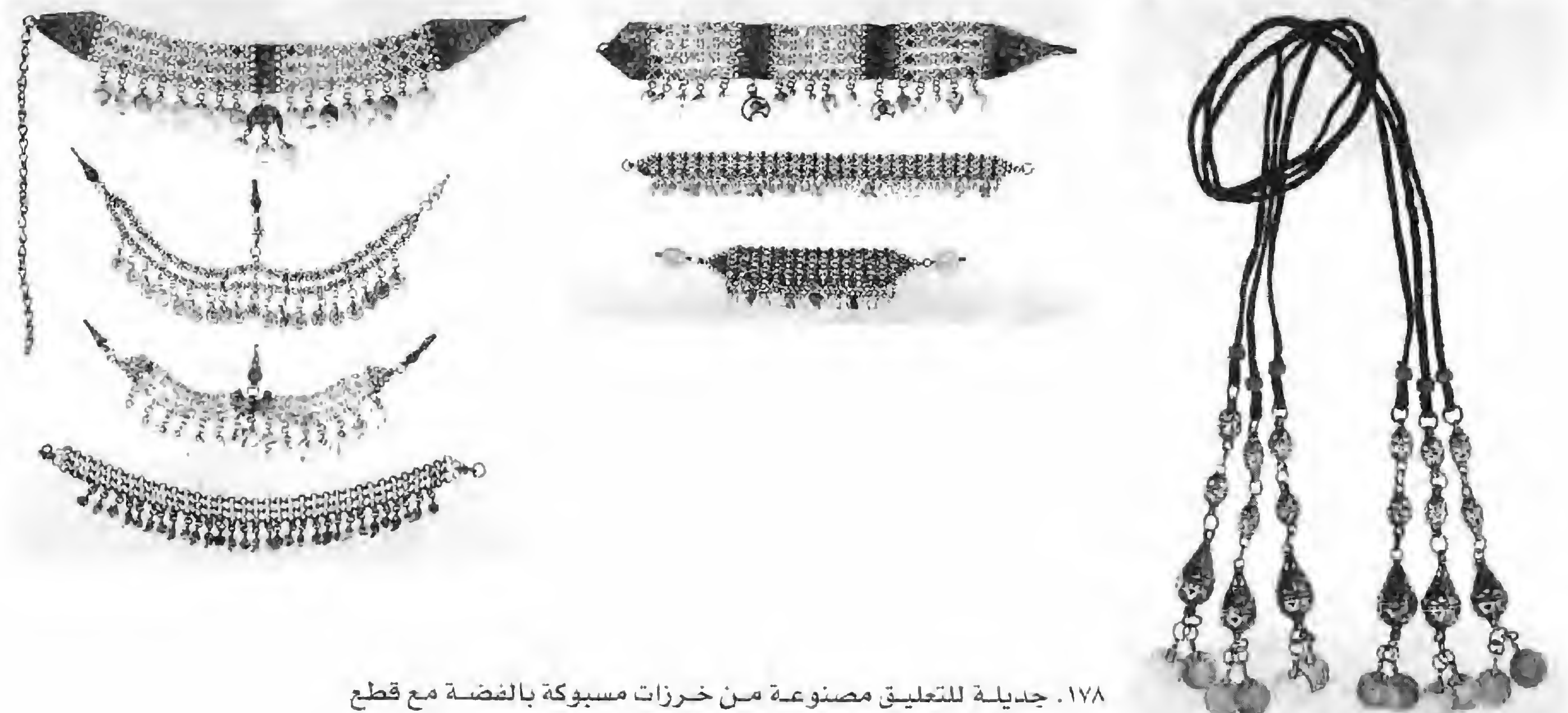
يؤكد من يؤمن بالحسد أن بعض الناس قادرون على التسبب بالمرض، وسوء الطالع أو الخراب للممتلكات بمجرد نظرة كره أو حسد. يرتكز علم التعاويذ والتمائم الإسلامية كثيراً على الحاجة لاستخدام كل الوسائل الممكنة لحماية النفس ضد هذه النظرة الشريرة.

لا يوجد ما يماثل الضفيرة الخلفية المتدلية التي ارتدتها الكرديات والبدويات بين التقاليد والعادات العربية الخاصة بالحلي. وكما هو الحال لدى عدة عناصر أخرى من الحلي الفولكلورية السورية فإنها يجب أن تكون قد جاءت من وسط آسيا. وهذا أوضح ما يكون في حال كون الجديلة الخلفية المتدلية مصنوعة من أربع سلاسل معلقة بأنصاف دوائر فضية مزخرفة ومنتهية بقلائد متدلية مثلثية الشكل.. يوافق عدد هذه التمائم عدد الأطفال (أعني الصبية الأبناء لمن تحملها). أما اليوم فلم تعد تستخدم على الإطلاق، بينما كانت الفلاحات والبدويات يرتدين هذه الحلي في الجزيرة في شرقي سوريا.

الأقراط الحقيقية والتقليدية:

تحتوي مجموعة توما على عدد قليل من الأقراط.. تشكل الأقراط ذات الرقاب والتي لها شكلها دائري مع نماذج الدموع والكرات في قسمها السفلي والمنتهية بقطع نقدية متدلية على الأغلب، جزءاً من التقاليد الإسلامية العامة. تعود الأشكال الأخرى ذات الأقفال إلى الطراز البدائي البيزنطي. ويكون لها مشبك قابل للتحريك معلق بدبوس ينتهي بالجزء الخارجي وهي دائماً مذهبة ويوضع عليها خرزات أو أحجار زرقاء وأحياناً توضع أحجار حمراء في إطارها. كانت أحجار هذه القطع القديمة من الفيروز والكهرمان، أو المرجان، ولكنها استبدلت في الأمثلة الأكثر حداثة بالخرز الزجاجي. وجدت نماذج الأقراط التي لها شكل نصف دائري والمذهبة في جزء منها مع زخارف ونقوش رائعة بين الأكراد الذين سكنوا شمال سوريا، وكان لها نموذج وطابع خاص جداً. تحتوي عادة على متدليات على شكل اللوزة وتتوضع عليها أحجار زجاجية أو أحجار الفيروز. هناك نوع آخر تقليدي شبيه بتلك الأقراط، رغم أنها أعمال يدوية، تمثلت بزوج من الأقراط تم تصنيعها في دير الزور منذ أربعين سنة مضت. وكما أشار برلينر وبور شاردت، يعود هذا التشابه إلى حقيقة أن الأعمال الزخرفية للأكراد قد صنعها اليهود. والأمر نفسه قيل عن صائغي الفضة في دير الزور. تمثل الشكل غير العادي الأكثر للأقراط في زوج من الأشكال النحيلة المنتصبة (شكل كأس) مصنوعة من جزئين منقوشين مرتبطين مع بعضهما بمشبك منحني جداً. وفي وسطها معين عمودي، يبدو من الوهلة الأولى أنه مخرم ولكنه في الواقع مصنوع من رقائق معدنية مزينة عن طريق نحتها بالإزميل وثقبها. وتوضع وسط ثقوب المعين أحجار زرقاء. يعود تاريخ صنع هذا الزوج من الأقراط إلى القرن التاسع عشر وربما إلى القرن الثامن عشر.

١٧٦ و١٧٧. عصبات صدغية وجبهية. كلها نماذج من الحلي التي كانت ترتديها النساء البدويات والفلاحات، وقد أخذت من الحلي التقليدية للنساء التركمانيات في وسط آسيا. حلب ودمشق/ القرن التاسع عشر والقرن العشرين.



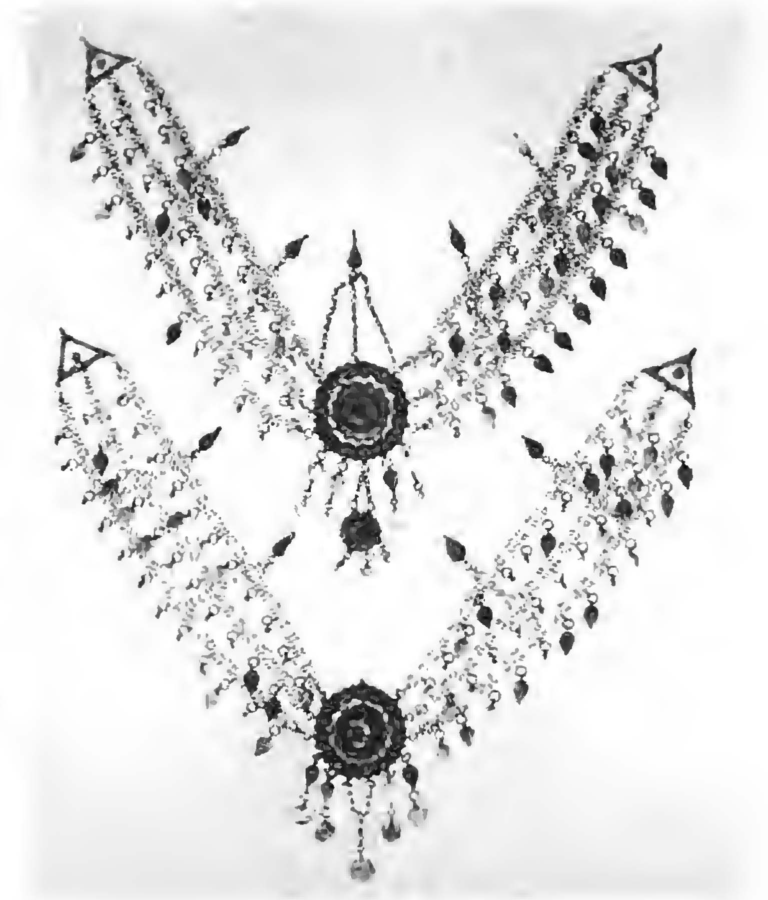
١٧٨. جديلة للتعليق مصنوعة من خرزات مسبوكة بالفضة مع قطع نقدية متدلية، حلب/القرن التاسع عشر.





١٧٩. عقد ذوحلقات للعنق في دير الزور مصنَّع للبدويات، فضة مع حبات خرز زجاجية، ١٩٤٠.

١٨٠. عقد ذو حلقات للعنق ارتدته النساء الآشوريات والبدويات المسيحيات من المنطقة الحدودية بين سوريا والعراق ١٩٠٠.







١٨١. حلي للصدر، فضية مموهة بالذهب مع أحجار زجاجية زرقاء. حلي للفلاحات من منطقة حول سراقب مصنوعة في حلب، منتصف القرن التاسع عشر.

١٨٢. عصبة للرقبة، مزخرفة بالفضة، حلب القرن التاسع عشر.

١٨٣. عقد، فضة مع الذهب وقطع نقدية متدلية مصنوعة في حلب، منتصف القرن التاسع عشر للنساء الفلاحات والبدويات.



١٨٤. عصبات للرقبة مؤلفة من عناصر مرصعة ومخيطة على شرائط قطنية مركبة عليها. ذهب،أوفضة مطعمة بالذهب. ارتدتها النساء في المدن والقرى وكذلك البدويات،تختلف فقط في جودة تنفيذها. حلب ودمشق القرنين التاسع عشر والعشرين.

حلي الرقبة والصدر:

عرفت النساء البدويات فقط، الحلقات المطابقة للرقبة تماماً، التي تكون منحنية أو ملتفة مع مشبك أو خطاف على شكل حرف S ومن خمس إلى سبع سلاسل من القلائد المتدلية على شكل هلال أو نقود معدنية في نهايتها. لقد اختفت هذه الحلي الشعبية السورية اليوم. ارتدت النساء المسيحيات البدويات اللواتي هاجرن من العراق إلى سوريا في القرن الماضي(١) مثالاً واحداً رائعاً مع صليب بسيط كقلادة متدلية في الوسط. هناك قطع تشبه تماماً تلك النماذج من حلقات الرقبة وهي عبارة عن عصبات الرقبة المعدنية المصنوعة من حلقات فضية متداخلة مع صفيحة متشابكة كبيرة عند المقدمة، ترتبط مع بعضها بقفل على شكل وتد أو دبوس. ولها أيضاً سلسلة من القلائد المتدلية. أما القلادة الموجودة في وسط العصبة في مثالها هذا، والتي جمعها يوتينغ في سوريا في عام ١٨٦٠، تشبه طاولة أو حامل القرآن. إنها تمثل النموذج الأكثر شعبية من حلي الرقبة السورية وقد ارتدتها النساء القاطنات في المدينة والفلاحات والبدويات على السواء. يمكن ترصيع عناصر متفردة مثل يرقات الخنفساء أو الفراشات في صفوف، وتعلق حلقات ونقود وهلال أو ورق اللوزة على هذه العناصر بواسطة عيون. ويتم التركيز دائماً على الوسط. تشتري النساء الأجزاء المتفردة مباشرة من صائغي الفضةو الذهب ومن ثم يحكنها بأنفسهن فوق العصبات القطنية أو المخملية.صنعت هذه الأجزاء في كل من دمشق وحلب. تتميز القطع المصنوعة لفرق السكان المتنوعة، المذكورة أعلاه، بجودة تنفيذها أو بنوعية المواد المستخدمة بتصنيعها. هناك أجزاء مرصعة بالذهب والفضة والمموهة بالذهب والفضة من نوعيات متعددة. ومنذ عام ١٩٣٠ تم استبدال عصبات الرقبة الضيقة من هذا النوع الموجودة لدى النساء البدويات، في بعض الأحيان بمطرزات من الخرز.

تأثرت قطع حلي الرقبة، المؤلفة من قرصين مستديرين كل منهما مركب عليه هلالات متماثلة، والتي تكون عادة مذهبة مع تخريمات من تقاليد حرفية عثمانية، بنماذج من طراز الحلي الأوروبية. وهي أيضاً لها سلاسل مع قلائد على الجوانب، وكل منها يتم استحواذه في حالات وأغراض خاصة ويفترض أن تحمي النساء اللواتي يرتدينها من مخاطر خاصة.

وتصنع العقود المؤلفة من ٣-٥ صفوف متمفصلة مع أشكال مستطيلة ومنتهية بمثلثات وفق نموذج حلي الطراز الباروكي الأوروبي. تكون مقوماتها الشرقية الهلالات وأقراص التمائم والتعويذات المثقوبة المعلقة في الصف السفلي، وتكون الأفضلية للحبات الزجاجية الزرقاء أو القلائد المتدلية على شكل كف اليد في السلاسل.

ارتدت النساء هذه النماذج المعقدة لحلي الصدر في المدن وكذلك في القرى. وتسود بين النساء البدويات، العقود المؤلفة عادة من قطع نقدية بصف وحيد يمكن أن تربط حبات الخرز الزجاجية بخيط بين القطع النقدية.

نجد الحرفة اليدوية الأكثر جودة، من تلك الموجودة عادة بين حلي الرقبة السورية في السلاسل المتمفصلة مع كرات منقوشة مخرمة مسبوكة من الفضة في بعض الأحيان، والتي صنعت أثناء القرن التاسع عشر في حلب.

هناك أمثلة نموذجية عن حلي البدويات مثل العقود ذات الصف أو الصفين المربوطة بحبات زجاجية وخرزات مرجانية أو كهرمانية وهي أيضاً مألوفة جداً في الأردن. يستورد الكهرمان إما من بحر قزوين أو يوجد في منطقة نهر اليرموك، بينما يستورد أغلب المرجان من المحيط الهندي.

إلى جانب الدور التزييني للحلي فإنه يتم استملاك حلي الرقبة، بشكل خاص، بغية استخدامها كتميمة أو تعويذة. سنناقش لاحقاً أهمية الألوان والأشكال والترابط بين عدد التمائم والرموز. أما هنا فسوف أشير فقط إلى مثال خاص ملفت للنظر من طراز حلي الصدر هذا (التمائم والتعاويذ). وهي الحلي الصدرية التي ارتدتها النساء الفلاحات في سراقب (شمال سوريا) والتي لها ثلاثة صفوف وتنتهي بمثلثات. يوجد في وسطها قرص مستدير كبير له زخارف مخرمة. أما مركز هذا القرص فهو عبارة عن خرزة زجاجية زرقاء، مضيئة، لماعة،كبيرة وغير عادية، يحيط بها حبل على شكل حلقة من حبات الخرز الزجاجية الصغيرة في العقد المخرمة المزخرفة.

(١) المقصود القرن التاسع عشر (المترجم).















١٨٥-١٨٨. مـن اليسـار: أسـاور مدنيـة وريفيـة علـى الطـراز العثمـاني. القطـع في الأعلـى، أنتجهـا صيـاغ فضـة في دير الزور، قبـل ١٩٣٠، أما القطع الموجودة في الأسفل فصنعت في حلب ودمشق ما بين عام ١٨٧٠ وعام ١٩٣٠.

١٨٩-١٩١. مـن اليمـين: أسـاور ومـن الأسفـل خلاخيـل للبدويـات، وهي مشابهـة لحلـي البدويـات في شبـه الجزيـرة العربيـة. يمكـن أن يعود بعض مـن هـذه النمـاذج إلى فـترة المماليـك. أمـا الـزوج، في أعلـى الصـورة علـى اليمـين، فهو يحمـل توقيـع وختـم ورشـة عمـل لصائـغ فضـة دمشقـي مسيحـي. صنعـت جميعهـا في دمشـق، أواخـر القـرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

حلي السواعد والكواحل:

يبدو من المدهش التعامل مع الحلي التي يتم ارتداؤها في المعاصم والكواحل في قسم واحد، لكننا نبرر ذلك لأن أولئك الذين ارتدوا المجوهرات والحلي الشعبية السورية لم يتطابق توصيفهم مع المدخل التنظيمي لعلماء الأعراق البشرية أو لجامعي المجوهرات. أساساً فإن أي شيء يمكن ارتداؤه حول السواعد يمكن أيضاً أن يتم ارتداؤه حول الكواحل. وهناك دلالات ومؤشرات تعطى حول ثخانة وقطر القطع الفردية. وهذا أيضاً نسبي، حيث أن الذي يمكن أن يلائم رسغاً قوياً متيناً يمكنه أيضاً أن يلائم كاحلاً نحيلاً. ارتدت النساء البدويات أساور متينة مسبوكة من النحاس والبرونز والفضة مع نقوش بارزة مكملة تتراوح من حيث عقدها مابين (٣-٥) ولها زخارف محززة مائلة. كما ارتدتها النساء البدويات في أنحاء الإقليم كافة امتداداً من النجف، عبر فلسطين والأردن وسوريا والعراق. ويمكن نسب نماذجها إلى فترة الأيوبيين. وعرف عن دمشق أنها إحدى مراكز الإنتاج الهامة لهذه الحلي.

يحدد الختم على سوار الفضة في مجموعة توما كمية الفضة المستخدمة في التصنيع (٨٠٪ مثلاً) وأسماء الأماكن التي تم فيها التصنيع، مثل الشام (أعني دمشق)، بينما يعرف الصانع بختمه مثل (فرح). ربما كان استثمار رأس المال هو العامل الأكثر أهمية لشراء هذه الأساور، وهكذا فإن وزنها وكمية الفضة فيها كان التقييم الأكثر أهمية لها.

ارتدت معظم النساء أساور مؤلفة من الفضة إما على شكل زاوية أو دائرة، يفتلان مع بعضهما وينتهيان إما على شكل مضلعين (عادة لها أربعة عشر جنباً) أو مشكلة مثلثات فضية، توضع خرزة زجاجية زرقاء على إحدى النهايات المثلثة وأخرى حمراء على الجهة الثانية. تدعى النماذج من هذا النوع من الأساور «المبرومة» ويحتمل جداً أن تكون قد جاءت على طراز الحلي المصرية رغم أنه يقال إن الأساور قد تم تصنيعها في دمشق. تحتوي هذه الأساور عادة على كمية كبيرة جداً من الفضة وتشتريها النساء عادة بالوزن. تتشابه الخلاخيل في شكلها. وتتضمن المجموعة خلاخيل مجوفة مع قسم عرضي مدور ونهايات مضلعة. هناك مثال رائع، وخاص، مصنوع من المينا الجميلة بشكل استثنائي. يوجد النموذج الأساسي لهذا الطراز من الخلاخيل في أنحاء شبه الجزيرة العربية وبين السكان المسلمين في الساحل الشرقي الأفريقي، وفي الجزء الإسلامي من أثيوبيا وكذلك بين الطوارق في الصحراء الوسطى. هناك نوع آخر جيد هو الخلخال المذهب الثقيل، الذي يبدو وكأنه قد تم لفه ولكنه في الواقع صنع على هذا الشكل. يرجع الخلخال الذي يكون بحجم الرسغ مع قفل خابوري الشكل وسلسلة أمان إلى الحلي الهندية بينما الخلخال المذهب الذي له نهايات على شكل أفعى يعود إلى أوائل العصر العثماني وإن لم يكن فإلى عصر تيمورلنك. تغطي الأساور المسطحة الضيقة ذات المفاصل قفلها الخابوري الشكل بإحكام وصنعت منها نقوش المينا أساساً على طراز حلي القوقاز أو شرق الأناضول. وقد صنعت بشكل عام من قبل الصاغة الأرمن والشركس. تغلب على زخرفة المينا الرسوم التي تأخذ أشكال الأزهار، أما الأماكن التي لا يوجد فيها مينا فتثبت عليها أزهار مذهبة مقطوعة من صفائح معدنية مرتبطة بالأسوارة (ببراغي أو تباشيم). يحتوي القفل على حلقات مربوطة به لمنع القطعة من السقوط والضياع. وتحتوي عين القفل على حبة فيروز. حصلنا على مثال واحد من سوريا له ختم يشير إلى أنه صنع في مدينة خان في شرق الأناضول. ولكن يفترض أن تكون أساور من هذا النوع قد تم صنعها في حلب ودمشق وفي الكرك في الأردن. تصنع حواف الأساور القديمة على شكل محدب مع خرزات مرصعة في صف واحد وملتحمة على القطعة. وتتألف إحدى الأمثلة الحديثة (التي ربما يعود تصنيعها إلى العام ١٩٥٠) من عدد من الأساور الطيعة مع أقفال خطافية بسيطة وزخارف من المينا. وتكون مجموعة من حلقات وأطواق المعاصم متشعبة أيضاً وهي تتبع مبادئ التصنيع ذاتها ولكن على شكل أوسع. وما تزال النماذج الأولى على الطراز العثماني التقليدي، وقد تم تصنيعها بواسطة التخريمات الدقيقة المضافة إليها في مركز المجالات المثلثية. يتم تزيين زوايا هذه المجالات بقطع فيروزية صغيرة. يفترض أن الأساور من هذا النوع صنعت في دمشق. كانت الأنواع التي صنعت في دير الزور للبدويات خصيصاً أخشن من غيرها ولكنها تتبع مبادئ التصميم ذاتها. ونلاحظ من النظرة الأولى أن الاختلاف الأكثر وضوحاً هو أن المجالات الفردية للنقوش تم تأطيرها ببدائل من الخرز والأحمر والأزرق. ويتم تصنيع الأساور الحلقية المصنوعة من المينا والتي لها النموذج الأساسي نفسه في دير الزور في أيامنا الحالية. قسمت زخارفها إلى قسمين بقفل ومفصل. بينما كانت رسومات التصاميم المفضلة على شكل زهرات بسيطة أو تمثل الجوامع المحاطة بالأشجار. أما السطح المحدب الذي يغطي القفل الخابوري الشكل فهو يحمل ختم الورشة مثل عبد الجابر الموصلاوي أحد صياغ الفضة الثلاث في دير الزور. الذين ما يزالون ينتجون أساور المينا. هناك نوع آخر من أنواع الأساور الحلقية المصنعة في دير الزور، ليس لها مفصل، بل قفل خابوري فقط يمر ضمن العيون المتشابكة. تتألف تزيينات هذه الأساور من صفوف متوضعة للخرز وصفيحة غير مزينة من الفضة مقطعة على شكل مضلعات أو سداسية الشكل. يفترض أن يكون هذا النوع قد أنتج في دير الزور في الفترة ما بين ١٨٨٠-١٩٣٠ خصيصاً للبدويات في الأرياف المحيطة.

جاءت الأساور، ذات القفل والمفصل والقسم المعترض المثلثي، من دير الزور أيضاً. ويظهر هيكل الأسوارة منمقاً في شكله كما زودت الأشكال المثلثية لثلاث سبائك نصف دائرية. وتقفل الأسوارة بمشبك مصفح. يتم تغطية الوصلات بقطع طويلة طيعة من حبل الخرز. أما القطعة، ذات الشكل الشبيه بالمعين التي تغطي القفل، فهي مقسمة إلى خمسة خرزات زجاجية مرتبة على شكل صليب مثلاً.

تتميز الحرفة الأكثر إبداعاً في الأساور ذات الشكل الأساسي المتشابه مع التزيينات نصف الدائرية التي لها تخاريم أو نقوش أو حبيبات حمراء تقليدية. في هذه الحالة يزين القفل الخابوري ذو الشكل المثلثي برسوم الأزهار. أو بالحبيبات الحمراء التقليدية مع قطعة فيروز واحدة في مركزها أو زهرات مصنوعة من فيروزات صغيرة في مواقع خاصة لها. ارتدت كل فئات السكان الأساور الضيقة ذات الأقفال الخابورية والمفاصل المزينة في بعض أجزائها فقط. تمتاز القطع من الحلي بزخرفة معدنية مصفحة غير نظامية ورسوم للأزهار يمكن أن يثبت تاريخ صنعها بنقش مخرم منحوت بإزميل أو ربما تخريمات بسيطة بواسطة سلك حاد على الأرضية المعدنية. يتبع نموذج أقفال الأنواع الأكثر تعقيداً الذي يحتمل أن يكون مألوفاً في المدن، النمط الأوروبي الذي ربما أُخذ من العثمانيين الأتراك.

يمكن ارتداء الخواتم في كل أصابع اليدين (ما عدا الإبهام)، وعلى كل حال لا يمكن أن تميز أحد الخواتم التي استعملت في هذه الأقاليم عن نظائرها التي تم ارتداؤها في الأقاليم المجاورة. هناك أمثلة من الأحجار الزجاجية أو الأحجار نصف الكريمة. تلك الأحجار لها حوامل مستديرة أو مثلثية الشكل. وهناك أيضاً خواتم لها فص على شكل قطعة نقدية وأخرى لها نقوش، مزينة بالمينا منذ عام ١٩٣٠ ولكننا هنا لن نتطرق إلى مناقشتها..

الأحزمة وأقفال الأحزمة:

انتشر استخدام الأحزمة في ظل التأثيرات العثمانية بشكل واسع في سوريا أكثر من الأجزاء الباقية من العالم العربي. تتألف أغلب أقفال الأحزمة المتينة من قسمين: قسم على شكل ورقة نباتية كبيرة (بوتيه) والثاني حبتان من اللوز مرتبطتين مع بعضهما بنهايتهما المتبلدة، غير الحادة ويتم إخفاء الخطافات بواسطة عقدة كما يوجد داخل الورقة النباتية وريقة أصغر منها لها خرزات زجاجية حمراء في الإطار المخصص لها. يوجد مثال واحد له سطح مزخرف بتقنية الريبوزي، والآخر بحبيبات تقليدية. تستخدم هذه الأقفال من أجل أحزمة الرجال الأكراد المصنوعة من الجلد. وفي نموذج أصغر من ذلك ذي السلاسل المعلقة وهلالات وقطع نقدية في نهاياتها، نجد الأقفال ذات شكل البوتيه في الأحزمة التي ارتدتها الفلاحات والبدويات وقاطنو المدن في سوريا. ذكر هنا أمثلة من دير الزور لها سلك منبسط مخرم. تتميز الأعمال الدمشقية والحلبية في هذا المجال باستخدام صفائح رقيقة جداً مشغولة بشكل رائع وذات تخاريم مفرغة. تركب رقاقة أو شبكة معدنية ملونة وغالباً تكون حمراء على الأرضية المعدنية. توجد أنواع كثيرة من هذه المشابك المعدنية ذات النقوش المخرمة الرائعة وبأشكال متعددة: زجاجات ساعة ثلاثية الأوراق مدعمة بتيجان ممتدة بمستطيلات، أما غطاء القفل فيمكن أن يأخذ شكل العصفور. يستخدم نوعان أو نموذجان من الطيور: أحدهما له شكل ووضعية توحي بأنها حمامة، أما الآخر فهو يشبه الحمامة غير أن له عرف الديك، ربما يكون هدهداً. تجلب الحمامات البركة، أي رحمة السماء، والقوة والحظ ما تزال تطلق الحمامات في السماء، تبريكاً وتيمناً في الأعراس حتى يومنا الحاضر. يمثل الهدهد في التقاليد الإسلامية رسول الحب بين النبي سليمان وملكة سبأ. كل الأحزمة الموصوفة هنا التي عثرنا عليها من قسم أحزمة النساء تتميز بخيوط من المخمل تعلوها. تتألف قطع أخرى من الأحزمة من تزيينات إضافية مخرمة على شكل S، تتوضع على الحزام والمشابك. وبشكل عام تمثل هذه الأحزمة جزءاً من عادات النساء المدنيات. ربما تم إنتاج أغلب هذه الأمثلة في المجموعة في الفترة ما بين النصف الأول من القرن التاسع عشر وحوالي عام ١٩٣٠. وقد ارتدت،، النساء الموسرات من الفلاحات والبدو، على الأغلب هذه الأنواع من الأحزمة.

تتألف مشابك، أو أقفال الأحزمة، من قرصين مستديرين مرتبطين مع بعضهما بخلاب تتم تغطيته بعقدة صغيرة،يعود منشأها إلى الحلي الكردية التقليدية. تزخرف القطع القديمة من هذا النوع بنقوش نافرة مسبوكة مندمجة مع تقسيمات شعاعية للأقراص، ويتم التركيز في هذه الحالة على الوسط. يعود تاريخ صنعها بالتأكيد إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر. تشبه الأقراص الأخرى (المصنوعة من الريبوزي المفضضة أو تكون مذهبة في بعض الأحيان) كثيراً عصب الرأس الكردية التي وصفت في بداية هذا القسم. يعود تاريخ تصنيعها إلى منتصف القرن التاسع عشر ولغاية ١٩٢٠ أو ١٩٣٠.

أنتجت أقفال الأحزمة الثلاثية، ذات النموذج الأساسي لتيجان مصنوعة من الفضة المموهة بالذهب وزخارف مفرغة وعقد مخرمة مع أحجار زجاجية ملونة، في مدينة دير الزور خلال القرن التاسع عشر. ورغم أن هذه الأحزمة قد ارتدتها المسيحيات اللواتي هاجرن من العراق، فقد استعملتها أيضاً البدويات في شرق سوريا. كما وجدنا طرازها العام بين تقاليد الحلي البيزنطية.

لقد وجدت، وبالدليل القاطع، الأحزمة المخرمة غالباً مع تلك المؤلفة من سلاسل متمفصلة بشكل واسع بين البدويات الأردنيات والبدويات السوريات في الجنوب. تعطينا القلائد النقدية المتدلية المعلقة بهذه الأحزمة مؤشراً آخر على أن النساء البدويات قد ارتدينها. هناك احتمال أن يكون البدو في شرق سوريا قد استخدموا الحزام الجلدي ذا الصفيحة الفضية المثمنة الشكل في الوسط، مع نقوش وزوايا منفرجة وأحجار زجاجية في نهاياتها وكلها مموهة بالذهب كحزام يرتديه الصبية عند الختان (في سن الثانية عشرة). جاءت الأحزمة ذات الأسلاك الفضية المنسوجة والأقفال المسبوكة وحمايات حول العيون من تقاليد الحلي العثمانية. تزخرف النقوش البارزة على القفل على الطراز العثماني. وارتدى المدنيون هذه الأحزمة في المدن فقط وربما يعود تاريخ قطعتنا هذه إلى عام ١٨٨٠ تقريباً. تم تصنيعها على الأرجح في دمشق، واستمرت عملية انتاجها حتى وقت قريب.



١٩٢. خواتم فضية مع حجارة بلورية مزخرفة بسلك مفتول وحبيبات تقليدية. يشبه هذا الطراز أعمال صائغي الفضة اليهود في اليمن، القرن التاسع عشر.



١٩٣. خواتم مزخرفة بالمينا والأحجار الزجاجية ١٩٤٠- الخاتم مع الأوراق المذهبة الصغيرة، تم تصنيعها للبدو-القرن التاسع عشر.



١٩٤. أحزمة ارتدتها البدويات في البادية وكذلك في المدن والقرى. من الأعلى: زخارف ونقوش فضية مذهبة على الجلد، شرق سوريا، في وسط اليسار: حزام فضي متشابك على الطراز العثماني مختوم عليه علامة الورشة. في وسط اليمين: حزام بمفاصل (حلقات) للنساء البدويات والفلاحات في جنوب سوريا-دمشق ١٩٠٠. في الأسفل: أحزمة مدنية، عناصر مخرمة فضية فوق طبقة من المخمل، دمشق —القرن التاسع عشر.

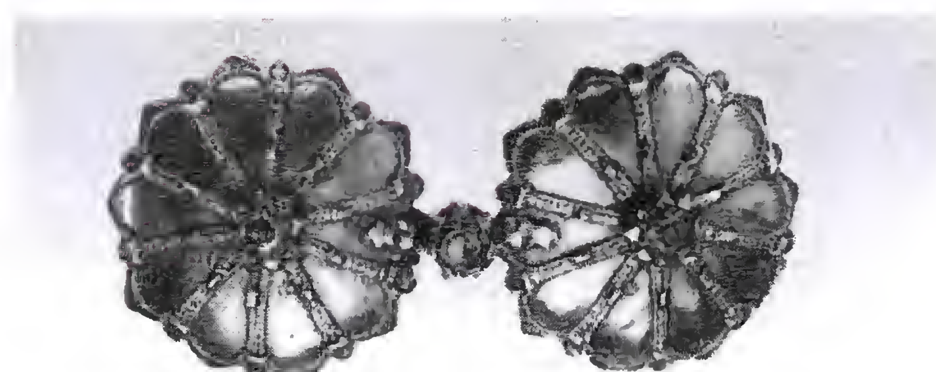


١٩٥. أقفال أحزمة/ فضة -حلب، القرن التاسع عشر.



١٩٨. الأعلى: قفل حزام فضي مع تخاريم مموهة بالذهب وأحجار زجاجية. ارتدت النساء المهاجرات المسيحيات الكلدانيات من العراق، هذا الطراز بشكل أساسي. صنعت في دير الزور للبدويات في شرق سوريا في بداية القرن التاسع عشر.

١٩٩. الأسفل: أقفال حزام، الأعلى: حبيبات فضية. الأسفل: فضة مزخرفة مصنوعة في حلب القرن التاسع لرجال الأكراد.







١٩٦ و١٩٧. أقفال أحزمة ارتداها الرجال الأكراد، تم سبكها على الطراز العثماني، حلب، القرن التاسع عشر.



التمائم والحلي التي تمثلها بشكل رئيس:

تعرف التمائم والحجب والتعويذات على أنها قطع من الحلي لها مزايا خاصة تجعلها عنصراً يحمي الأشخاص الذين يحملونها من سوء الطالع وتعطيهم قوة سحرية وحظاً جيداً. ينسب الدارسون استخدامها إلى الممارسات والمعتقدات الخرافية حتى يومنا هذا. وأعتقد أن مثل هذا التفسير غير ملائم. فالناس يستخدمون التمائم ومثيلاتها لحماية أنفسهم من المخاطر التي لا يملكون القوة لمواجهتها مثل الموت، البرق، السقوط، الجروح الكامنة وغيرها، وكذلك من الأمراض المجهولة السبب. وفي هذا المجال يكون حمل التمائم والحجب محاولة عقلانية، بكل معنى الكلمة، لإيجاد طريقة لحل المشاكل اليومية. تستمد هذه التمائم فعاليتها من الثقة الموضوعة فيها (من قبل الناس). على سبيل المثال، يمكن أن يتأثر الأشخاص المصابون بأمراض الهذيان والهلوسة بشكل ملموس بارتدائهم الحجب والتعويذات. وكذلك الشخص الذي يرتدي حجاب الحب، يستهدف الشخص الذي يكون موضوع (رغبته أو رغبتها) بشكل طبيعي وهذا يجعل التواصل أسهل بكل تأكيد. وحتى من وجهة النظر الموضوعية، فالشخص الذي يرتدي حجاب ليحميه من الأذى، تقل عنده حوادث الأذى.

تزداد المعارضات لاستخدام التمائم والتعاويذ دائماً من قبل علماء المسلمين لكنهم لم يتمكنوا أبداً من فرض أفكارهم، لأن مؤيدي استخدامها يرتكزون في رأيهم على القرآن الكريم وخاصة السورة ١١٤: «سورة الناس»: بسم الله الرحمن الرحيم «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس» صدق الله العظيم.

كانت الأسباب، الأكثر شيوعاً، لارتداء التعاويذ والحجب هي الخوف من الحسد ومن الجن. وربما الجن هي مخلوقات شبيهة بالأقزام، وهي غير دنيوية، خلقت من النار أو الهواء أو من مزيج من كليهما، تخيف الناس في الليل ويمكن أن تتسبب أيضاً في جلب الأمراض للكائنات البشرية، والحيوانات المنزلية وتدمير المحاصيل. وهكذا يتم عادة تخويف الأطفال من الجن.

يستخدم الناس الحجب، والتعاويذ، لصرف تلك المخاوف عنهم. وهناك عدد كبير من التمائم والحجب تكون مخصصة لمناطق معينة أو تتم حياكتها وصياغتها بدقة كبيرة وفق احتياجات شخص معين ليرتديها (ذكراً كان أم أنثى). وكقاعدة، فإن الطريقة الوحيدة لاكتشاف هذه الاحتياجات تكون من خلال البحث الميداني، على الباحث أن يضع في ذهنه أن الناس الذين يرتدون الحجب هم أنفسهم لا يعرفون لماذا يرتدونها على الأغلب. حتى لو عرفوا فإنهم لن يكونوا قادرين دائماً على تفسير هذا الموضوع. يعتبر استعمال الحجابات الآن من قبل المسلمين أنفسهم أمراً رجعياً وخرافياً.

تصنع التمائم الإسلامية النموذجية بشكل طبيعي من عدة مكونات فعالة. أستطيع أن أوضح هذا بوصف حافظة مثلثة الشكل تحتوي على تميمة مكتوبة كمثال على ذلك.

يمكن أن تقدر فعالية الحجاب من شكله. فالشكل المثلث، الذي يرمز لخصوبة النساء، يعتبر أحد النماذج القديمة التي استخدمت كحجاب. انتشرت هذه الفكرة في دول البحر الأبيض المتوسط خلال االعصور القديمة. نجد تأثيرها، على سبيل المثال، في تصوير عين الآلهة الموضوعة في مثلث.

تعتبر المادة أيضاً مهمة. فهذه الحافظة مصنوعة من الفضة الذي يعتبر المعدن الصافي المرتبط بالقمر، وله تأثير فعال على الشخص الذي يرتديه. يمكن أن يعلق الفيروز أو الأحجار الخرزية الزجاجية الزرقاء على الحافظة كحماية من عين الشيطان الحاسدة، على أساس وحسب ما يعتقد الجميع، أن العين التي تصيب بالحسد توجد وتكثر بشكل خاص في العيون الزرقاء. وكثيراً ما تستخدم الأحجار الحمراء مثل الأحجار الزرقاء. فاللون الأحمر هو لون الدم، وارتداء الخرزات، أو الأحجار الحمراء اللون، يعتبر حماية ضد المجازر، أو الإصابات بالأذى، أو الحوادث المفاجئة. تعلق بعض القطع المعدنية أو النقود من حافظة الحجاب نفسها وعادة من السلسلة أيضاً. يفترض أن يطرد الضجيج الذي يحدثه ذلك التعليق، الأرواح الشريرة. كما يمكن أن يكون لعدد الأحجار المعلقة على حامل الحجاب أيضاً أهمية سحرية، وكذلك عدد السلاسل وقطع النقود المتدلية منها. تحدد القلائد المتدلية الخمسة، أو الأحجار الخمسة المعلقة بالحافظة، عدد الأصابع الخمسة لليد التي تحمي وتبارك وتطرد الحسد. يعود استخدام الكف كتعويذة أيضاً إلى عصور ما قبل الإسلام. وجد الكف كرمز لطرد الحسد في رسوم كهف بالايوليثيك في الثقافة الفرانكو-كانتارابيان. ازداد استخدامه وقت نشوء الديانات السماوية التوحيدية الشرقية الثلاثة الكبيرة، وتجذر في المعتقدات الشعبية السائدة.

إضافة إلى هذا الإيضاح الشائع عن الكف أو العدد خمسة الذي يرمز للكف، هناك تفسير آخر للعدد خمسة موجود في علم الأديان الإسلامية. وبناء عليه فإن العدد خمسة يرمز إلى أركان الإسلام الخمسة (أي واجبات المسلمين الخمسة):

١- الإيمان بالله ٢- الصلاة خمس مرات في اليوم ٣- الزكاة ٤- الصيام في شهر رمضان ٥- الحج إلى مكة.

على كل حال، هناك أعداد أخرى يمكن أن تكون هامة في الحجب والتعويذات، الرقم سبعة للكواكب والرقم /١٢/ إشارة للأبراج.

يمكننا أن نرى من هذا المثال لحامل التعويذة المثلثية الشكل، أن المادة، والشكل، واللون المستخدم للأحجار، وعددها، كلها لها أهميتها وفعاليتها. بينما يكون العنصر الأهم، هو كتابة التعويذة المحفوظة في الداخل. وهناك نصوص نموذجية لهذا الغرض. أحدها، «سورة الفاتحة»، في بداية القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم، «الحمدلله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين، آمين» صدق الله العظيم.

وهناك نص آخر: بسم الله الرحمن الرحيم:

«الله، لا إلـه إلا هـو، الحـي القيـوم، لا تأخـذه سنة ولا نـوم، له ما في السمـوات وما في الأرض، مـن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلـم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءمـن علمه الا بما شاء وسع كرسيـه السموات والأرض، ولا يـؤوده حفظهما وهـو العلي العظيم» صـدق الله العظيم –السورة /٢/ صفحة ٢٥٥- ٢٥٦. هناك نصوص منسوخة للتعويـذات تحتوي غالباً علـى مزيج من صفحات عديدة من القـرآن الكريم، الصلـوات والأدعية التـي تستخدم للحماية وكذلك تمثيلات للأفاعي والسرطانات والطيور وغيرها.

هناك رجال حكماء يمارسون علم التمائم والحجب حتى يومنا الحاضر. وهم يخاطبون عادة، وبكل احترام، «بالشيوخ» رغم أنهـم ليسوا قـادة أو رؤساء جماعة دينيـة معينة. فهم يكتبون نصوصاً معينـة للحجب تناسب الاحتياجات الخاصة للأشخاص الذين يسألـون نصحهم. وصفت بيرغيت ميرش (١٩٨٣) في دراستها، الميزة العامة لكاتبي الحجب قائلة: «إن تحضيـر النصوص والتمائم والتعويـذات هي نشاطات يمكن أن يمارسهـا أشخاص معينون. وإذا انظر أحد ما إلى تركيبة هـذه الفرقة من النـاس، يمكنه أن يرى أنها غير متجانسة. ويجـب أن يميز الشخص بين الكتّاب الذكور والكتّاب الإناث. فكتاب الحجـب الذكور غالباً ما يكونـوا كهنة لديهم السلطة لممارسـة أشيـاء سحريـة أخـرى بسبـب عمرهـم الكبير أو سلطتهـم الدينية. ومن خـلال تواصلهم المستمـر مع القرآن فإنهم يستحوذون على البركة، والقوة السحرية للرحمة، التي تلعـب دوراً هاماً في المعتقـدات الشائعة في العالم الإسلامي». كمـا ذكرت ميرش عدة مراجـع ومصادر قديمـة تشير إلى الاعتقاد الواسع الانتشار بأن أعضاء فرق محددة مثل المغاربة والمصريين، لهم مواهب خاصة في ممارسة السحر.



.٢٠٠

٢٠٣. تمائـم وتعويـذات مـن العقيـق والأحجـار الزجاجية مـن الفضة. في الوسـط لطرد العين الحاسدة-القرن التاسع عشر.



٢٠١. تعويـذة للمـرأة المدنيـة، ختـم ذهبي مـع الاعتراف الإسلامي بالعقيـدة، اسـم "الله". دمشـق منتصف القرن الثامن عشر.

٢٠٢. حجاب رجـالي مـع دعـاء للحمايـة تم خياطة عين وكف عليه-دمشق.









٢٠٤ و٢٠٥. حوامل التمائم والتعاويذ. من اليسار: للفلاحات والبدويات. ومن اليمين للمدنيات فضة مخرمة ومنقوشة. دمشق أو حلب - القرن التاسع عشر.



٢٠٦. سلاسل التمائم والتعاويذ للفلاحات والبدويات. من اليمين للمدنيات، فضة مخرمة منقوشة. دمشق أو حلب - القرن التاسع عشر.



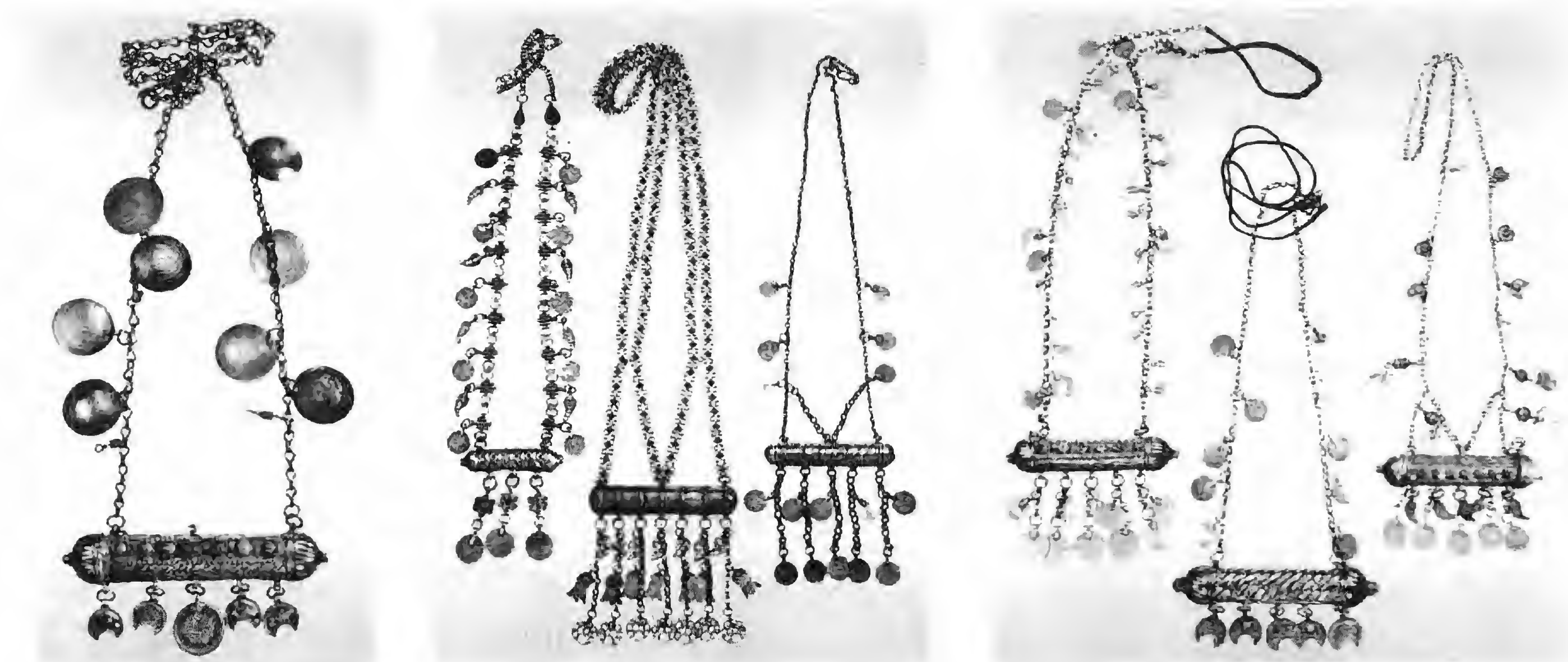
٢٠٧. تمائم وتعاويذ للأكتاف مع مثلث بالوسط وقطع مخروطية على الأطراف.. دير الزور ١٩٠٠.



٢٠٨ و٢٠٩. وجه وخلفية التمائم المنقوشة حواملها مزخرفة بنقش أو خاتم النبي سليمان منقوش على وجهها كلمة "ما شاء الله" دمشق- القرن التاسع عشر.

٢١٠. حوامل تمائم مستطيلة الشكل، منقوشة بالفضة من الخلف، صفيحة مزخرف عليها "ما شاء الله" بالخط الكوفي.

٢١١-٢١٣. حوامل تمائم مخروطية الشكل مع قلائد متدلية من نقود معدنية، هلالات، قرص مفرغ أو على شكل اللوزة، كانت النموذج الأكثر شيوعاً. وكانت ترتديها النساء من كل المستويات الاجتماعية.. ويتم هنا توضيح التنوع الكثير لها. أما السلسلة المنقوشة والمخرمة فقد كانت تدعى "سلسلة القدس".



أشارت ميرش إلى أن الرجال لم يكونوا وحدهم كتاب التمائم والتعاويذ. فقد شكلت النساء نسبة لا بأس بها من الساحرات في إقليم فلسطين السورية. «لقد ركزت الشيخة، مثل زميلها الشيخ، قدراتها على الأغلب، في امتلاكها البركة التي ولدت معها أو التي اكتسبتها من خلال ممارستها نشاطات دينية متعددة مثل التلاوة المستمرة للقرآن، الحج أو الخبرات المهنية. كان لحيازتها كتب السحر، خاصة إذا كانت هذه الكتب قديمة، دور حاسم في اعتبارها كاتبة للتعاويذ، تماماً مثل الرجل». تتابع ميرش قولها بأن النساء يعترفن بأن هذه المعرفة العملية كن قد اكتسبنها من أمهاتهن وجداتهن. «بشكل خاص، يفترض أن تكون الممارسات السحرية المرتبطة بحماية العائلة -وخاصة الأطفال اليافعين- من عيون الشيطان الحاسدة والجن، جزءاً من المعرفة الأنثوية ومسؤولية النساء».

وقد تمكنت من زيارة مقر شيخ في قرية قرب إربد بصحبة السيدة ميرش. كان لديه عدد من كتب الحجب والتعاويذ التي يختار منها نصوصاً تناسب الحالات الخاصة للأشخاص الذين يطلبون المساعدة منه.

من الصعب غالباً، حل رموز نصوص التعاويذ. وإلى جانب النصوص القرآنية والأدعية المخصصة للحماية، تحتوي التمائم على مربعات سحرية أيضاً. يمكن أن تشير مجموعة الأرقام (دون العشرة)، التي تنتج من إضافة أعداد في أماكن محددة، إلى سور معينة من القرآن الكريم. رغم أن تصميم حامل التعويذات يستند على مستوى واسع من الأفكار التي يعود تاريخها إلى فترة ما قبل الإسلام، فمن العقلانية تسمية هذا النوع المعروف بالحجاب، وهو أكثر نماذج التمائم قرباً من الإسلام. فيما عدا حوامل التمائم المثلثة الشكل، يمكن أن نجد أيضاً نماذج أخرى لها أشكال مستطيلة أو مخروطية. وكثيراً ما تعلق التمائم المستطيلة أو المثلثة الشكل بسلاسل مع حافظات أخرى صغيرة مخروطية الشكل، أو ترتبط الحوامل المخروطية مع مثلث كبير. ولا يخفى على أحد أن إحدى نماذج التمائم التي تم وضعها تعمل كبديل عن محتوياتها. في هذه الحالة تسبك التميمة من معدن صلب. وربما تكون صغيرة بحيث لا يمكن لأي نص أن يوضع فيها. وأحياناً يمكن فتح حافظات قليلة فقط. وتعلق أغلبها بواسطة اللحام. وبالنتيجة، فإن حامل مثل هذه التميمة لا يعرف بشكل مؤكد ما إذا كانت تحتوي نصاً بداخلها، وإن كانت كذلك فأي نص منها. هناك دليل على أن نموذج حامل التمائم يمكن أن يعمل كبديل عن محتوياتها بين اللقى الأثرية من المقابر التي تعود إلى القرنين التاسع والعاشر. ليس لحوامل التميمة عمل تزييني فقط. فقد أشارت ميرش إلى أن التمائم المكتوبة، إن أردنا ألا نفقدها فعاليتها، يجب أن تغطى لحماية النص من التأثيرات المؤذية. وهذا يمكن أن يحمي النص من أن يبقى مكشوفاً ومقروءاً الأمر الذي يفقد التميمة فعاليتها.

التمائم المنقوشة وحافظات التمائم التي تحتوي على النصوص:

يختلف أسلوب ارتداء التمائم المكتوبة حسب الشخص الذي يرتديها وحجم حافظتها. تحاك التمائم الصغيرة على شكل أزواج تضعها النساء على أكتاف ملابس الصبي. يبدأ الصبية في ارتدائها عند بداية ظهور ذقونهم. ترتدي النساء صناديق التمائم الأكبر التي تكون عادة عبارة عن دمج نماذج مثلثة وأسطوانية، على شكل عقود. تشكل السلاسل الطويلة مؤشراً على أن التمائم يتم ارتداؤها على أساس أنها شرائط كتفية. يمر السلسال عبر الكتف الأيمن. كما يتم وضع صندوق التميمة تحت الإبط اليساري أو القسم العلوي اليساري من الذراع. وتعلق عادة، صناديق تمائم كبيرة جداً مخروطية مع تميمة مثلثة فوقها في غرفة المعيشة.

تخاط نصوص التميمة للرجال ببساطة على قطعة من القماش تأخذ شكل مثلث ويتم ارتداؤها تحت الإبط، ويمكن أن يكون لها عين كما يجوز أن تربط بها التميمة أو الكف.

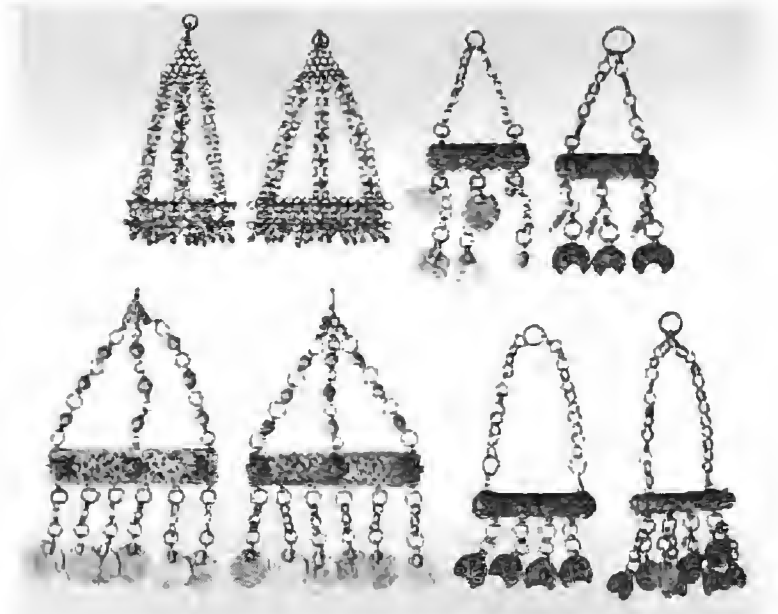
تكون التمائم المنقوشة بزخارف مطبوعة أو محفورة قريبة جداً من حوامل التمائم التي تحتوي على النصوص. وتوجد على شكل ورقة مسننة أو مثلثة أو على شكل دمعة ولها إطار منحنٍ أو مستطيل رقيق أو شكل دائري وربما يكون لها أحياناً شكل طاولة القرآن. وبسبب طريقة الإنتاج فإن النصوص المستخدمة هنا تكون أكثر قولبة من نصوص تلك التمائم المكتوبة بخط اليد على الورق. والشائع الفضة أكثر هنا هو «سورة الفاتحة» و«آية الكرسي» وكلمة «ما شاء الله» (كما أراد اللهْ). وهنا تكون المادة المفضلة أيضاً هي الفضة. كما توجد أيضاً التمائم الذهبية في المناطق المدنية. ويكون شكلها مشابهاً للتمائم الإيرانية، التي تعود لفترة الكاجار.

يمكن تعزيز قدرات هذه التمائم بشكل أكبر بإضافة حبات الخرز الزجاجية الزرقاء أو القلائد المتدلية الخمسة مع هلالات تتوضع عليها خرزات زرقاء زجاجية. ونلاحظ في بعض الأمثلة التي يتم فيها حفظ الأعداد الكاملة لسلاسل هذه التمائم، أنه حتى هذه التمائم تم ارتداؤها عادة مع تمائم أخرى ذات أقراص مفرغة زرقاء وقلائد من قطع نقود معدنية وأغلفة صغيرة لتميمة مخروطية في السلسلة. تمثل القلائد ذات الشكل المعين المنقوشة بالفضة والمينا، بكل تأكيد تميمة، وهي في الوقت نفسه تعد شهادة ميلاد تبين تاريخ ولادة مرتديها. وكمثال على ذلك هناك تميمة منقوش عليها أن رضوان الشاب ابن يوسف الحريف قد ولد في ٢٧ ربيع الأول من عام ١٣٨٦ هجرية، ١٥ تموز ١٩٦٦.

تعتبر أسنان بعض الحيوانات نموذجاً مألوفاً من تمائم الأطفال، وخاصة أسنان الضباع. وكقاعدة، توضع الأسنان مع بعضهما على شكل هلال مع سلسلتين أو ثلاثة لها قلائد نقدية. وتحتوي القطعة الفضية، عادة، على حبة زجاجية زرقاء. تكون مشابهة لتمائم جنوب أوروبا تطرد الحسد. وفي الوقت نفسه تلعب فكرة الخصوبة الذكرية دوراً هاماً. وترمز أسنان الحيوانات هنا إلى هذه الفكرة.







٢١٤. تمائم الأكتاف للصبيان. تمت خياطتها بشكل زوج فوق القميص، حلب ودمشق - القرن التاسع عشر.

٢١٥ و٢١٦. سلاسل تمائم وقلائد تمائم منقوشة عليها أسماء الله الحسنى، نصوص قرآنية ومربعات سحرية - القرن العشرين.





٢١٧. تمائم منقوشة على شكل دموع وأوراق شجر، متضمنة سورة الفاتحة وآية الكرسي من القرآن الكريم- القرن التاسع عشر والقرن العشرين. في الأسفل: تميمة مسبوكة من البرونز على شكل حبة، القرن الثاني عشر. نقوش مينا لقلائد فضية لها شكل معين "شهادة ميلاد" لصبي مولود في ١٨ تموز ١٩٦٦.

٢١٨. هلال من جبال القلمون وميدالية العذراء من صيد نايا، تميمة بقرص مفرغ أزرق ١٩٠٠.





٢١٩. أسنان ضبع مطعمة بالفضة، تميمة صبيان يفترض أنها تجلب الخصوبة وتحمي من الحسد-القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

٢٢٠. قلائد تميمة، حجر، عظم وأصداف ملمعة مطعمة بالفضة- القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

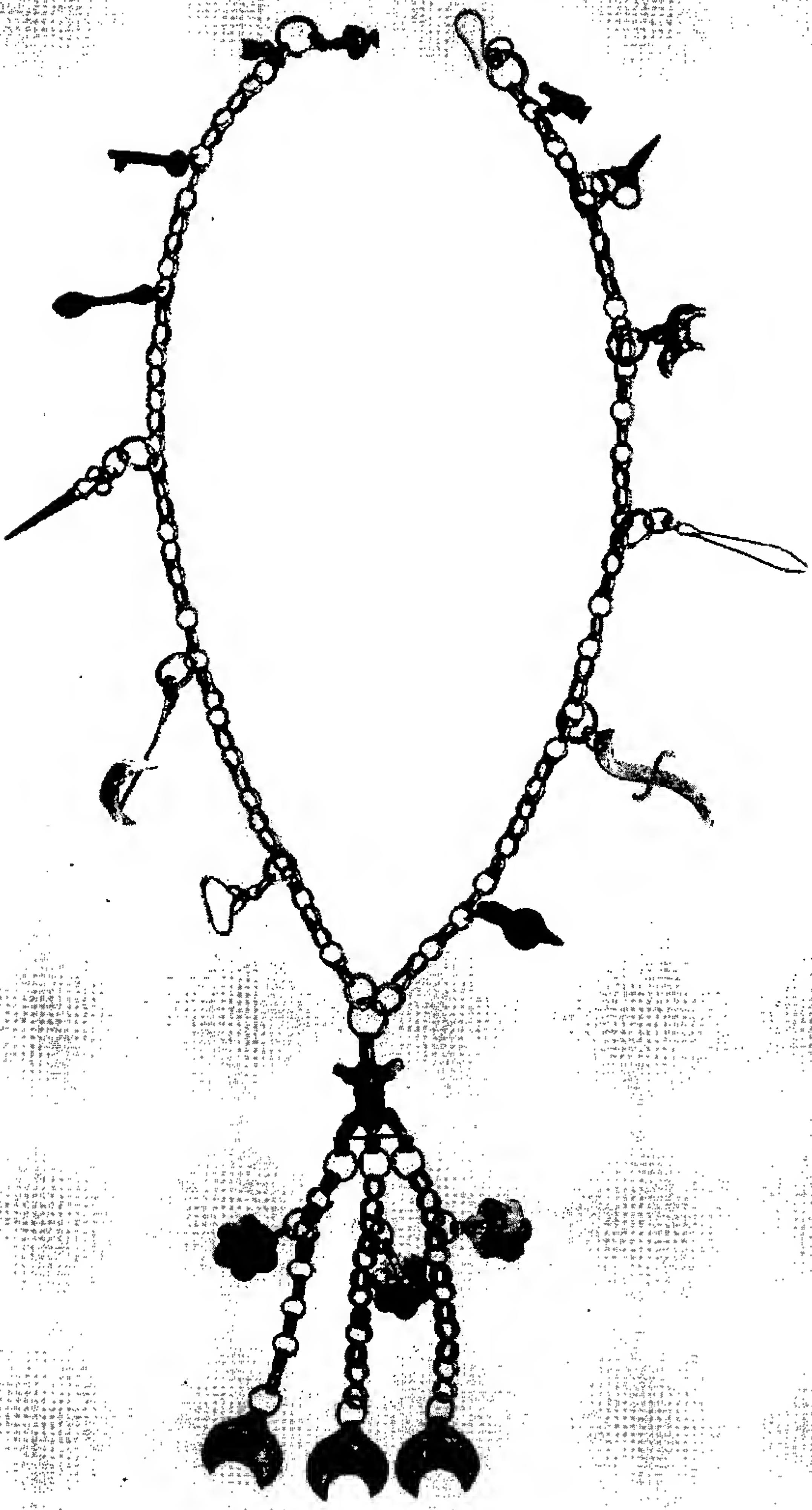
وأنــا أشكر زميلتي بيرغيـت ميرش على المعلومـات التي تشير إلى أن القلائد التي لها شكل الضفدع الطيني والمشهورة خاصة من ضمن حلي البدو، تعتبر تمائم تزيد النمو إضافة إلى كونها مرتبطة بفكـرة الخصوبة الأنثوية. يتم ارتداؤهــا في سلاسل أو عقود لؤلؤية للبنات أو النساء الشابات. رغم أن هناك سلسلة أخرى من مجموعة توما يحتمل أن تكون قد استخدمت للصبيان. وربما يعود ذلك إلى أن هذا النوع من التمائم قد استخدم أيضاً من أجل مشاكل الأسنان.

يظهــر تنوع عمل التمائم المترابطة بوضوح من خلال السلسلة (هنـا أيضاً من مجموعة توما) مع قلائد على شكل ضفدع الطين معلقــة في وسطها. وفي كل طرف من الضفدع سلسلة من تعويذات صغيرة ومنمنمة. من جهة واحدة هناك منمنمة على شكل منفاخ، ربما ترمز إلى أن منزل مرتديها لن ينفذ منه الوقود. يبين السيف أن مرتديه سيصبح مقاتلاً شجاعاً قوياً، أما إذا كانت من ترتديه امــرأة فإن ذلك يشير إلى أنه سيكـون لديها أبناء شجعان، هناك الألسنة التي تشبه تلك المستخدمة لتزويد الفحم المشتعل للنراجيل، ربمـا يكون الخـروف تعبيراً عن الرغبــة في الحصول على قطعان كبـيرة وبصحة جيدة. هناك زوج من المقصات، وجدت صعوبة في تفسـير سبب ارتدائها. ويركز إبريق الماء النحاسي إلى أن مرتديه لـن ينفذ الماء في بيته. ومن الجانـب الأيمن يوجد ركاب يرمز إلى أن مرتديــه أو ربما أطفـال المرأة التي ترتديــه سيصبحون راكبي خيـل ممتازين. هناك أيضاً فأس الحرب (انظر السيف في أعلى الصورة) وزوج من المقصات الورقية شبيهة بتلك التي استخدمها الخطاطـون. ربما تشير الملعقــة إلى أن الطعام لن ينفـذ أبداً من منزل مرتديها. كما يمكن أن يكون المفتاح، مفتاح الجنة. أما الثقل، أو الــوزن، فيمكن أن يعبر عــن رغبة الشخص بأن يكون ناجحاً في عمله. تكون النماذج الأبسط للتميمة من أحجار أو حبات زجاجية على شكل حافظات تمائم أو تعويذات وكذلك تمائم مصنوعة من زجاج الفابلونز المستورد من بلاد التشيك مع هلالات ونجمة على شـكل قطرة دمع. تمثل تميمــة عين فضية مع خــرزة زجاج زرقاء كبؤبؤ العين، نموذجاً فائق الروعة للخوف من الحسد.

ارتـدى المسلمون والمسيحيـون واليهود عـدداً من التمائم السابـق ذكرها بشـكل مؤكد. وقـد عرف استخـدام صندوق التمائـم من أجل حفـظ النصوص الدينيــة والأدعية للحماية أيضاً بين كل تلك الفرق الدينية. هنـاك سلاسل مع قلادة على شكل صليب أو سلاســل مع سبائك فضية منقوش عليها صور رجـال قديسين وهي تعتبر تمائم مسيحية بشكل خاص. تكون هنا صور السيدة مريم العذراء معروفة وشائعة بشكل خاص.

وعلــى رغم مــن تنــوع الحلــي في سوريــا، نظــراً للمواد المستخدمة والأفكار السحريــة المرافقة لارتدائها، فقد رأينا أن العناصر المستخدمة في تكوينها هي واحدة بشكل عام.

إن التقسيم بين الحلي والتمائم المصنوعة في هذا القسم ربمـا يدهش القارئ قليلاً. فهناك عدد من القطع التي كانت قـد وصفت كحلي تكون فعالة في الوقت ذاته كتميمة. على كل حال، إن القطع الموصوفة في هذا القسم كتمائم هي تلك التي تفوق أهميتها كتميمة على فعاليتها كقطعة زينة.



٢٢١. سلسلـة تميمـة أو تعويـذة مترابطـة لفتـاة أو امرأة شابـة. القلائد المتفردة تشير إلى رغبات وأمنيات خاصة للمرأة التي ترتديها.

١١ الحياة الريفية وثقافة الفلاحين

جوهانز كالتر

تقـع سوريا اليوم في مركز إقليـم معروف بالهلال الخصيب. كانت تلك المنطقة في العصور القديمة، المصدر الرئيسي للحنطة للامبراطورية الرومانية. وتاريخياً، وبالتحديد خلال فترة الحروب المتكـررة الحـدوث، كانت تعنـي أن الحدود بـين البـدو وأراضي الفلاحـين متبدلة دائماً. تقع الأراضي التي كانت تستخدم زراعياً منـذ العصور القديمة غـرب الخط القادم مـن درعا عبر دمشق وإلى حلب. وقد تنوعت الكثافة السكانية فيها، في فترات مختلفة. ويكون المناخ متوسطياً مع هطولات مطرية سنوية تبلغ أكثر من ٤٠٠ ملـم، وفي منطقة الجبال الساحلية ربما تبلغ أكثر من ١٢٠٠ ملم. يحـدث الهطول المطري خاصة في فصل الشتاء بين تشرين الثاني وآذار. وتبلغ درجات الحرارة في فصل الصيف أكثر من ٣٠ درجة مئوية وتنخفض في فصل الشتاء إلى حوالي «٠» مئوية. كما وجدت تجمعات زراعية هائلة إلى الشرق من هذا الخط بمساحة ضيقة ما بـين ١٠٠-٢٠٠ كلم عرضاً. ولكن، وبسبب عدم الاستقرار في هذه المنطقـة، فإنه غالباً ما يجبر الساكنين على الترحال. كان انحدار الزراعة بشكل رئيسي نتيجة غزو المغول بقيادة هولاكو خان في عام ١٢٦٠ والخراب الذي سببته جيوش تيمورلنك في العام ١٤٠٠. وبعد انتعاش الزراعة، وخلال العصـر الذهبي لامبراطورية المماليك، تراجعت الأماكن المأهولة بشكل ملحوظ خلال انحدار المماليك ما بين ١٤٦٠-١٥١٧ كنتيجة للهجمات المتواصلة والتخريب الحاصل من البـدو، خاصة في حوران وفي المناطق المجـاورة لحماة وحلب. وحتى في الغوطة في دمشق تم هجر مئات من القرى في ذلك الوقت (ويرث ١٩٧١، صفحة ١٥٩).

وفي أوج ازدهار العثمانيـين، انتعشت الزراعة ثانية، إلى أن حدث انهيـار كبير جداً أثناء السنوات ١٧٥٠-١٨٣٠. ولم يتغـير الأمـر حتى فترة حكـم إبراهيم باشا مـا بين ١٨٣١-١٨٤٠. في منتصـف القرن التاسع عشر وحتى ١٩٥٠، بدأت حراثـة معظم الأراضـي الزراعيـة التي قطنهـا السكان في الفترة الرومانية مرة أخرى، تتوضح ديناميكية هذه العملية بالأرقـام المنشـورة من قبل ويـرث ١٩٧١، ففي عـام ١٩٢٢ كانـت المنطقـة الزراعيـة في سوريـا (ومن ضمنهـا لبنان) بحـدود مليـون هكتـار. في عـام ١٩٣٨ وفي وسوريـا وحدها كانـت ١,٤ مليـون هكتار وازدادت بين عامـي ١٩٤٥ و١٩٤٧ إلى ٢,٣ مليـون هكتار. وفي عـام ١٩٦٠ أصبحت أكثر من ٦ ملايين هكتار. وهكذا نجـد أن المساحة المستخدمة للزراعة تضاعفـت بـين عامـي ١٩٣٩ و١٩٥٩ ثـلاث مـرات. وحدث توسـع آخر أيضاً بسبب إنشاء بحيرة الأسد على نهر الفرات والجفـاف التدريجي الحاصل من وبـاء الملاريا الناجم عن طوفـان نهر العاصـي. ويتم في هذه الأيـام إنشاء سد جديد كبير وسط نهر الخابور.



٢٢٢. فلاح يحرث في جبال الساحل السوري.



٢٢٣. منظر طبيعي للربيع في جنوب جبل العلويين.

تستخدم اليوم حوالي ٣٠٪ من المنطقة الإجمالية لسوريا للزراعة ٢٠٪ مناطق زراعية و١٠٪ لزراعة الفواكه والأحراج. كما يمكن القيام بزراعات مكثفة وآلية في المناطق السهلية التي بدأت الحراثة فيها مؤخراً. وهذا يعني أنه في عام ١٩٧٥ كان حوالي نصف السكان في سوريا يعملون بشكل فعال في الزراعة. وقد انخفضت هذه النسبة في عام ١٩٨٥ إلى أقل من الثلث. ورغم ذلك ما تزال الزراعة تساهم بنسبة ٢٢٪ من نمو الناتج القومي السوري.

انعكست حقيقة أن المدن والبلدات نشأت في أوقات مختلفة من قبل فرق سكانية متنوعة بشكل واضح على شكل تلك التجمعات والمزارع. وقد عرضنا بعضاً من هذه النماذج في قسم «المصور الطبيعي للشعوب والمصور الطبيعي وطرائق المعيشة». وبالتالي نجد ثقافة الفلاحين الأكثر تميزاً في الجبال البعيدة غربي سوريا وخاصة جبال العلويين، وفي جنوب سوريا في حوران وجبل العرب. حصلنا على اغلب المواد والمستلزمات الاسرية الخاصة بالفلاحين من هذه المناطق وقسم كبير منها تم إحضاره من اللاجئين المسيحيين والقرى الكائنة على منحدارت جبال لبنان ومن مرتفعات الجولان، سوف نبحث هنا في ثقافة الموحدين في جنوب سوريا والعلويين في غرب سوريا بشكل مفصل.

تعتبر الجبال البازلتية البركانية في جنوب سوريا حيث يعيش الموحدون الآن منطقة سكن نموذجية. فقد كانت في العصور القديمة واحدة من أكثر المناطق السورية خصوبة، حيث تمت حراثتها بشكل مكثف. وعندما سكن غالبية السكان الحاليين في جبل العرب، منذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن، وبعد الصراعات مع المسيحيين المارونيين كانت هذه المناطق خالية من السكان. ورغم خصوبة تربتها الزراعية كانت الزراعة فيها شاقة جداً. إن الميزة الأساسية للمصور الطبيعي فيها هو بناء الجدران اللا متناهي من الحجارة الحرة بشكل واضح للعيان. وبذلك يدرك المرء أن سكان جبل العرب قد استخدموا كل إمكاناتهم للاستفادة من كل متر مربع من التربة الخصبة من الطبيعة. كما تتميز المنطقة بكثرة المحاصيل الزراعية المعمرة مثل الزيتون والكروم وأشجار الفاكهة.





٢٢٩. امرأة فلاحة في سوق دمشق.



٢٢٤. منزل مؤلف من غرفة واحدة في حوران.

٢٢٥. غرفة استقبال في منزل يعود إلى قرية قديمة في حوران.

٢٢٦. منزل ريفي في حوران.

٢٢٧. غرفة معيشة في منزل ريفي جنوبي سوريا.

٢٣٠. زوجة فلاح من حماة.









٢٣١. سلال منسوجة من قش وسنابل القمح المجففة جنوب دمشق.

٢٢٨. امرأة فلاحة أمام مزرعة في خان شيحون.

كما تبين إحصائيات عام ١٩٨٧ فقد شكل سكان جبل العرب نسبة ٢و٣٪ من التعداد السكاني الإجمالي لسوريا (١١ مليون). ولكن ارتباطهم كجماعة وقدرتهم على حماية أنفسهم، كان يعني أن تأثيرهم في تاريخ سوريا المعاصر كان أكبر نسبة من تلك الأرقام المقترحة[١].

يوجد في كل قرية من قرى جبل العرب مجلس خاص للضيوف (مضافة) حيث يجتمع الرجال لمناقشة شؤون مجتمعهم. وهنا يتم استقبال الضيوف حيث اعتادوا في الماضي على قضاء الليل فيه. يتم التعبير عن الهوية الاجتماعية هنا أيضاً من خلال لباسهم.

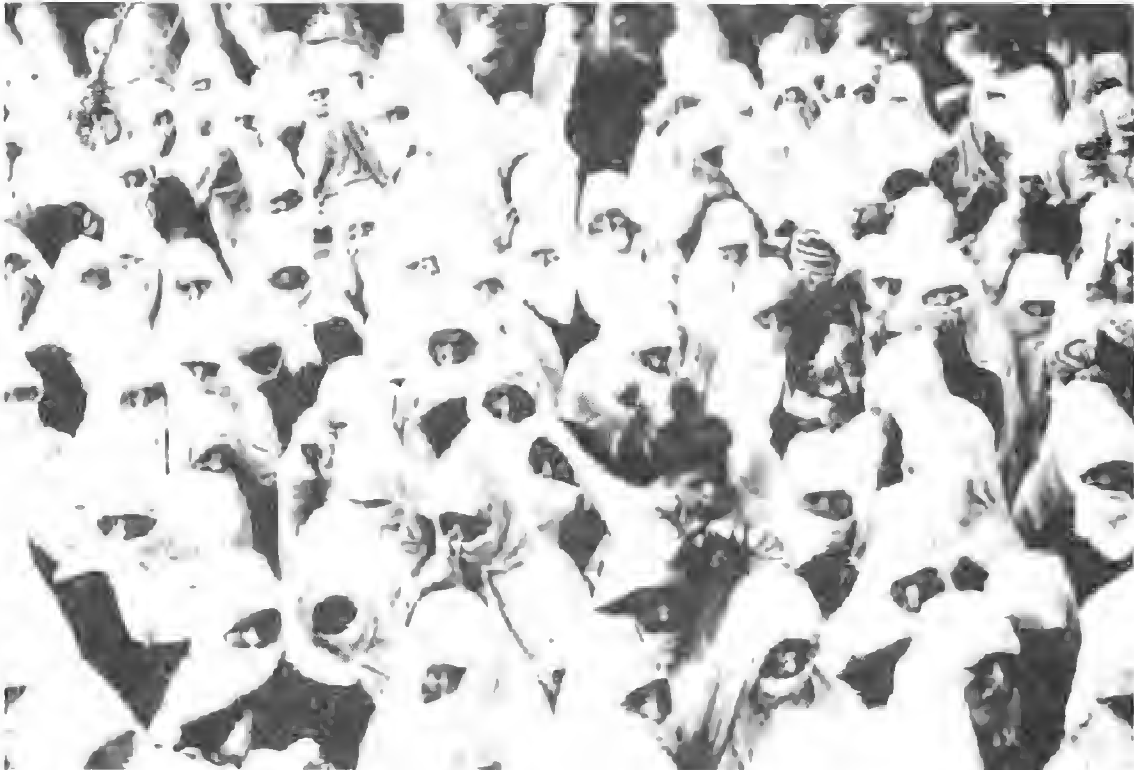
إن قدرة الدروز على الدفاع عن أنفسهم وبعدهم عن أماكن السكن الأخرى والترابط الناشئ بينهم وتأثير عائلاتهم القائدة، يعني أن ثقافتهم ساعدتهم على المحافظة على استقلالهم خلال القرن العشرين.



٢٣٢. موزاييك روماني، في متحف بيت الدين في جبال لبنان، تشير إلى أنه تم زراعة الجبال السورية بشكل مكثف في العصور القديمة.

لاقت سلطة الانتداب الفرنسي صعوبة كبيرة في قمع الثورة السورية الكبرى حتى في عامي ١٩٢٥-١٩٢٦. وقد كانت العائلات الأكثر أهمية هي عائلتي جنبلاط والأطرش. بالنسبة لعائلة جنبلاط فهي كردية الأصل وقد عاشت في لبنان منذ القرن السابع عشر. ولعبت قبل ذلك دوراً هاماً في حلب. أما عائلة الأطرش، فهي وفق الدراسات البشرية الخاصة، أقدم من عائلة جنبلاط ولكنها لم تحصل على مركزها الحالي حتى القرن الماضي. وبعد هروبها من لبنان حلت محل العائلات التي كانت فيما سبق هامة جداً في منطقة حوران. وقد تعزز هذا المركز بواسطة سلطان باشا الأطرش الذي يعتبر اليوم شخصية أسطورية. حيث أنه ثار على العثمانيين وكان القائد الأول من جبل العرب الذي دخل دمشق عام١٩١٨ إلى جانب الفرق الحليفة. وكان ذلك مثاراً للشك من وجهة نظر بعض الذين اعتقدوا أنه متعاون مع السلطات الاستعمارية المحتلة. ولكن، حقيقة أنه وثواره حاربوا الفرنسيين ساعد في تصحيح هذه النظرة. وحتى الآن ما يزال لكلا العائلتين نفوذ سياسي واضح في سوريا ولبنان.

٢٣٣. نساء في جنازة درزية.

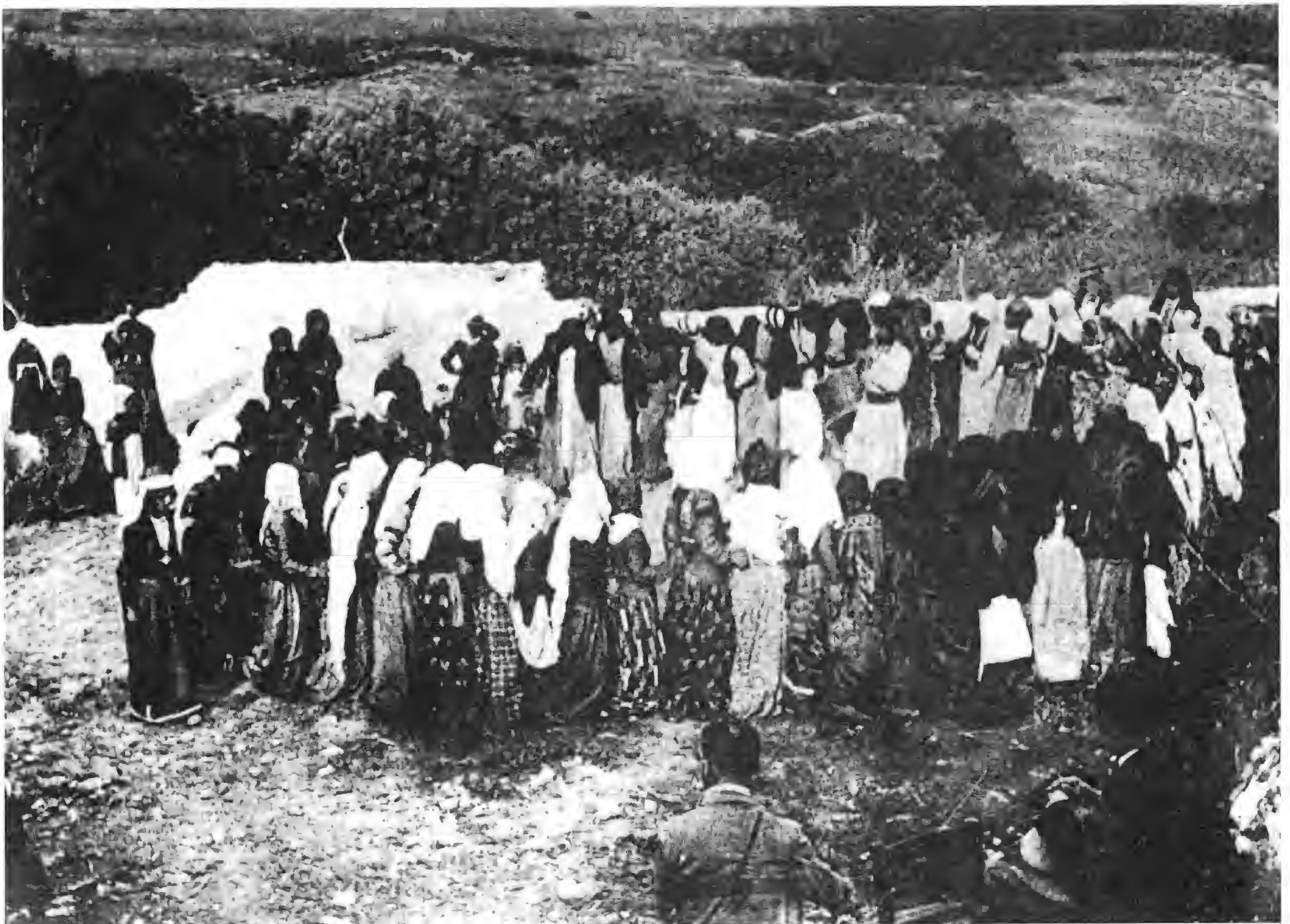


(١) تم حذف بعض الأسطر لاحتوائها مغالطات (المترجم).

يعتبر العلويون، عددياً، المجتمع الكبير الثاني في سوريا. حيث بلغت نسبتهم حسب إحصائيات ويرث عام ١٩٧١، ١٢٪ من إجمالي السكان. وحسب إحصائيات فرانك عام ١٩٨٩ كانت ٧٪ وتعتبر الجبال الشمالية الغربية من سوريا المنطقة التقليدية لإقامتهم. تم تأسيس دولة العلويين المستقلة خلال فترة الانتداب الفرنسي ما بين ١٩٢٠-١٩٣٦.

وحسب هالم ١٩٨٨ فإن مذهب العلويين هو فرع من الشيعة، التي ربما نشأت في بغداد وترعرعت في أواسط نهر الفرات، وفي الجبال الساحلية السورية وفي أقاليم سهل كيليكيا حول أضنة وتارسوس (تركيا اليوم). نسبة إلى معلمهم ابن نصير.

٢٣٤. عرس قروي في جبال العلويين.













٢٣٥-٢٣٩. صور منسوجة من قش القمح المصبوغ محدودة بأشكال وألوان متعددة، تم استخدامها كصدور لتقديم الطعام. تم استخدام القطع الأخرى التي ليس لها شكل نظامي كقاعدة مسطحة للأعمال المنزلية أو لصنع الفخار. وبشكل خاص تم استخدام النماذج المزخرفة والكبيرة كديكورات للجدران. يكون مركز القطعة عادة على شكل نجمة أو حلزون لولبي. كما ظهرت صور وجوه إلى جانب النقوش المزهرة والهندسية ضمن القطع الدرزية –سوريا، القرن العشرين.



٢٤٠. سلة خياطة مصنوعة من قش القمح الملون.




٢٤١. وسادات بزخارف هندسية مرقعة سوريا- القرن العشرين.

٢٤٢ و٢٤٣. زخارف مرقعة مربعة تصنع عادة على شكل أزواج، تزين جدران منازل الفلاحين في جنوب سوريا - القرن العشرين.

٢٤٤.

٢٤٥.

٢٤٦.







بيوت الفلاحين:

كما في باقي المناطق الريفية في الشرق، تتألف بيوت الفلاحين عادة من طابقين مع عدد من الأسوار الخارجية المبنية من الحجارة أو الطين، وفق المواد المتوافرة لذلك بلا نوافذ في الطابق الأرضي.

والشيء المشترك بينها هو تقسيمها إلى قسم إقامة للعائلة،وقسم استقبال للضيوف، وقسم للعمل. أشار ويرث (١٩٧١) إلى وجود ستة نماذج مختلفة لمنازل الفلاحين في سوريا. يكون الاختلاف بين هذه النماذج من البيوت وفق اختلاف الأديان والأعراف والتقاليد والعادات والخبرات التاريخية من جهة، ومن جهة أخرى حسب مواد البناء المستخدمة فيها والمتوفرة محلياً. ففي منطقة جبل العرب، أي المناطق البركانية في جنوب سوريا، تبنى البيوت التقليدية للفلاحين من حجارة البازلت. وتستند بنية السطح على أقواس مبنية من حجارة متلاصقة ملائمة للقوس دون ملاط. وجدت هذه الحجارة في هذه المنطقة منذ العصور القديمة، ولا تستخدم عادة عوارض خشبية في البناء.

أما في جبال العلويين فقد تم بناء البيوت هناك على الغالب من حجر الدبش مع سقف من العوارض الخشبية، وبطبقات من الطين. أما البيوت التي تنحدر مقابل جهة التل فقد تم بناؤها بطريقة تناسب الانحدار. يعتبر السطح المستوي مكان العمل المفضل للنساء ويلبي الوظيفة نفسها التي تقوم بها الباحة المفتوحة في منازل المناطق السهلية.

لم تعد المنازل المذكورة أعلاه تبنى بهذه الطريقة الآن. ونجد غالباً في كل مكان من سوريا أن النموذج المتوسطي القياس للسطح المستوي المبني من الإسمنت يسود في المناطق كلها حيث تزود الأسطحة بدعامات فولاذية ناتئة عن السطح، وهي مبنية بشكل يمكن من إنشاء طابق آخر إضافي إن دعت الحاجة لغرف إضافية (عندما يتزوج الأولاد على سبيل المثال).

كثيراً ما يتم فرش المنازل في هذه الأيام على الطريقة الغربية. وتكون عادة متماثلة. ففي غرفة الاستقبال نجد خزانة برفوف مع واجهة منقوشة. وتكون النقوش التزيينية البارزة المفضلة في هذه الأنواع من الخزن وهي الأقواس التي تملأ من خشب السرو أو القطع المتشابكة. تملك العائلات الميسورة خزائن أكثر غنىً بالديكورات المطعمة بالصدف. وعادة ما تصنع هذه الخزانة من قطع معدنية مأخوذة من علب الشاي وعلب أخرى مشابهة وتزين بنقوش بارزة شرقية وتوجد بكثرة في الأردن والأقاليم المجاورة لسوريا.

الأثاث والتجهيزات المناسبة:

استخدمت غرفة الاستقبال أيضاً كغرف منامة للأسرة. توجد على طول الجدار الخلفي، والجدران الجانبية من الغرفة، فرشات مرتبة فوق حصائر من القش. يتم شراء هذه الفرشات في أيامنا هذه، أما في الماضي فكانت النسوة يصنعها بأنفسهن ويملأنها بالصوف،الذي تحصل عليه من الخرفان أومن القطن. وتوضع فوق الفرشات وسائد من أجل راحة الضيوف. تكون أغطيتها عادة مطرزة يدوياً، وفي حوران تكون مصنوعة من قطع مرقعة تزيينية. يتم وضع حرامات وأغطية أخرى في خزانة في زاوية الغرفة. توجد تجويفات عدة في الجدران الجانبية لوضع أواني المياه والصحون والتجهيزات المنزلية الأخرى، ويمكن أن تتم تغطيتها بالستائر. تبقى إحدى زوايا الغرفة مخصصة لأدوات الطبخ التي كانت تصنع من النحاس ولكن الآن يتم طلاؤها بالمينا، وللموقد (استبدل الآن بموقد من الكاز) وهناك أيضاً طاحون حجري. وكان يوضع وعاء مياه خزف كبير في الماضي في مدخل الغرفة. أما الآن فاستبدل بأوعية صغيرة معدنية مع كاسات أو فناجين للشرب. كما يوضع مهد هزاز مع الفرش إذا دعت الحاجة. وجدت قطع الأثاث التي تم وصفها حتى الآن بشكل تقريبي في كل غرف معيشة الفلاحين في المنطقة. تبرز الخصوصيات المحلية واضحة خاصة في ديكورات الجدار. كما تلبي هذه الأشياء أيضاً، وفي أغلب الأحيان، احتياجات معينة في الوقت نفسه.

تعتبر الأقراص والصدور المستديرة أو البيضوية المنسوجة من القش بتقنية لولبية جميلة، من الأدوات المنزلية النموذجية وخاصة في الأقاليم الجبلية السورية والأردنية. يتم صباغة القش قبل نسجه، ويتم إنجاز بعض من النماذج المعقدة التي تذكر بفن العمارة الإسلامية وأخرى بأشجار الحياة أو برموز الخصوبة، ونماذج جبل العرب لها تمثيلات للأشخاص والحيوانات. يمكن استخدام عدد من هذه القطع وخاصة الكبيرة في تزيين الجدران، وبعض منها كبدائل لأغطية الطاولات التي توضع عليها الأواني الكبيرة المشتركة. وكما يمكن أن تكون القاعدة التي تصنع بواسطتها النساء أواني السيراميك يدوياً. نعرف من الدمغات الموجودة في أسفل أواني السيراميك أن تقنية النسج هذه تم العمل بها في الأردن لآلاف السنين. يحتمل أن تكون النقوش الزخرفية البارزة المستخدمة في هذه القطع تعويذات منزلية. يجد المرء غالباً في مركزها، النجمة ذات الثمانية رؤوس التي تدعى بنجمة «سليمان» وهي معروفة في التعويذات الإسلامية.



٢٤٧. نساء يخبزن في جبال العلويين.



٢٤٩. مكاييل قمح وغرابيل مصنوعة من خطوط متقاطعة من الخشب والخيطان المصمغة.



٢٥٠. مناجل وقيود للحيوانات وكلابات. قطع مصنوعة من قبل حدادين من القرية-جنوب سوريا.



٢٤٨. امرأة شابة تحضر البرغل، وهو نوع من اللباب الدقيق للحنطة السوداء.



٢٥١. أوعية خشبية، قمع وملعقة. منتجات حرفية يدوية للمنزل الريفي-جنوب سوريا.



٢٥٢. مهد من الخشب المدهون مع تعويذة مصنوعة من حبات الخرز الزجاجي الأزرق تعلق فوق رأس الطفل - جنوب سوريا.









٢٥٣-٢٥٨. في أوقات الأعمال الزراعية الصغيرة تصنع النساء الفلاحات في حوران ومرتفعات الجولان أواني فخارية يدوية. إنهن ينتجن على سبيل المثال، قدور الطهي وأباريق وأكواز مياه كبيرة،وكذلك مواقد (أعلى اليسار) وأحواضاً لجمع زيت الزيتون المعصور حديثاً.

٢٥٩. أسفل اليسار: قدور تم لفها بواسطة دولاب واسودت بتعرضها للنيران مع خطوط حادة في أعلاها مميزة لها، صنعت في جنوب سوريا من قبل مهني متخصص بالفخار مهاجر من فلسطين. استمر استخدام النموذج الفخاري الشبيه بالقارورة ذات الأذنين للأوعية الكبيرة منذ العصور القديمة.










٢٦٠. مزرعة قرب إيبلا مع أكواخ بنموذج وجد في المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ.



٢٦٢-٢٦٥. داخل المزرعة (صورة ٢٦٠) في الأعلى: موقد مستوي ومخزن قمح. وفي الأسفل: معلقات حائطية مطرزة من المميزات البارزة للديكورات الداخلية.



٢٦١. زوجان من حقائب أدوات التجميل مطرزة من الأمام، استخدمت للزينة في جبل حرمون.




هنـاك أيضاً قطع مربعة الشـكل (منشأها حوراني) من القماش بنماذج ترقيعيـة هندسية كثيرة وبألـوان واضحة فاقعـة لها أثـر حيوي كبير. تنظـم بنية الديكـور أو التزيين علـى الأغلب وفق نمـوذج متقاطع أو ربما يتـم التركيز على المركـز على شكل متصالب، ويتم ملء الزوايا الأربعة ببعض التخريمات.

ناقشنـا حتـى الآن أهميـة رقـم خمسـة في التعويذات الإسلاميـة. يتـم أيضـاً استخـدام هـذه القطـع في الغالب كتعويـذات إلى جانـب كونهـا قطـع للديكـور. يتوضـح دور التعويـذة في الأقراص المستديرة المنسوجـة أو الكرتونية مع قماش يغطيهـا بإضافة أصداف وودع أصفـر وحبات زرقاء زجاجيـة وأزرار ومرايـا. وتعلـق عادة مثل هـذه القطع فوق المدخـل مباشـرة. هنـاك نمـاذج أخرى مخصصـة لتزيين جدران منازل الفلاحين من أوعية وغيرها. كالحقائب التي تحمي قوارير مواد تجميـل العين (الكحل) والتي تلعب دوراً هامـاً وخاصاً في هذا المجال. كانت حبات الخرز المستخدمة في التطريـز ألواناً وأشكالاً هندسيـة من الديكورات المفضلة في جنـوب سوريا والأردن منذ عـام ١٩٣٠. يعتبر زوجان من المطـرزات التي لهـا شكل حقيبـة من إقليم جبـل الحرمون دليلاً على أن هـذه الأشياء يمكن أن تفقد فاعليتها وتحافظ فقـط علـى شكلها. كان القصـد من تصنيع هـذه الحقائب بشـكل أساسـي حمل قوارير الكحـل، ولكن يتـم غالباً صنع هذه الواجهة الأمامية من الحقيبة ومن ثم تستخدم ببساطة كديكـور للحائط. تكـون شجرة الحياة مـن النقوش النافرة المفضلـة للمطرزات. وهناك نمـوذج آخر من ديكور الحائط الموجـود بين الفلاحين وكذلك بين الطبقة الدنيا المدنية وهو الرسومات الزجاجية ذات النقوش النافرة الدينية الشائعة: سفينـة نـوح، قافلـة الحـج إلى مكـة، الحيـوان الأسطوري (البـراق) الـذي حمل الرسـول محمد (ص) إلى السماء، وكذلك قصص من ملاحم بطولية.

أمـا بخصوص حكايا الحب من عصور ما قبل الإسلام. فإن الشائع بشكل خاص صـور العاشقين العرب التقليديين، عبلة والبطل عنترة، وكلاهما يظهران فوق الحصان.

ويوجـد اليوم في دمشق رسـام واحد فقط ينتـج رسوماً زجاجية اسمه أبـو صبحي التيناوي، ومعظم زبائنه الآن من السياح وعدد مـن السكان المحليين. كما توجد نماذج شبيهة في صور الجدران المطرزة من القرى في ضواحي حلب. وعدا الأشيـاء التي تم ذكرها حتـى الآن، تتضمن مجموعتنا أيضاً صورة مطـرزة للسيدة مـريم العذراء وصـورة للخليفة علي رضي الله عنه متوجاً بين ابنيه الحسن والحسين.

تفرشـ غرفـة الضيوف (في حـال وجودهـا) بالطريقة نفسهـا التـي وصفـت سابقـاً. الفـرق الوحيد هـو أن أواني الطبـخ لا يتم استعمالهـا في هذه الغرفة. وجـدت "المدات" أو السجـادات كأغطيـة للأرضـ فقط بين الأكـراد المقيمين في شـرق البلاد. وتتصـف القطع الأكثر شيوعـاً في الشمال بأنهـا سميكـة ملونة جداً وناعمـة لها رسـوم ونقوش شبيهة لتلك الموجودة في وسط آسيا.

يتم تخزين القش والتبن في أماكن مخصصة في المنزل، بينما تحفظ الذرة في حاويات ضخمة صنعت من مزيج طيني مـع القش. كما يتم حفظ جرار الزيـت الكبيرة هنا، وكذلك التجهيزات الزراعية كلها، مناجل الحراثة الخشبية ومزالج تقليـب التربة المصنوعة مـن ألواح خشبية قويـة مع حجارة متوضعة فيها. وشـوكات مع شعب خشبية ترتبط مع الحامل بوساطة رباط جلدي. وحيث تكون الزراعة مروية يكون هناك مجراف سحب لجر قنوات الري، وهناك سلال كبيرة لحمل السمـاد إلى الحقول، ومـراوح ومناخل لها إطـارات خشبية و(في الأردن علـى الأقل) أسلاك مع جلد منسوج بمهارة (تم استبـدال هذه في سوريا منذ فـترة طويلة بأسلاك مميزة)، ومكاييـل حبوب صنعت أيضاً من الخشب، يكون من الصعب الآن إيجاد التجهيزات الموصوفة هنا في سوريا كما هو الحال في التجهيزات الزراعية القديمة في أوروبا.

حلـت الأدوات المصنوعـة في المعامل بـدلاً عن الأدوات المصنعـة منزليـاً في كل مـكان وكانـت أرخصـ ولكنها أقل فعالية. وقـد مارس الحرفيون الريفيون حرفهم كمهنة ثانية لهـم، تمامـاً مثل منتجـات الحرفيـين المدنيـة. يمكننا الآن تصنيـف قطع مـن التجهيزات الفلاحية مـن قبل صانعيها. كمـا فعل كامل إسماعيل عام ١٩٥٧. فقد وصف في الصفحة ١٠٤ كيـف يمكن تقسيـم المـواد التقليدية لفلاحـي الجبال السورية إلى خمسة أنواع:

١- الأشيـاء المصنوعـة منزلياً، مثل الفرشـات، صدور القشـ، حاويـات الحبـوب المصنوعـة مـن القشـ والأخـرى الأكبر حجمـاً المصنوعة مـن الصلصال. وكلهـا صنعتهـا النسـاء. ولكـن لا تتمكـن كل امرأة بالضـرورة مـن صنـع كل قطعـة تم ذكرهـا هنـا بمفردهـا. أما اللواتـي لديهن موهبـة أكثر في مهنة الحرير فيصنعن عادة منتجاتهن لعدد من الأسر في القرية ويقمن بمقايضتها مع أعمال وأشياء أخرى.

٢- المنتجات الجزئية للحرفيين في الريف، مثل الأقسام الخشبية للمحراث، النير (الخاص بالثور) والمزلجة

الخاصة بقلب التربة، وسلال الحصاد وسلال كبيرة أخرى لنقل القش والروث الحيواني. وفي عام ١٩٧٥ لم تعد الأدوات التالية تستخدم: المعالق الخشبية والقدور الخشبية والطاحونة الحجرية اليدوية، الهاون المصنوع من البازلت. صنع الفلاحون هذه الأدوات في أوقات فراغهم، مثلاً، أثناء فترة ما بعد الحصاد عندما يوجد عمل قليل في الحقول بواسطة صنع أقسام خشبية للمحراث والحوامل الخشبية للمجارف والمناجل وغيرها منافسين بذلك الحرفيين المدنيين.

٣- منتجات الحرفيين المدنيين. كان للحرفي وضع خاص مثل صانع شفرات المحراث والحروف الحادة للمجارف والمناجل (كان يتم الحصول على المجارف عادة عام ١٩٧٥ من التجار المدنيين). كان عمال الأحذية مهمين جداً أيضاً: فقد صنعوا الصنادل وأكياس المياه الجلدية من إطارات السيارات القديمة.

٤- كانت التجهيزات المطبخية المصنوعة من النحاس هي المنتجات الرئيسية للحرفيين المدنيين.

٥- حلت منتجات المصانع الآن عوضاً عن منتجات الحرفيين المدنيين والريفيين. واستمر الكثير منهم بإصلاح المنتجات القديمة، بينما تحول الآخرون إلى غيرها، مثل التجارات الواعدة، فبعضهم مثلاً، أصبح يعمل في ميكانيك السيارات.

٢٦٦. أواني فخارية نسائية من جنوب سوريا، مصفاة وزبدية عجين.





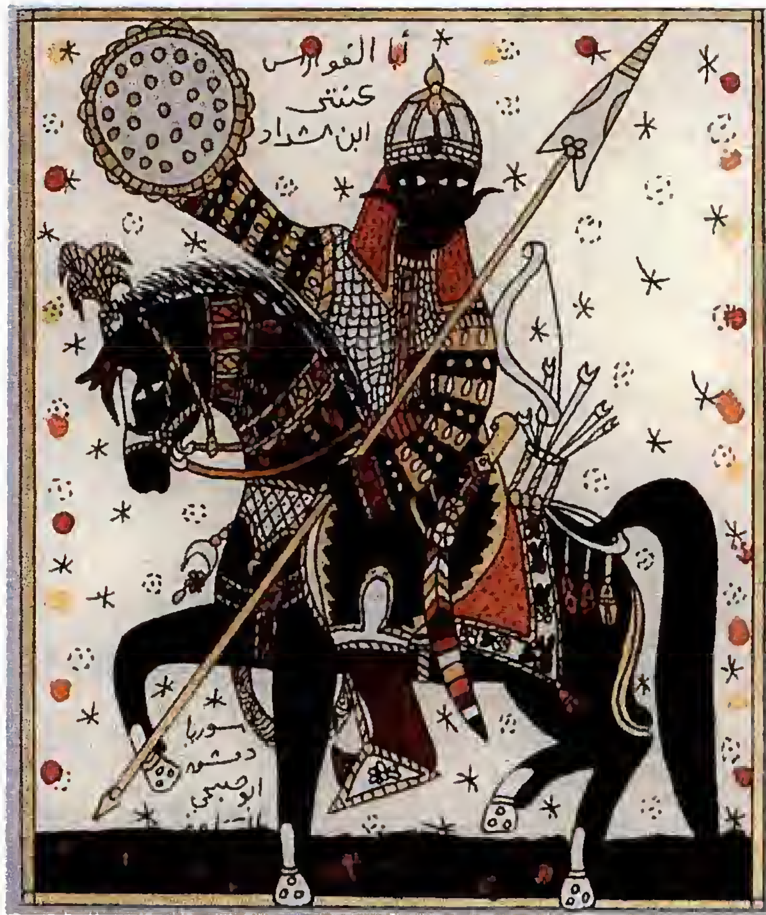
٢٦٨. أواني فخارية من جنوب سوريا، قدور للطهي وأواني للماء والزيت.

٢٦٧. إبريق فخاري مع ديكورات نافرة من جبال الجولان.



٢٦٩. قوالب لصنع الخبز في الاحتفالات من الأمام حجر وفي المركز سيراميك ومن الخلف خشب-جنوب سوريا.







٢٧٠ و٢٧١. ابنة الملك النبيل عبلة والفارس الشجاع عنترة. الزوج النموذجي للمحبين من عصور ما قبل الإسلام، (ملحمة عربية). كانت الرسوم الزجاجية البدائية نموذجاً بدائياً شعبياً معروفاً لديكورات الجدران عند الفلاحين.



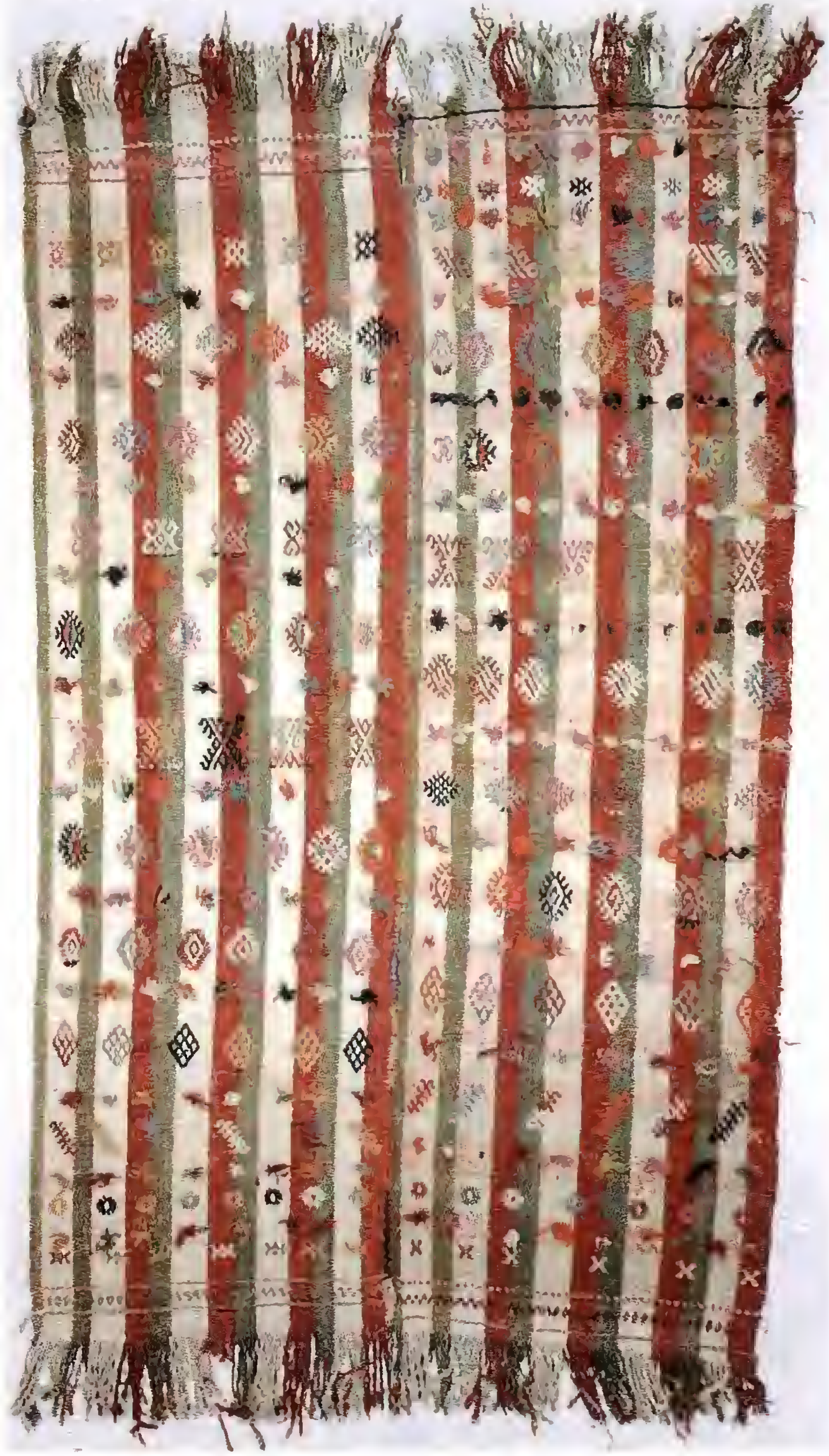


٢٧٢. سفينة نوح.

٢٧٣. أبطال القتال.

٢٧٤. قافلة حج تستعد للرحيل إلى مكة.











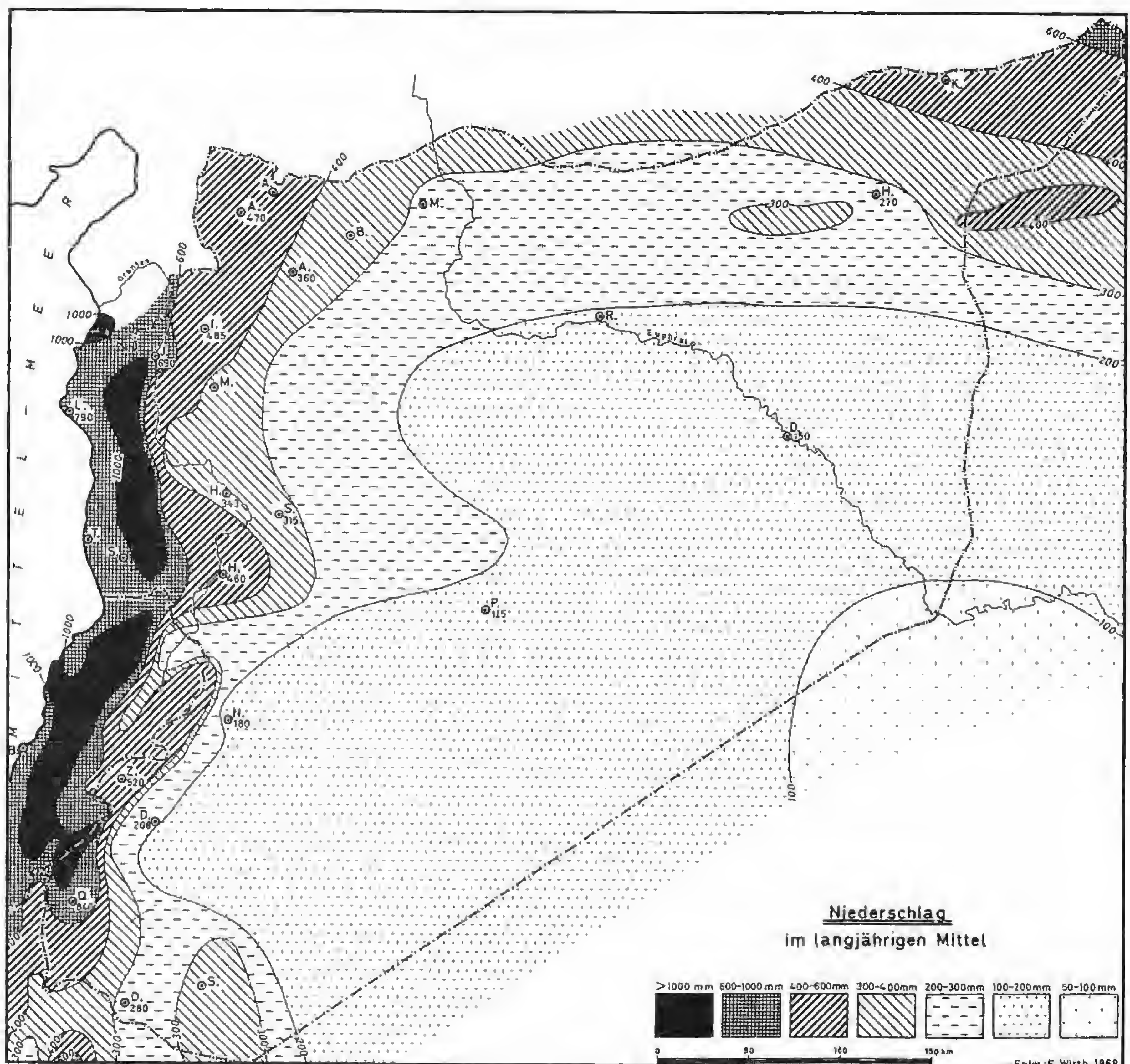


٢٧٥-٢٧٧. ديكورات تزيينية للحائط مطرزة تستخدم من قبل الفلاحين: صورة للسيدة مريم العذراء (مادونا) صورة البراق، الحيوان الأسطوري الذي حمل الرسول محمد (ص) إلى السماء. الإمام علي مع ابنيه الحسن والحسين. (تعود صورة البراق إلى عام ١٩٦٠).

٢٧٨ و٢٧٩. أغطية الأرض العادية لمنازل الفلاحين من الحصير أو اللباد. استعمل الأكراد البسط المنسوجة ذات النماذج الهندسية البسيطة وألوانها البراقة الزاهية.



٢٨٠. منظر لقرية شونة قبل ١٩٠٠.



مصور جغرافي لخارطة سوريا يبين المعدل السنوي للأمطار.

١٢ العرس في واحة الشونة

بيتر بينشتدت

(ملاحظة: لشكل الزواج في المناطق الشرقية كافة، الحدث الأكثر أهمية في حياة الشباب. وما يزال الزي التقليدي يلبس في حفلات العرس ويتم عرض حلي العروس وجهازها كله. يصف بيتر هنا حفلة العرس في واحة الشونة، كما شاهدها ووصفها له أشخاص يافعون).

يعتبر زي العرس، أو الزفاف، كما وصفه سكان الشونة، نموذجاً تقليدياً ريفياً ويختلف عن نظيره المدني من نواحي عديدة ولا يمكن أن يرقص الرجال والنساء في الأعراس وأن يمسكوا بأيدي بعضهم البعض في مدينة مثل حلب.

في الشونة لا يوجد شيء اسمه الحب قبل الزواج أو المعرفة بالطرف الآخر (بالنسبة للشاب والفتاة) قبل الخطبة. يحدث الأمر هنا بطريقة مفاجئة كلياً، يذهب أحدهم إلى والدته ويقول لها: «أمي، أنا أريد أن أحصل على كذا وكذا...» تذهب بعدها إلى والدة الفتاة وتقول لها: «أختي، نريد أن نحضر الجهاز لابنتك!» فترد عليها: «عودي بعد عدة أيام!» عليهم أن يقوموا بالاستشارة. لذا يستدعون الفتاة ويخبرونها. وفي العادة تتزوج الفتيات دون إرادتهن. إنهن يجبرن على الزواج. ومن ثم، هناك شيء آخر يدعى حجز العروس. هذا يعني أن ابن العم، أو الخال، يمكن أن يحجز ابنة عمه أو خاله كعروس له. حتى لو كان عمره خمس سنوات وعمرها سبعة عشر عاماً. على سبيل المثال، عليها أن تنتظر حتى تصبح في الثالثة عشرة من عمرها وهو في الثامنة عشرة حتى يتزوجا.

تتم مراسم الزفاف على الشكل التالي: تبلغ النسوة موافقتهن على الزواج ويحددن موعداً لاجتماع رجال العائلتين، وفي الاجتماع تتم مناقشة تفاصيل الزواج، موعد العرس والمهر وهو مايتم تقديمه للعروس قبل الزواج ويسمى (المقدم) و(المؤخر) وهو المبلغ الذي يتوجب على الزوج دفعه في حال الطلاق.

وعندما تتم موافقة الأهل على الزواج، يتم استدعاء أحد الشيوخ ويعقدون الزواج مع تحديد مهر العروس الذي يبلغ في هذه الأيام حوالي ثلاثين ألف ليرة سورية مقدماً ونفس المبلغ الذي يتوجب على الرجل دفعه في حال الطلاق. ثم يقرأون السورة الأولى من القرآن (الفاتحة) وهنا يكون الزواج قد تم شرعاً. وبعد أسبوع يشترون على جهاز العروس: ملابس وعطورات وأواني فخارية.. ثم يحددون موعد العرس وإذا رغب الرجل فإنه يرتب حفلة رقص قبل العرس بأسبوع. وهنا يشبك الشباب والشابات أيديهم مع بعضهم ويصطفون صفاً واحداً ويرقصون معاً مثل (الشركس) ويغنون أيضاً أغاني تسخر من أفراد معينين من أهل القرية مثل: «آه، نحن بني خلف، نحن ضباط في الكلية وأنتم بني عالي، عشرون منكم يساوون باكيت سيجارة!»

تنقش يدا وقدما العروس بالحنة قبل الزفاف بيوم وعادة يكون يوم الأربعاء. حيث تدعو العروس كل صديقاتها البنات ليأتين وينجزن أعمال الحناء كلها في الليل. تدعو رفيقاتها أيضاً ليقمن بتحميمها وترتيب شعرها وإزالة شعر قدميها ويديها وتحت إبطيها ومن ثم تعطيرها. تقوم البنات في هذه الأيام بنزع الشعر الزائد بكريم خاص لذلك. أما سابقاً فقد استخدمن عجينة محضرة من السكر، البطم، الراتينج، الماء والإثمد. توضع العجينة فوق الشعر الزائد لفترة قصيرة ثم تنزع وهذا مؤلم جداً. تقام المراسم ذاتها للعريس، فهو ينقش يديه بالحنة ويستحم ويجمع رفاقه من حوله وعندما ينتهي الجميع يتم أخذ العروس إلى العريس وهم يغنون أغنيات خاصة وقبل أن يأخذوها إلى غرفة نوم العريس، تقام بعض الأعمال التقليدية: تكسر زجاجة عطر أمام غرفة النوم أو كأس شاي، أو تلصق عجينة فوق الباب. فإن لصقت وبقيت فترة قصيرة، فهذا يعني أن الزواج لن يستمر طويلاً. وإن مكثت وقتاً طويلاً فهذا يعني أن الزواج سيستمر طويلاً. ويقوم الزوج أيضاً بأخذ قطة صغيرة ويقطع رأسها أمام العروس ليريها من هو سيد البيت ويخيفها. وفي اليوم التالي لليلة الدخلة، تأتي صديقات العروس ويحضرن لها الإفطار المفضل: جبن، زبدة مصفاة، زيتون، زيت وزعتر مطحون مع حبات السماق لبن وغيره من الموجود. وما يتبقى تأخذه لشقيقتها أو قريباتها الأخريات. في اليوم الثالث، تأتي صديقاتها لتهنئتها ويقدمن لها نقوداً كهدية، ربما خمسين أو مئة ليرة، أو يعطينها زوجاً من الجوارب أو سروالاً قصيراً مزمزماً عند الركبة أو حلوى.. ثم تنحر الذبائح، ويمكن أن يتم ذلك يوم العرس أو قبله أو بعده كما يشاؤون. يذبح أهل العريس على الأقل خمسة عشرة خروفاً ويدعون كل أقاربهم وأصدقائهم. وبالطبع تقوم النسوة بالزغاريد: «لولولولوليش...» كل الوقت، وتغني أغاني للعروس: «أوه، يلي طلعت الدراج وحدة وحدة شعرك مثل سلاسل الذهب، جدلة، جدلة سلقنا الرز الأصفر ونثرناه على الأرض...!»



٢٨١. واحة تدمر.

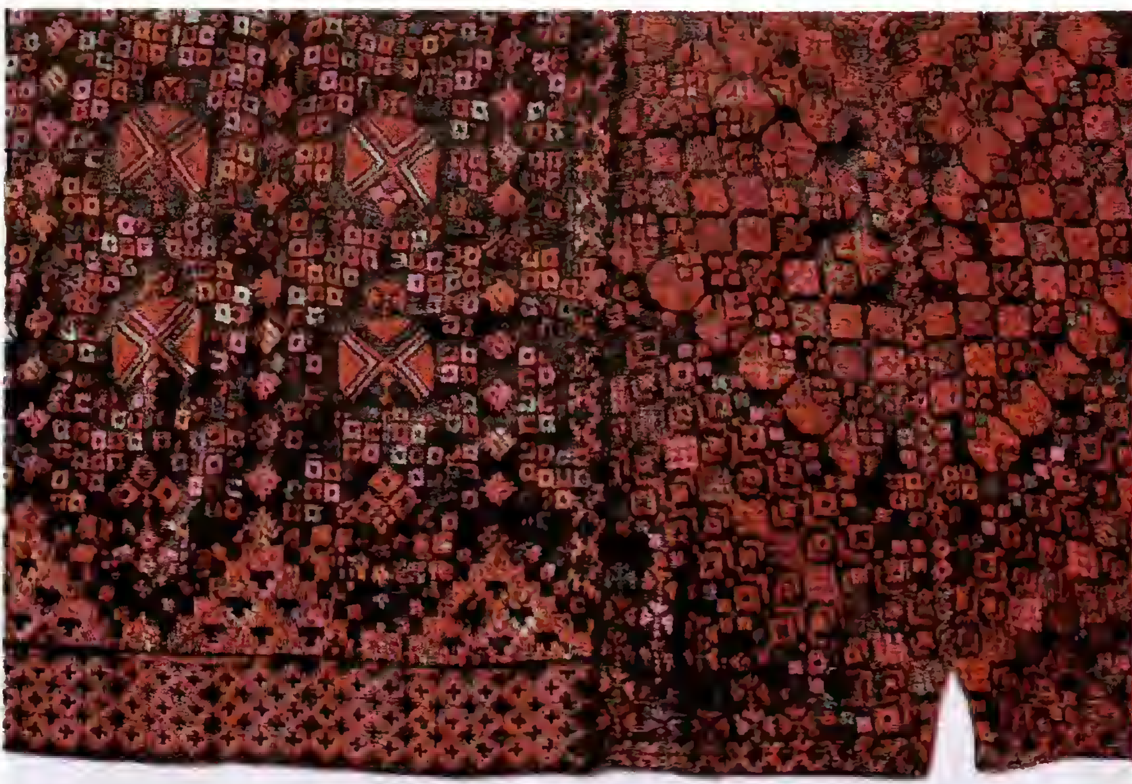


٢٨٢-٢٨٦. ملابس مطرزة بالحرير من الشونة، تلبس فقط في المناسبات الاحتفالية مثل الأعراس. إضافة إلى نقوش هندسية، أشكال مثل حبات التمر وأوراق البلح وأشكال حبات الصنوبر التي كانت معروفة أيضاً. وكانت توجد التنانير المطرزة والأثواب والمعاطف والسراويل في الشونة فقط. أما في هذه الأيام، فلم تعد توجد مثل هذه المطرزات فيها.



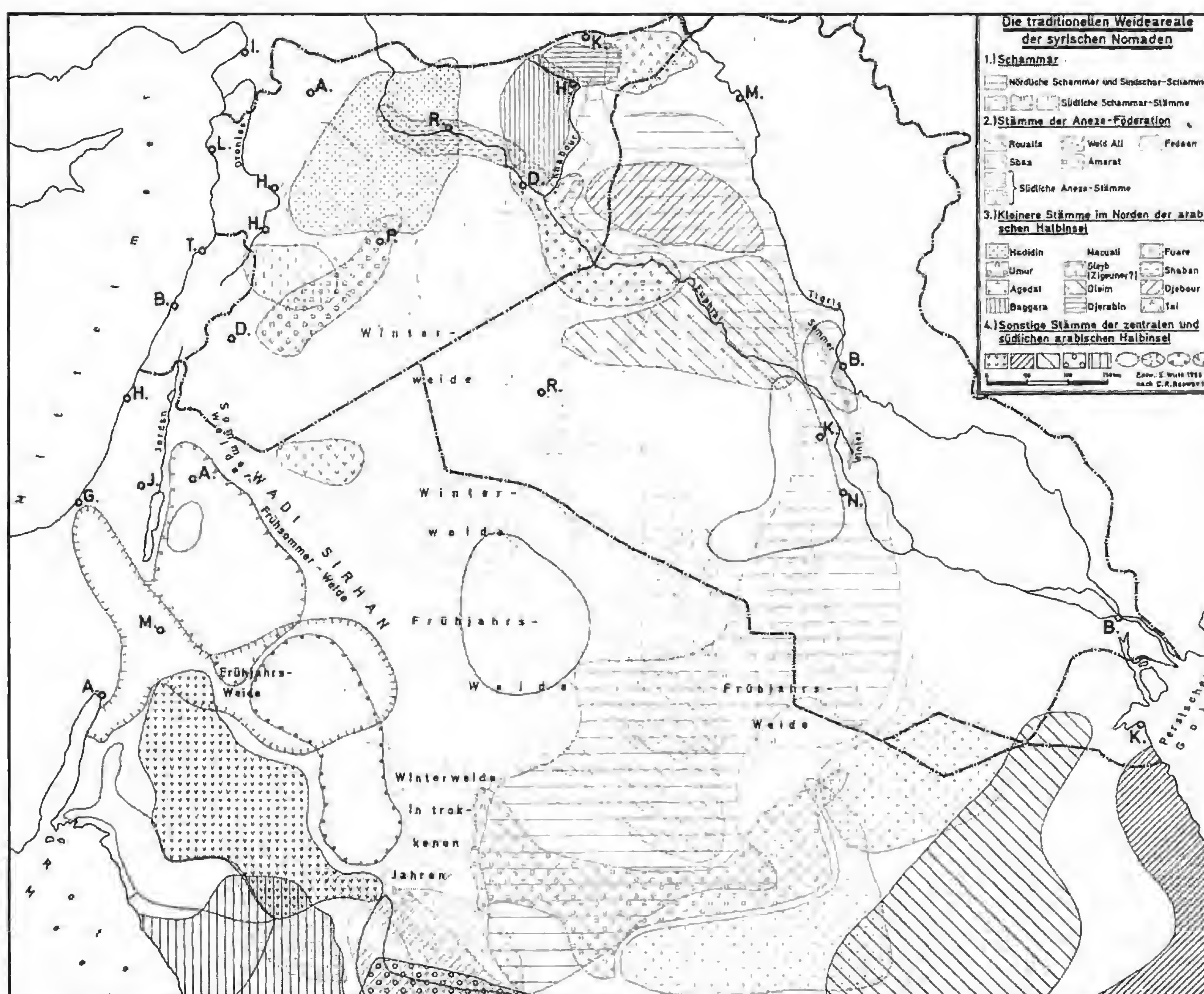








٢٨٧. بدو الرولة في ترحالهم. في المقدمة جمل مع هودج امرأة (محفة).



مصور جغرافي لخارطة سوريا يبين مناطق الرعي التقليدية للبدو السوريين.

١٣ ثقافة البدو

جوهانز كالتر

وفرت السهوب الصحراوية في سوريا الداخلية، وما بين دجلة والفرات، ظروفاً مثالية تماماً لثقافات البدو الرعوية خلال آلاف السنين. وقد حصلنا على بعض الإحصائيات منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، وإلى وقت قريب، للصراعات بين سكان المدينة والفلاحين والبدو وعلاقات التكافل فيما بينهم. لم تكن الحدود مع منطقة البدو مغلقة تماماً. وفي الفترات التي كانت سلطة الدولة فيها قوية والهطولات المطرية غزيرة ومستمرة على مدى سنين، توسعت الأراضي الزراعية نحو الشرق بسبب بلوغ حدود الهطولات إلى ٢٠٠ ملم. أما في الأوقات التي كانت فيها سلطة الدولة ضعيفة، والهطولات قليلة، فقد توغل البدو، وبشكل أكبر، عبر أراضي الفلاحين. وعلى الرغم من الاعتراضات المتكررة على توسعهم، فقد لعب البدو في الحقيقة دوراً هاماً في الشبكة المتوازنة والمعقدة للعلاقات بين سكان المدينة والفلاحين والبدو عبر القرون. أما في المئة سنة الأخيرة، فقد تضاءل اقتصاد البدو، وكذلك الحال في كل مكان من الشرق، حتى أنه مهدد بالانقراض في سوريا.

تبدو هنا ظروف طرق معيشة البدو، من النظرة الأولى، أفضل منها في أغلب الأقاليم الأخرى من الحزام الذي يحدد العالم القديم (الجاف). وتنخفض معدلات هطولات الأمطار السنوية إلى ٨٠ ملم في بعض الأماكن، حتى في الأقاليم الداخلية للبادية في سوريا.

«يمر عدد من فصول الشتاء مع هطولات قليلة من المطر تؤدي إلى ظهور نباتات صغيرة خضراء وتظهر بعض الصعوبات أيضاً في إيصال مياه الشرب. هناك بعض الينابيع الجيدة عند حافة السهوب الصحراوية وعدد من الينابيع الضعيفة، إضافة إلى الأنهار: دجلة والفرات التي يمكن أن تؤمن مياه الشرب خلال السنة في بعض الأماكن. تملأ الخزانات بعد أمطار شتوية غزيرة كما تملأ المنخفضات المسطحة الصغيرة أو الكبيرة لعدة أسابيع بالمياه الصالحة للشرب. يمكن بعدها ضخ المياه الجوفية في الوادي العميق الكبير إلى أي مكان وهكذا يمكن أن تستخدم المراعي في السهوب الصحراوية السورية كمراعي للجمال خلال أغلب أيام السنة. كما يمكن للخراف الرعي هناك أيضاً في شهور الشتاء». ويرث الصفحة ٢٥٤.

تطورت الأشكال المتعددة للرعي البدوي بطرق متعددة فقد الغيت حيازة كل من الجمل أو الخروف في منازل البدو، وفي ظل ظروف معينة يجابه رعاة الخراف ظروفاً اقتصادية متغيرة بينما من المؤكد أن رعي الجمال سينقرض بين الأجيال القادمة. وعندما نتحدث عن البدو العرب، يشير المتحدث عادة إلى رعاة الجمل من البدو. إن الكلمة العربية (بدوي) مشتقة من مصطلح (بدو) وهي تعني ساكن البادية، أو السهوب، أو الصحراء. يدعو البدو أنفسهم عادة بالعرب ويشيرون إلى الناس المقيمين بالحضر. يتضمن هذا المصطلح كل من سكان المدينة والقرية. (كروشينغ ١٩٨٠) يتبوأ البدو مركزاً متفوقاً ضمن المجتمعات العربية. وفيما يلي وصف مختصر لبعض المظاهر الأساسية من ثقافتهم.

تم تأهيل الجمل ذي السنام الواحد (الجمل العربي) في شبه الجزيرة العربية خلال الألفية الثانية قبل الميلاد. وقد وجدت الفهارس المكتوبة الأولى للفرسان، وراكبي الجمل الذين يدعون العربي (العرب) في اللوائح المسمارية الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد التي تشير إلى حوالي ألف بدوي من رعاة الجمل في إقليم دمشق. ومنذ ذلك الوقت اعتمد اقتصاد البدو من رعاة الجمل على عدد من النشاطات الكمالية، وقد استندت كلها على المنتجات المشتقة مباشرة من رعاية الجمال. كان حليب الجمل مثلاً، بعكس حليب الماعز أو النعاج، يتوافر في كل أوقات السنة ولذلك كان يعتبر المصدر الرئيسي لرزق البدو. وعندما تكون فرص الرعي جيدة يمكن لأنثى الجمل أن تنتج سبعة ليترات من الحليب. وتنخفض الكمية في موسم الجفاف إلى ليتر واحد تقريباً. يستهلك قليل من هذا الحليب طازجاً بينما تصب الكمية الباقية في أكياس جلدية خاصة وتخض. ويتحول قسم منها بعد ذلك إلى جبنة جافة. يستعمل شعر الجمل في نسج البسط والبطانيات والحقائب والسروج والأحزمة وفي الحياكة... أما جلد الجمل فيستخدم في صنع السروج وحافظات وأوعية المياه. أما روث الجمال فيعتبر مصدراً هاماً للطاقة: يستخدم البول كمادة لغسيل الشعر وكمطهر للجراثيم. تجعل القدرة الهائلة للجمل على التنقل (يمكن للشخص أن يقطع مئة كيلو متر في اليوم راكباً على الجمل). من الممكن ركوب الجمل والقيام بغارات مسلحة سريعة ضد الفرق البدوية المجاورة وعلى قرى الحضر. ما تزال المواشي والأغذية والقماش والملابس وأشياء أخرى تؤمن مصدراً هاماً لدخل البدو رعاة الجمل حتى القرن الحالي. وكل بدوي يستطيع تأمين الماء والعلف الكافي يمكنه إحضار حصان إضافي واستخدامه في تلك الغارات. وقد استبدلت الجمال بالأحصنة العربية من أجل الهجوم لأنها تعتبر أكثر راحة وأسرع وأكثر خفة ورشاقة. لقد كانوا فخر كل فارس له شأن. يمتلك البدو رعاة الجمل عدداً لا بأس به من الماعز، أو إذا كان ممكناً خرافاً ذات كفل دهني لاستعمالهم الشخصي. وكباقي البدو فإنهم لا يأكلون إلا القليل من اللحم. وفي الولائم الكبيرة يتم ذبح الجمال الذكور، وفي بعض الأوقات، إن كان المضيف يود تكريم ضيفه أكثر تذبح الخراف أو الماعز.







٢٨٨-٢٩٠. سرج جمل، إطار خشبي مع رباط جلدي وحلقات نحاسية صفراء لحزام السرج مزين بنماذج حلي على شكل مسامير وشعب. في الصورة الثانية، السرج نفسه مع وسادة (تم الحصول عليه قبل عام ١٨٨٣ من قبل ج. أوتينغ، احتمال أن تكون من قبيلة الرولة) مع حقائب سرجية للجمل.



٢٩١ و٢٩٢. كان البدو يرغبون بتزيين جمالهم عندما يرحلون. من اليسار: زينة للرأس مصنوعة من أسنان الخنزير البري وخرزات زجاجية زرقاء كتعويذة. من اليمين: زينة للرأس ورسن مزخرف بالودع وزجاج المرايا. جنوب سوريا.





٢٩٣. جمال ترعى في صحراء سوريا الداخلية.

يضيف الصيد والالتقاط تنوعاً إلى غذائهم وخاصة في الربيع، عندما يتم جمع الكمأة والجذور المتنوعة والأعشاب القاسية. يتقاضى البدو النقود لقاء حمايتهم للفلاحين الذين يقيمون في مناطق نفوذهم. حتى أن بعضاً منهم كان يتلقى نقوداً من الحاكم المحلي، ومن المحكمة في اسطنبول خلال عهد الحكم العثماني. كما يؤمنون أدلاء ومرافقين مسلحين لقوافل التجار أو الحج، أو ربما يتصرفون هم بأنفسهم كتجار القوافل. وفي القرن الثاني والثالث بعد الميلاد، كانت مدينة تدمر، الواقعة في منتصف الطريق بين دمشق ونهر الفرات، مركزاً هاماً للدولة، وتدين بازدهارها إلى القوافل التجارية على طريق الحرير وطريق البخور كان الشرط الأساسي للتقدم بالنسبة للبدو رعاة الجمل هو إمكانية القيام بهجرات مكثفة طلباً للرعي.

كانت قبيلتا «شمر» و«رولة» (اللتان تعودان إلى الاتحاد القبلي «العنزي») أكبر وأكثر القبائل قوة في سوريا. «توجد المناطق الرعوية الصيفية لقبيلة الشمر في جنوب سوريا وعلى ضفاف نهر الفرات، أما بالنسبة لقبيلة الرولة فعلى حدود الأرض المستوطنة حديثاً إلى الغرب (الأراضي الجبلية لسوريا المركزية والجبال البازلتية في جنوب سوريا). أما مناطق الرعي الشتوية للبدو السوريين فهي تقع بعيداً إلى الجنوب من الأقاليم العراقية الغربية الجنوبية، شرقي الأردن وشمال شبه الجزيرة العربية.

يقطع البدو رعاة الجمال من ٦٠٠-٨٠٠كم خلال ترحالهم السنوي ما بين المناطق الرعوية الصيفية والشتوية. وهم يعبرون أيضاً ضمن قطاعات دول أخرى. وما دامت الجمال تشكل القسم الرئيسي من القطعان فلا يمكن تجنب مثل تلك الهجرات الطويلة لأن الجمال تعاني بشدة من برد الشتاء في السهوب الصحراوية من الأجزاء الشمالية والداخلية من سوريا. يبدأ الرحيل نحو الجنوب من مناطق الرعي الصيفية عادة بشكل مبكر من شهر أيلول على سبيل المثال وعادة لا يعودون حتى شهر تموز. وبذلك فإن البدو يقضون حوالي ثلاثة أشهر من السنة على تواصل مع السكان الحضر على الحدود المتاخمة للمناطق الزراعية» ويرث ١٩٧١ صفحة ٢٥٥.

وهكذا يصبح واضحاً أن تطور ووجود شعوب الدول الحديثة في ظل سلطة مركزية قوية جعل من انحدار البداوة (رعاة الجمل) أمراً واقعاً. توقف تدفق أموال الحماية من الفلاحين أو القوافل فعلياً بعد تشكيل جهاز الشرطة الحديث. كما انتهت الإعانات المالية من الدولة، وبدلاً من ذلك أرغم البدو على دفع الضرائب. ومنذ عام ١٩٢٠ انخفض مستوى أهمية الجمل العربي بشكل كبير كوسيلة تنقل. حيث يمكن لقطار الشحن الكبير أن ينقل حمولة تقدر بالحمولة التي يستطيع ٢٥٠ جملاً حملها. وإلى جانب

هـذه الظاهرة الموضوعية، هناك أيضـاً شعور عام ضد البدو بـين الموظفين الرسميين لتلك الدول الحديثة. تعني هجراتهم البعيـدة المـدى أن البدو يهربـون من سلطة ومراقبـة الدولة. وأية سلطة رسمية دولية تستطيع تحمل أمور داخلية مثل هذه؟ والأكـثر من ذلك من صـار اقتصادهم متراجعاً نحـو الوراء ولم يعد متلائماً مع متطلبات الدولة الحديثة. ووفق الإحصائيات (الموضوعـة من قبل لويس ١٩٨٧) فإن القبائل البدوية إجمالاً ما تـزال تقدر خيامها بحوالي ٢١٤٠٠ خيمـة و١٨٧٥٠٠ جمل في عـام ١٩٤٠. وقدر عدد رعاة الجمل من القبائل البدوية في عـام ١٩٤٧ في إحصائيات عام ١٩٧١ بحوالي ١٦٠٠٠٠ راعي. وقعت الكوارث بسبب تغير الطقس الذي يعتبر دائماً مصدر خطورة للاقتصاد البدوي. كانت سنوات ١٩٥٨-١٩٦١ سنوات جفـاف قاحلة في كل أنحاء سوريا. قدر لويس العدد الإجمالي للجمال في سوريـا في عام ١٩٥٨ (متضمنة قطعان الحيوانات من خراف البدو) بحوالي /٨٠٠٠٠/ وفي عام ١٩٦١ انخفض عددهـا إلى حوالي /١١٠٠٠/.. تفسر هذه الخسارة القاسية جزئيـاً أن السلطات في سوريـا كان لديها رغبة قليلة لمساعدة البـدو في ظروفهـم القاسية. ولم تعد كثير مـن الأسر البدوية قادرة على الاستمـرار في تربية دواجنها ومواشيها. وقد سعى الرجـال البدو إلى العمل كعمال مهاجريـن في دول الخليج، أو كسائقي سيارات أجرة في سوريا، رجال شرطة، أو ربما تطوعوا في الجيش. ومن الواضح أن أسلوب معيشة الحضر في المدينة اعتـبر من قبل العديد منهم أقل درجة مـن الانتقال من رعي الجمـل والإبل إلى رعي الخراف التي ربما كانت ستعرض لهم بديـلاً قابلاً للتطبيـق. بينت الدراسة التـي قدمها لويس عام ١٩٨٧ والتـي استعنـا بها في عدة مناسبـات حجم الصعوبات التـي عانى منها عدد من البدو مـن جراء هذا التغيير. لاحظ لويس أن بعض الرجال الكبار، والشيوخ الأصغر سناً، قد رتبوا غـرف الضيوف في منازلهم مثل منطقـة الرجال في خيامهم القديمـة، كنوع من الحنـين إلى ديارهم في الزمـن الماضي.. وضعت الفرشات والوسائد في الغرفة حول منقل الفحم الكبير الـذي توضع فوقـه أربع إلى خمسـ دلات نحاسية للقهوة. يتم إشعال الوقود لتدفئة الغرفة، وتوضع أغلب دلات القهوة للمنظر فقط، حيث يتم تحضيرها عملياً بواسطة مواقد غاز ويحتفظ بها ساخنـة في ترامس خاصة بها. وبسبـب غياب العديد من الرجـال، تكون هذه الغرف بمثابة متاحـف تقريباً، ما عدا في بعض المناسبات الخاصة حيث يتم ذبح خروف للضيف.

تمكن بعض من البدو، وخاصة من قبيلة الشمر، من الانتقال إلى حياة الحضر الزراعية. يعود سبب ذلك، كما أشار ورث، إلى أن بعضاً من مناطق رعيهم الصيفية في جنوب شرق سوريا تؤمن لهـم ظروفاً جيدة للزراعة المنتجة مـن ناحية التربة الصالحة وامدادات المياه. وقد تم منح شيوخ الشمر ملكية المزارع الصالحة للزراعـة بأمر مـن سلطة الانتداب الفرنسـي في الأعوام ١٩٤٠ و١٩٤١. وبهـذه الطريقة، تم توزيع أقل مـن ٥٠٠٠٠٠هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة في المنطقة المنخفضة من الراد إلى الشمال من جبل سنجار إلى البدو. وفي منطقة مقسمة هندسياً إلى مربعات يبلغ طول ضلعها ما بين ١-٢ كم، تتم زراعة القمح والشعير بشكل كامـل بواسطة المعـدات والآلات الزراعية. كان اتخاذ هذا القرار أسهل بالنسبة لقبائل بدو الشمر لأن شيوخهم من سلالة نبيلة راقية، وقد مكنهم تعليمهم الغربي من ممارسة التأثـير القوي في تلك الأمور. هـددت نسبة الانخفاض الشديد لأعداد الجمال (ما بين عامـي ١٩٠٠-١٩٣٠) التي وصلت إلى ٨٠٪، بانخفاض المستوى العالي لحياة الشيوخ وضعضعت قوتهم وتماسكهـم. بيَّن ورث أنه في البداية عين الشيوخ عدداً محدوداً فقط من رجال قبيلتهم لزراعـة الحقول بينما حافظ الآخرون على أسلوب حياتهـم البدوية. استمرت الهجرات الرعوية حتى مرحلة لاحقة من عملية الانتقال إلى حياة الحضر ولكن شارك قسم من العائلة فقط في ذلك وبقي الآخرون يعملون في الزراعة، ويقيمون في مساكن دائمة. أصبحت مزارعهم الخاصة التي لم تعد تستحـق الحراثة بسبب سنوات الجفاف المتكررة، متوافرة كمكان لرعي القطعان.

يمكـن أن نرى من خلال الصور القديمـة أن بقاء ٣٠-٤٠ خيمة سوداء هي أمر غير عادي تماماً في العام ١٩٣٠. وقليلاً ما توجد هذه الخيام في أيامنا الحالية.. لم تكن مستلزمات البدو التقليدية في مجموعتنا المتحفية إلا ذكرى لماضيهم العظيم.

كان قـدر فريق البدو الكبير الآخر (رعاة قطعان الماشية من السوريين) مختلفاً.. هم أيضاً فقـدوا عدداً كبيراً من قطعانهم خـلال سنوات الجفاف بين عام ١٩٥٨ و١٩٦١. كان تعداد رؤوس الأغنام في عام ١٩٦٠ حوالي ٣ ملايين رأس، وازداد العدد إلى ٦ ملايـين عام ١٩٦٩ وإلى ٩ ملايين عام ١٩٨٣. هناك سوق كبيرة للأغنـام ليس في سوريا فقط بـل أيضاً في دول الخليج. يمكن أن نـرى الطلب الكبير عليها من خلال المعلومـات التي أوردها ورث عـام ١٩٦٧: استورد الجيش السوري حوالي ٢٠٠٠٠ رأس غنم في السنـة لاستخدامها، إضافة إلى أعـداد كبيرة من لحوم الأغنام مـن أستراليـا. حتى أن الملحـق التجاري الألمـاني في دمشق قام بتنظيم بحـث رسمي عمـا إذا كانت جمهوريـة ألمانيا الاتحادية قـادرة علـى تصدير عـدة آلاف منهـا إلى سوريا. تكـون عادة، مسارات الهجرة السنوية لرعاة الأغنام السوريين بين ٥٠-٢٠٠كم وبشكل عام فإنهم لا يجتازون الحدود السورية. ترعى الحيوانات أثناء الحر، وشهور الصيف الجافـة، في الأراضي المحروثة، وفي الحقول وما يبقى منها بعد الحصاد، وكذلك في الأراضي الجبلية المزروعة. أما في الشتاء فإنها تؤخذ إلى تلك الأجزاء من السهوب الصحراوية السورية المنضمـة إلى الأراضي المسكونة حديثاً من الوسـط الشمالي وجنوبـي سوريا. هذا يعنـي أن البدو من رعاة الأغنام يستخدمون المراعي نفسها التي يستخدمها البدو في أشهر الصيـف. تم استبدال الهجرة الموسمية التقليدية بنقل القطعان

بواسطة الجرارات أو الشاحنات لاجتياز المسافات الأطول وهذا يجعل من الممكن الوصول لمناطق كانت تقع سابقاً خارج المناطق الرعوية للبدو ورعاة الأغنام. نتج عن النمو الكثيف في عدد المواشي، وإمكانية استخدام وسائل نقل حديثة للوصول إلى أكثر المناطق المشجعة للرعي، إفراط بالرعي لبعض المناطق الواسعة والتي تبدو الآن غير صالحة للرعي أبداً. تفاقمت هذه العملية بواقع أن القطعان ستعتمد بعد الآن على اقتراب فصول الربيع أو الموارد الطبيعية من المياه حيث أن المياه يمكن جلبها للقطعان في شاحنات من أماكن بعيدة. ورغم هذا، فما يزال هناك نتائج سلبية لسنين الجفاف. يفقد العديد من البدو كل قطعانهم في تلك الكوارث. وعندها تكمن فرصتهم الوحيدة للبقاء في البحث عن وسيلة للحصول على حصة من الرأسمال المدني. كتب ويرث في هذا الموضوع عام ١٩٦٩: «انبثق في مركز سوريا نموذجان من العقود من أجل إمكانية المشاركة في الاستثمار المدني وفق القانون المحلي. وتتم مراقبتهم بطريقة مدهشة من كل الأطراف وقد أثبتوا جدارتهم بشكل واضح (أ. نعمان ١٩٥١):

١. يجمع ساكن البلدة القطيع بنفسه ومن ثم يعهد به إلى عائلة بدوية. ويأخذ مقابل ذلك الزيدة المنتجة والأغنام الصغيرة المذكرة بينما يستفيد البدو من الصوف ومن الحليب الفائض.

٢. يعطي ساكن البلدة الرأسمال اللازم للبدوي لشراء القطيع، مثل الزبدة، الصوف والذكور الصغيرة من الماشية الصغيرة أما إناث الماشية الصغيرة فتبقى مع القطيع. وحالما تبلغ قيمة البضائع المأخوذة من المستثمر المالي قيمة المبلغ الذي تم تسليمه للبدوي يتم تقسيم القطيع. قسم يأخذه ساكن المدينة والثاني يأخذه البدوي. وإذا كانت المؤن الغذائية كافية، يتم اقتسام بعد سنتين أو ثلاث سنوات».

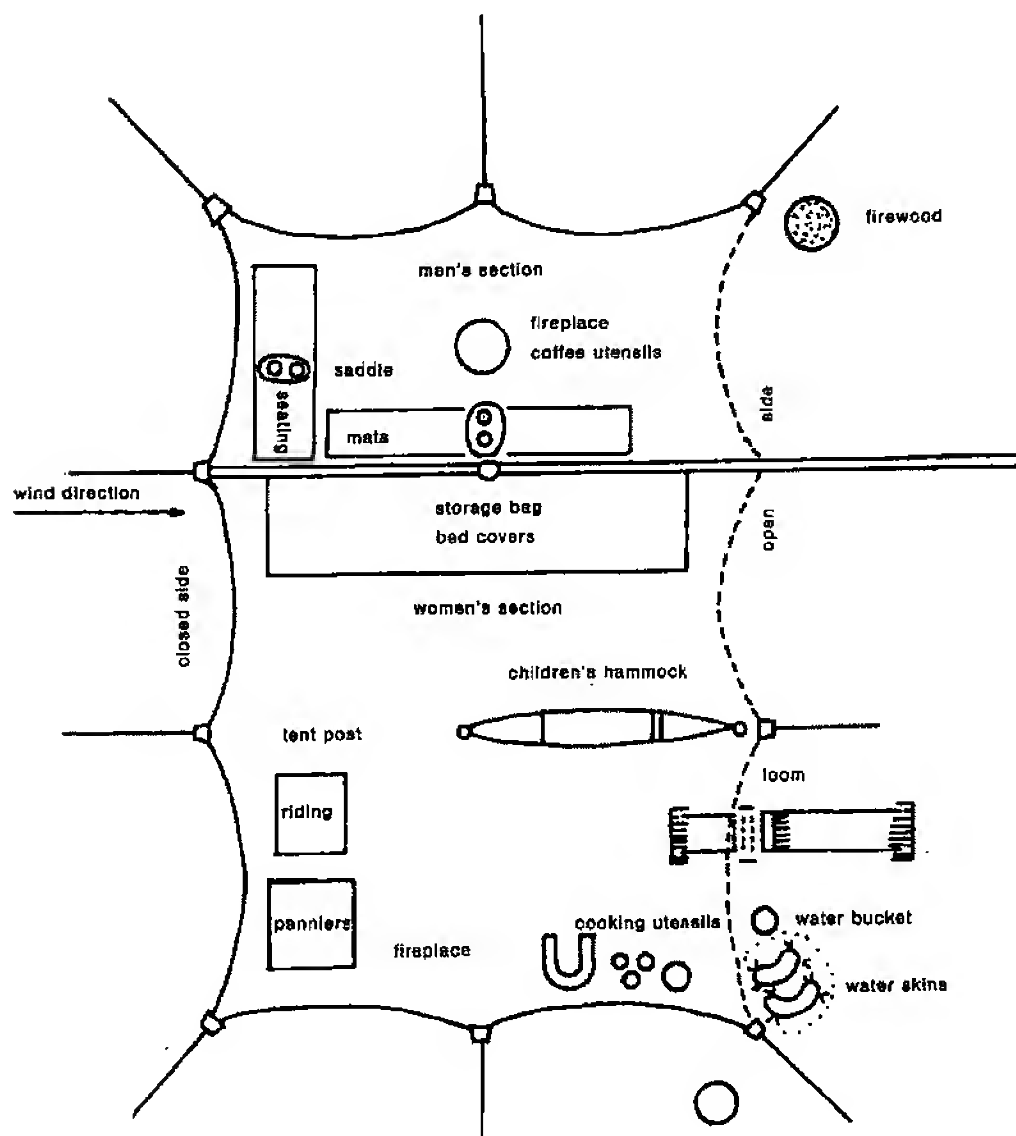
إن كان هناك خسارات متكررة للقطعان في سنوات الجفاف، يجب على البدوي مرة أخرى السعي لطلب المساعدة من المستثمرين المدنيين. وبهذه الطريقة لن يكون غريباً للبدو المستقلين أن يصبحوا رعاة مستأجرين. في عام ١٩٧١، قدر ويرث عدد رعاة الأغنام بحوالي ١٢٥٠٠٠ راعي. هناك فريق آخر من مزارعي ورعاة الماشية هم نصف متحضرين، مع مراعيهم وقراهم الحالية في شمال شرق سوريا ووادي الخابور والفرات السوري. يبقى جزء من العائلة فقط بعيداً مع القطعان في ترحالهم الموسمي. وحتى أفراد العائلة الذين يبقون في المساكن، يفضلون العيش في الخيام قرب منازلهم خلال الفصل الحار.

يحدث الانتقال من رعي الجمال إلى رعي الماشية، ومن البداوة إلى الزراعة وهجرة البدو إلى المدينة في سوريا في الأوقات كافة. إن المظهر غير العادي للتنمية التي حصلت منذ عام ١٩٣٠ و١٩٤٠ لا يكمن فيما حدث بل في سرعته وحجمه..

السلع والأدوات المنزلية للبدو:

يعيش البدو العرب في خيام سوداء مصنوعة من قطع طويلة ضيقة منسوجة من شعر الماعز، وهي نفس الخيام الموجودة في أماكن مختلفة في شمال أفريقيا عبر شبه الجزيرة العربية كلها، وفلسطين حتى الإقليم السوري والعراق وإيران وإلى أفغانستان. يتم نسج قماش الخيمة بواسطة النول الأفقي البسيط الذي يبلغ عرضه حوالي ٧٠سم وطوله ٧-١٢م. تخاط خمسة أو ستة من تلك القطع الطويلة الضيقة مع بعضها لتشكل السقف (سقف الخيمة) الذي يدعم بقوائم الخيمة التي يبلغ طولها أكثر من مترين وتنتهي بأعلى الخيمة مع البنية الفوقية الخشبية العريضة. ثم تخاط بعض قطع النسيج من أجل الجدران الخلفية والجانبية. أما الجهة الأمامية فتبقى مفتوحة أغلب أيام السنة، وتغلق فقط في أيام الشتاء الباردة. يبقى قماش الخيمة مشدوداً بحبال تثبيت من شعر الماعز الكثيف، التي تمت خياطتها بالخيمة مع قطع من الخشب على شكل حرف V أو U بالإنكليزية وتثبت بالأرض بواسطة أوتاد حديدية طويلة. تقسم الخيمة من الداخل إلى قسم نسائي كبير وقسم رجالي أصغر بواسطة وسائل فصل ممتدة بينهما. تمثل هذه الفواصل، في الخيمة، بزينتها وشكلها، الأمثلة الأكثر دلالة على أعمال البدو المنسوجة المنبسطة. تباع البسط المصنوعة من القصب في أسواق حلب أيضاً، مزينة بشراشيب صوفية ذات ألوان زاهية. تذكرنا هذه التقنية والزينة بالفواصل الموجودة في خيام البدو الجلدية في أفغانستان. ظهرت في أيامنا الحالية نوعية قماش للستائر مع نماذج ترقيعية أو فواصل بلاستيكية. جرت العادة أن تصنع النساء البدويات قماش الخيام بأنفسهن، أما اليوم فغالباً ما يتم صنع قماش الخيمة وأربطتها للبدو من قبل نساجين محترفين في أسواق القرى كحلب وحمص.

٢٩٤. مخطط خيمة بدوي.







٢٩٥ و٢٩٦. جدران خلفية وفواصل من النسيج الغني بالديكورات في خيمة البدوي. صنعت من قطع قماشية ضيقة طويلة بواسطة نول أفقي بسيط ومن ثم تمت خياطتها مع بعضها.




٢٩٧ و٢٩٨. حقائب سرجية للجمل استخدمت لنقل المعدات المنزلية أثناء هجرة البدو وقد تم استخدامها في الخيمة عوضاً عن الخزائن.

٢٩٩. حقيبة سرج حصان من واحة تدمر.

٣٠٠. زينة لصدر وجوانب الجمال من جنوب سوريا.




يوجد في مركز قسم الرجال، مدفأة، وعادة ما تكون منقل فحم محمول مع مجموعة من دلات القهوة. وهذه تشكل غرفة الاستقبال، حيث يستقبل رأس العائلة الضيوف الذكور على طول الجدار الفاصل خلف الغرفة.. وإذا كانت الخيمة تعود إلى رجل مرموق، توضع على طول الجدران الجانبية أيضاً بسط ووسائد فوق بعضها البعض. كما يمكن أن توضع سروج الجمال بينها لتستخدم سنادات لأيدي الزائرين. تعلق في وسط سارية الخيمة حقيبة جلدية مزينة بخرزات زجاجية، ودع أصفر وكبسولات معدنية من أجل حبات القهوة الخضراء غير المحمصة، وحقيبة أصغر لحبات الهال التي تضاف إلى القهوة (التي يتم طحنها بالمهباج). يوجد أمام المكان الذي يسمح فقط لصاحب المنزل بالجلوس فيه هاون خشبي ثقيل لطحن القهوة (مهباج)، مزخرف بنقوش وغالباً ما يكون له قطع معدنية، ونادراً ما يرصع بعظام الجمل الكثيفة كما تكون يد الهاون أيضاً منحوتة مزخرفة. أما الملاعق التي تستخدم لأخذ القهوة المطحونة من الهاون فتكون معلقة إلى الهاون بواسطة سلاسل. وقد تم صنعها من المعدن وزخرفت بنقوش بارزة، وفي بعض الحالات الاستثنائية يتم تلبيسها بالفضة. وإلى جانب المنقل توجد مقلاة حديدية طويلة لتحميص القهوة مع مخرطة. وتستكمل معدات تحضير القهوة المحمصة بعد طحنها ثم تنقل إلى دلات القهوة. يعتبر تحضير القهوة وتقديمها من الأسس الهامة للضيافة البدوية. يبين عدد وجودة صناعة المعدات المستخدمة هنا غنى المالك وتطوره.

يتناول البدو الشاي، وكذلك الحليب والماء، بعد الوجبات. ولكن من الواضح أن القهوة هي شرابهم المفضل. إنها الشيء الأول الذي يقدم للضيف أو للشخص الذي يصل، ولا يهم إن كان جاراً من المخيم نفسه أو غريباً عنه تماماً. وصف الرحالة في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر مجلس دورة القهوة للمشاركين في خيمة الشيخ، وأوضحوا كيف أن طريقة طلب تقديم القهوة للضيوف في المجلس كانت تدل على مستواه. تناقش في مجالس القهوة هذه كل الأمور الهامة المتعلقة بالقبيلة أو المجتمع.



٣٠١. جرس لقيادة الجمل من البرونز.



٣٠٢. قرن للبودرة، مكيال للبودرة، مدك بندقية للسلاح، وصوفان (مشعل) بدوي، دمشق –القرن التاسع عشر.



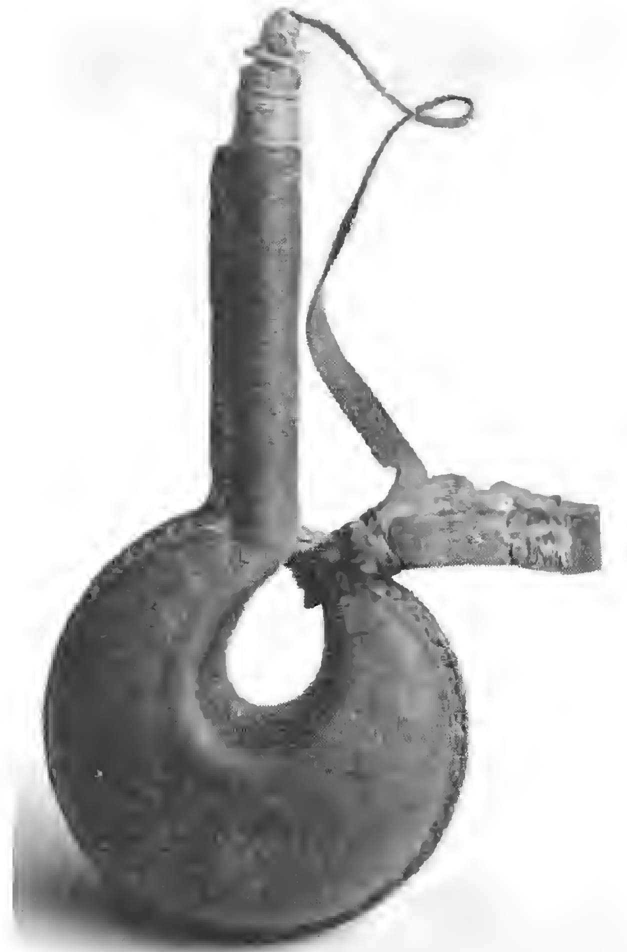
٣٠٣. رؤوس بايب، سيراميك مطلي بالذهب في جزء منه. دمشق-القرن التاسع عشر.



٣٠٤. دورق بودرة على الطراز العثماني يتم ارتداؤه على الحزام، برونز، دمشق- القرن التاسع عشر.



٣٠٧. خناجر معدنية منقوشة مع مقابض مرصعة - القرن التاسع عشر والقرن العشرين.



٣٠٥. دورق بودرة جلدي.

٣٠٨. هاون لطحن القهوة مع يد الهاون وملعقة، ومقلاة تحميص، من الحديد وصينيتين لتبريد حبات القهوة بعد تحميصها. خشب (من اليمين، مع ترصيعات عظمية) دمشق، القرن التاسع عشر والقرن العشرين.



٣٠٦. ملاعق برونزية لحمل القهوة المطحونة من الهاون.





٣١٠. حوامـل سجائـر مصنوعـة من الكهرمـان أو الباكليت أو العظام أو المرجـان الأسود والمرجان المطعم بالفضة والمخرمة بالفضة، دمشق- القرن التاسع عشر والقرن العشرين.



٣٠٩. سبحـة للصـلاة والأدعيـة مصنوعـة مـن الخشـب المطعـم بالفضة والعظم.



٢١١. قطـع مخصصـة للفـم (تستخـدم للبايـب) كهرمـان مـع فضـة مطعمة.

٣١٢. غمـد سيـف، جلد مع شراشيـب قماشية ومحفظـة مسدس (حصل عليها أوتينغ ١٨٨٣).





٢١٣. حافظـة جلديـة لأنبـوب ميـاه النرجيلـة (مجموعة أوتينغ).





٣١٤. بدوي، راعي غنم في قسم الرجال في خيمته.

٣١٥. دلـة قهوة صغيرة مـع فناجين بورسلان وأغطيـة فناجين منقوشة مصنوعة مـن النحاس المذهب. دلة فناجين-دمشـق- القرن التاسع عشر.

٣١٦. صحـن نحاسي مع حلقات حديديـة، منقوش ومصفح بالفولاذ، يستخدم في ولائم البدو. دمشق-القرن التاسع عشر والقرن العشرين.







٣١٧. دلة قهوة كبيرة ومحافظ جلدية لحبوب القهوة والهال.

٣١٨. مجموعة من دلات القهوة، برونزية، المسكات مزينة برباط جلدي.

٣١٩. بـدوي متحضر الآن في حماه، فرشت غرفة الاستقبال في منزله كما كان يفرش قسم الرجال في الخيمة.





٣٢١. امرأة بدوية من جنوب الأردن تقوم بغزل الصوف.

جـاء الدليل المبكر علـى استخدام القهـوة من اليمن في القرن الرابع عشر. وفي القـرن السادس عشر، انتشر شرب القهوة في أنحاء الامبراطوريـة العثمانية كافة. وعلى الرغم مـن أن هذه العادة كانـت حديثة نوعاً مـا، إلا أنها اندمجت في حياة البدوي اليومية (انظـر كورشينغ ١٩٨٠). وكقاعدة يقـوم سيد الخيمـة بتحضير القهـوة بنفسـه. ويمكن سماع صوت طحن حبات الـبن المتناغم من الهاون الخشبي، الذي يشبـه الصوت الصادر عنه صـوت الطبل الصغير المفرد في كل مخيم. ويعتبر دعوة للقدوم وشرب القهوة.

توضـع الميـاه لتغلـي في أكبر دلة ثـم يضـاف إليها عدة ملاعق مـن القهوة المطحونـة وتترك لتغلي عـدة مرات. ثم تملأ حبات الهال المطحون في دلة ثانية. وعندما ترقد القهوة المغليـة في الدلة الأولى تصب فوق الدلة الثانية ومن ثم تغلى ثانية مـع الهال وتصب أخيراً في دلة ثالثـة بعد غليها جيداً. وبسبـب غلي القهوة لعدة مرات تغدو قوية الطعم جداً ومُرّة. ويبـدو مظهرها بنياً مخضراً وصافياً. يصب مقدار قليل من القهـوة –حوالي ملعقة أو ملعقة ونصف من ملاعق الشاي– في فناجـين قهـوة صغيرة تم استيرادها مـن الصين. وتقدم عادة ثلاث مرات في المجلس. وإن كان أحد الضيوف لا يرغب في المزيـد منها فإنه يعيد الفنجان إلى الشخص الذي يصب القهوة مع هزة خفيفة بيده. تعتبر هذه الطريقة، في تحضير القهوة، عادة مميزة عند البدو فقط. أما الفلاحون وساكنو المـدن فإنهم يشربون القهوة (الـبن اليمني) المجهز والمحلى على الطريقة التركية.

٣٢٠. أداة لتمشيـط (تسريـح) الصـوف مصنوعـة من الخشب مـع أسنان حديدية مرصعة بالعظام، سوريا القرن التاسع عشر.





٣٢٢. أدوات جز صوف الغنم، مكوك غزل ومغزل-جنوب سوريا.



٣٢٣. معدات الطبخ مع أطباق بدوية بسيطة وقدور للطهي، ومغرفة (نحاسية) وصينية عجن (من الستانلس)، ومصباح كاز صغير مصنوع من القصدير، جنوبي سوريا.

٣٢٤. أواني مياه وأوعية مع أربطة للتعليق. الجانب المسطح للوعاء من جهة اليسار يوضع من جهة جسم الحيوان عندما يهاجر البدو.



٣٢٥. امرأة بدوية تطحن الذرة — فلسطين.






٣٢٦ و٣٢٧. حقائب صغيرة مزينة بالخرز، تستخدمها النساء البدويات من أجل أدوات الزينة-جنوب سوريا.



٣٢٨. نساء وأطفال من البدو ورعاة الغنم في قسم النساء من خيمتهم.



٣٢٩. أطباق وصحون نحاسية ملبسة بالقصدير ومنقوشة، دمشق-القرن التاسع عشر.

٣٣٠. صناديق لأدوات التزيين للنساء من البدو الموسرين مع مرايا. إلى اليسار: مرصعة بالصدف (مجموعة أوتينغ، دمشق، قبل ١٨٨٣). إلى اليمين: مطلية لتماثل الأنتارزيا من الأمام مرآة ضمن حافظة نحاسية مطلية بالقصدير.



٣٣١. مقالي نحاسية مطلية بالقصدير. مسكات المقالي المطوية في الأمام هي نماذج من المعدات المنزلية البدوية.





٣٣٣. حقائب جلدية مع شراشيب قماشية من اليسار: مع قطع معدنية، من اليمين: مزركشة بخرزات، سوريا-القرن التاسع عشر.



٣٣٢. أواني الحليب-خشب مع تزيينات برؤوس المسامير (مجموعة أوتينغ، قبل ١٨٨٣) إبريق جلدي ووعاء للصب خشب، سوريا، القرن التاسع عشر.

٣٣٦. إناء بيضوي مع غطاء، أربطة للتعليق مع حلقات زجاجية. سوريا - القرن الرابع عشر.



٣٣٤. كيس مياه مصنوع من جلد الماعز تم إصلاحه بعناية.



٣٣٥. حقيبة جلدية لصنع الزبدة (الخض) وجلد لفرز الزبدة وتصفيتها.



يوجد في قسم النساء، في الخيمة، أكوام من أغطية الأسرة وأكياس التخزين، توضع عادة مقابل الجدار الفاصل، وكذلك سلات جمع الوقود وقدور الطهي وصدر حديدي مسطح لصنع الخبز، وطاحون حجري لطحن الذرة وأوعية منقوشة للحليب وقمع خشبي كبير لتصفية الحليب وحقائب جلدية متنوعة.

يصب الحليب الطازج في حافظات من جلد الماعز حيث تصبح حامضة خلال عدة ساعات. بعد ذلك ينقل الحليب الحامض إلى حافظات جلدية أخرى ليتحول بعدها إلى زبدة. تعلق هذه الحافظات بحبال من شعر الماعز فوق منصب ثلاثي القوائم ويتحول الحليب إلى زبدة بواسطة خض هذه الحافظة الجلدية. ثم تفصل الزبدة وقشدة الحليب وتخزن تحت ظل الخيمة في حقائب أصغر مصنوعة من جلد السحلية. وتصنع عادة قدور الطهي والمغارف ومغارف القشدة وأدوات العجن والخبز، وما شابه ذلك، من النحاس الملبس بالقصدير. وتكون هذه المعدات بشكل عام غير مزخرفة ولها نموذج موحد متطابق لكل القطع الموجودة بين البدو في فلسطين والأردن وسوريا وحتى في شبه الجزيرة العربية.

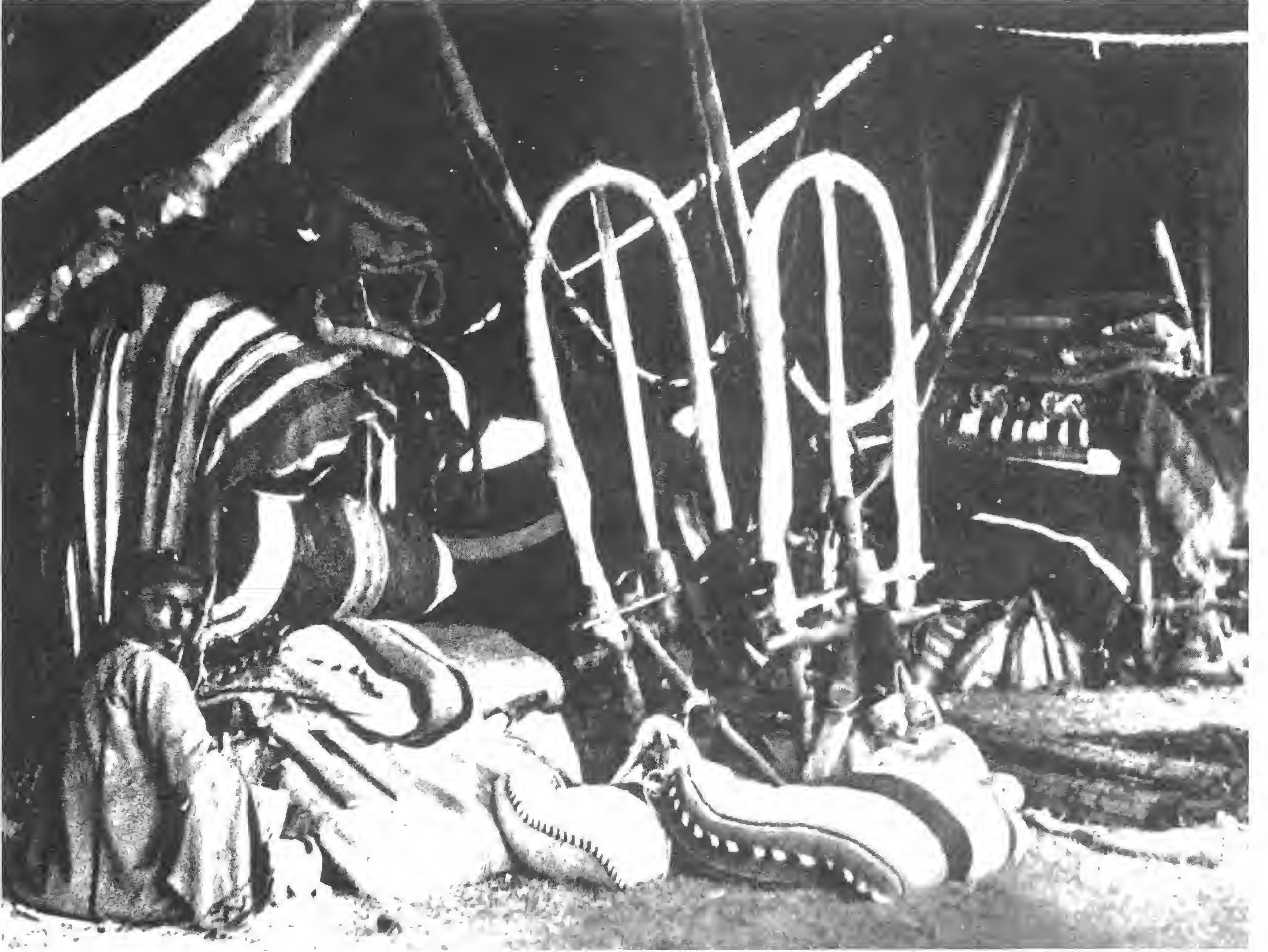
توجد في خيام الأثرياء، أطباق نحاسية عميقة ضخمة، تكون على الأغلب مزخرفة بنقوش كثيرة. تقدم «المناسف» في هذه الأطباق الكبيرة وهي الوليمة البدوية التقليدية. يتم طبخ خروف كامل أو أكثر بزبدة الحليب، ثم يوضع اللحم المطبوخ في أحد هذه الأطباق فوق كومة كبيرة من الأرز المطبوخ. يمكن أن يضاف الجميد (الحليب مع السمنة السائلة المضاف إليها بعض الأعشاب اليابسة) بعد ذلك فوق الأرز. ولقد علمت من مصدر موثوق أنه في عرس شيخ بدوي يمكن أن تقدم خمسة خراف في طبق واحد، يتم حمله من قبل عشرة رجال أو أكثر. تنسب المعدات المنزلية البدوية إلى فرق قبلية خاصة بها. وتحصل بعض الاختلافات غالباً في المنتجات المنسوجة مثل ستائر الخيمة والوسائد وغيرها. ويمكن أن تكون هناك منتجات خاصة بقبائل معينة. ويبدو أن قبيلة الرولة، على سبيل المثال، ترغب في المنسوجات المنبسطة ذات الأرضية الزرقاء والخطوط البيضاء المزخرفة. أما الزخارف الهندسية الواقعية فلا يمكن نسبها لأي فريق خاص، فهي تتألف بشكل أساسي من معينات، ومثلثات ونجوم. تكون الخطوط العريضة للزخرفة منسوجة عبر الغطاء إذا لم يكن القطع شكل محدد، كما هو الحال عادة مع القطع الصغيرة، تتشكل الأرضية بعدها من خطوط طولانية وتكون النساء التي تقوم بنسجها ماهرات جداً في استخدام الألوان الطبيعية المختلفة من الصوف الأسود وحتى الأبيض ومن شعر الجمل.

تكون زينة الجمل القائد متقنة بشكل خاص، وتستخدم عادة من أجل الزينة وكتعويذة. وربما يكون عدم إمكانية نسب نموذج خاص لقبائل معينة نتيجة الهجرات المكثفة. تهاجر قبيلة الرولة (الفريق الأكبر) من الأردن عبر سوريا وشبه الجزيرة العربية وجنوب العراق. والأكثر من ذلك، تتزوج النساء من قبائل أخرى وتحضر معها نماذجها التي اعتادت عليها. ويحدث أن تكون بعض النساء من فريق معين تفوض للقيام بعمل لنساء من فريق آخر. وقد علمت أيضاً أن النساء البدويات تنسخن النماذج الخاصة من النساجات المحترفات. وبشكل واضح نرى أن كل شيء يبهج النظر مسموح به.

لا يمكن طبعاً لكافة المستلزمات العائلية الأخرى أن تنسب لفرق خاصة، حيث أنه تم الحصول عليها من الخارج. وكقاعدة يتم شراء الحاويات الخشبية من القرويين الذين يصنعونها من ضمن نشاطاتهم الإضافية. كانت دمشق هي المركز الأكثر أهمية لتصنيع البضائع النحاسية وذات اللون النحاسي الأحمر، وكانت تزود بها شرق الأردن، وأجزاء كبيرة من سوريا، وإلى أغلب مناطق شبه الجزيرة العربية، فيما يتعلق بدلات القهوة فهناك أفضليات إقليمية تتعلق بنموذج المسكات والزخرفة تحت عنقها. إضافة إلى ذلك تكون هذه المعدات النحاسية متشابهة المظهر إلى حد بعيد..

يمكن حدوث بعض الاختلافات بعيداً في مستوى الفرش الموصوف آنفاً. وما تزال خيام الشيوخ الموسرين تحتوي على أسلحة هامة وكانت تلك الأسلحة حتى في الماضي البعيد تستخدم للعرض أكثر من استخدامها في الحروب. يقتني الرجال الأغنياء دائماً أحصنة سريعة مثل اقتنائهم للجمال. وتكون سروج، ولجام، هذه الحيوانات الغالية الثمن فرصة أخرى مناسبة للتباهي بثراء المالك. كما يوجد في قسم النساء الخاص من الخيمة بديل عن الأسلحة والسروج المزينة بشكل رائع، الصناديق الصغيرة المرصعة مع المرايا التي تستخدم لحفظ أدوات التجميل والمجوهرات الأكثر قيمة. وتعتبر أداة تسريح الصوف المرصعة بزخارف من عظم الجمل، مثالاً استثنائياً عن الحاجيات الراقية للنساء البدويات. لم نجد في سوريا أياً من المظاهر السخية للأعمال المنسوجة، فبعض منها لها شراشيب متوجة بقطع معدنية، أو أعمال جلدية مزينة بالحبات، مثل مجموعة أوتينغ في منتصف القرن التاسع عشر.

لا يمكنني القول ما إذا كانت تلك الأشياء قد صنعت للبدو من قبل حرفيين مدنيين متخصصين أو أن البدو بأنفسهم عرفوا هذا النوع من الأعمال المتقنة التي تشكّل أنموذجاً خاصاً بثقافتهم. يصح القول بشكل عام، أنه اعتماداً على ثراء المالك فإن كل المواد الترفيهية التي يمكن أن توجد لدى الأسر المدنية الغنية، توجد أيضاً في حوزة البدوي.



٣٣٧. قسم من النساء في خيمة من قبيلة الرولة مع بسط مرتبة فوق بعضها البعض، وحقائب خيمة ومهاد من القش والخيزران ومؤن احتياطية قبل عام ١٩٣٤.







٣٣٨. حقيبة استخدمت من قبل البدو الذين أصبحوا حضراً، وزينة نموذجية للحقيبة السرجية للجمل. قش القمح المنسوج مع خطوط مزخرفة مطرزة من الصوف، جنوب سوريا - القرن العشرين.

٣٤٠ و٣٤١. حقائب سرج حصان، خطوط الزينة معقودة فوق الحقيبة العليا، جنوب سوريا - القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

٣٣٩. حقيبة سرج جمل، من الصوف.







٣٤٢. سـرج حصـان مـع وسـادة قماشية تمـت حياكتها فوق السـرج، نسيج منبسط مع زخرفات مطرزة، بدو الرولة.

٣٤٣. سرج، مجلس خشبي مرتفع ومغطى بالجلد ومرصع بالمينا والفضة على النمـوذج الشركسـي مـع حـزام السرج وسـير من الجلـد، ركاب جلدي ومعدني، القرن التاسع عشر. يمكن أن يكون قد استخدم إما من قبل الرجال في المدينة أو البدو.

٣٤٤. سـرج قماشـي مع مثبتات جلدية مصنوعـة في حلب للأكراد، القرن التاسع عشر.





٣٤٥. فارس رماح يعتلي فرسه في الصحراء السورية ١٩٣٤.

14

الحياة في الصحراء

مارغريتا بافالوي

خيام البدو في الصحراء، القوافل، والحياة الحرة للبدو الرعاة مع عاداتهم وتقاليدهم القتالية وضيافتهم وموهبتهم في رواية القصص والحكايا . . . كل هذه الصور مع مزيج من الرومانسية والمغامرة تم توثيقها في الأدب الأوروبي عن الشرق الأدنى.

كما جعل الأدب العربي أيضاً من البدوي مثالاً للنبل والحرية والفخر والشجاعة وعرض النموذج الأصلي للوجود البدوي كنموذج حقيقي لحياة العرب. وصور الحنين إلى الصحراء، والرغبة في إثبات الذات، من خلال الكفاح ضد المصاعب، إلى جانب الخوف من مخاطرها وصعوباتها. وفي الوقت ذاته يكون أسلوب حياة البدوي سبباً مستمراً لعدم الثقة من سكان المدينة والفلاحين.

تتمازج عدة صفات في الواقع مع بعضها لتميز البدوي ولكنها في الوقت ذاته تأتي متناقضة. فمن جهة هو مثالي، ومثير للإعجاب ومقاتل الصحراء النبيل، ومن جهة أخرى، يثير القلق والخوف وهو سائق الإبل (الجمل) الفظ الشرس.

خشيت الحكومات، وما تزال، من البدو. ولم تظهر إلا القليل من الرحمة نحو تلك الفئة من رعاياها الذين لا يمتلكون أي سلطة عليهم. ومن ناحيتهم، نجد أن البدو أنفسهم لديهم أيضاً نظرة دونية للسكان الحضر. فمن جهة يترافق تمجيدهم لعاداتهم الخاصة مع احتقارهم للفلاحين الملازمين لأرضهم والمضطرين للعمل بأيديهم ومن جهة أخرى هناك تطلع نحو أمن الحياة المستقرة في القرية أو البلدة.

ورغم إعجابنا الشديد بمهارة البدو في رواية القصص، إلاأن الشعر هو الشكل الأمثل لميلهم الأدبي. فنادراً ما نجد حدثاً، أو حالة شخصية أو مشكلة يومية، لم يجر تصويرها في قصائدهم.

يستعمل جميع البدو عصا لقيادة إبلهم. تعتبر قبيلة السلايب مصنفة من قبل البدو الحقيقيين على أنها من الحضر. وهم مشهورون بمهارتهم في أعمال جلد الغزال. يحصل عدد من البدو على أحزمتهم منهم. وتعتبر منطقتهم الواقعة عند حافة الصحراء، قاحلة لأنها لا تؤمن الماء والغذاء الكافي للجمال.



٣٤٦. بدو رعاة غنم بين الثورة والرقة يبدؤون رحلتهم الخريفية. تعتبر الجرارات وسيارات الجيب آليات عملية وشائعة جداً في الصحراء ويقدرها البدو كثيراً.



٣٤٧. أصبح العديد من البدو الآن من سكان الحضر نتيجة المشاريع الحكومية للري، وإنشاء مواقع زراعية جديدة. نمت عدة قرى جديدة في السنوات الأخيرة إلى الشرق من حلب وحتى الرقة وعند نهر الفرات.



٣٤٨. حمـار وكبش يقود القطيـع، ويمكن رؤيتهما في مقدمـة كل قطيع. الكبش بحلته الملونة بالحنة وشرابته الصوفية الملونة. يزين الكبش بالزهـور والتعويـذات. ولأنه حيوان مهم، يتـم تقديره وتتم حمايته من الخطر تماماً مثل مالكه.



٣٤٩. "قـرن الجمـل" يعتبر نباتاً صحراوياً نموذجيـاً. لأنه الغذاء الأكثر أهمية للجمل. لا يمكن للغنم أكله.



٣٥٠. مسلط باشا، الشيخ الأكبر للجبور مع عائلته، ١٩٢٩. تعد الجبور فرعاً من الزبيد التي جاءت من جنوب شبه الجزيرة العربية والتي يعود تاريخ هجرتها إلى سوريا (حوران، إقليم دمشق ووادي الفرات) إلى القرن الثاني عشر. بنى الجبور منازلهم أول الأمر بين دير الزور وأبو كمال، ولكن بعد ذلك، وبضغط من القبائل التي تبعتها، هاجرت إلى الخابور، بعض منها ذهب أبعد من ذلك إلى نهر دجلة.

بالكاد تكون الصحراء في الحياة اليومية مكاناً رومانسياً فمتطلباتها قاسية وغير متسامحة مع السكان. إذ لا يمكنهم إلا أن يتكيفوا مع حياة الصحراء وليس تحديها. تمكنهم المعرفة الحميمية المباشرة للصحراء، وأسلوب المعيشة التي يتعلمها البدو منذ صغرهم، من التكيف معها والعيش فيها والاستفادة منها اقتصادياً وهذا يجعل منهم «أمراء الصحراء».

لا يمكن للصحراء تلبية متطلبات عدد كبير من السكان ولا حتى القطعان الكثيرة. ولا يكون اقتصاد البدو متوازناً بشكل دقيق، خاصة في أيام الجفاف: حيث أن هلاك القطيع يعني انهيار الاقتصاد. كما تنشق القبائل والأسر في الأوقات التي تكون فيها ضغوط الحياة كبيرة نوعاً ما. وترغم الفرق الصغيرة والضعيفة للخروج من الصحراء. وتظهر الخصومة والعداوة الكامنة فيما بينهم وبين الحضر، بقوة، على شكل صراع مفتوح. وتظل الصحراء دائماً في حركة مستمرة. ويشكل المستوى العالي من الحركة، عموماً من الضروريات الأولى للوجود. يراقب البدو محيطهم بدقة ويمكنهم قراءة الصحراء مثل كتاب مفتوح، واختبار ظروف التربة ونمو النبات والكشف عن المياه وتنقل الرمال وترقب العواصف والأمطار.. تساعد كل تلك الأمور على اختيار مكان إقامة المخيم وتقرير مدة الإقامة وفي أي اتجاه تستمر الرحلة. يحدد البدو وجهتهم بمساعدة النجوم، وتقسم السنة لدى البدوي إلى خمسة أجزاء استناداً إلى ارتفاع واستقرار الكواكب.

تبدأ سنة البدوي مع الأمطار الخريفية. ويشير ظهور نجم سهيل[1] في الأيام الأولى من شهر تشرين الأول إلى وصولها.. يستمر سهيل لمدة أربعين ليلة تليها خمسة وعشرون ليلة من نجمة الثريا وخمس وعشرون من الجوزاء.

(١) نجم سهيل، هو نفسه نجم القطب (المترجم).

هذه الفترة البالغة تسعون يوماً هي الفصل الماطر وتستمر منذ بداية تشرين الأول ولغاية كانون الثاني. تبدأ الفترة الثانية من الفصل الممطر مع ظهور الثريا، وتكون الأمطار المترافقة معها الأكثر أهمية في هذه الفترة حيث أنها تقرر نمو النباتات، وما إذا كانت السنة جيدة أم سيئة من حيث الاقتصاد. تبدأ الفترة الثالثة منذ صعود نجمة بنات نعش وتستمر حتى منتصف نيسان. ثم تأتي بعد ذلك دورة النجوم إلى نهايتها وتليها الشهور الأربعة من الفصل الجاف، أصعب أوقات السنة. وفي بداية شهر تشرين الأول يتطلع الجميع إلى الأمطار الأولى، وهي أمر هام للبدو.

إنهم يراقبون السماء باهتمام، كبير وإذا كان قرص الشمس مرئياً، من جهة اليمين، أو اليسار، بالنسبة للشمس فإنهم يعرفون أنها ستمطر قريباً.

وإذا رأت قبيلة الرولة أن الغيوم تتفرق بعد البرق والرعد فإنهم يصلون ويدعون الله من أجل المطر:

يتم سؤال العرافين عن مدة وكمية الأمطار المتوقعة. وإذا زاد انحباس المطر أكثر من المألوف، عندها، وحسب رأي موسيل (١٩٢٨) تقوم قبيلة الرولة بموكب مع «أم الغيث». يعلق ثوب امرأة فوق صليب خشبي تحمله فتاة عذراء في مقدمة الموكب، تتبعها الفتيات والنسوة ويمرون من خيمة إلى خيمة وهن ينشدن أناشيد خاصة شعبية:

يا أم الغيث غيثينا........وهكذا.

تحمل الفتيات والنسوة «أم الغيث» إلى خيمة صغيرة تقع خارج المخيم بعد أن يتلقوا هدية في كل خيمة. ويقسمن الهدايا فيما بينهن، ينزعن ثوب المرأة من فوق الصليب الخشبي ولا يرجعن إلى خيامهن قبل حلول المساء.



٣٥١. امرأة بدوية في دير الزور. غطاء الرأس الذي تضعه مصنوع في حلب. أما زيها فهو مزيج من العناصر التقليدية (الجاكيت) والحديثة (الثوب) وهذا يعتبر مظهراً شائعاً في الإقليم. قبعة الطفل مزينة بالتعويذات لتبعد الحسد التي يقال إنها متأصلة عند بعض الناس، كما أنها تبعد مخاطر أخرى.



٣٥٢. بدو في مخيم عبور بين آثار تدمر.



٣٥٣. خيمة لرعاة الغنم بين تدمر والشونة.

٣٥٤. بدو مقيمون في منطقة مجاورة لقصر الحير الشرقي.



٣٥٥. الصحراء بين تدمر والشونة.







٣٥٦ و٣٥٧. ثوب زفاف من الشونة مصنوع من قماش مقصب بالفضة المنسوجة. خطوط الوصلات مزينة بخيط حريري. النموذج المنسوج مصنوع من شجرة الحياة الصغيرة، رموز لأمنية مناسبة للزفاف.

٣٥٨. عباءة مصنوعة من الصوف الأسود. القبة مطرزة بوفرة من الحرير. وحسب ما أورد بيتر مان الذي حصل عليها عام ١٨٥٧، ارتداها بدوي ذو شأن في قومه (متحف التقاليد الشعبية في برلين).



٣٥٩. عباءة مصنوعة من شعر الجمل، إنتاج دمشقي معاصر.



إن الملاك جبريل هو سيد غيوم المطر حسب روايات قبيلة الرولة. تتصور قبيلة الرولة أنه غير مبال لها أو إلى منطقتها ولذلك فهو يبعث أمطاراً كافية للفلاحين فقط. ويلاحق الغيوم فوق الصحراء ويسمح لبعض القطرات للهطول من جناحيه إلى الأرض.

يتطلب أسلوب المعيشة البدوية والاقتصاد، اندماج الفرد في العائلة الواسعة، (القبيلة أو العشيرة). تنظم عضوية العائلة أو العشيرة أو القبيلة علاقة القربى أو النسب، التي تعرف من خلال الخط الذكوري (الأبوة). وهذا يعرف بـ (ابن فلان) و(أبي فلان) الذي يكون جزءاً من الاسم. يكون تنظيم القبيلة أو العشيرة جزئياً. تعود كل العائلات التي يمكن أن تتبع سلالة في الخط الذكري السابق لسلف معروف (واقعي أو خيالي) إلى القبيلة نفسها أو العشيرة. تتبع القبائل الكبيرة، مثل العنزة أو الشمر على سبيل المثال، لسلف معروف وأسماء بعض من قبائلها الفرعية (بني صخر، أولاد علي) هما دليل على ذلك.

تنشأ القبائل الكبيرة، نتيجة عملية مستمرة من التصاهر أو الاندماج والانقلاب والانشقاق، ويمكن أيضاً انقسام قبيلة إلى عدد من القبائل الفرعية. وكمبدأ أساسي يمكن لأي عائلة أن تصبح نواة لقبيلة جديدة.

كما تؤدي اعتبارات اقتصادية وطموحات شخصية أو صراعات (داخلية أو خارجية) إلى انقلاب أو انشقاق. وعندما تنفصل الفرق، تبقى علاقة القربى بينها إلى أن تنتهي تماماً بمرور الوقت.

يأخذ الفرد هويته مبدئياً، إن لم يكن كلياً. من كونه فرداً في عائلة وقبيلة. أنت تعرف من أنت لأنك تعرف لمن تعود. وبالمقابل فأنت ملتزم بهذا التضامن غير المشروط مع عائلتك ودائرة الأقارب الأوسع. وهكذا يتلقى المرء الحماية والأمن من خلال هذه الشبكة الاجتماعية. أنت تنتمي إلى شعبك وإن أمكن فإن من الأفضل لك أن تعيش معهم إلى الأبد.

توجد ضمن الرابطة الأسرية بين الآباء والأبناء علاقات سلطة واحترام تستند على عمر القرابة. لا تخلو هذه العلاقات من المنافسات والطموحات الشخصية، وهكذا يوجد دائماً توتر ملحوظ. يخاف الآباء من فقدان سلطتهم، ويخاف الأبناء من منافسة أبنائهم. نجد هذا التوتر بين المنافسة والتضامن في هذا المثل الشعبي: «أنا مع أخوي، وأنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وأخوي وابن عمي على الغريب».

ولكن يتمكن الرجال الكبار من مراقبة منافسة الصغار لهم ويفرضون عليهم مطالبهم باستخدام نفوذهم وسلطتهم وقوتهم الاقتصادية.

يحافظ البدو، الذين سكنوا القرى والمدن، على علاقاتهم مع أقاربهم الذين يعيشون في الصحراء. تهيمن رابطة العائلة أو القبيلة في النهاية على أية هوية محلية أو إقليمية عبر الأجيال. وتكون القرابة عاملاً هاماً في بناء وتنظيم البيوت والجيران في نواحي القرية والمدينة. وما يزال الناس حتى في زوايا المدينة يفضلون العيش ضمن أقربائهم. وما يزال ممكناً التعريف بالشخص عند لقاء الغرباء إما من خلال النسب أو الروابط المحلية. يحدث ذلك بصعوبة ضمن الفريق الاجتماعي التابع لأحدهم. تتصارع الحياة العصرية كما الرغبات الفردية والأفكار غالباً مع الطبائع والواجبات للأسرة التقليدية. وتعني مغادرة أحدهم العائلة أن استقراره الاجتماعي في خطر.

يشكل الزواج، أساس العائلة والقرابة، أمراً هاماً وضرورياً. تم تشكيل» مخزون هائل» من خلال اتمام عمليات الزواج «الصحيحة» أو «الملائمة». وهذه لا تترك للحظ أو الصدفة. تعطى الأفضلية لعمليات الزواج التي تشدد على العادات التقليدية وهذا ليس صحيحاً فقط بالنسبة للبدو. إنهم يتبعون على كل حال، القواعد والعادات الأكثر حدة حيث أن الزواج أمر لا يتعلق فقط بين فردين، إنها علاقة بين عائلتين. تقضي العادات بالزواج بين أبناء العم المتوازيين بالمقام أعني أن الرجل يتزوج ابنة عمه (أخو أبيه) وله الامتياز (أيضاً يكون من حقه) أن يتزوجها- يقال إنها محجوزة له. ولا تكون الفتاة حرة في الزواج من رجل آخر إلا في حال إعلانه عدم رغبته في الزواج منها. وإذا جرت الأمور ضد رغبة أحد الأطراف المعنية في هذا الزواج التقليدي يمكن أن يؤدي ذلك إلى صراع عائلي وشخصي.

يمكن تجنب الزواج التقليدي بـ«الخطيفة»، وإن تجرأ أحدهم على ذلك، يرضخ الأهل والأقارب للأمر الواقع.

وقد تغضب الفتاة جداً إن لم يكن لدى حبيبها الشجاعة لخطفها، والهروب معها، لأن ذلك يحرمها من إمكانية تجنب الزواج التقليدي.

هناك دائماً إمكانية رفض الزواج التقليدي من جهة الرجل. وإن كان ذلك يناسب اهتمامات كلا الطرفين، عندها لن تحدث تعقيدات أخرى. بل يشكل هذا الاعتراض إهانة كبيرة لكلا العائلتين. تعتبر عائلة الفتاة نفسها مهملة ومستخفاً بها وأنه قد جرح كرامتها، بينما يمكن أن تشعر عائلة الرجل نفسه بالخزي بعد رفضها لتحقيق التزاماته. ربما يكون ضغط الأسر قوياً جداً على الفتاة وعلى الرجل. تكون فوائد الزواج التقليدي واضحة حيث تكون الخلفية العائلية لزوج المستقبل معروفة جداً.

يعرف كل من الفريقين حقوقهما وواجباتهما ولديهما شبكات متوافرة لتعزيز التضامن في حال عدم وجوده.

٣٦٠. راية الحرب لقبيلتي رولة والعنزة ١٨٩٩، شعار قبيلتيهما.



٣٦١. صطام بن شعلان، الشيخ الرئيسي لقبائل الرولة والعنزة ١٨٩٩، تعتبر قبيلة الرولة من أفضل القبائل البدوية سمعة في الصحراء السورية.





٣٦٢ و٣٦٣. جاكيت بدوي، صوف مع قماش سميك مقصب وخطوط فضية ما تزال تنسج مثل هذه القطع لتعرض في حلب. يحكم النساجون عليها من خلال شكل وعدد النماذج في المثلث الظهري والخطوط الطولية في الأمام. تحدد هذه الصفات السعر أيضاً. وتصنع البطانة من المادة المطبوعة.



يكون الزواج التقليدي آمناً بينما الزواج الخارجي، رغم أنه قد يكون مشرفاً ومناسباً فهو خطر نسبياً. وتبرز مشكلة هامة خاصة إذا أجل الرجل قراره، إما لأنه لا يستطيع تحديد رغبته أو بسبب عدم تمكنه من تأمين المال اللازم لمهر العروس، الذي يكون مرتفعاً في العادة. وهناك خوف من أن الفتاة ستصبح كبيرة في السن وترى أن إمكانية زواجها تتضاءل في مكان آخر. تحاول عائلة الفتاة في هذه الحال إرغام الرجل على الكف عن الزواج، وهذا أمر حساس، حيث أن ذلك يعني إغضاب عائلة الرجل. تتم الموافقة على الزواج الخارجي في حال مساهمته في بناء وتعزيز اتحادات جديدة أو علاقات جيدة مع الفرق أو القبائل الأخرى.

تعرض علاقات القربى والزواج مستوى واسعاً من المسؤوليات في السياسات الدائرة. وهذا على أهمية كبيرة للنساء أيضاً. فالنساء البدويات واثقات جداً من أنفسهن وشخصيتهن قوية. وهن واعيات بوضعهن ويعرفن حقوقهن وواجباتهن. كما أنهن فخورات بأسلافهن وخلفهن كالرجال تماماً.

إن الزواج من امرأة ذات نسب نبيل عريق هو هدف العديد من الرجال، في حال تمكنوا من ذلك، وحسب لوائح العادات والتقاليد فإن الصفات السامية والنبيلة تأتي عن طريق النساء.

وتتضمن الميزات الأكثر قيمة عند النساء، الشجاعة، الكرم، العدالة والقيادة.

وعادة ترغب الفتيات، بشكل طبيعي، أن يكون أزواجهن شباباً أبطالاً شجعاناً.

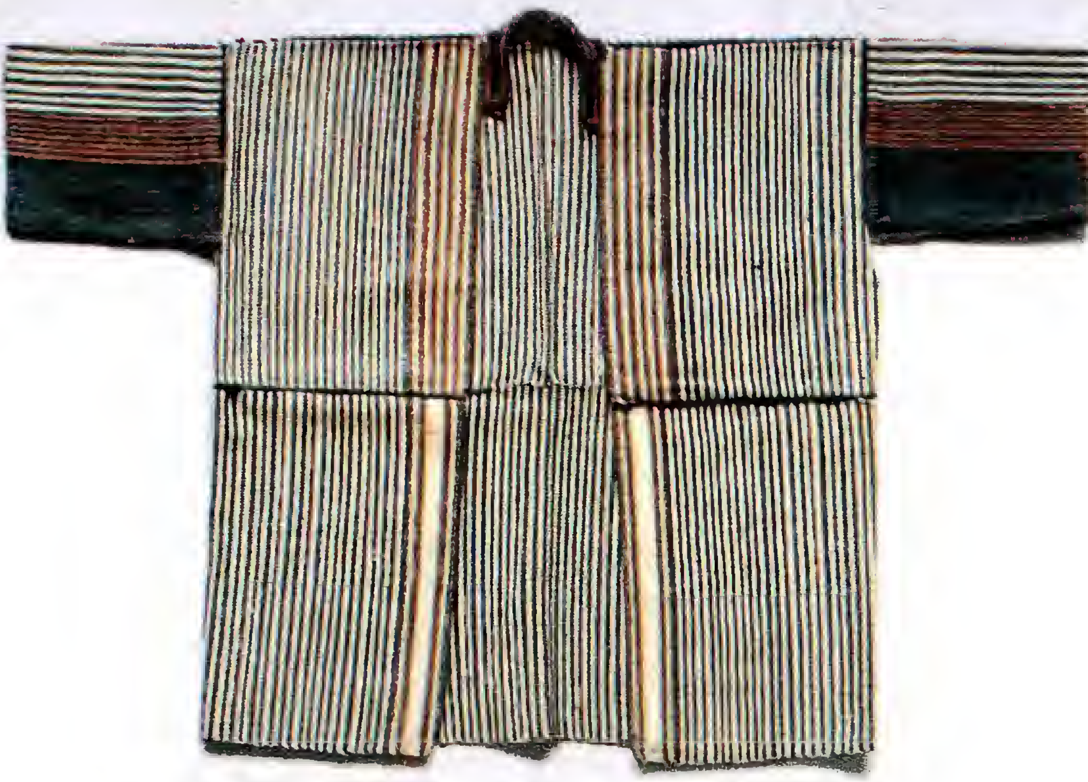


٣٦٤. عباءة خفيفة الوزن صيفية، حرير صناعي مع خطوط فضية. إنتاج دمشقي معاصر.





٣٦٥ و٣٦٦. جاكيت بدوي، مصنوع على طريقة تقنية البسط، منسوجة من الصوف والقطن وفي دمشق. تم الحصول عليها ١٨٧١ لمتحف الفنون الشعبية في برلين. كانت هذه القطع وما تزال نادرة جداً وليست جزءاً من الأثواب البدوية العادية. وكانت تصنع للأغنياء والنبلاء فقط.



٣٦٨. عباءة مصنوعة من شعر الماعز والصوف مع طراز طولاني نموذجي مخطط من حوران.



٣٦٧. جاكيت بدوي تقليدي صوفي مصنوع من قطعتين طولانيتين من القماش المحبوك مع بعضه مع أكمام معلقة على سوية الجانبين من حوران.



٣٦٩. حجر أبو وطيد (في الوسط) شيخ قبائل شمر ١٩١١. وأبناء شمر، منافسون دائماً لقبيلة العنزة، القوة البدوية الثانية الأكثر أهمية في سوريا.

يعتبر وجود الأطفال أساسياً، وهم مصدر سعادة. لا تبحث نساء قبيلة الرولة عن مساعدة (القابلة) أثناء الولادة. وبعد سبعة أيام من الولادة يقام للمولود حمام رسمي احتفالي. وفي اليوم العاشر، أو الثاني عشر أو الرابع عشر بعد الولادة، تقام وليمة احتفالية تدعى إليها كل نساء المخيم. تقوم الأم الشابة بزيارة كل أقاربها مع ابنها وتتلقى الهدايا بهذه المناسبة. وتكون خاصة بها. ومن الامتيازات الأخرى للام اختيار اسم الطفل.

لا يمكن فصل اعتبارات التقاليد الاجتماعية كعادة الأخذ بالثار عن نظام القرابة. حيث ترتبط عدة التزامات، ومعايير شرعية ومفاهيم الشرف، كثيراً بهذه التقاليد. في حالة الموت (تحديداً بالقتل) يرغم كل الأقارب الذكور على الثأر لموت قريبهم طلباً للشرف والعدالة. ولا يستهدف الثأر الشخص الذي ارتكب الجريمة فقط بل أقرباءه الذكور أيضاً. وحسب أهمية الحالة، تجري المفاوضات، ويمكن تجنب الأخذ بالثار بواسطة دفع مبلغ من النقود (دية) في حال وافق أقارب الرجل الميت على هذا. تكون المخاطر كبيرة جداً للطرفين المعنيين بالأمر وتبذل جهود كبيرة لحل الصراع الناجم بوسائل سلمية.

تضمن العائلة والقبيلة في الصحراء أمن وحقوق الفرد. وتدعى مجموعة القوانين، والوصايا والمحرمات التي تتعلق بقيم ومبادئ المجتمع البدوي الخاص وتنظم الحياة الاجتماعية ضمن القبيلة وبين القبائل المختلفة كلها «بالقوانين القبلية».

يعتبر كل شخص غير مندمج في تلك الشبكة الاجتماعية، والذي لا يضع نفسه تحت حمايتها، أو الذي لا ينتمي إلى فريق معين، غير موجود أو «خارج عن القانون» حيث لا يكون أحد مسؤولاً عنه. ينضم الغرباء بالضرورة إلى هذا التصنيف، كما يفعل الضيوف والمسافرون عندما ينفصلون عن أهلهم، وأماكن سكناهم الآمنة لهم. وهكذا يعتبر اندماجهم بالقبيلة نوعاً من الضيافة فقط.

يكون المضيف مسؤولاً عن حياة ضيوفه وممتلكاتهم الشخصية. إن حدث سوء للضيوف أثناء وجودهم في ظل حمايته، يرغم الضيف على طلب الثأر.. وإذا سرقت ممتلكات الضيوف الشخصية فإن عليه أن يعوضها. إن الأهمية المرتبطة بكرم الضيافة وخاصة في إكرام ووفادة الضيوف من خلال تقديم القهوة لهم.

٣٧٠. فرحان بن هديب، شيخ كبير من قبيلة الصبا، عنزة، وابنه ١٨٩٩. يرتديان ملابس البدو التقليدية.

٣٧١. امرأة من عائلة عودة أبو طي شيخ من الحويطات. يحتمل أن يكون الرجل قريبها، ويتبين من خلال ملابسه أنه يعيش في قرية أو مدينة وهي ترتدي ثوباً تقليدياً للنساء البدويات العربيات في الشمال.



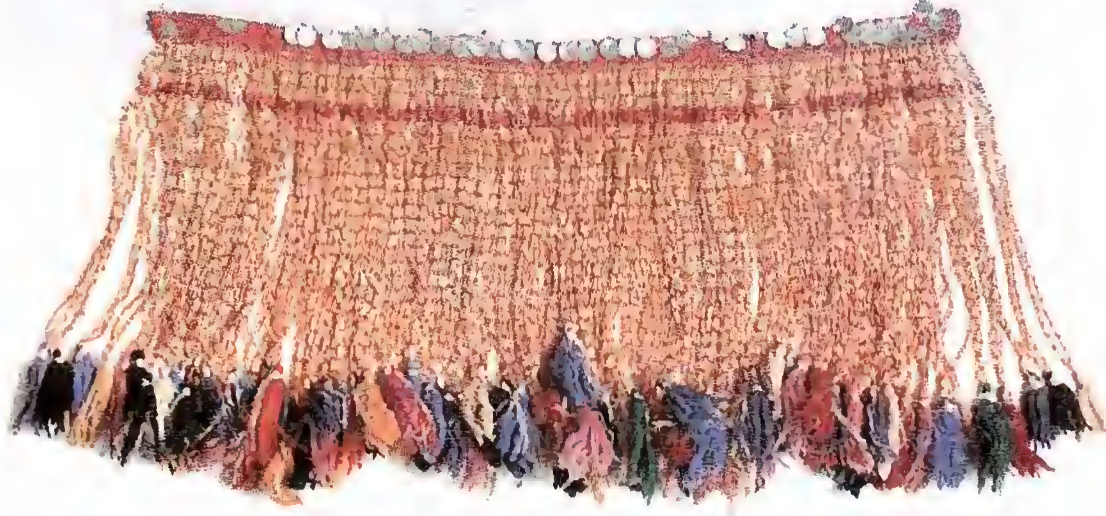




٣٧٢. ثوب تقليدي (التوب) بدوي.



٣٧٣. امـرأة بدويـة في حمص. تضع غطـاء رأس من الحريـر منسوج مع خيـوط فضيـة تم صنعـه في حمص. الحنـة هي عـادة منتشـرة بين البدويات ولكنها تختلف بين الرجل والمرأة ومن قبيلة إلى أخرى.





٣٧٤. وشـاح حريـري (شمبر). تصبغ الخطوط الطولية بالأسود، وتطرز بالحريـر وتزين بالتراتر. تخاط القطعتان الطوليتان مع بعضهما بـدرزات مزينة وتضـاف الشراريـب الحريرية في نهاياتـه. القياس: (٣٠٨×١٠٠سم)، وهو إلزامي لستر الرأس والصدر.

٣٧٥. حلي للجبهة مصنوعة من حبات الخرز الزجاجية مع تراتر وشرابات قطنية وحريرية بألوان براقة. تم ارتداؤها في حران العواميد (قرب دفق)كزينة عرس للفلاحات والبدويات المتحضرات.



٣٧٢. ثـوب تقليدي (التوب) للنساء البدويات في شمال الصحراء العربية مع أكمام كبيرة مجنحة من الساتان الأسود وخيوط قطنية مطرزة آليـاً. المقاسـات: (الطـول ٣٤٠سـم، العرض ٢٣٤سـم، طـول الـذراع اليمينـي ١٩٥سـم، اليسـاري ١٧٦سـم). يبـدو مـن النظـرة الأولى أن مقاس الثوب كبير ولكن عندمـا يتم ارتداؤه بالوجه الصحيح، نراه عملياً جـداً ويلبي المتطلبات الخاصـة بطابع حياة التنقـل. بالنسبة للأكمـام، يكـون الكـم الأيمـن أطول من الكم الأيسـر، بحيث يمكن ربـط طرفـه خلف الظهر بطريقـة تشكل حقيبة لحمـل الأشياء من السـوق أو لوضـع الطفـل الصغير فيـه، أو يمكـن استخدامه كغطاء للرأس. تربـط التنورة الطويلة بحزام بحيـث تشكل طبقتين للثوب فتحسـن بذلك التهوية داخل الثوب. يمكن استخدام الثوب في الليل كغطـاء ووسـادة نوم لـلأم والولد. يشير التطريـز إلى أن هذا الثوب مخصص للاحتفـالات، وقـد تم تطريـزه بطريقـة تظهـره بأبهـى صورة عند ارتدائه. وهو لم يطرز ويزين عشوائياً بل من المفترض أن هنـاك عـدة عوامـل في النموذج تمثـل تعويذات تحمي المـرأة التي ترتديها. ويتم التطريز في الأقسام المناسبة من الثوب.

١٥ أزياء البدو

ماريا زيرنيكل

تغيرت أزيـاء البدو، قليلاً، عبر السنين، عن تلك الأزياء الخاصـة بالفلاحـين والسكان في المـدن، إما بشـكل جزئي منفصـل أو بشـكل مترابـط للأثـواب، وكذلـك في طريقـة ارتدائها. يعود سبب ذلك إلى أن ثياب البدو تلبي احتياجات خاصة وتتكيف مع الظروف المناخية القاسية، أكثر من ثياب الفلاحين وسكان المدن.

تتوضـح الفروق بين القبائـل والعشائر من خلال اختيار الأزياء، الألوان وطريقة ارتداء غطاء الرأس والعباءة، وكذلك بالتفاصيل العديدة للزخرفة، بينما يتحدد الوضع الاجتماعي بواسطة جودة المادة. بشـكل أساسي بقي مبدأ الثوب واحداً حتى يومنا الحاضر.. تم اختيار القفطان الحريري المخطط طولانيـاً الذي تم استبداله اليوم بالجاكيـت الأوروبي متمماً لزي الثوب في المدن. وربما اختارت النساء الوشاح (الشمبر) كمـا استخدمـت الأحزمـة الجلديـة الأوروبيـة، والأحذيـة والأحزمة المبرومة مؤخراً.

الأزياء النسائية:

تتميـز أثـواب الفتيـات والنسـاء بأنها أكـثر بساطة من أثـواب الرجـال حتـى بـين البـداوة الأثريـاء. ويصنع ثوب النساء (التـوب) مـن القطـن الأسـود وله «أكمـام مجنحة» مثلثية الشـكل تخيطه المرأة بنفسها، إمـا باليد أو بالماكينة. يكـون الثـوب الـذي ترتديـه المـرأة كل يـوم عاديـاً دون أي زخـارف. ويكون الثوب عند بعض الفرق كبيراً، مقاسه (فوق ٣,٥×٢,٥م) ولـه أكمام من مقاسات مختلفة، يصنع الكم علـى هذا الشكل بحيـث يمكن استخدامـه كحقيبة، أو كيس لوضع الأشياء، أو الأطفـال الصغار فيه. تطرز هذه الأثواب حـول الرقبـة وعلى الصـدر والجوانب. بالإضافـة إلى ذلك يمكـن أن يزيـن برقع مـن مواد وألـوان متعـددة ومطرزات مختلفة. بعض هذه النمـاذج لها عمل سحري مثل الحماية. وبما أن الثوب طويل جداً فإنه يربط بحزام منسوج طولياً من الصوف أو القطن الأحمر والأسود. ترفع التنورة إلى الأعلى قليلاً وتحـزم بالحزام. يتم شراء نوع آخر من أثواب النساء ذات الأكمام المستقيمة والمصنوعة من الساتان الأسود القاتم اللـون بشكل دائـم. ومن أجل رفع الحاشيـة وتشكيل نوع من «الجـراب» يمكن أن يطوق الثوب بطريقتـين: بحزام أوروبي مثبت بإبريم (بكلة) أو بحـزام طويل رفيع (٢م) منسوج من الصوف الأحمر ومزين بشراشيب أو شرابات.. يلف الحزام المنسـوج حـول الخصر عـدة مرات وهـو شائع، عـادة، بين الفتيات الشابات والنساء، لأنه يثبت الثوب الأسود ويحمله.

تقـوم بعض النسـاء البدويـات، وكذلك الرجـال، بلف حـزام متين وطويل مـن الجلد المبروم حـول الخصر، تحت الثـوب الأسود الـذي تم ارتداؤه فوق الجلـد. وتمتلك النساء عـادة ثوبـاً آخر خاص بالعمـل. يكون له قصـة ثوب الرجال نفسهـا، بصـرف النظـر عـن الأكمـام القصـيرة الضيقة والفتحتين الجانبيتين للتنورة. ترتدي النسوة هذا الثوب عند الطهي وجمع الوقود وحلب الحيوانات.. وغيره. وفي الصيف يرتدينـه دون أي ثوب آخر، أمـا في الشتاء فيرتدينه فوق كل الأثواب الأخرى.

تصنـع معاطـف النساء (الصايـة) من مـواد ذات لون أسـود مع أكمـام واسعة وفتحات جانبيـة. ويزين خط العنق حتـى الأسفل عند الصدر بمطـرزات ملونة. ويتم ارتداؤه في الحفلات، وعند الذهـاب إلى المدينة تقلبه النساء عالياً من الخلـف وتعقد نهايات الحواشي أمـام الصدر، وهكذا تشكل جرابـاً عند الظهـر حيث يمكنهـن حمل أطفالهـن الصغار وحوائجهن الصغيرة (مثل الصوف، الطعام، الوقود..) ويتم شراء هذه المعاطف من السـوق. وقد ارتدت النساء الثريات القفطان الحريري الـذي كان يصنع في الماضي من الساتان المخطـط طولياً، فوق الثوب. ويحـل الجاكيت القماشي عادة محل المعطف الشتـوي، وترتديه النسـاء في الغالب أكثر من الرجال.

يصنع الجاكيت القصـير، الذي يصل إلى الخصر، من القماش الصوفي الأزرق والمزيـن من الداخل بأشغال ملونة، وتشتريـه النسـاء مـن السـوق. يتـم تصنيع هـذا النوع من الجاكيت القصـير القماشي ذي الأكمام الضيقة من أقمشة ذات نوعيـة مختلفـة وغالبـاً مـا تزين بنمـاذج مرقعة. تضع النسـاء في جيبها عادة مرآة صغيرة، علبـة سجائر، مكحلة وزجاجة عطر.

يحصــل البدو علــى الكحل مــن الصين أو الهنــد، ويتم مزجــه مع مــواد أخرى ويوضــع في أوان خاصــة ذات أشكال متعددة، وتوضع على العين بواسطة قلم خاص. تقتنع النساء بـأن أدوات تزيـين العين تحســن مظهر عيونهــن. كما تقوم النساء أيضاً بصبغ أيديهن وأظافرهن بالحنة (في مناسبات خطبتهن وزواجهن وولادتهن). كانت النساء قبل ثلاثين سنة تقريبـاً يخرجن حافيـات، لكنهن يرتدين حليـاً في رسغهن. كما تحتاج النساء البدويات مناديل عديدة للحجاب وأغطية الرأس.

يتـم ربط قطعة القماش الحريريـة الكبيرة (مارغرونا) بطريقة خاصــة، ثم تثبت على الرأس بواسطة عصبة مؤلفة مــن وشاح أصغر وأرفع حيث يلف بشكل قطري (عرض يزيد عــن ٥سم). يدعــى الوشاح الأصغــر عصبــة، أو منديلاً أو شطفة. يتــم صنع هذا الوشاح عادة من الحرير الأسود، وله حــواف ملونة وتطريزات صغيرة. يتــم ثنيه على شكل مثلث، يلف ومن ثم يربط حــول الرأس ليمسك الحجاب (الشمبر) ويعقــد من الخلــف. لا ترتدي فتيــات قبيلة (الصبــا)، على سبيــل المثــال، الحجاب مثــل الفتيــات الفلاحات. بــل إنهن يربطــن «المارغرونا» دون لفها، بطرق عديدة حول رؤوسهن. يبلغ طول الحجــاب أو الوشاح (الشمبر الكروشيه) أكثر من ثلاثــة أمتار وعرضه من ٣٠-٤٠ســم وهو مصنوع من أنسجة جميلة وشفافة (حرير أو قطن). يتم ارتداؤه بطريقة خاصة: فوق الثوب ولكــن تحت المعطف والجاكيت، بحيث يتم تغطية خط العنــق المفتوح من الأمــام، ومن الخلف يتــدلى الوشاح إلى الأسفل تقريباً حتــى الأرض. تفضل نساء كل قبيلة نوعاً محدداً مــن أغطية الرأس ولكنها تكون غالبــاً سوداء اللون، ونادراً ما تكــون حمراء أو صفراء. وبعض منها يكون بلونين. يتم صنع الوشاح من النسيج الحريري الأحمر عرضه حوالي ٤٢سم. تخاط قطعتان طوليتان مع بعضهما بدرزات مزخرفة مصبوغة باللــون الأسود مع ترك الحــواف حمراء (عرضها ٦ســم). تزيــن نهايتــا الوشاح بعدهــا بنقوش أو شراريب، وببعض المطرزات أحياناً.

ترتــدي النســاء المتزوجــات أغطيــة الرأس (الشمــبر) بطريقــة مختلفة عــن الفتيــات الصغــيرات اللواتــي يعبثن بشعرهن وأغطية رؤوسهن. ومن أجل منع القسم الأمامي من الوشــاح من السقوط، تربط النســوة شيئاً ما في زاويته (مثل المفتــاح، قطعة الحلــي...). وتمتلــك النســاء الثريات فقط وشاحــاً آخر من الحرير الأحمر الطبيعي (الشمبر الأحمر): تقــوم النسوة بصبغه باللون الأســود أيضاً مع ترك النهايات حمــراء فقــط، وغالبــاً مــا تطــرز بالتراتــر وحبــات الخرز الزرقاء، وتزين بالشراريب والحواشي الحريرية. ومثل باقي الأنسجة، تباع هذه المادة بالوزن.

أزياء الرجال:

أثواب الرجال (التوب):

يرتدي الرجــال ثوباً أبيض مثل القميــص، وهو مصنوع من القطن، وله أكمام مجنحة مثلثية الشكل، تلف وتعقد عند ظهر الرجل أثناء عمله أو عند القتال أو السير. يترك البدوي هذه الأكمام متدلية إلى الأسفل عند ركوب الحيوانات. تزين هذه الأثواب في المناسبات عادة، بمطرزات ذات لون أزرق أو أحمر أو أسود حــول الرقبة وعند الصدر. والأكمام المجنحة عنــد البــدو الحقيقيــين مهمــة جــداً. ومــن قياســ الأكمام يمكــن تمييز البدوي مــن النصف بدوي الــذي يرعى القليل مــن المواشي. يرتدي بعض البداوة، تحــت القميص الأبيض الطويــل، حــزام الخاصــرة على الجلــد مباشرة ونــادراً ما يرتدون بنطالاً أبيضاً.

يتألف حــزام الخاصرة لرجال قبيلــة الصبا، مثلاً، من نطاق من جلد الغــزال المجدول (عرضه ٧مم وطوله ٦.٥م)، يلــف حــول الجســم عدة مــرات. تصنــع هــذه الأحزمة من قبــل رجــال الصبــا بأنفسهــم ويطلبونها من قبيلــة سلايب التي تختــص بصنعها. (بــو شمــان ١٩٣٤). وحسب وصف موســل (١٩٢٨)، يحصل رجال قبيلة الرولــة على أحزمتهم مــن قبيلــة السلايب. يعطي البــدو أهمية كبــيرة لأحزمتهم هــذه. فهــم لا يتخلون عنها أبــداً بإرادتهــم ويربطونها بقوة عندما يجوعون. وعندما يحتاج الرجل إلى مزيد من الحرية في حركتــه عند العمــل فإنه يرفع ثوبه ويدخلــه في نطاقه مع ثني الحواشي.

البنطال (السروال):

يصنــع من القطــن الملون أو غــير المصبــوغ ويرتديه كل رعــاة الغنم، وكذلك البدو الذين يقيمون في الواحات. وعادة لا يرتــدي رعاة الجمــال السروال. يشتري البــدوي السروال دائماً جاهزاً من السوق، ويرتديه تحت القميص.

المعطف:

يدعى المعطف عادة (الصاية) وهو ثوب هام للرجل. ويتم شراؤه عادة بشكل جاهــز من السوق. تكون الصاية مفتوحة من الأمام وأكمامها القصيرة المستوية العريضة مشقوقة من الطرفين بحيث يمكــن للأكمام المجنحة للقميص أن تسحب مــن خلالهــا. ويكون للصاية عــادة جيبان داخليــان وشقوق جانبيــة طولانية قصيرة في الأسفل. يتم ارتداء هذا المعطف عــادة فوق القميص ويمكن صنعه من أنسجة متعددة خفيفة الوزن. لا يوجــد قبة لهذا المعطف وينضــم طرفا الصدر مع بعضهما البعض فــوق الصدر برباطين. تكون الأكمام طويلة

ضيقة عند المعصم، يقابلها نسيج أحمر ويتم قلبها عند لبسِها. تكون الأكمام والقبة المفتوحة والجيوب الداخلية والصدر كلها مزينة بمطرزات قطنية.

تختلف الأنسجة المستخدمة في صناعة معاطف البدو فهناك القطن الأبيض والحرير الأسود مع قطع قماشية طولانية مخططة أفقياً بالأصفر (الظاهر: حرير والأساس قطن)، وهناك الحرير الأبيض مع الأنسجة الطولانية الملونة والمخططة أفقيا أو القطن مع الأنسجة الملونة. تختلف أسماء هذه المعاطف باختلاف المواد التي تصنع منها. يسمي قبائل الرولة معاطفهم بالزبون، وتكون مصنوعة من الأنسجة الطولانية. يرتدي عدد من رجال قبيلة الصبا اليوم الصايا ذات القطع الطولانية المخططة عرضياً، كما يرتديها البدو غير الرحل والفلاحون.

تشد المعاطف والأثواب بحزام صوفي منسوج يدوياً أو مصنوع من الجلد (مخرم). يرتدي الرجل حزاماً جلدياً فوق الصاية مع نطاقات كتفية من أجل الخرطوش، وكلها يتم صنعها في المدينة. بالنسبة للبدو المتمسكين ببداوتهم، تختلف أكمام الثوب دائماً عن أكمام الصاية، ففي بعض الأحيان تكون للصاية (أكمام مجنحة)، أي أن شكل الأكمام يعود إلى الثوب. نجد هذا النوع بين فرق البدو المستقرين، وغير الرحل في حوض الفرات. وهذا يعد تقليداً محبباً، ومعروف لدى الجميع أن من يرتدي هذا النوع ليس بدوياً حقيقياً.

العباءة (العباية):

تعتبر العباءة من الثياب الأكثر أهمية بالنسبة للرجل. يمكن أن تصنع هذه العباءة من أنسجة متنوعة خفيفة الوزن (حرير، حرير صناعي، مزيج من القطن والحرير) أو من الأنسجة الأكثر خشونة: يتم حياكة قطعتين عرضانيتين مستقيمتين مع بعضهما ومع حواشيهما وتترك فتحات للأكمام. وتكون مفتوحة من الأمام ويمكن أن تثبت في بعض الأحيان بواسطة رباطين، ويكون هناك بعض التطريزات الرفيعة عند الرقبة ودرزات الأكتاف (تمكين، تزيين الدرزات) من المطرزات القطنية. يتم تصنيع نوع آخر من العباءات من الصوف مع قطع طولانية مقلمة أفقياً بيضاء أو بنية اللون. والعباءة الحمراء يلبسها الرجال الأغنياء فوق كل الملابس الأخرى.

تدعى العباءة الخفيفة الوزن، المصنوعة بألوان خفيفة من أجل الصيف (بيشت). وتصنع من صوف الأغنام الخشن غير المصبوغ، أو من صوف الماعز أو الجمال، مع قطع طولانية مخططة أفقياً بالأبيض والأسود أو الأبيض والبني، ولها مطرزات صوفية عند الرقبة والحواشي. وغالباً ما تصنع من أنسجة مختلطة مع نسيج مدعم (ظاهرياً: صوف، باطنياً: قطن).

كان عدد قليل فقط من الشيوخ يرتدي الجاكيت (الدامر) ذا اللون القاتم مع بطانة قماش مغاير مبطن، بشقات (ليلائم الأكمام المجنحة من الثوب) وأكمام مطرزة مع جيب داخلي مزين بكثافة، خاصة في فصل الشتاء أو في مناسبات هامة، عندما يركبون ظهر الحصان. وقد أصبحت الآن شائعة بشكل كبير بين العديد من البدو. ويرغب رعاة الأغنام باستخدامها، ولكن بطانتها هنا تكون من القطن، لأن سعر الجاكيت القماشي مرتفع جداً.



٣٧٧. نساء بدويات من دير الزور. يطرزن معاطفهن بشكل جزئي آلياً، تفصيلي تقليدي بشقات طويلة. وبذلك يمكن للمعطف أن يلف من الخلف، وتربط النهايات مع بعضها بعضاً أمام الصدر، بحيث تشكل نوعاً من الجراب تحمل فيه الأطفال الصغار. يمثل هذا الشكل نموذجاً معدلاً للثوب الفضفاض التقليدي.



٣٧٨. زوج من البدو في سوق دير الزور.

يصنع المعطف الشتوي (الفروة) من جلد الأغنام (البطانة) ومن القطن الخشن القاتم، وغالباً يكون أسود اللون، يزين بأعمال ملونة ومطرزات قطنية. يملك البدو الأثرياء أيضاً في قبيلة الرولة، في أغلب الأحيان، جاكيتاً قصيراً (نصية) من قماش أو معطف فرو قصير (قبطية) مع قطعة قماشية إضافة للرأس.

يرتدي الرجل في الشتاء كل ملابسه فوق بعضها البعض ليحمي نفسه من البرد.

تتنوع أغطية الرأس بالنسبة للرجال. فما يزال رجال قبيلة الصبا المحافظون على تقاليد قبيلتهم يفضلون الوشاح الأبيض الصافي من القطن الجيد. هناك نوع آخر من الوشاح الحريري مع شراريب طويلة وقطع بيش صغيرة، يعقد حول رأس بعض الشيوخ وأنصاف البدو في حوض الفرات. يفضل رعاة الغنم في شمال تدمر وشاح الرأس ذا الصوف الأصفر المائل إلى البني. تعتمد أسماء أغطية الرأس على المادة واللون والنوع والقياس. هناك أغطية سوداء مع خطوط حمراء وصفراء أو زهرية اللون. وهناك أغطية ذات مربعات حمراء وزرقاء أو بيضاء صافية مع حواف زرقاء أو حمراء وشراريب قصيرة.

يتم نسج الوشاح المسمى «مانغرونا» من الحرير والقصب الفضي. أما الأغطية المألوفة فتصنع من الحرير الأزرق أو البنفسجي مع خيوط حمراء مشغولة فيه. تنسج محرمة من الحرير الأبيض الصافي ليرتديها الشيوخ حصراً وفي «مناسبات» خاصة فقط. يوضع الوشاح عادة فوق قبعة مطرزة صغيرة أخذها البدو المستقرون من الفلاحين.

رباط الرأس (العقال):

يتم شراء رباط الرأس عادة، رغم أن رعاة الماشية يفضلون صنعها بأنفسهم. يمكن أن يوضع العقال بطرق مختلفة وفق الحالة الاجتماعية أو الوضع الشخصي. فمثلاً، يرتدي الرجل «المهم» ربطة رأسه بشكل مستقيم أما الرجل الشاب، الذي يبحث عن عروس فإنه يسحبه للأمام فوق جبهته. يتم توصيل رسائل غير مباشرة بالطرق المختلفة لارتداء غطاء وربطة الرأس: عرض المحبة، الاهتمام، الاحتقار،... وغيره.

تثبت التعويذة في نهايات أربطة العقال أحياناً، لطرد عين الشيطان وغالباً ما يضاف زوج صغير من الملاقط لنزع الأشواك من القدمين.





ارتداء الملابس

مارغريتا بافالوي

تعطينا طريقة ارتداء الملابس الخاصة تصوراً عن الشخص والوقت والمجتمع الذي عاش فيه. يرتدي الشخص الملابس التقليدية، أو الحديثة بشكل يتناسب مع حالته الاجتماعية أو يوافق المناسبات الخاصة والوقائع الاجتماعية (لباس عمل، لباس سهرة).. ويمكننا معرف انتماء الفرد لقبيلة أو فريق اجتماعي معين من خلال ملابسه، وكذلك معرفة حالته الاجتماعية والاقتصادية. ورغم عدم وجود نظام وقواعد خاصة للملابس اليوم، فإنه ما يزال لدينا حس بالثوب الصحيح، الأمر الذي يجعلنا نحكم على ملاءمة الزي للشخص والمناسبة التي من أجلها استخدمه.

لم تكن الأزياء والثياب دوماً انعكاساً لزمانها فقط، بل كانت أيضاً انعكاساً للثقافة، والفكرة المهيمنة على الإنسان والسلطات الاجتماعية في المجتمع. تتبع قواعد الملابس المرتبة الاجتماعية ويلبي شكلها الأذواق السائدة. تحدد المعايير والقيم الثقافية «ما هو المناسب» وما إذا كان في الواقع «أي شيء ممكن». تعرض الملابس موقف، وإلى حد كبير فإنها تحدد سلوك، كل من الشخص الذي يرتديها والذي يريد أو تريد اللقاء معه. وهكذا تشكل لغة الملابس جزءاً هاماً من التواصل الاجتماعي.

يكون الثوب التقليدي نوعاً ما، أكثر مراعاة للتقاليد الاجتماعية والاقتصادية ويتم تحديدها لدرجة كبيرة وفق مبادئها. لكنها لا تطمس شخصية واستقلالية الشخص، بل تترك الفرد أكثر حريةً في تبيان حالته وشعوره ووصفه من خلال ملابسه والطريقة التي يرتديها بها.

يدعى الثوب التقليدي عادة «الزي الشعبي» وهو مصطلح يعني مجموعة الثياب والحلي التي يرتديها الإنسان. يبين الفرد من خلال زيه انتماءه لفئة اجتماعية أو دينية معينة. ويعرف المرء من النظرة الأولى (من خلال زيه) الشخص الذي يتحدث ويتعامل معه، وبذلك يكون قادراً على تكييف سلوكه معه وفق ذلك. اندهش المراقبون الغربيون دائماً من التنوع الكبير، ومن تلون الأزياء الشعبية، وإلى قدرة الزي الحقيقية على كشف هوية مرتديه للناظر ومن الوهلة الأولى.

يدرك الرحالة اليوم، والمتجولون في دمشق أو حلب، وعلى الفور الفولكلور الشعبي للبدو والبلد بشكل عام بواسطة ثيابهم.



٣٧٩. تمثال نسائي من تدمر. حافظ السكان على نموذج الأقراط والعقد وعلى لوازم الزي وطريقة لبسها وخاصة تصميم غطاء الرأس حتى وقتنا الحاضر.



٣٨٠. امـرأة مـن حمص، احتمال أن تكون كردية، تحمل طفلها بحنان كما المـرأة في التمثـال المجاور مـن تدمر. هناك شريط صُفَّت عليه نقود ذهبية تحت غطاء رأسها. تغطي رأسها بمعطف الطريق الذي يزين فقط عند أطراف الأكمام.



٣٨١. مشهد لسوق الأقمشة والملابس في دير الزور.



٣٨٢. امـرأة فلاحـة من ضواحي حمص. تستخدم النسـاء الشمبر ليس فقـط للسـترة ولكـن كنطاق أيضـاً. يعتبر استخـدام الغطاء في هذه الطريقة نموذجياً للنساء الفلاحات من القرى المحيطة بحمص.





٣٨٣. امرأة فلاحة من معرة النعمان.

٣٨٤. امـرأة فلاحـة من مزرعـة قرب إيبلا. ترتـدي المرأة ثوبـاً مصنوعاً مـن قماش قطنـي حديث مع غطـاء رأس ملون مزهـر يترافق مع الغطاء التقليدي للعنق والصدر. ويبدو واضحاً غطاء العنق المفتوح مع التطريزات الموجودة عليه.



٣٨٥. نساء فلاحات من القلمون يتجولن ضمن البلدة في دمشق. صممت ملابسهن بطريقة أوروبية لكنهن يرتدين أغطية الرأس التقليدية، غطـاء الرأس والبنطال النموذجي للمنطقة. تمت خياطة حواشي البنطال بطريقة تغطي كامل القدم.

٣٨٦ و٣٨٧. نساء فلاحات من خان شيخون. يشكل التطريز فوق أثوابهن وأغطية رؤوسهن نموذجاً للقرى ما بين حماه ومعرة النعمان.

٣٨٨. الصورة اليسارية من الأسفل: فلاح في دمشق. يرتدي سروالاً واسعاً تقليدياً للرجال (شروال) وغطاء رأس على شكل مربعات، يشبه هذا الزي ذلك المستخدم عند البدو لكن دون ربطة الرأس (العقال).







يمكن من خـلال المعرفة الصحيحة للأزياء بيان من أي إقليم أو منطقــة جاءت وإلى أي فريق أو زمرة دينية أو شريحة اجتماعية تنتمــي. كما يمكن إدراك المنزلة الدينيــة للشخص الذي يرتديها. ترتدي نساء من الحي الشعبي التقليدي في المدينة، ملابس تختلف عــن تلك التي ترتديها المرأة الشابــة أو السيدة العصرية التي تتبع بطريقــة واعيــة الدين الإسلامــي. يختلف زي المـرأة الكردية عن الأزياء البدويــة في القصة واللون والطريقــة التي ترتديها والحلي التي تتزين بها. كما تختلف ثياب الفلاحين من الموحدين عن ثياب الرجال كبار السن المحافظين في المدينة. وهكذا يعتبر الزي الشعبي التقليــدي، وخاصة الأزياء النسائيــة، ظاهرة بادية للعيان لتحديد الشخصــ وانتمائــه إلى زمرة دينيــة أو عرقية معينــة ويلعب دوراً أساسياً في تحديد ما هو غريب ودخيل. لقد أعاد المصورون الأوائل خلق نماذج مــن مصوراتهم. كانت النســوة يرتدين، على الغالب، ملابسهــن في الاستديو وفق أهواء المصورين ومخيلاتهم الواسعة، بطريقــة فسرتها التوقعــات الأوروبية ب«الفتاة البدويــة»، « السيدة الدمشقية»، «عروس من جبل العرب» أو «فلاحة » (غراهام، براون ١٩٨٨) . ونحاول حتى اليوم أن نلتقط «الزي الصحيح» مع الكاميرا. يأخــذ رد الفعل تجاه التغيرات في الأزيــاء الشعبية التقليدية غالباً نوعــاً مــن الأسف، أو النــدم المتعلق بالحنين للوطــن، والخوف من خسارة المصداقية والأصالة والطبيعة التي يفترض أن تستمر.. ومن الصحة بمكان القول إن الزي الشعبي التقليدي هو العرض الحالي للهويــة الثقافية والشخصية، كما أنه من العبث التظاهر بأن القيم والمعايير التي تقــرر بأن التقاليد قوانين وأنظمة غير قابلة للتغيير، تستند على التطور الطبيعي ومعفاة من تطورات الزمان.

إن مصطلــح «التقليــدي» يتــم تحديــده ليــس مــن خــلال الاستمراريــة فقــط، بــل أيضاً عبر عــدد من المظاهــر المتميزة والمتنوعة باستمرار. وهي إذاً ليست مظهراً ثابتاً بل حركياً: يعرض الــزي التقليدي التغيركثــيراً كما تفعل الاستمراريــات الثقافية. وبشــكل عام، يلعب الزي دوراً هاماً في ثقافــات الشرق الأوسط. وقد كانت شكلاً من أشكال التوجه السياسي والاجتماعي والهوية الوطنيــة. وفي الحيــاة اليوميــة للرجــال والنساء، تعتــبر عرضاً رمزياً للانتمــاء الشخصي ولــلأدوار الاجتماعية. وهكذا ساهم الزي دائماً في الصراعات ما بين التغيرات الخارجية والداخلية. وهناك مثال على أن الزي يمكن أن يصبح وسيلة لممارسة الإيحاء السياسي كما نجده في قواعد اللباس المفضلة جداً التي فرضتها الحكومة العثمانية. فقد خصصت، على سبيل المثال، لون أقمشة العمامــة لأتبــاع الديانــات: الأزرق للمسيحــين والأســود لليهود والأبيض للمسلمين ويكون لسلالــة محمد عليه السلام، الامتياز بارتــداء اللــون الأخضــر. وقد اعتــاد أفراد الجماعــات الدينية الصوفيــة المتنوعة علــى استعمال ألوان خاصــة بهم. (وينكلهين ١٩٨٧) . في عــام ١٨٣٠ فرضت الحكومة العثمانية على رعاياها المدنيين ارتداء الطربوش وأدى ذلك إلى جعله غطاء رأس شعبياً وعامــاً للرجال. ولكنهــا، بعد ذلك، فرضت عليهــم ارتداء الزي الأوروبــي لإظهــار التوجه نحــو أوروبا بشكل بــاد للعيان. وكذلك لإبراز الموقــف التقدمي للحكومــة العثمانيــة. مــن ناحية أخرى،

٣٨٩. علـى اليمـين امرأة فلاحة من منطقة حول دمشق في اليمين، امرأة درزيـة مـن ضواحـي دمشـق في الوسط، امـرأة من دمشـق على يسار الصورة، (١٨٧٣).



ورغـم أن الرعايا المدنيين في الدولة العثمانيـة، حاولوا وبدوافع متنوعة، إعادة التركيز على الأزياء المحلية التقليدية، ومجموعة الملابس النسائية، حيث فسرت التغيرات في هذا المجال على أنها تهديـد للتوجهات العثمانية. باعتبار أن هناك، على سبيل المثال، محاولة لتمييز الثوب الأوروبي عن الزي الشعبي التقليدي وربط قيم مختلفة به، أثـير نقاش وجدل كبيرين حول القيم والأخلاق عندما بدأت النساء في المدن يكشفن عن رؤوسهن. وبدأت تغيرات كبيرة في الملابس عـام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٠ في سوريا وبشكل أكبر في المدينـة، حيث بـدأ الناس يرتـدون أزيـاء أجنبية (ألافرنكا) بشكل متزايد. وربما بدأ توجه النساء المدنيات نحو باريس بشكل مبكـر، لكن ارتـداء الملابس الجديـدة تم داخل المنـازل، أما في الخارج فقد كن يرتدين «معطف الخروج» فوقها.

ظهر التأثير الأوروبي أيضاً في الريف، حيث ساهمت الأقمشة الحديثة، والخيوط والألوان أيضاً، في إحداث التغيير وعلى الأقل في تصميـم الثوب. استخدمت نمـاذج التطريز الأوروبي وقلدت ملابسهـا كمـا تم تبنـي أفـكار وتصاميم مـن أقاليـم مختلفة. وتحكمت السلطات الدينيـة والحكومية بالملابس جزئياً وخاصة النسائية منها، لأنهم ربطوها مع أفكار الحشمة في المجال العام، وتعنـي حماية شرف النسـاء وعائلاتهن. لكن في الريف، ما كان يرى على أنه احتشام وملاءمة كانت تحدده الأعراف الاجتماعية والتقاليـد، وفي بعض الأحيان ضغـوط السلطـة الدينية. كانت تجـري مناقشات حول موضـوع الحجاب بواسطـة الصراع بين الأفـكار التقليدية للحشمة وأفكار التقدم، وهـو العامل الذي ما يـزال يسيطـر حتى الآن على هـذه المناقشـات في كل من البلاد نفسها وفي الغرب. يواجه المراقب الغربي تناقضاً كبيراً: معارضة الحجاب، من جهة، يقابل كإشارة على التقدم والتطور، ورفضه، ومـن جهة أخـرى، كونه يغيب الثيـاب التقليديـة. وهكذا تعكس التغييرات، في الملابس، تغيـيرات في الأزمنة والأفكار: فبالنسبة للملابـس الرجالية، لقيم مثـل الاحترام والحشمـة.. وبالنسبة للملابـس النسائية تعكس قبـول أو رفض النسـاء لتلك الأفكار. وتعكس الملابس النسائية الصورة التي ترى فيها النساء أنفسهن من خلال حتميتهن التاريخية وقيودهن الاجتماعية. وقد تنوعت ملابس الأقاليم والطبقات المختلفة في أوقات التغير الاقتصادي الاجتماعـي الكبـير، ولم يكـن بالإمـكان توضيحهـا دون هـذه الخلفية. وهكذا ارتدت النخبة الجديدة في سوريا البزة الرسمية عام ١٩٣٠، بينما ميـزت النخبة القديمة نفسها بتمسكها بالزي التقليـدي. في خـارج المـدن، لعبت الجـدالات والمناقشـات دوراً هامـاً في تحديـد طريقة الملابـس، وربما كان لذلك عـدة نتائج غـير متوقعة: عندما تم نزع الحجـاب في المدن، بدأت النسوة في تدمـر بارتدائه عام ١٩٣٠، فقد كان يطلـب من النساء الثريات اللواتـي ليس عليهن العمل خارج المنزل، ارتداء الحجاب. أما في حوران فقـد كانت النساء الدمشقيـات اللواتي تزوجن من رجل مـن حوران، وكذلك زوجـات الموظفين والمسؤولـين، هن أول من بـدأ بارتداء الحجاب. كان الربط بين الحشمة والحجاب للنساء فكـرة جديدة أيضـاً في القرى. فما تزال تتذكـر النساء كبيرات السـن كيـف أنه لم يكن هنـاك أي مشكلة في الماضـي إذا رفعت الأكمـام نحو الأعلى عند عمل النساء جنباً إلى جنب مع الرجال في الحقـول، هذا الأمـر لم يشكل مصدر إسـاءة أو تذمر لأحد. وقد فسـروا هذا الأمر بقولهم إنه في ذلـك الوقت لا أحد غريب كان يزور القرية، لكي ينظر إليهن «نظرات مختلفة ذات معنى»، حيث أن أفراد الجميع يعرفون بعضهم البعض جيداً... إن ارتداء الحجاب، أو نزعه، ليس مؤشراً يعتمد عليه في التحرر الشخصي للمرأة وفي الطريقة التي ترى نفسها فيها أو وضعها الاجتماعي. لم تتـم ملاحظة العوامـل الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسية التي تعتبر أكثر أهمية في هذا المجال بشكل مباشر.

هناك أيضاً ثياب هامة، وشخصية في حياة النساء يكون شكلها ولونها مؤشـراً لمراحل مختلفة في حياتهن. فمثـلاً، ترتدي الفتيات بطريقة مختلفة عـن النساء المتزوجات، وتختـار النساء الكبيرات السـن ألوانـاً مختلفـة عـن النسـاء الشابـات. ويوجد لـدى المرأة مجموعات عديدة من الملابس الخاصة للمناسبات المتنوعة. ويكون الـزواج هو الحدث الأكـثر أهمية في حيـاة المـرأة والانتقال الأكثر تميـزاً من مرحلـة معينة من الحيـاة إلى مرحلة أخـرى. وتحصل المـرأة على أغلب ملابسها بمناسبة زواجهـا وتشكل الأقمشة قسماً كبـيراً مـن جهازهـا. تطـرز الفتيـات ثيابهن مـن ناحيـة الصدر والجوانـب والأكمـام وهن يحلمـن بالزفاف.. وبذلـك تنعكس تلك المشاعـر والحالات النفسية والتوقعات على هـذه المطرزات. يتألف جهـاز العروس من مجموعـة كاملة مـن الملابس (الكسـوة) التي تلعـب دوراً هاماً في العرس، ويكون عرضهـا إحدى مراسمه. تتلقى العروس بعض المجوهرات والحلـي في عرسها، التـي يشتريها لها والدها من مهرها، ومن ثم ترتديها كرمز لوضعها العائلي الجديد، مـع الحجـاب، وغطـاء الرأس المميز. يتبـين الوضـع الاقتصادي والاجتماعـي للعروس والعريس من خلال عدد قطع الملابس ونوعية أقمشتها ومطرزاتها، ومن كمية المجوهرات والحلي. وأغلب الملابس الموجـودة في مجموعتنا هي ملابس خاصـة بالزفاف، أو المناسبات الاجتماعية والاحتفالية، وأغلبها تعود للمناطق الريفية.

تعرف المـرأة أيضاً من خـلال ملابسها بانتمائهـا إلى قرية معينة، أو إلى فريق ديني أو مكان جغرافي خاص. وتنعكس المظاهر الإقليمية والمحلية المستندة على التقاليد، على شكل الزي وعوامله الفردية وطريقة ارتدائه: في أي جزء من الثوب يتم التركيز عليه أكـثر في التطريز أو أعمال الأبليـك، أي الألوان تكون غالبة، وأي النماذج تكون مفضلة أكثر. تكون تقنيات التطريز وشكل النماذج هـي أيضاً جزء مـن التقاليد. تتعلـم الفتيات هـذه التقنيات من النسـاء كبـيرات السن، مثل الرسوم التي تتعلـق بأفكار النقص، الحمايـة والخصوبة والتي تعتبر عوامل أساسية للثوب الحقيقي. لكن هنـاك مجال واسـع للـذوق الشخصي، تنوعـات وإبداعات جديدة في اختيار الرسم واللون. يعتمد إدراك الأفكار على مهارة المطرزة. تستوحي النساء أيضاً الأفكار من محيطهن ومن القرى المجاورة ويدمجن معها أفـكاراً جديدة. وبذلك يكون شكل الثوب وتطريزه أو أعمال الأبليـك عرضاً معقداً وشخصياً جداً للمرأة، وهويتها، والطريقة التي ترى فيها نفسها وفرصها الحالية.







٣٩٠. درزي بالملابس التقليدية مع غطاء الرأس المميز. تشير ألوان ملابسه وغطاء رأسه إلى أنه شخص ذو أهمية وبارز في جبل العرب.

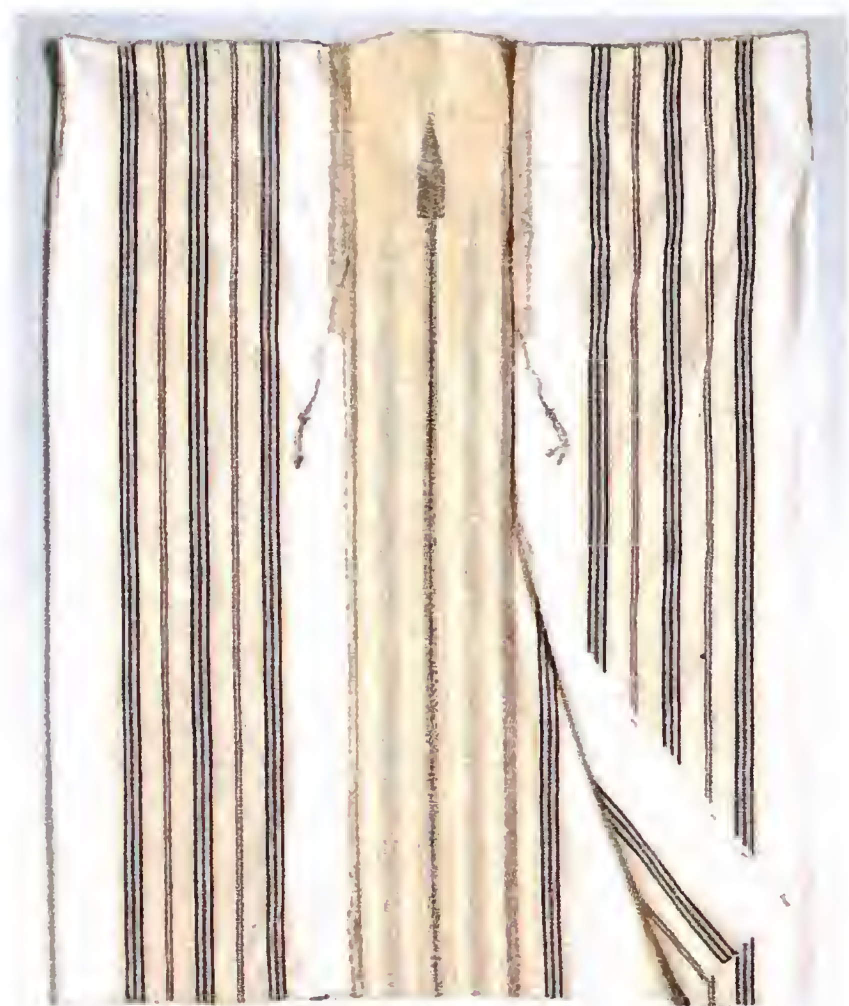
٣٩١. أفراد من عائلة الأطرش في قاعة الضيوف (المضافة) التقليدية من منزل عائلة معروفة في السويداء. تعلق صوراً لأسلافهم المشهورين على الحائط.

٣٩٢. وشاحات الرأس وأربطة رأسية تشكل جزءاً من أغطية الرأس الرجالية في سوريا. يرتديها أهل جبل العرب غالباً مع زيهم المدني.

٣٩٣. عباءة جديدة للرجل، مصنعة بناء على طلبية في دمشق، حيث كان يرتديها أهل جبل العرب فيما سبق.

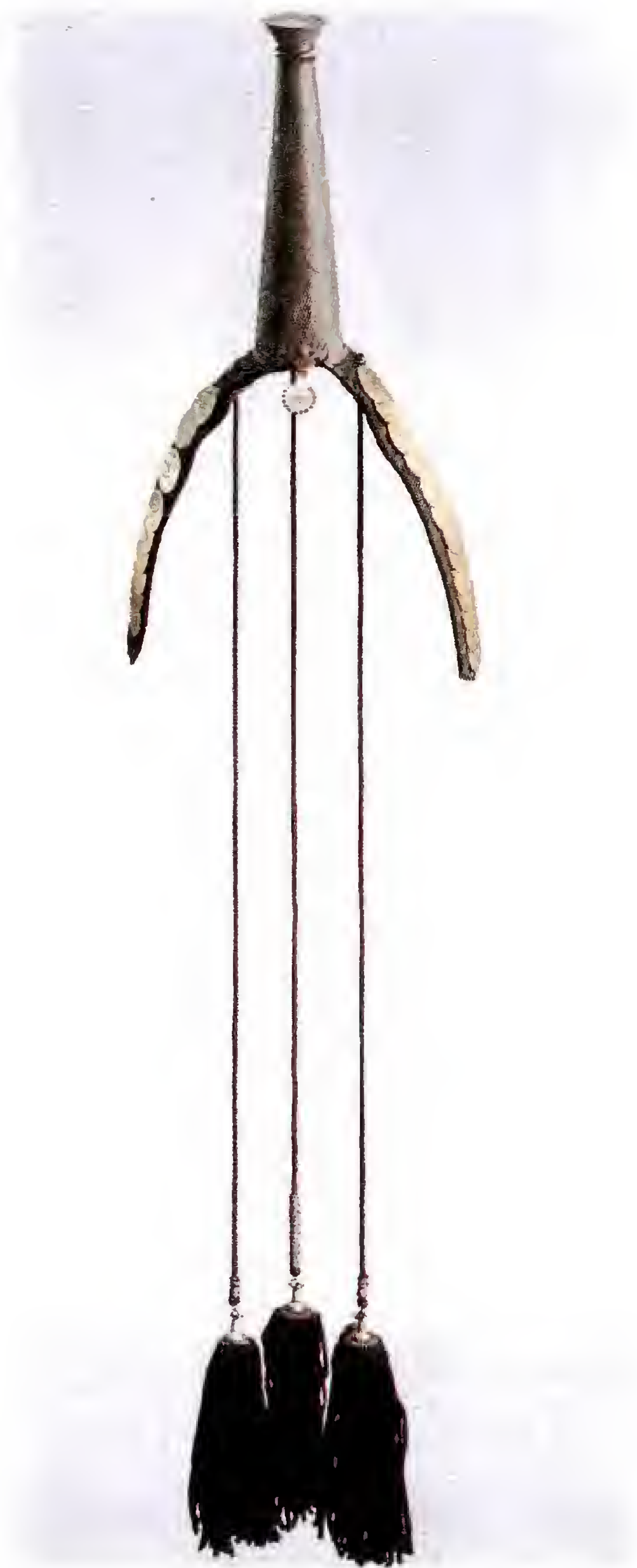
٣٩٤. بنطال فضفاض عريض تقليدي للرجال (السروال).

٣٩٥. معطف نسائي مخملي درزي. مقدمة المعطف مزينة بأعمال الأبليك.













٣٩٦، ٣٩٩-٤٠٠. امرأة من ضواحي السويداء. يغطى طربوشها بوشاح أبيض. يعتبر زيها وغطاء رأسها من الأزياء التقليدية للثوب الدرزي. الذي يتألف من وشاح أبيض، وطربوش، والثوب الذي يزم عند الوسط بواسطة قصة سفلية من الرقبة، ووزرة (أسفل اليسار). يتم عادة ارتداء معطف فوق هذه الثياب، مثل المعطف الحريري (أسفل اليمين) من نسيج الدامسكو.

٣٩٧ و٣٩٨. طربوش نسائي درزي. استبدال الطربوش بما كان يسمى قبلاً بالقبعة الدرزية (أعلى اليمين) التي كانت قبل مئات السنين علامة مميزة من الزي النسائي الدرزي. صنعت القبعة الدرزية العالية (الطنطور) من الفضة أو الفضة المطعمة بالنحاس. وهي دلالة على الامرأة المتزوجة الشابة.







٤٠١. امرأة درزية شابة من لبنان ترتدي الطنطور فوق رأسها ١٨٧٠-١٨٨٠، كان ارتداء الطنطور في الوقت الذي أخذت فيه هذه الصورة أمراً نادراً جداً.

إضافة إلى ما ذكر، يعتبر الثوب التقليدي، في الأقاليم الريفية تحديداً، انعكاساً للتفاعل بين الفرق الدينية والعرقية التي شكلت حركاتها التاريخية مخزون الثقافة السورية.

يعتبر الدروز بسبب ديانتهم وعزلتهم في الجبال شعباً متجانساً، وقد أثار الاهتمام لدى الزوار الأوروبيين. وبالطبع، كان زيهم مثار انتباههم الخاص. وقد احتفظ الدروز، حتى يومنا هذا، وبشكل كبير جداً بالمظاهر الخاصة بزيهم. ومع ذلك فقد خضع مبدؤهم في اللباس إلى عدد من المتغيرات التي انعكست نتيجة ذلك وبطريقة نموذجية في التفاعل بين العوامل التقليدية والحديثة لفترة طويلة من الزمن.

صنف بورون أثناء إقامته مع الدروز (١٩٣٠) القائمة التالية لعناصر أزيائهم:

الزي الرجالي:

الجوارب (الألشين):

- بنطال قصر فضفاض (شنتيان): هذا النموذج من البنطال الفضفاض الواسع يصبح ضيقاً تحت الركبة ويلامس الساق من بطة الساق إلى الكاحل.
- قميص قصير (قميص)
- سترة فضفاضة تبلغ الخصر طولاً (جوبة) أو صدرية
- صدرية بلا أكمام (صدرية)
- حزام قماشي (الشالة)
- قمباز - ثوب فوقاني شبيه بالمعطف (قنباز)
- عباءة - عباءة واسعة (عباءة)
- الفروة معطف شتوي مع بطانة فرو.
- قبعة صغيرة (طاقية)
- قطعة قماش خاص بالرأس (قطنية عادة) (كوفية)
- حطة، قطعة قماش حريري (حطة)
- عقال - رباط للرأس (عكال) الذي يثبت الغطاء فوق الرأس بواسطته
- العمامة - (لفة) التي تلف حول قبعة لباد. (يحصر ارتداؤها للأوائل في الدين وهناك نماذج خاصة للقادة المتدينين)
- خف جلدي. أحمر (صرماية)
- جزمة، خصوصي للركوب

الزي النسائي:

خف (كندرة):

- الجوارب (لا ترتدي النساء عادة جوارب، حيث لم يرد ذكره أبداً)
- بنطال قصير فضفاض (شنتيان)
- البنطال القصير الواسع (الشروال) لم يتم ذكره للنساء
- قميص طويل (قميص)
- قمباز (ثوب فوقاني مثل المعطف - قنباز)
- ثوب فوقاني أنيق (سابا كاني)
- حزام قماش (شالة)
- مئزر (مملوك)
- منديل يد (محرمة)
- صدرية بأكمام واسعة لها شقات (دامر)
- قبعة درزية (طربوش) من اللباد الأحمر وتزين عادة بقطع نقدية.
- وشاح (الفوطة)
- شال للأكتاف من أجل الشتاء (شرشف)
- تنورة (تنورة)
- حلي ومجوهرات
- حلي فضية (ترتديها النساء فوق الصدر، يمكن أن تكون واصلة إلى الحزام) (أي قفل الحزام)
- عقد فضي (كردان)
- سلسال ذهبي فوق الصدر (شاكل)
- ضفائر مزيفة (ضفرة)
- زينة الضفائر / الحلي (عقد)

يسمى اليوم، ما كان يدعى بالأمس القبعة الدرزية، الطربوش وهو مصنوع من اللباد، ومثبت عليه قطع معدنية ذهبية، ويكون مشابهاً لغطاء رأس النساء الفلاحات الأخريات من المنطقة المحيطة، اللواتي كن يرتدين سابقاً (الطنطور)، وهو عبارة عن أنبوب مخروطي طويل مصنوع من الفضة أو النحاس، فقد عرفناه من أوصاف الرحالة والمصورين القدماء. لكنه لم يعد يستخدم منذ فترات طويلة رغم أن بعض العائلات ما تزال تحتفظ به. يضم متحف «بيت وايفرز» نموذجاً واحداً منه ضمن مجموعته وقد حصل عليه من متبرع اسمه و. آلان الذي أخذه بدوره من امرأة درزية من لبنان كانت ما تزال ترتديه بنفسها إلى أن باعته في بيروت عام ١٨٨٢.

يبدو أن الطنطور في المناطق الدرزية اللبنانية يعتبر تقليداً قديماً. وقد تعود الناس على ارتدائه ليس فقط من قبل الدروز

بـل من قبـل النســاء المارونيات أيضــاً. لكن وبعـد الحروب بين الدروز والمارونيين عام ١٨٤١ وعام ١٨٤٥، منع الكهنة المارونيون نساءهــم مــن ارتداء الطنطـور. أخـذت النســاء الأوروبيات في القرن الرابع عشر نموذج أغطية الرأس الدقيقة الطرف العالية من الطنطور. كما وجد نموذج آخر مشابه له في وسط آسيا، لكن كان من المفيد إجراء بحث أوسع لاكتشاف منشأ هذه القبعة.

يعطـى الطربوشـ مـع الطنطـور إلى العروسـ وتستمر في ارتدائـه كإشــارة على وضعهــا العائلي كامــرأة متزوجة. وحسـب مـا أورده بوربـون(١٩٣٠) تشـير الطـرق المختلفة لارتدائـه إلى الانتمـاء للعائـلات المختلفـة. وحسـب أنظمة اللباس التي تحكمها التقسيمات الدينية، يسمح فقط للنساء الثانويات(في التعليم الديني) بارتداء الطنطور أو الطربوش. أمـا النســاء المبتدئـات في الديـن فيرتدين فقـط القماش الأبيض الذي تشـده برباط الرأس الأبيض. كما يسمح فقط للرجال والنساء غير المبتدئين بارتداء الألوان، أما المبتدئون فيرتدين الأقمشة السادة(البيضاء والسوداء).

يستخدم الرجال اللفـة، عمامة الدرزي النموذجية، من المقـام العالي فقـط، الذين عليهـم ارتداء الـزي التقليدي، خلاف الناس العاديين، الذين يمكـن رؤيتهم اليوم بالبذات الأوروبيــة وخاصــة في المدينــة. وعلى كل حال، يكـون ارتداء العباءة المصنوعة من قماش أبيض مع قطع طولانية مخططة أفقيـاً بالأسود امتيـازاً لأصحاب المقامـات الدينية الرفيعة الذين ينتمون إلى عائلات معينة.

ربمـا يكـون تاريخ العمامــة الدرزية، والتهديـدات المستمرة لدينهـم، السبـب وراء أحـد مبادئهـم الذيـن يدعونه(التقية) أو (الطاقيـة). تلـك هي إحـدى التعليمات التـي تنسب المظهر الخارجي لأحدهم إلى بيئة معينة ولحفظ الدين داخل قلبه. وربما تفسر بعض مظاهر المتغيرات في المبدأ الدرزي في اللباس. هناك عوامـل أخـرى بالتأكيد لها تأثير فعلي عليهـا، القواعد الناظمة في الامبراطوريـة العثمانية والغالبية الكبرى للبدو في الصحـراء السوريـة وتأثر الشعوب بالأصول العرقية المختلفة التي اندمجت على مرور الوقت في المجتمع الدرزي وكذلك في الشؤون الداخلية الدرزية. وهكذا يبدو أن الشكل النموذجي للقمباز بالنسبة للنساء مع تقويـرة الصدر والظهر الكبيرة والتنورة المكسرة والمزمزمة، شبيه جداً بتلك العائدة للعثمانيين(الأنتاري، الأنتري التركية)، النمـوذج الذي تم الحفاظ عليه في هذه المناطق النائية ولفترات طويلـة مـن الزمن. يدعى المعطـف المخملي للنســاء اليوم(توب المخمل) إشارة إلى مادته وإلى حقيقة أنه ثوب جميل.

لـو نظرنا إلى أصل الكلمات للمصطلحات المستخدمة في اللائحة الخاصة بلباس الدروز، نجد في المنمنمات، تاريخ كل من الدين والمجتمع الخاص بهم. كما أن مصطلح الجوارب، دخـل اللغة العربية مـن الفرنسية عبر تركيـا، وبذلك تكون كلمة الجوارب حديثة الاستعمال تقريباً. شنتيان كلمة تركية، شـروال، البنطال الصغير القصير الواسع هو كلمة فارسية، الصدرية والجاكيت القصير اشتقت من التقاليد العثمانية. وتكون العباءة والفروة نماذج تقليدية.

ويعد اللباس البدوي العربـي، مثل غطاء الرأس ورباطه للرجال والجدائل المزيفة وحلي الجدائل للنساء، من النمـاذج التقليدية أيضاً. يبدو أن ارتداء الوشاح الأبيض بشكل عادي بين النســاء في سوريا يجسِّد ذكرى لحـدث معين في التاريخ الـدرزي. وحتـى عـام ١٧١١ كان هنـاك فريقـان درزيـان مختلفـان: قيسـي ويمـاني يمثـلان المعارضـة القديمة بين العرب في الشمال والجنوب.كانت الألوان الحمراء والبيضاء مخصصــة للأطراف المتنافسة(القيسـي: أحمر، واليماني: أبيـض). ويفرق العثمانيـون بينهم أيضـاً باللونين، وما زال يعمـل بهذا التميز في زمن الغوليتـر. وقد كانت رايات الفرق المحترمـة والمهمة بيضـاء وحمراء ووشاحـات النساء أيضاً. عندمـا تذهـب عروس قيسيـة إلى مقاطعة اليمـاني، يطلب منها إخفاء زيها الأحمر أو تبديله بالأبيض عند الحدود.

فقـد هـذا التميز أهميتـه بعد عـام ١٧١١ وتم استبداله وتوحيـده باللون العائـد إلى العائلة القائـدة المؤيدة في ذلك الوقت، لكن اللون الأبيض لمناديل النساء تم الاحتفاظ به.

يعكس تنوع الأشكال والنمـاذج للملابس في القلمون، مثلاً، الآليـات التاريخيـة للمناطـق الريفية في سوريا خـلال القرنين الأخيريـن. ففي هذه المنطقة تم الحفاظ علـى الأشكال المقيدة مـن ملابس الفترة العثمانية، وتأثرت تقنية نموذج التطريز من اللاجئين من منطقة البلقان وكريت في نهاية القرن الماضي. تبين ملابس ضواحي دمشق، وجبال الدروز والقرى في شمال سوريا، في نموذجهـا وتقنيتهـا، تأثرهـا بالعناصـر الآسيويـة المركزية القادمـة إلى هنـاك بواسطـة عدة فـرق أتت من هـذه المنطقة إلى سوريـا. تنـم الأكمام المجنحة في بعض مـن نواحي القلمون التـي تكون الآن مزينة وإلى حد بعيـد، عن قربها من الصحـراء واندماجها في طرق معيشـة الفلاحين والبدو. كما تعكس قصة الملابـس والمطـرزات النسائيـة في المنطقة بين حلـب وحمص، استقـرار القبائـل البدويـة في الإقليـم. كانت قطبـة الصليب أو القطبـة الاعتراضيـة (+) والتطريـز فوق القماشـ المنسوج الناعـم وكذلـك انتشار النمـاذج المأخوذة مـن الأدلة تستخدم في ملابسهـم عـن طريق النساء في سوريا. ويبـين تنفيذ أعمال الأبليـك وتزيين حواشـي الثياب في حوران كم هـو قريب الشبه بـين تقنيات القماشـ والتصميم من النمـاذج البدوية. كشفت استمراريـة العناصر التقليديـة والاندماج الموحـد في المؤثرات والأفـكار الجديدة. النقاب عن إبـداع النساء ليس فقط في نقل التاريـخ الشخصي الخاص بهن، بل التاريـخ المعاصر أيضاً من خلال الملابس.







٤٠٢ و٤٠٣. ثياب نسائية من حوران. يمكن أن توجد قصة الثوب في كافة أنحاء الشرق الأدنى. يعتمد تصميم الملابس في حوران بشكل أساسي على تزيين الحواشي والدرزات ويركز على حاشية التنورة باستعمال الأعمال الترقيعية. يتم صنع الثياب عادة يدوياً ويدعى الثوب "الشرش".

٤٠٤. جاكيت امرأة من حوران مصنوع من الصوف والقطن. طرزات حواشي وخطوط درزات الجاكيت ودعمت بالوقت نفسه باللون الأحمر (الصوف الأحمر).








٤٠٥ و٤٠٦. ثوب امرأة من حران العواميد. تكون القصة ومظاهر التصميم هي نفسها الموجودة في الجاكيت الحوراني ولكن استخدمت لهذا الزي الاحتفالي تحديداً حواشٍ مزينة أنيقة وقطب متنوعة وبعناية كبيرة بالأعمال الترقيعية الإضافية عليه. استخدمت المرأة بالتأكيد كل مهاراتها ومخيلاتها لإظهار جمالية هذا الثوب.



٤٠٧-٤١٢. جواكيت من حوران للنساء الفلاحات والبدويات، مصنوعة من قماش متين ثابت، مزينة بمطرزات وأعمال الأبليك. يتم اختيار ألوان متغايرة من أجل مواد البطانة.






١٧

تقنيات النسيج

التطريز - التطبيق - الترقيع بالألوان

ماريا زيرينكل

يجهد الرجال والنساء بتقديم أفضل ما لديهم لتزيين القماش والملابس. كما يقوم الحرفيون المهرة بنسج المواد الأولية النموذجية. أما الصباغون، وصانعو الإيكات وطابعو النسيج فإنهم يزينون الأنسجة والأقمشة بالألوان المتنوعة. تساهم النساء في الصحراء والقرية بعملية النسيج والتطريز والبلانجي والأبليك والترقيع الملون.

تعتبر الحياكة، والتطريز والأبليك والكروشيه والترقيع الملون، تقنيات نسيجية قديمة العهد، ويعتبر التطريز، مع الترقيع الملون والأبليك والبلانجي والصباغة، من أكثر المهن المنزلية الصناعية أهمية للنساء اللواتي يعشن في المدن الصغيرة، وكذلك للنساء الفلاحات والنساء نصف البدويات وإلى حد ما للنساء البدويات.

ترجع عادة التطريز إلى مئات السنين الماضية. تحتفظ المرأة بمهاراتها ومعرفتها وتتوارثها من جيل إلى جيل. ويعتبر التطريز مع زينته وألوانه الرائعة أيضاً من الوسائل الهامة للتركيز على صفات الثوب لفرق معينة مثل أولئك الذين يعيشون في القلمون وحوران وحران العواميد وتل حنين والشونة وسراقب وخان شيخون ومناطق أخرى من سوريا.

وبما أن التطريز واضح المعالم نسبياً ومن السهل تعلمه، كما يمكن شراء الخيوط الضرورية والأقمشة اللازمة له من السوق، فقد أصبح واسع الانتشار بين النساء في سوريا، وكذلك في الأقاليم الأخرى من غرب آسيا، والشرق الأقصى والأوسط.

كانت التطريزات القديمة تتم بشكل محدد على أقمشة منسوجة بالنول اليدوي لكن منذ نهاية القرن التاسع عشر تم تنفيذ المطرزات بشكل متزايد على مواد مصنعة في المعامل.

تفضل الظلال المختلفة للون الأحمر، بشكل خاص، لدى المطرزات في الشونة وسراقب. ويظهر تأثيرها رائعاً ومبهجاً عندما تطرز فوق قماش أسود كلياً، وتخلق انطباعاً احتفالياً... تتراوح ألوان خيوط التطريز ما بين اللون الزهري أو لون توت العليق المائل إلى اللون الأحمر القاني. وفي بعض الأحيان يصبح اللون بنياً مائلاً إلى الحمرة.

يتم التطريز فوق الملابس والمعاطف والتنانير والسراويل والثياب والحقائب على الغالب بخيوط حمراء فوق قماش أسود قطني والأقمشة الممزوجة من الحرير والساتان. لا يعود تفضيل التطريز باللون الأحمر، والمنتشر بكثرة، إلى الثمن الرخيص نسبياً لخيوطه ومواده، ولكن أيضاً إلى الأفكار النسائية المهتمة بالسحر والتقاليد الدينية الشعبية. إنهن يعتقدن أن اللون الأحمر يملك خواص سحرية فهو يزيد الخصوبة، ويحمي من الأرواح وعين الشيطان. إنه لون المتعة والثراء والصيف: وهو يرمز، بالنسبة للجنوب، إلى الرغبة في الحياة الطويلة. ولكن في المدن، أصبح التأثير الأوروبي واضحاً جداً في اختيار الألوان وخيوط المطرزات والنماذج والأقمشة خاصة في واحة دمشق.

يرتبط اختيار الألوان، أيضاً، نسبياً، بالتفضيلات المناطقية والتوجهات الدينية. فالدروز، على سبيل المثال، طوروا موقفاً خاصاً بهم تجاه الأبيض والأسود.

يرمز اللون الأسود بالنسبة للدروز، وكذلك بالنسبة لباقي سكان الشرق، إلى الظلام والموت والتحول وعدم الوجود. وتعكس هذه الرمزية حب والانعزال عن الحياة العادية بعكس التعبير التلقائي غير المحدود للوجود الذي يرمز له بالألوان القوية البراقة.

عندما نقيم ونصف الثياب من حران العواميد وحوران، نلاحظ معالجة التجعدات والدرزات عند الأكمام، والحواشي وخطوط الرقبة، والقبة العالية الضيقة. تعالج الحواشي من الأعمال الترقيعية الملونة بعناية فائقة. وهي تحاك وتطرز، بشكل رائع وبدقة، بالخيوط الحمراء والصفراء والبيضاء والسوداء والخضراء فوق أرضية من القماش الأسود، أو الأزرق أو الأحمر، الذي صنع بمهارة ليلائم هذا النموذج.

تتعلم الفتيات التطريز من أمهاتهن وعماتهن وجداتهن وصديقات المدرسة ويتعلمن منهن أيضاً كيف يصممن نماذج جميلة.

يعتبر التطريز في سوريا، والأردن اليوم، من أعمال النساء ويتم إنجازه ضمن العائلة. تعمل النساء والفتيات وفق احتياجاتهن الخاصة ويبعن جزءاً من أعمالهم في السوق.

تقوم النساء بخياطة وتطريز وتطبيق المعاطف والأثواب والسراويل والملابس والحقائب وغيرها، ليتم تخزينها في صناديق كبيرة من أجل الزفاف. تتلقى العروس مهرها: مجموعات عديدة من الملابس ومن الاكسسوارات (حقائب، ثياب، أحزمة) مشغولة بالبلانجي أو بالمطرزات الجميلة.

تعمل المطرزة، عادة، وهي جالسة على الأرض، وتصنع النسيج أو الثوب الذي تريد تطريزه فوق ركبتها اليسرى ويمكن أن تربطه مع ثوبها بدبوس.

خلافـاً عن النساء الأخريات اللواتي سألناهن، مثل نساء من السفيرة أو الشونـة، لا تستعمل النساء المطرزات في سراقب إطار تطريز ولا قماشاً ناعماً خاصاً بالتطريز، مرسماً من الستانلس أو كابلات وصنارات وليس لديهن أي رسوم نموذجية، بل إنهن يعملن بالعين المجردة. (انظر صورة امرأة من سراقب، الصفحة ١٨٥).

تتـم عملية التطريز كما تمارسها النساء في سراقب على الشكل التالي:

أولاً، تستخـدم المطرزة خيوطـاً ذات ألوان فاتحة لرسم النمـوذج على القماش بقطب كبـيرة طويلة. ثم تطرز حدود التفاصيـل ضمـن الخطـوط بخيـط أبيض مقابـل الأرضية السـوداء للباس. إذاً يتم تطريز نـواتج النماذج الناشئة أولاً بخيوط أفتح تدريجياً: أولاً، بني مائل نحو الحمرة، ثم أحمر، أخضر، أرجواني، برتقالي، زهري وأصفر وأخيراً أبيض.

تكمـن فائدة هـذه العمليـة بـأن المناطق الأفتـح وخاصة الأجـزاء البيضاء مـن النموذج المطرز لا يتسـخ أثناء مراحل التطريـز التي تستغرق عادة وقتاً طويلاً جـداً. تمتلك النساء إحساساً غريباً ومدهشاً من التوازن. فباستخدامهن خبرتهن وأذواقهـن، يكـن قـادرات على إخـراج النمـوذج المرسوم في مخيلتهن، وتنفيذه وجمع كل التفاصيل في كلٍّ موحد منسجم.

يستند اختيار المواد للتطريز بشكل أساسي على وجهات نظر جماليـة تتعلق بالأثر المراد منـه من هذا التطريز، ولكن حركات المطـرزة السحرية وكذلك وضعهـا الاجتماعي له تأثير هام على ذلك، ويعتبر الحرير، على سبيل المثال، مادة نبيلة عريقة ويرتبط بالثراء والمقام الاجتماعـي، وإذا كان للتطريز دور التعويذة فإن اللون والشكل والمادة تكون عوامل مهمة لذلك.

يتوقف عدد الأعمال المطرزة والأبليك التي تقوم بها النساء علـى مـا إذا كانت تنتمي لعائلة فقيرة أم غنيـة. ترغم النساء الأفقر عادة على القيام بتزيين عدة أشياء مطلوبة للمناسبات الاحتفالية مثل الملابس والأغطية وأقمشة الوسائد والحقائب بتطريزات جميلة ونماذج مـن أعمال الأبليك، أو لتركيب عدة قطع من القماش في عمل ترقيعي ملون من بقايا مواد مرتبطة مـع التطريـز من أجـل متطلباتهن مـن الهيبة والجمـال. أما النسـاء في المدن من جهة أخـرى، فإنهن، يتعاملن مع التطريز على أنه تسلية أكثر من كونه فائدة مالية.

طـورت النساء عبر القـرون فناً هاماً للتطريـز باستخدام زينـة تقليديـة جزئيـاً، والتي، رغـم تقيدها في حـوالي ١٠.١٥ نموذجاً أساسياً، إلا أنها فتحت مجالات واسعة من التنوعات.

وجدت النساء نماذجاً وأشكالاً لمطرزاتهن في القماش المقصب والدامسكـو المنسوج، وفي النسيج المنبسـط للبدو وفي الحفر على الخشب (الصناديق والخزن) في بسط اللباد، وفي الموزييك، وإلى حـد مـا في الحلي الفضيـة والسيراميك. تمثل النمـاذج شجرات الحياة وسعفات النخيل وأشجار السرو والأواني والرمان والطيور وحيوانات أخـرى والجبال والمثلثات والمربعات والمعينات والأشكال الوردية وغيرها.. ربما تكون هذه النماذج تقليدية أو رسوماً وجدت عن طريق الأفراد أو تقليداً لنماذج مأخوذة من أوروبا.

يمكن رؤية تأثـير أوروبا وآسيا والبلقـان والفرس على أسلوب وتقنية وزينة مطرزات عرب الشمال الخاصة في عدة مطرزات من القـرن الماضي وبشكل متزايد في القرن الحـالي. ( ) وعلى الرغم من أن وسـط آسيا (الوسطى، التركمـان وأوزبكستان) أثرت على تقنيات التطريز ونماذج التصنيع في أعمال الأبليك، التي تمت منذ قرون مضت فهي ما تزال تعتبر ذات قيمة في النسيج السوري (مثل معاطف سكان جبل العرب والتطريز على سراويل النساء).

تقنيات التطريز:

تعـرف النساء في سوريا، مثل غيرهن مـن المناطق الشمالية من شبه الجزيـرة العربية، عدة تقنيات للتطريز، البسيطة منها والمعقـدة، والتـي تسود وتستخـدم في أعمالهـن. لا ترتبط تقنية التطريـز فقط مـع منطقة توزيعهـا، ولكن أيضاً مـع شكل المنتج المعنـي بالاستخـدام، والوقت الـلازم لصنعه. وتتحـدد تقنيات التطريز التي تستخدمها النساء والتصميم والترتيب للنماذج إلى حد ما، ببنية النسيج وقصة الثوب. وتسمح هذه فقط باستخدام أشكال معينة النموذج، وهذا هو الحال أيضاً مع النسيج والخياطة وحياكة الصـوف والكروشيه. تقرر مهارة وفـن المرأة في النهاية قيمـة المنتـج النهائي، ولكن ذلك لا يعنـي أن ننسى فائدة كل من نوعيـة المواد (النسيـج والخيط والصنارة والخـرزات) والأدوات المستخدمة (الإبر، الكابلات، إبر الحياكة والنول).

تكـون خيطـان التطريـز عـادة من الحريـر ونـادراً ما تستخـدم الخيـوط القطنيـة، وفي بعضـ الأحيـان تستخدم خيطـان الصوف. تباع الخيوط القطنيـة الفائقة الجودة في الشـرق الأدنى منـذ عام ١٩٣٠ بواسطـة الشركة الفرنسية: دولغوس ومايك وساي (D.M.C).

تعتبر القطبـة المتصالبـة الرائعة من أكـثر النماذج استخداماً من بين باقي القطب المستعملة في التطريز وهي: القطبة الصغيرة، القطبـة الدارجة، قطبة العـروة، قطبة السلسـال، وقطبة الساتين والتطريـز التنسيلـي المستـوي والمائل والمبسط أو العـادي، اللفقة القطبـة المقلوبة، قطبة عظم السمكة، قطبـة الريشة، قطبة سمك السردين، قطبة العين الصغيرة، قطبة الخياطة الزائدة، وغيرها.

تعود القطـب المتصالبة إلى النمـوذج ذي البعدين من القطبة المشكلـة مـن الخيـوط المتصالبـة. تستخـدم في مطـرزات الشونة وسراقب وخان شيخـون وقلعة سمعان والضمير، القطبة المتصالبة المائلـة المشغولة في عملية واحدة. وهي تطـرز أيضاً من اليمين إلى اليسـار. وعلى العكس، تظهر من الخلـف على شكل خط أفقي غير منكسـر. كانت هذه القطبة المتصالبـة الرائعة تطرزها النساء، مع أو دون قماش طـري، على الحرير الممزوج مـع الساتان أو القطن، وكذلك على قطع الكنفا المنسوجة من القطن، مشكلة حدوداً دارجة وهي كباقي النماذج السائدة، تنفذ بشكل رئيسي بالخيط الأحمر.







٤١٣-٤١٩. ملابس نسائية من بيت تيما (الجولان) تمت خياطة الأثواب من الحرير الاصطناعي أو القطني أو المخمل. عرفت الأثواب ذات الخصر المزموم بقصتها على أنها أثواب أوروبية حديثة، وهي ما تزال تختلف عن الأثواب التقليدية. تم تزيين الجواكيت المرافقة القصيرة المصنوعة من المخمل أو القطن بالمطرزات. أما في البطانة فكان يفضل استخدام المواد ذات الألوان المتغايرة بشدة.

٤١٤ و٤١٥. الأثواب في الأعلى (من اليسار ومن الوسط) أحضرت من القلمون. وهي تشبه من حيث طريقة صنعها تلك الأثواب المعروفة في الجولان.











٤٢٠-٤٢٤. معاطف نسائية من القلمون (تل منين في الأعلى والقطيفة من الأسفل). تتميز معاطف القلمون بتنوعها الواسع من النماذج المختلفة للثياب. وعلى الرغم من أن قصتها تقليدية فإن هذه المعاطف تم صنعها من مواد ومطرزات مختلفة باستخدام تقنيات متنوعة، اعتماداً على ما يفضله القرويون في تلك المناطق.





هناك معطف واحد فقط من الشونة مطرز كلياً بالصوف المختلف الألوان. غالباً ما تستخدم التزينات في كثير من الأحيان على المعاطف والتنانير والسراويل والأثواب من الشونة، على شكل سعفات نخيل، وشجيرات السرو، وأشجار الحياة، والرسوم الزهرية، وأوراق النباتات، والأشكال الهندسية المتنوعة (تستخدم الأخيرة كتعويذات).

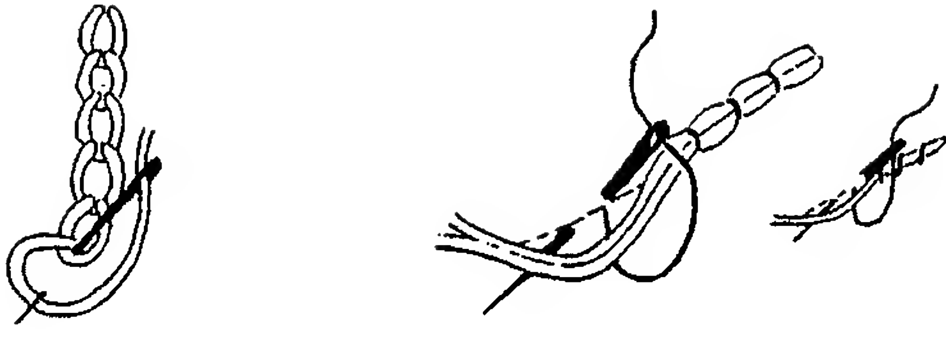
تطرز الملابس من خان شيخون والشونة على الحواشي بالقطبة المقلوبة وجزئياً مع جهتين مزدوجتين منغلقتين بقطبة عظم سمك السردين. تشكل القطبة المقلوبة نماذج مخططة، شريط قطبة عظم سمك السردين، التي تغطي خط الدرزة كلياً. تزين حواشي أغلب الثياب في كلا الجانبين بقطب عظم سمك السردين المستقيمة والمائلة جزئياً في قطب متدرجة رائعة، وتظهر القطبة التنسلية بالشكل ذاته من الأمام والخلف، وهي تطرز كنموذج مفرغ. أما القطبة المتدرجة، المسترة، كقطبة الزيك زاك الرائعة الصافية، فتظهر عند طية صدر السترة على شكل خط أفقي غير منكسر، وتستخدم في الزينة التفريغية، والنماذج السطحية، والقطب المطموسة.

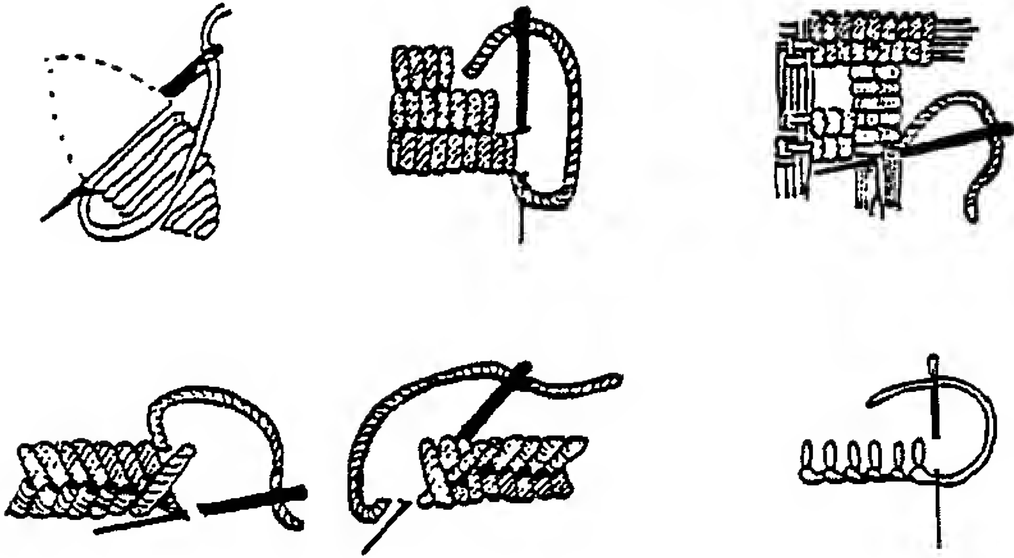
تصنع بعض مطرزات الثياب من خان شيخون وسراقب آلياً بطريقة جيدة. كما تزين الحواشي كلها وتدعم بقطبة سمك السردين الآلية. وقد تم تطريز كل المواد المذكورة أعلاه من الثياب برسوم زخرفية هندسية مزهرة على الصدر والظهر والأكتاف والأكمام وعلى الشقات الجانبية والحواشي.

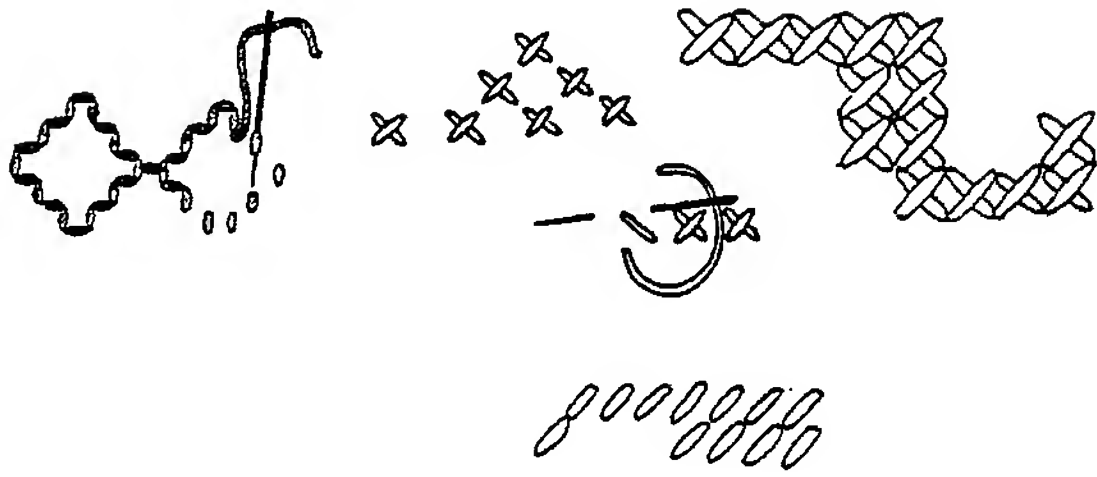
هناك صنف آخر من تقنيات التطريز المتنوعة جداً وهي أثواب حوران وحران العواميد. تزين الأثواب الأكثر جمالاً من هذه الملابس الاحتفالية بشرائط قطنية ذات ألوان متعددة (أحمر قاتم، أزرق باهت وقاتم) بتقنية الأعمال الترقيعية، مع كل الحواشي والياقات العالية الصغيرة، وفتحات الرقبة، والأجزاء الجانبية، والحواشي كلها مطرزة بعناية فائقة وألوان جزئية.

تكون القطب، التي تظهر في أغلب الأحيان، هنا القطب المتدرجة: قطبة النقطة الصغيرة وقطبة عظم سمك السردين، وعظم السمك المغلق، وقطبة السلسال والريشة والقطبة المتصالبة والسطحة. يتم التطريز بواسطة قطبة النقطة الصغيرة فوق الخيوط المتصالبة فقط والتي يمكن أن تشكل نماذج مخططة، حدوداً وأسطحة. قطبة السلسال، هي إحدى أكثر الأشكال قدماً للتطريز، وهي تتم بالإبرة أو بخلاب أو ملقط الكروكيه. تدخل الإبرة في القماش من الأسفل في المكان المطلوب، توضع عقدة من الخيط من اليسار إلى اليمين وتغرز في النقطة التي يثقب بها القماش، بحيث يوضع الخيط المشغول تحت نقطة الإبرة، بعدها يسحب الخيط من خلالها. ومع تكرار العملية يتشكل السلسال راسماً خطاً مستمراً على ثنية الصدر. أما قطبة الريشة فهي نوع من القطب نصف المعقودة. وكلاهما يمكن استخدامه لتطريز الحواف والنماذج المسطحة.

تستخدم قطبة الساتين المسطحة غالباً للتزيينات المزهرة والحرة الانساق. تظهر قطب التطريز واللفقة في عدة مناطق في سوريا، وكذلك في مناطق متعددة من آسيا.







٤٢٥. قطب تطريز (من اليسار إلى اليمين): قطبة السلسال، قطبة التطريز، قطبة الساتين، عمل مرسوم بقطبة عظم السمك، قطبة عظم سمك السردين، قطبة العروة، قطبة مكنة، قطبة متصالبة وقطبة نصف متصالبة. تستخدم المطرزات كل هذه القطب بمهارة لتجسيد أفكارهن عبر الخيوط والأقمشة. تثبت الأثواب ذات الأكمام المجنحة المطرزة وتفاصيل الموديل، الموضحة في الصفحة المقابلة (٤٢٦، ٤٢٩) وبشكل مؤكد، مهارة النساء الفنية التي قامت بتطريزها (صفحة ١٧٧) في القطيفة.

تشبه قطبة اللفقة قطبة التطريز إلى حد بعيد، ولتشكيل نموذج من هذه القطب، تؤخذ المطرزة الطول المطلوب للخيط (الشريط التزييني المجدول) ويكون غالباً من لون مغاير للون القماش، أو خيطاً فضيّ أو ذهبياً، ويعلقه بواسطة قطب صغيرة تجري عبر الخيط. تأتي المعاطف والجواكيت وبعض الأثواب المزينة بهذا الأسلوب من القلمون وحوران. وتتألف التزيينات في هذه الثياب من نماذج زاهية الألوان حرة النسياب، على الأكتاف والأكمام وفتحات الرقبة والتنورة، مشكلة أشجاراً نموذجية للحياة، وشجرة السرو، وأواني الزهور، وأشكالاً هندسية صغيرة. تبدو النماذج المطرزة بخيط حريري لامع واللامية الفضي والذهبي بوضوح وفعالية مقابل اللون البني القاتم، والأحمر الناري، أو القماش الأخضر القاتم، ومقابل المادة القطنية السوداء التي تصنع منها المعاطف والجواكيت.



.٤٢٦



.٤٢٧



.٤٢٨



.٤٢٩



.٤٣١



.٤٣٠



.٤٣٣



.٤٣٥



.٤٣٢



٤٣٤.

٤٣٠-٤٣٥. ملابس احتفالية من القلمون. تذكر التقنية ونموذج التطريز بالأشكال المعروفة في تركيا والبلقان، لكن الرسوم المختارة. وهي هنا تعبر عن لمحات للمشكات والمنارة للمصلين. تكون إسلامية. تعلق الأكمام المجنحة على الثوب لجعله مخصصاً للرقص. يمكن رؤية هذا بوضوح خاصة في الثوب الأزرق. على الرغم من أن الأكمام تعيد النموذج إلى الجزء المتوسط الأكبر تباعاً. ومن الشائع إعادة استخدام الأجزاء المطرزة من الثوب البالي، أو القديم، عند خياطة ثوب آخر جديد.







٤٣٦-٤٣٨. حافظات للنقود مزخرفة بالتطريزات الملونة وحقائب للمرايا.

٤٣٩ و٤٤٠.

٤٤١.











٤٤٢-٤٤٤. صداري نسائية قصيرة من القلمون. القطع الأقدم منها مزخرفة بالمطرزات بينما الأمثلة الأكثر حداثة ذات القطب المتصالبة تستخدم بشكل أساسي. لم يتم ارتداؤها فقط مع الأثواب بل مع السراويل أيضاً.

تم تنفيذ مجموعة من الأثواب النسائية ذات الأكمام المجنحة من القطيفة والضمير وتل منين. وطرزت بشكل رائع وغني متقن على الأكمام المجنحة وعند حواشي ودرزات المعطف.

تذكر زينة ونموذج التطريز بالمطرزات الخاصة بالأناضول واليونان وأوروبا وترتبط بعض من هذه النماذج فقط بالطراز الإسلامي في الشرق مثل: «سجادة المصلي» والمؤذن وأواني الزهر وأشجار الحياة. إن قصة أعمال الأبليك التي نراها في معاطف الموحدين، تكون رابطاً بين الموحدين وتلك الفرق العرقية التي تعيش في سوريا والتي كان منشأها من آسيا الوسطى، مثل التركمان وأوزبكستان.

نجد نموذجاً نادراً من الزينة على معاطف النساء من كفر تخاريم في الشمال الغربي من سوريا. يزخرف طرفا الجاكيت بنماذج مثلثية كبيرة من الخارج ومن الداخل. تم تطريز الزخرفة في الخارج بقطبة العروة بالحرير الملون الزاهي، بينما تعلق القطب عند ثنية الصدر بنموذج أعمال الأبليك نحو الداخل. وهكذا تكون المطرزات والمثلثات والمربعات وأعمال الأبليك صورة عاكسة لكل منها. ومرتبة في تكرار رباعي لنماذج المركزة بشكل متناسق يشبه قرون الكبوش.

٤٤٥-٤٤٧. صداري رجالية. شاع ارتداؤه سابقاً في كل من المدينة والبلدة. تعتبر الصداري ذات الجوانب الضيقة كالتي تم صنعها من نسخ الكشمير الحلبي شائعة الاستعمال. تم صنع نموذج الصداري ذات الجوانب الضيقة (من أسفل اليمين) على الطراز التقليدي للبلقان.







.٤٤٩



.٤٤٨



.٤٥١



.٤٥٠



.٤٥٢

٤٤٨-٤٥٢. أثواب احتفالية من الشونة مصنوعة من الحرير الأسود الساتين، مطرزة بخيط حريري أحمر. يبدو أن نموذج القطبة المتصالبة المكثفة التي تسود رسوم شجر السرو والنخيل هي انعكاس آني للمحيط الطبيعي للنساء في واحة الشونة. يتم عمل هذا التقليد اليوم مع رموزه الفردية من قبل نساء السفيرة (اللواتي يستخدمن قماش ناعم للتطريز)، وهناك روابط زواج كثيرة بين السفيرة والشونة.



تقوم النساء بعمل النماذج الحمراء والصفراء الزهرية والخضراء والبرتقالية والزرقاء اللون من المطرزات ومواد الأبليك فوق قماش قطني ساتين أسود لعمل معطف.. وهذه الألوان تتناسق مع بعضها بشكل مبدع ومؤثر وفعال. حيث يندمج اللون الأسود للأرضية بشكل متناغم في التركيب العام. لقد تمت زخرفة المعطفين الأخيرين من مجموعة متحف لندن بطريقة مماثلة. تبين على أحدهما تزيينات النموذج نفسه في الأعلى المنفذ بواسطة القطبة المقلوبة بخيط حريري زاهي الألوان. تبين التطريزات على المعطف الثالث نوعاً نادراً جداً من التطريز الخاص وشديد الروعة والذي يكون على شكل فروع فوق الخيط المعقود ويعطي النموذج الكامل سطحاً براقاً. أما الرسوم الأخاذة لهذه المطرزات فهي الصليب المعقوف الذي يعني احتمال جلب الحظ الجيد والحماية.

تصنع مقالب أكمام المعاطف، الموصوفة أعلاه، من مواد رائعة مثل الأطلس الحريري المقصب، والأطلس الحريري المضلع ومزيج الحرير المنسوج وهي مطرزة بالخيوط الحريرية الزاهية الألوان وبقطب متصالبة رائعة مثل قطبة عظم السمك وقطبة العروة.

تمثل الملافع (الوشاحات) النسائية في بعلبك (لبنان) شيئاً غير عادي في زخرفة النسيج. لقد صنعت من التول أو الحرير الطبيعي بلونه الأساسي أو مصبوغاً باللون الأسود ومزخرفة بخيوط مغزولة، مرنة وفضية بترتيب هندسي ونماذج جميلة مزهرة. يتم ضرب خيوط الغزل المرنة الحريرية الرقيقة على شكل خلايا العسل والمعين مع طرقة خفيفة لتشكل النموذج. يجري ضغط قطعة صغيرة من خيوط الغزل المرنة (٩.٦ملم) بين خليتين بشكل مائل قطري عبر الزاوية، ثم تغطى وتثبت. ثم يتم طرق كل القطع التالية من خيوط الغزل المرنة الفضية بشكل أفقي وعمودي أو قطري فوق خلية أو خليتين أو أكثر لإضفاء شكل أكثر إبداعاً للنموذج. وهذا العمل يمكن أن يقوم به رجل.

٤٥٣-٤٥٥. يمكن رؤية مميزات الرسومات للشونة على هذه المعاطف وبوضوح: النخيل، شجر السرو، شجرات الحياة، ومثلثات التعويذات. يعتبر النبات في الصحراء رمزاً للحياة ويبدو أن النساء قد أبدعن حدائق خاصة بهن بواسطة الخيط والإبرة. كما يبدو أن التمسك بالحياة مسألة على غاية من الأهمية، في حال تمكنا من تفسير تعويذاتهم المطرزة بتلك الطريقة.









٤٥٦-٤٥٩. نوع آخر من المطرزات توضحه أثواب من سراقب وخان شيخون ومعرة النعمان. تتميز أثواب سراقب بمساحة واسعة من التطريز بالأحمر فوق القماش القطني الأسود والدرزات الرائعة المشغولة عليها. تكون الرسومات هندسية شبيهة بأشكال حلي البدو. تطرز المرأة الظاهرة في الصورة وهي من سراقب بدون استخدام قطعة أشغال جاهزة وتبدع النموذج الموجود لديها في عقلها على الثوب بثقة كبيرة. إنها تطرز ليس فقط من أجل الاستعمال الشخصي بل للبيع أيضاً.











٤٦٠-٤٦٤. الثوب في أعلى اليسار من معرة النعمان. والأثواب الأخرى من خان شيخون وهي تشبه تلك الأثواب الموجودة في سراقب وخاصة من ناحية الصدر والأكتاف والأطراف الجانبية. لكنها تختلف عنها في اختيار الألوان وتطريزات الظهر وكلاهما نماذج مدنية لمدينتيهما. يمكن أن تمثل تلك الاختلافات هوية محلية ضمن نطاق إقليمي أوسع.









٤٦٥-٤٦٦. تفاصيل عن ثوب خان شيخون. تكون قطبة التطريز المتصالبة للصدر والأكتاف محشوة بالعادة. تغيب هنا الأشكال الهندسية الدقيقة بحضور الأشكال البشرية والكلب الصغير. تشكّل المطرزات فوق الكتف مثلث تعويذة مع قلائد متدلية تستطيل ضمن شجرة حياة نموذجية تنزل إلى أسفل الأكمام.



٤٦٧.



٤٦٩.



٤٦٨.

٤٦٧-٤٦٩. معطف نسائي من قلعة سمعان. تركز النساء هنا على الصدر، وإلى حد قليل على الأكمام، ويزين بالدرزات. تشد المعاطف بواسطة الأزرار أو الأربطة. تبدو التطريزات كتومة مقابل الأرضية السوداء وفي بعض الأحيان يكون الوجه الداخلي مزخرفاً بأعمال الأبليك من الأطلس الحريري المغاير وهو ما قد يجلب الانتباه إلى مشية المرأة التي ترتديه.



٤٧٠.

٤٧٠-٤٧٢. معاطف نسائية من قلعة سمعان، ما عدا المطرزات من الجهة الأمامية لها وللأكمام، يزخرف المعطف بأعمال الأبليك الملون من الوجه. تم نسج الساتان الحرير المستخدم للأبليك في حلب. وأجزاؤه هي رسومات شجرة نموذجية، شجرة السرو والصنوبر تستوحي النساء في قلعة سمعان، مثل نظيراتها في خان شيخون يأتي إلهامهن لصنع هذه النماذج من محيطهن.



٤٧١.



٤٧٢.





٤٧٣-٤٧٥. معاطف نسائية من ضواحي كفر تخاريم. تختلف هذه المعاطف في قصتها عن سابقاتها، حيث تكون تنورتها أوسع بشكل واضح. تركز زخرفة المعاطف على الفتحة العلوية وعلى القطع الأمامية المقابلة. يتم تغطية السطح الكامل لزاوية كل من القطعتين الأماميتين بالتطريز. تبدو المهارة الفنية واضحة في المعطف من الجهة العلوية اليسارية، حيث يحاكي النموذج المطرز من الخارج أعمال الأبليك الداخلية.







في النتيجة يجب علينا ذكر الأثواب الحديثة للنساء الشابات والفتيات من الجولان. صنعت هذه الثواب من الأطلس الحريري الصناعي ذي الألوان الزاهية مع نماذج دامسكو، والفيسكوس وقطن الساتين الأسود والمخمل البنفسجي أو الأرجواني المزخرفة بالترقيعات وأعمال الأبليك بألوان متنوعة وجدائل وأربطة مصنعة، تمت خياطتها بالآلة.



٤٧٦-٤٧٨. معاطف نسائية من محردة. استخدمت هنا مبادئ أخرى من التصميم للمعطف: تم التركيز على جانب الثوب من الجهة اليمينية وكذلك الجهة اليسارية من الداخل. طرزت خطوط الدرزات بكثافة وتم التركيز على قصة الثوب. نهايات الأكمام لها نموذج مفتوح منفذ بقطبة الحاشية خصيصاً لهذه المعاطف.





١٨ صناعة الثياب العربية

ماريا زيرنيكل

هيأ العربي مخزوناً ضخماً من ملابسه ومظاهره. تكون الثياب علامة عن مركزه السياسي والاجتماعي في المجتمع. إنها تحدد انتماءه إلى عشيرة، أو قبيلة معينة. وهي ترضي طموحه وحاجاته في إثبات مركزه وهيبته. وهذا يؤكد المثل العربي التالي: «كل على ذوقك، والبس على ذوق الناس».

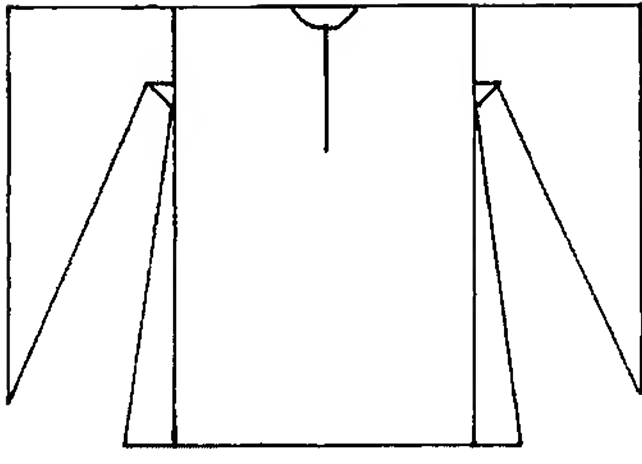
يكون الثوب التقليدي الكامل لسكان سوريا، بدوياً كان أم فلاحاً أم قاطناً في مدينة صغيرة، في الغالب بسيطاً لدرجة ملفتة للنظر، ما عدا تلك الملابس التي ترتديها الفئات ذات الدخل العالي من المدن.

واليوم فقدت الملابس المدنية تنوعها التقليدي تماماً، وكذلك لونها وإشراقها. وذلك بسبب التأثير الأوروبي القوي. فقد حلت الطريقة الأوروبية للثياب مكان الثياب المدنية التقليدية ولكنها أبقت في بعض الحالات الإفرادية على مواد مثل أغطية الرأس للرجال والشال وغطاء الرأس للنساء.

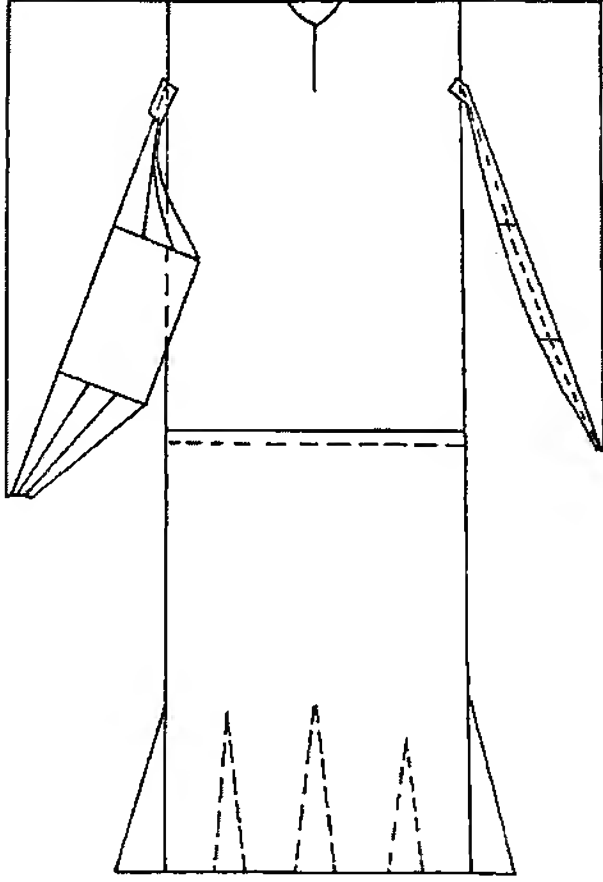
يملك الإنسان في الريف، عادة، عدداً قليلاً من الثياب. ملابس للعمل وملابس للخروج والمناسبات الاحتفالية يتم ارتداؤها بدون أي استثناء في الصيف والشتاء على حد سواء. ولهذا السبب يعلق العرب أهمية كبرى على جودة، ونوعية المادة وعلى ورشة العمل والزخرفة النهائية والتصميم، عند اختيارهم لملابسهم.

تتألف المجموعة التقليدية للملابس الخاصة بالبدو، وأنصاف البدو، وباختلاف بسيط في الشكل عن ملابس الفلاحين، من قميص طويل يرتدونه مع أو دون حزام ومعطف وعباءة وسراويل للفلاحين (نادراً ما يرتدي البدو سراويل) وغطاء رأس مع رباط.. ومؤخراً تم استخدام الحذاء. يعتبر وشاح الرأس جزءاً هاماً من الزي الشعبي العربي، وهو يصنع بالتحديد بواسطة الرجال. تصنع أقمشة أغطية الرأس من كافة الأنواع للرجال والنساء وأربطة الرأس والطرابيش، وفي بعض الأحيان الشالات أيضاً المستخدمة في حجابات النساء والمعاطف النسائية والجواكيت بواسطة حرفيين ذكور. (الغزالون، اللفافون، عمال أقمشة الإيكات، النساجون، الصباغون، الرسامون، والدباغون يساهمون كلهم في إنتاج المواد المذكورة أعلاه.

ونلاحظ أن القصة الشرقية التقليدية للملابس تغيرت ببطء عبر القرون.



يتألف الزي القديم للسكان المدنيين، كما علمنا من الأمثلة الموجـودة وتوصيفاتها من أثـواب طويلة ذات قصة عريضة. بقيـت هذه الألبسة دون تغيير عبر العصور في الشرق الأدنى وأصبحـت واسعة الانتشار خلال العصر الإسلامي. من أهم مظاهرها «الأكمام المجنحة» والقصة المستوية.



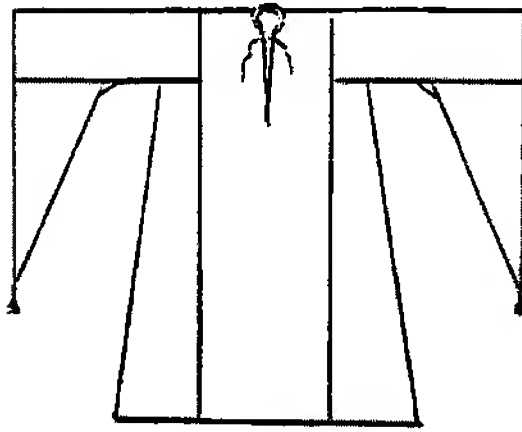
كان لأغلب قطع الملابس من المجموعة السورية في متحف ليندن، قصة شرقية تقليدية. وتعتبر ثياب العرس المدنية من جهـة أخرى وثيـاب النساء من الموحديـن والملابس الحديثة للنســاء الشابات والفتيات في الجولان مـن الطراز الأوروبي في قصتها وخياطتها.

إن الفـروق الأساسيـة بـين القصة الشرقيـة والأوروبية هي:

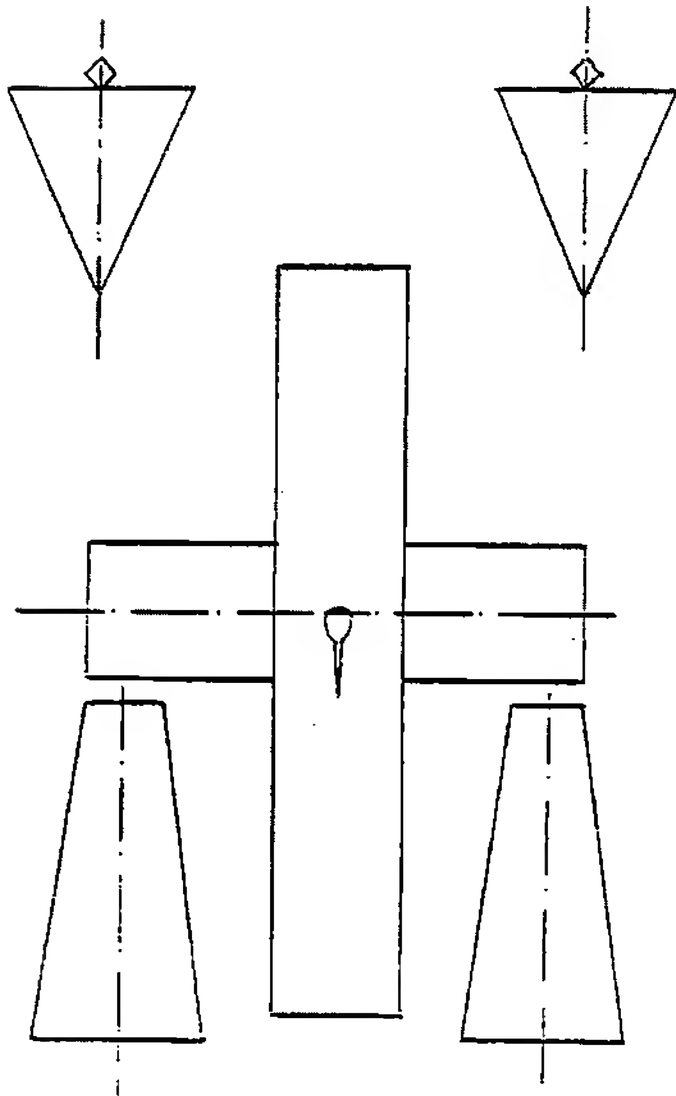
١. تقاسـ قطعـة القماش بمقـدار ضعف طـول الثوب: تطـوى ويعمـل لها قصـة مفتوحـة عنـد الرقبة من الجـزء الأمامي (بالنسبة للمعطف تبقى قصة القبة المفتوحة طولياً إلى أسفل الثوب).

٢. ليس هناك حفرة للإبط وتتم خياطة الأكمام مباشرة على حافـة قطعة الثوب عند الكتـف. ولتجنب الشد والتمزقـات، تدخـل وصـلات قماشية عنـد تقويرة الذراع على شكل مثلث أو مربع أو خماسية الشكل.

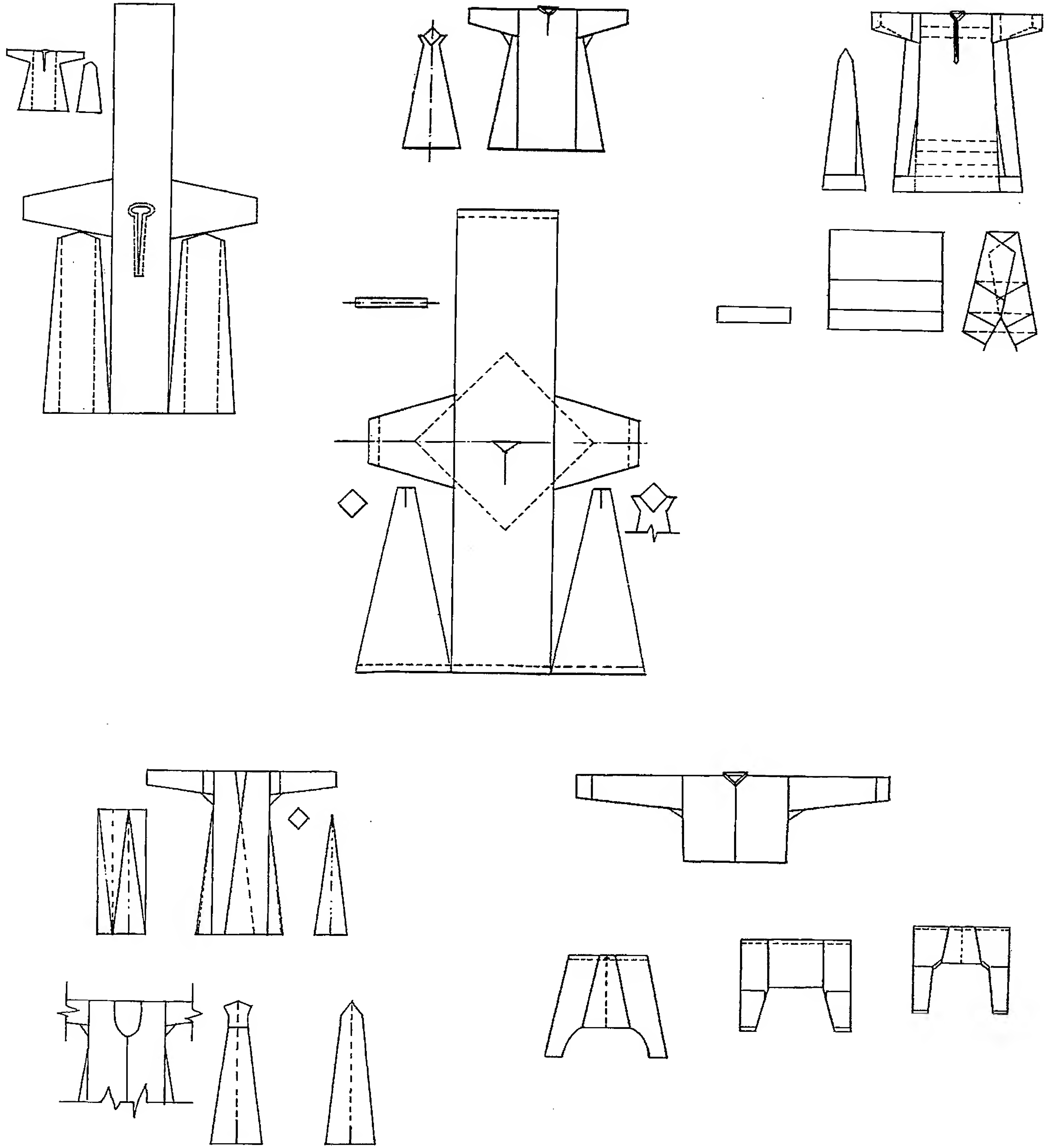
٣. يتم إدخـال قطع جانبية بقصات متعـددة، تبدأ عند الوصـلات القماشية الإبطية. من أجل إعطاء الثوب العرض الضروري لسهولة المشي.



٤. ليسـ هناك قبات صينية للأثـواب، وإن وجدت تكون ضيقـة. كما تكون الأكمام بـلا مقالب ولكن غالباً ما تكون لها شقة أطول أو أقصر من الأمام بحيث يمكن قلبها إلى الخلف. تحتوي قصـات القماش الجانبية فوق المعطف عادة إما شقات قصيرة من أجل المشي أو (في حالة المعاطف النسائية البدوية) شقات عالية جـداً. تكون أجزاء الذيل الأماميـة للمعاطف واسعة في الجزء الأسفل من حواف الثوب.



تلعب النساء من مختلف المناطق في سوريا دوراً متميزاً في صناعة الملابس التقليدية اليومية وتلك الخاصة بالمناسبات. إنهـن يتلقين عـادة الأنسجـة المصنوعـة في المدينة (حلب أو دمشـق أو حمـاه أو حمصـ) بواسطـة الرجـال، أو ربما يتم استيرادها (الحريـر والحرير المختلـط أو الممزوج والحرير الصناعي أو القطن) ويشتغلون فيها في منازلهن وفي خيامهن لإدراجهـا في ملابسهـن. إنهن يقصّن القماشـ ويخطنه مع بعض (غالبـاً ما تتـم العملية بـدون مساعدة آلـة الخياطة) ويزينون الدرزات بمهارة بقطب مزخرفة ويغطونها بالمطرزات وأعمال الأبليك والبلانجي والترقيعات الملونة وغيرها.



٤٧٩. قصات ملابس بدوية. في الأعلى: ملابس الرجال. في الأسفل: ملابس نسائية كبيرة (شمال الجزيرة العربية). تكون الأكمام في الملابس الرجالية والنسائية خاصة ممتدة وتبدأ مباشرة عند الأكتاف.

٤٨٠. قصات أثواب بأكمام مجنحة معلقة. تكون الأكمام هنا مزخرفة بشكل كامل.

٤٨١-٤٨٣. قصة أساسية وتنوعات من الثوب النسائي التقليدي المعروف في سوريا. صنعت الأثواب الريفية المعروضة في هذا الدليل في مناطق مختلفة من سوريا وفق القصات التي نناقشها هنا.

٤٨٤. قصة أساسية وتنوع المعطف التقليدي. تختلف المعاطف الرجالية والنسائية فقط في عرض القطع الجانبية وطول الشقات وكذلك في شكل فتحة خط الرقبة.

٤٨٥. قصة الجاكيت الأساسية هي نفسها الموجودة في المعطف القصير. تتم خياطة السراويل التقليدية العريضة للرجال وكذلك للنساء وفق واحدة من تلك القصات الثلاثة.

الصباغة ومعالجة الأصبغة

كانت المدن السورية، حلب ودمشق وحماه وحمص مشهورة بصناعة الإيكات والأقمشة المطبوعة (البانيك والقماش المعالج بالصباغة والقماش المطبوع بالستبنسل والبلانجي) وكذلك بأصبغتهم.

وكان هناك في حلب، تحديداً، عدد كبير من ورشات الصباغة التي كانت تعمل بشكل جيد. قام الصناعيون بالصباغة بالنيلة وبالألوان المتعددة وكذلك صباغة خيوط الإيكات وطباعة الخام (الباتيك) وعمليات أخرى.

وقد أسس صابغو النيلة النسبة الأكبر من تلك العمليات. وكان هناك أيضاً حوالي ٦٠ ورشة عمل من هذا النوع في حلب قبل الحرب العالمية الأولى (ج. دالمان، ١٩٣٧) اثنتان أو ثلاثة منها فقط ما تزال تعمل حتى الآن. يقوم الرجال كبار السن اليوم بعملية الصباغة ولا يهتم أحد من الشباب بمتابعة هذه المهنة.

استخدمت في الماضي أصبغة طبيعية لصبغ الخيط بأعداد كبيرة في شلات الخيوط والأقمشة المتنوعة بالمتر. لكن اليوم، تتم خياطة وصباغة الملابس فقط، ميل السراويل التي يرتديها الفلاحون والوشاحات (الشمبر) والأثواب (توب عبله) التي تلفها المرأة على أشكال البلانجي، والتي كلفهم الفلاحون وأنصاف البدو من القرى المحيطة بصنعها. ما يزال هناك عدد قليل من الصباغين باللون الأسود (حلب، حمص ودمشق) مثل صابغي النيلة، ونادراً ما يعمل الصباغون اليوم بأصبغة طبيعية، مفضلين عليها أصبغة صناعية أرخص باعتبارها أسهل في التداول.

يصعب إيجاد طابعي الخام في هذه الأيام (الباتيك، الصبغة المعالجة بالشمع) حيث استبدلت بالمعامل المنتجة للأقمشة المطبوعة. وقد تأقلم الصباغون مع الوضع الجديد بشكل أفضل. يمكننا إيجاد البعض منهم في عدد من ورشات العمل حتى يومنا هذا.

وما زال بإمكاننا أيضاً إيجاد التقنيات التالية من بين العديد من الأصبغة المعالجة والتي استخدمت في سوريا ومدنها عام ١٩٩٠:

١. الصباغ المعالج (اللايم)

٢. الإيكات

٣. البلانجي

٤. القماش المطبوع الستبنسل أو الرقيق الشفاف.

صباغة الأربطة (البلانجي):

تأتي ثياب، وشالات النسوة ذات النموذج البلانجي، الموجودة ضمن مجموعتنا من حماة وحمص ودمشق (تل منين). وقد تم الحصول عليها بعد عام ١٩٧٠. وقد ارتدت النساء أغلبها لمرات قليلة، وربما لم يلبسنها أبداً. فهناك اثنان منها لم يتم حتى فتح القبة (قصتها) وخطوطها، وهذا يعني أن المرأة قد صبغتها لتخزنها من أجل جهازها أو لتبيعها وليس للاستخدام.

تخاط الأثواب والمناديل يدوياً من قطع قماشية منسوجة يدوياً ضيقة (٣٠-٦٠سم) ما عدا ثلاثة أثواب صنعت آلياً من القطن. وتنسج الأقمشة القطنية والحريرية المخططة بالغزل اليدوي، من المشاقة الحريرية أو خيوط الغزل القطنية المنسوجة على شكل جديلة رخوة.

قامت النساء بصبغ الأربطة مع، أو بدون، إدخالات. وفي تشرين الأول من عام ١٩٩٠ أمكن ملاحظة هذه التقنية في حماه:

تعقد المرأة الأجزاء المتفردة للقماش إلى الموديل الذي اخترعته بنفسها مشكلة حزماً أو عناقيد صغيرة مرفوعة تماماً، أو بشكل جزئي، عن السطح بحيث تظهر فوق القماش مثل كريات صغيرة (انظر الصورة). ثم تبدأ بعقد الحواشي للثوب الاحتفالي (الأصفر) ذي الأكمام المجنحة من مشاقة الحرير المعقود. تمسك المرأة الجزء لتعقده بأسنانها وتربط بأناقة خيطاً قطنياً حوله. وفي اللحظة التالية تربط الثانية ومن ثم الكرة الثالثة.. تنفذ العقد في هذه الطريقة بدون الإدخال. تتم حماية هذه المناطق من الصباغة أثناء العقد التالية (بالأحمر مثلاً) ويمكن أن تظهر أيضاً في النموذج على شكل طيات صغيرة.

ليس هناك تنوع كبير لشكل، وطريقة لف، الأجزاء المنعقدة، لكن يمكن للنساء صنعها بمقاسات متعددة واستخدامها لإبداع زخرفات معقدة. هناك أدلة على أن نماذج صباغة العقد استخدمت في سوريا، وربما في المناطق الأخرى من الشرق الأدنى، في القرن الخامس والقرن السادس وربما في زمن أبكر من ذلك.

تمكن تقنية الأبليك النساء من إبداع صورة أحادية اللون وكذلك نماذج متعددة من الألوان. وبالنسبة للأخيرة يجب أن يتكرر تنفيذ العقد عدة مرات أو بطريقة معينة وعدد متماثل من العقد المصبوغة، كما يمكن استخدام عدد من الوسائل المختلفة لإبداع نموذج البلانجي ومن بينها: طي الأقمشة بالطول (الأكمام، الأمام والظهر والقطع الجانبية من الثوب) ومن ثم عقد الطبقات مع بعضها (من النادر أن يتم طي القماش أكثر من مرة، حيث يتم ذلك فقط بالنسبة للنماذج الكبيرة). تكون النماذج المربوطة مع طبقتين من القماش متناسقة مع نفس النموذج. وكذلك الأخطاء نفسها في الربط أو الصبغ. المتكررة يميناً ويساراً. عندما ينزع الخيط المعقود، يظهر أحد الجوانب كريات صغيرة مرتفعة، بينما يكون للآخر انخفاضات صغيرة.

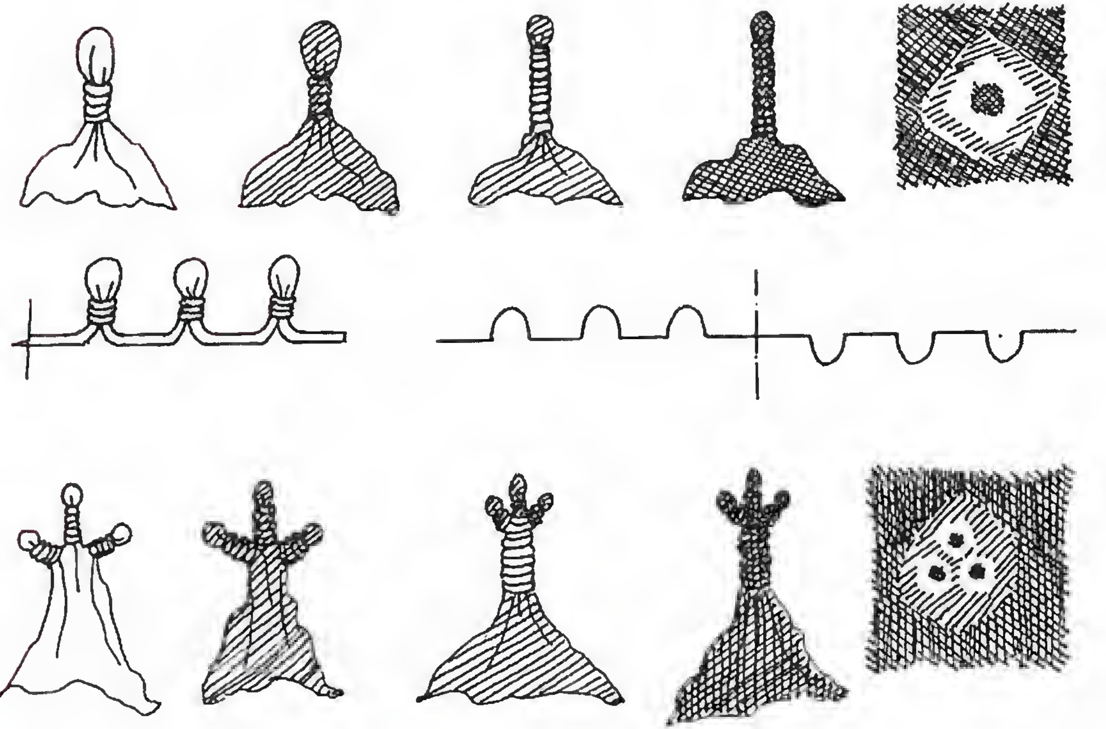
في الطريقة الثانية، لا يتم طي أجزاء القماش أو الثوب قبل الصباغة، حيث أن الثوب يكون قد تمت خياطته عندما تبدأ النساء بعمل البلانجي. لكن يمكن تحقيق نوع من التجانس (عند الرغبة) بتكرار العوامل ذاتها من النموذج في الترتيب نفسه على طول المحور المركزي.



يمكـن أن يتم تنفيـذ تعاقـب العقد (البيضـاء والصفراء والحمراء) بآن واحد، إذا أردنا ترك الثوب أو النسيج أبيض أو بلونه الطبيعي. نعقـد أولاً العقد ذات اللون الأبيض ثم الأصفر ثـم الأحمر فوق الاثنـين السابقين ثم يتم صبـغ القطعة كاملة بالنيلـة. ثم نحل المواقع المـراد صبغها باللون الأحمر ونصبغها بالأحمر. ثم نحل المواقع المراد صبغها باللون الأصفر ونصبغها بالأصفـر وأخيراً نحل المناطق من أجل النموذج الأبيض. ينشأ عن هذه العملية نموذج متعدد الألوان زاه فوق أرضية قاتمة. أما الطريقة الثانية فلها ترتيب مختلف: تعقّد المناطق المراد تركها بـدون صباغة أولاً ومن ثم يصبغ القماش باللون الأحمر (اللون الأعلـى). وما يـراد تركه أحمـر اللون تتم تغطيتـه بعد ذلك، وتصبغ قطعة القماش بلون قاتم وأخيراً تنزع كل العقد.

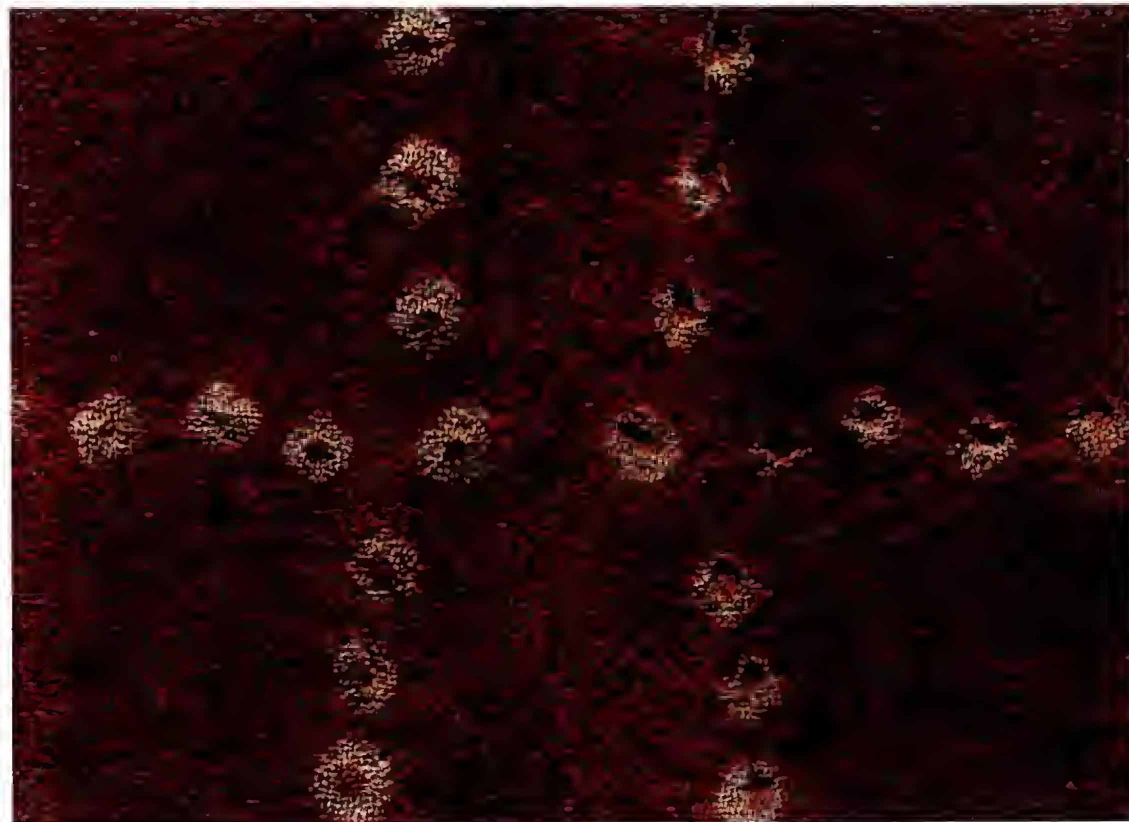
تتألف الزينة من أشـكال هندسية (دوائر، مثلثات) وفي بعض الأحيان على شكل براعم وشجرات الحياة ومعينات.





٤٨٦-٤٨٧. امرأة من حماه تمارس تقنية صنع النماذج البلانجي.

٤٨٨-٤٩١. مقتطفـات لعمليات الأنواع الثلاثـة من البلانجي التي تظهر في أمثلتنـا. تبـدو نتيجة العملية المصورة في المركـز، وبالتفضيل على سبيل المثال في الأسفل وعلى اليمين.





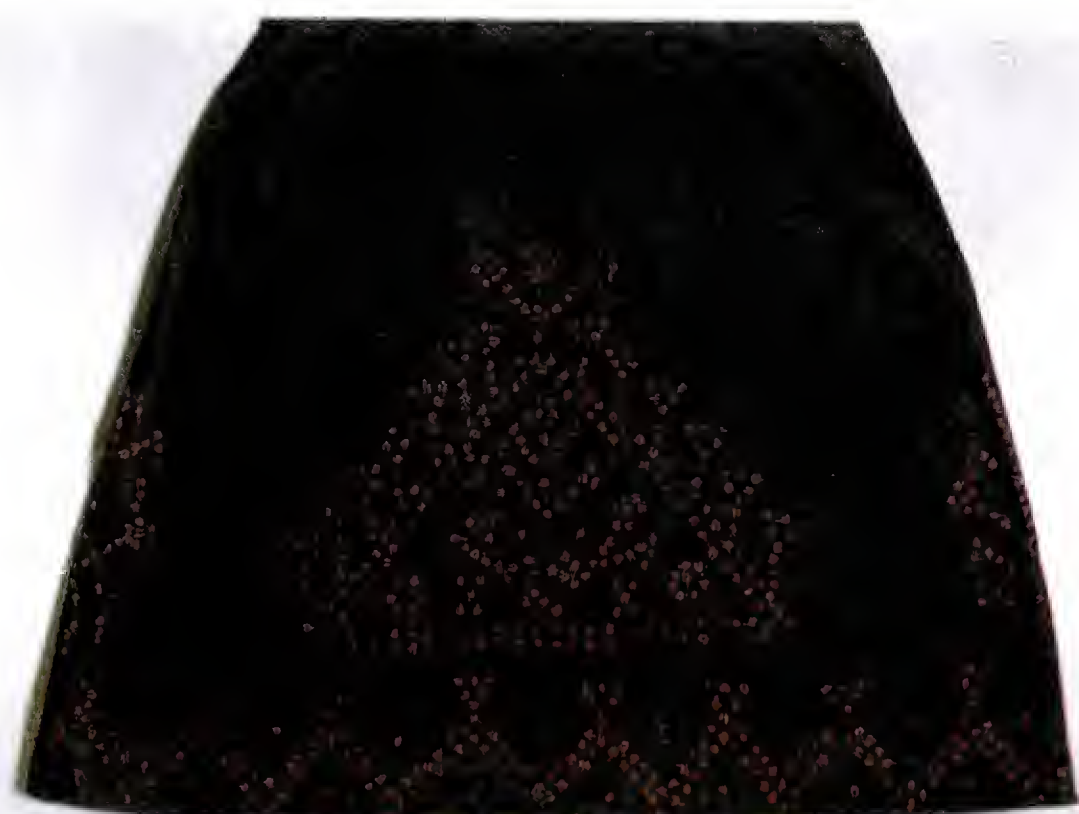




٤٩٢. امـرأة شابة من حماه ترتدي ثـوب بلانجي للمناسبات والأعياد مع تطريز مقصب على طول خط العنق.

٤٩٣-٥٠٠. أثـواب وشـالات مـن حمـاه. نفـذت النمـاذج بتقنيـات متعـددة للبلانجي. تظهر النماذج هندسية جداً وهي تتبع أشكال حلي البدو والزخرفة على السيراميك الفلاحي.









.٤٩٨







.٥٠٠

.٤٩٩

في بعض الحالات، لا يتم تنزيل شكل أو لون النموذج لأسباب زخرفية، إنها أيضاً تمنح أو تعني الحماية السحرية للشخص، مثل اللون الأحمر البلانجي فوق الوشاحات السوداء أو القاتمة. أما النقاط الصفراء فيفترض أن تقي النساء من الحسد و«الأرواح الشريرة».

ما تزال تباع أثواب البلانجي والوشاحات في الأسواق السورية لكن بأعداد قليلة. تصنع النماذج عادة من دوائر قطرها عدة ميلميترات مع نقط صغيرة في الوسط.

يبدو أن تقنية البلانجي تستخدمها هذه الأيام، وبشكل خاص، البدويات والراعيات اللواتي أصبحن من الحضر. وتقوم النساء بتنفيذها. وحسب ما أخبرتنا إحدى النساء في حماه عندما أجرينا معها لقاءً عام ١٩٩٠، يتوقف عدد الأثواب المصنعة من قبل النساء حسب الحاجة الشخصية وعدد الطلبيات المسجلة.

تزين أثواب البلانجي الحديثة بشكل إضافي عند فتحة الرقبة وعلى جوانب الصدر بالتطريز المقصب (اللوركس). وهي تستعمل كأثواب عرس (الجهاز) وترتديها النساء في المناسبات والاحتفالات. ويأخذ شكل أكمام ثوب البلانجي نفس الشكل الموجود عادة في الأثواب الأخرى: إما طويلة، أكمام ضيقة مع نماذج مستمرة، أو تكون النماذج على المقالب أو الحافة السفلى من «الأكمام المجنحة».

الصباغ المعالج بالكلس الأسود الصناعي في حلب:

تتم طباعة أقمشة الحرير المنسوج الحر والحرير الصناعي، على سبيل المثال، في ورشات الصباغة والطباعة في سوق الصابون. وتستخدم هذه الأقمشة كأغطية لرأس النساء البدويات والفلاحات والنساء من المدن الصغيرة وتصدر أغلب المنتجات إلى الأردن والعراق والسعودية.

ما تزال تنتج الأقمشة المربعة (١×١م.٣٥، ١×٣٥، ١م) من الحرير الطبيعي مع زخرفة مطبوعة تنتج فقط في حلب. ويتم صبغ، وطبع وتجفيف أولي، للوشاحات في غرفة واحدة. حيث يوضع المحلول الأسود في قدر أو وعاء كبير وتتم معالجة الأقمشة مع الكلس. يتم إطفاء قدر صغير يحتوي على محلول الكلس بالماء وتحضير مادة التماسك من النشاء. ثم يدخل قالب من الخشب أو اللباد المغطى بالقماش إلى الوعاء الأصغر. يستعمل بعد ذلك المحلول لترطيب القالب أثناء الطباعة.

يصنع القالب الذي عولج بالكلس من الخشب على شكل مخرجات النموذج الذي سوف يعالج بعدها الألوان. تغطى الجهة السفلية من القالب بقماش من اجل امتصاص أكبر. ويتم صنع القالب من الطابعة (الطابعة) نفسها. وليس هناك أي حدود لاختيار الرسومات المطبوعة. فإما أن تستخدم الطابعة النماذج التقليدية القديمة أو تبدع طرقاً أخرى جديدة. وهو عادة يجاري ذوق زبائنه أو أهواءهم وطلباتهم.

يعمل الطباع، وهو جالس على الأرض، أمام طاولة منخفضة مغطاة بقطع قماشية تفرش قطعة القماش فوق هذه الطاولة وتتم الطباعة الكلسية فوقها. وبعد الطباعة، توضع القطع في القدر الذي يحتوي محلول الصبغة السوداء ومن ثم ترفع وتعلق حتى تجف. وبعد أن يتم تثبيت الصبغة وهو ما يستغرق عدة ساعات، يجب أن تغسل الأقمشة جيداً لأن محلول الصبغة يؤذي المادة النسيجية. تقوم النساء غالباً بغسل الأقمشة في المياه الجارية. ويتم أيضاً رفع بعض الكلس المقاوم بهذه الطريقة. وبعد التجفيف مرة ثانية تعاد الأقمشة إلى الطباع في ورشة العمل، حيث تكون بعض المواقع المقتطعة مطبوعة باللون المطلوب باستخدام كليشات خاصة. يمكن استخدام عدة ألوان اعتماداً على الطلبيات. هناك ختم خاص بكل لون يتوافق مع الجزء من النموذج. يتم إنجاز هذا العمل غالباً بواسطة الأطفال المعوقين الذين يتلقون أجوراً زهيدة.

وقد تمكنا في خريف عام ١٩٩٠ في حلب من مراقبة ثلاثة طرق مختلفة لتطبيق النماذج على قطع قماشية:

في أحدها، تتم زخرفة أغطية الرأس فقط على طول الحواف، بينما تصبغ الأجزاء الداخلية بالأسود. في المثال الآخر، يغطى سطح القماش بكامله باللون المطلوب وتبقى بعض الأماكن المقتطفة ضمنها بيضاء. تشكل الأختام لهذا النوع بشكل أكبر وتغطي تماماً ربع قطعة القماش التي تطبع بالكامل باستخدام الختم أربعة مرات. وفي المثال الثالث، تتم طباعة نماذج هندسية محددة بالألوان المطلوبة بواسطة الحرير الصناعي أو الحرير الملون الطبيعي. يتم الختم أربعة مرات. وبما أنه لا يوجد توافق بين النماذج هنا، فإن هذا إجراء تقسيم رابع على قطعة القماش المشابهة للأقمشة القادمة من منطقة الغرب.

وكما هو الحال عند الصباغة بالكلس المعالج، تستخدم الطباعة المغربلة على عدد كبير من الأقمشة المطبوعة في حلب (انظر الصورة). الطباعة المغربلة هي العملية التي تتم فيها تغطية الأماكن التي تكون مثقبة منسوجة رائعة بحيث تكون كاتمة للصباغة. توافق هذه مناطق النموذج التي يراد أن تظل بدون لون. ينقل الصباغ على قطعة القماش من خلال المناطق غير المغطاة للقطعة المثقبة بواسطة أداة شبيهة بالسكين (راكيل) من أجل طباعة النموذج فوق القماش. وبالطرق الحديثة، يتم بخ المادة الصباغية بواسطة المرذاذ. ويمكن أن يصنع المنخل من الحرير، البرونز أو شاش البوليستر أو البولياميد.









٥٠١-٥٠٧. ورشة عمل في حلب، حيث يتم ختم الحرير باليد (الكلس المعالج) أو يطبع عن طريق السطح المثقب الحريري.







الإيكات وعمال الإيكات:

تعرف عمليــة الصباغة المعالجة بواسطــة تغطية حزمة مــن الخيــوط المجدولة جزئيــاً بنموذج ثابت قبــل الصباغة والنســج بالإيكات. وهــي كلمة أندونيسية تعــرف في المناطق الفارسية والتركية باسم الآبر وفي العربية التاريت.

تتــم حماية أقسام متفردة من الخيط قبل الصباغة عن طريق العقد أو بواسطة طرق تغطية أخرى.

يجــب أن يتم ترتيــب خيوط الغزل بشــكل مسبق أثنــاء عملية الصباغــة المعالجــة في النموذج في حــالات معينة وحســب المناطق المرغوب بصبغها في المادة، وذلك لتظهر في عملية النسيج النهاية.

يستطيع أحدنا التحدث عن الإيكات الممدود طولاً (السداة) أو الإيــكات الممدود عرضاً (اللحمة) أو الإيكات المزدوج اعتماداً عمــا إذا كانت الســداة أو اللحمة، أو كلاهما معــاً، قد تم وضع نمــوذج لها. تدعى المواد، التي لها تزيينات فوق السطح الكامل، بالإيــكات الشامل. وإذا كانت النمــاذج محددة لخطوط تجري طولاً أو عرضاً تدعى المادة الإيكات المخطط. وإن لم يكن هناك أهمية لنموذج المادة المخطط له فإن عملية الإيكات تكون بسيطة جــداً حيــث يتم عقد خطــوط الغــزل أو ربطها بعقــد في أماكن عشوائية قبل الصباغة وتكون النتيجة نموذجاً بسيطاً فقط.

يمكننــا معرفة الإيــكات الحقيقــي على قطعــة القماش المنتهيــة من الطريقة التــي تطبق فيها الألــوان حسب اتجاه خيوط النموذج أو التداخل بين بعضها البعض.

ومجــالات النموذج كثــيرة، بينمــا يحدد صنــع الإيكات باتجاهــات السداة واللحمة ومع ذلك هناك تنوع مدهش له. وكمــا هو الحال في عمليــة الصباغة المعالجة يمكن في عملية الإيــكات إنتاج صورة أحادية اللون، (وضمنها اللون الطبيعي للمادة) أو النماذج المتعددة الألوان.

ولذلك يكون من الضروري استخدام توضعات متكررة أو ربطها بطريقة محددة بنفس عدد الأصبغة حسب الألوان المطلوبة.

يوجــد ثلاثــة نمــاذج مــن الإيــكات الطــولاني ضمــن مجموعــة الأنسجــة السوريــة في متحــف لينــدن متمثلــة بخمســة معاطف (مصنوعــة قطنياً) وثلاثــة أقمشة خاصة بالحمام (مئزر الحمام) وثلاثة أقمشة مغلفة (بقجة).

في حلب، يتــم تصنيع أقمشة، ومــواد الإيكات، في منزل الزاهر، الأخوين (جورج والياس) اللذين تعلما مهنة الإيكاتور مــن أبيهما. انتقلت مهنة الإيكاتور من الجد للأب ومن الأب إلى الأبناء في عائلة زاهر. ازدهرت أعمال الإيكات حتى عام ١٩٥٠ ولكن انخفضت المبيعات وقت الأزمة الفلسطينية. قام الأخــوان بتقسيــم أعمالهما منذ عــام ١٩٦٠ عندما استقال والدهمــا: كان الياس (بمساعدة ابنــه)، الإيكاتور (من يقوم بصنع الإيكات)، بينما اهتم جورج بعمليات البيع والشراء.

كان منتجهــم الأساسي هو ثيــاب الحمام (مئزر) المصنوعة مــن الإيكات الكامــل والتي يتــم ارتداؤها عن طريــق لفها حول



٥٠٨ و٥٠٩. أمثلــة الإيــكات مــن حلــب، قماش حمــام في الأعلى ومعطف في الأسفل.



الخاصرة في الحمام العام (الحمام). وتنسج كقطع متفردة بمقاسات متنوعة. تصنع أقمشة الحمام من الحرير أو الحرير الصناعي ونادراً من القطن. تكون السداة واللحمة دائماً من المادة نفسها ويتم نسجها بطريقة النسج المجدول. والشكل النموذجي هو «الشاتل» (المكوك). تظهر زخارف أخرى مثل نماذج البكرة أو رأس السهم المزدوج عند حواف الأقمشة فقط.

تصنع عائلة زاهر أيضاً أقمشة، جزء منها من الإيكات وأحياناً من القطن بالأمتار ولكن تكون نماذجها أقل. وهذا ليس بسبب قلة حرير الرابات، ولكن بسبب الطلب المحدد لأنسجة الإيكات الكامل، وحيث أن عملية إنتاجه تحتاج إلى جهد ووقت كبيرين فإنه يكون باهظ الثمن.

تباع أقمشة الحمام في سوريا، وتركيا والعراق، وأحياناً في إيران وأفغانستان. تنسج الأقمشة باللون الأحمر والأسود والخمري. يفضل الزبائن العراقيون اللون الأحمر والأتراك الخمري والأحمر بينما تباع الأقمشة السوداء إلى الآشوريين وإلى أغلب الزبائن المحافظين المدنيين داخل سوريا.

تعرف الآن أنسجة الإيكات ذات السداة أو الحرير الصناعي واللحمة القطن، بشكل عام بالقطنية (ذات الخيوط القطنية) (المزيج الحريري أطلس أو حرير الساتين أو النسيج المضلع الحريري). يتم نسج الأنسجة "القطنية" في حلب وحماه ودمشق.

تستعمل هذه الأنسجة في المدن كمساند للكراسي وأغطية للوسائد والمعاطف وكمواد الألبسة (في جبال الساحل السوري)، وبشكل عام كبطانة أو أبليكات للألبسة.

يعتبر الساتين والأطلس الأساس للأنسجة المعروفة بالجونتي. تتميز هذه الأنسجة بالأقسام المتداخلة المنفصلة بشكل واسع. تترك أقسام طويلة جرداء من الخيوط بشكل مرئي في هذا النموذج من النسيج. وعندما تعالج بطريقة الإيكات فإنها تشكل سطحاً أملس ولماعاً يظهر النموذج بشكل واضح تماماً. يتشكل النموذج من سبعة مراحل معينة الشكل ضيقة يبدو أنها ممتدة طولياً على طول المحور الأفقي. تدعى هذه النماذج في حلب "ألسنة العصافير الدورية".

يوجد هناك أيضاً أنسجة قطنية منسوجة مضلعة (نسيج السداة) ما عدا نسيج الساتين. تختفي خيوط اللحمة القطنية تماماً في منسوجات السداة ويعطي نموذج الإيكات والمظهر الكلي للمادة ألقاً جميلاً ومميزاً.

يتم نسج النوع الثالث (البقجة) كقماش لمستلزمات الاستحمام الملفوفة وهي غالباً ما تكون مربعة الشكل. وفي الماضي تم صنع أقمشة اللف هذه من الحرير على شكل قطع منبسطة عند طلب ذلك من الزبون، (من ضمن قطع الجهاز مثلاً).

وكما هو الحال في أقمشة الإيكات الجزئية في حلب وحماه. تبدو نماذج الإيكات في حماه على شكل خطوط مزخرفة. يكون للأقمشة القديمة نماذج "رأس السهم" أما الحديثة فلها نماذج البكرة.

يعد الأطلس الضيق أو المتوسط العرض والأنسجة المضلعة (٣٠-٥٠سم) برسومات الإيكات الرائعة المرتبة في خطوط لتشكيل نموذج عمودي، مميزاً في اليمن وسوريا وآسيا. حيث تكون هذه المادة نموذجية في تلك الأماكن وتنسج باستمرار وتباع بالمتر.

يكون للمعطف المصنوع بنسيج الأطلس ذي المادة الصفراء الشاحبة والخطوط العمودية رسومات "رؤوس سهمية" واضحة جداً بالألوان البيضاء والحمراء والبيضاء والزرقاء مع خطوط منسوجة ملفوفة ضيقة (أسود وأصفر) مؤطرة بخطوط حمراء منبسطة. يمكن أن يعمل النموذج ذو "الرؤوس السهمية" عمل التعويذة.

استمرت أصول عملية الإيكات في الشرق وآسيا الوسطى وفي الهند أيضاً.

وتتصف تقنية وتصميم النماذج في عملية الإيكات بأنها معقدة جداً وتستغرق وقتاً طويلاً. يجب أن يتم تثبيت الخيط بأطوال محددة، بمراحل وترتيبات عند إبداع نماذج للإيكات وذلك تسهيلاً لاستخدامها في عملية النسيج.

يتطلب إنتاج الإيكات توافر جهود عدد من الاختصاصيين:

١. القتال.

٢. المصدي (الطبقة الملفوفة).

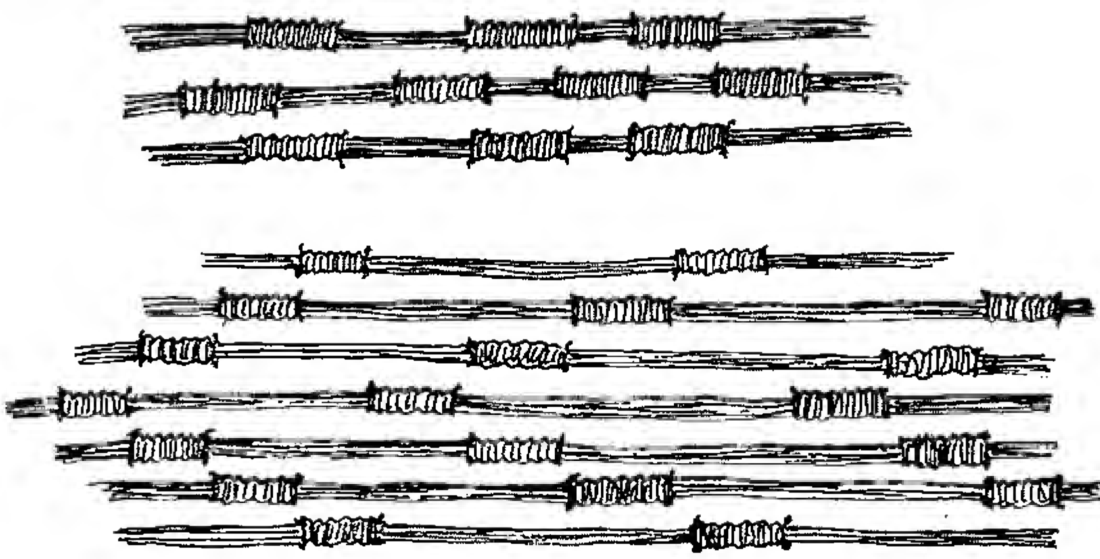
٣. آربات (الإيكاتور).

٤. الصباغ.

٥. الملقي (لخيوط المقود الثلاثية).

٦. النساج، النوال، الحائك، النساجون.

أخذت المصطلحات العربية من موسر "تقنية الإيكات في حلب" ١٩٧٤.



٥١٠. صباغة الإيكات، نماذج تبين إبداع النماذج التي تظهر على معاطف الإيكات في هذه المجموعة. في الأعلى: الرسم المعروف بـ "ألسنة العصافير" في الأسفل: "رؤوس السهم".

١٩ الحصول على المواد الأولية ومعالجتها

ماريا زيرينكل

كانت الجمال التي يرعاها البدو، والماعز والأغنام التي يرعاها أنصاف البدو والفلاحين مع الزراعة وشرانق دودة القز، وما تزال، أساس الحصول على المواد الأولية الهامة مثل الصوف والقطن والحرير الطبيعي. ويلاحظ أن عملية معالجة الصوف لتصنيع خيوط الغزل واللباد وأشرطة أو جلود الخيام والمواد الصوفية الخشنة، وهي واحدة بين كل القبائل البدوية ونصف البدوية. تتركز زراعة القطن في سوريا، بشكل رئيس في وادي العاصي ومنطقة الفرات. جلبت بذور القطن في القرن السادس قبل الميلاد من الهند إلى بلاد فارس ومن ثم إلى شرق الجزيرة العربية حيث تمت زراعته. وعرفت نبتة القطن الدائمة طوال العام من الهند في الامبراطورية الآشورية بالنبتة الغربية ولكنها لم تكن مناسبة للزراعة. يزرع الفلاحون القطن بكثافة في سورية في وادي العاصي والبدو الذين استقروا في حوض الفرات لزراعة الحقول المروية والمجففة حديثاً.

جاءت معرفة تربية دودة القز وإنتاج الحرير منها قرابة القرن الخامس بعد الميلاد وانتشرت تدريجياً منذ ذلك الحين على طول الطرق التجارية أولاً من خوتان إلى واحة آسيا الوسطى بين بلاد الفرس والبيزنطيين والمنطقة الساحلية من شبه الجزيرة العربية. وفي سوريا، تمت زراعة بعض أشجار التوت على سفوح جبال العلويين والأناضول وبعض منها على ضفاف الفرات. وقد انتشرت الثقافة السورية كثيراً في هذه المناطق المأهولة بالفلاحين المسيحيين. واليوم يتم الحصول على الحرير الطبيعي بواسطة الأيادي المسيحية والنساء الفلاحات العلويات. تتم معالجة القطن والصوف، وبشكل خاص رعاية دودة القز والحصول على الحرير والنسج، على النول الأفقي ذي الأقواس الخاص بالبدو، كلها نشاطات محصورة بأعمال النساء. وتتمثل المستلزمات المبدئية لإنتاج الأنسجة بمعرفة الأدوات الضرورية اللازمة للغزل، واللف والبرم والنسج، وكذلك النماذج المتنوعة من الأنوال (النول ذو القوائم العمودية، والنول التنفيلي والمرسم ونول الجاكوار وغيره..) ومعرفة وصفات الصبغات. اشتهرت كل من دمشق وحلب وحمص وحماه خلال الأزمان السحيقة بهذه المهن وفوق كل ذلك مهارات نساجي القطن والحرير (البروكار والدامسكو).

لكن هذه المعرفة تشكل الدليل الأفضل لقدرة الصناع الملحوظة في المدن وللنساء البدويات في الصحراء. وهم مشهود لهم بصبرهم وصناعتهم واهتمامهم التجاري وطموحاتهم الكبيرة.

الحرير:

يعد الحرير بلا شك المادة الأولية الأكثر ملائمة للنسيج. وقد استخدم الحرير بداية في صناعة الأنسجة في الصين، حيث يعود اكتشاف وتوطين دودة القز على الأقل إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد.

تفردت الصين، ولفترة طويلة من الزمن، بلف الحرير من دودة القز وكذلك بإنتاج الغزل الحريري بكميات كبيرة. وقد استخدمت شرانق دودة القز البرية عن طريق الصدفة في الأجزاء الأخرى من آسيا.

انبهر الآشوريون والسوريون القدماء والبابليون، والفرس، ومن بعدهم اليونان والرومان والبيزنطيون والعرب بسحر الوميض واللمعان البراق واللمسة الناعمة والشعور المريح للأنسجة الحريرية فوق الجلد. التي كانت دافئة ورطبة بشكل جميل وتحاك بكميات كبيرة. وكان يتم البحث عن الحرائر الجميلة دائماً وبكثرة وحتى الآن كونها سلعة تجارية مهمة ومادة ترفيهية.

كان تصدير الجريجي (الحرير الخام) على طول طرق الحرير مفيداً جداً للصين وقد ساعد انتشار وتأسيس صناعة نسج الحرير في المناطق الغربية الأبعد.

كما بقيت معرفة تربية دودة القز ولف الخيوط الحريرية وزراعة أشجار التوت الأبيض والأسود ومعالجة الحرير ولعدة قرون سراً تم الاحتفاظ به بعيداً عن الشرق الأدنى وشرق الجزيرة العربية حتى القرن الخامس بعد الميلاد. ثم جاءت تعاليم الإنتاج الحريري العالي المستوى من منطقة فارس في فترة الساسانيين (من القرن الثالث إلى القرن السادس بعد الميلاد). وتشير المصادر التاريخية كيف تم إحضار دودة القز إلى بيزنطة أثناء حكم الملك جوستنيان، (النصف الثاني من القرن السادس).

تراجعت عملية لفات خيوط الحرير المنتجة من دودة القز، وزراعة أشجار التوت وإنتاج الحرير في شمال شبه الجزيرة العربية عبر العصور، حتى أنه وفي بعض الأحيان، توقفت بسبب الحروب والأوبئة التي أصابت دودة القز أو الأشجار والظروف المناخية السيئة وكذلك الأزمات الاجتماعية والسياسية. ومع ذلك انتقلت عملية صنع الحرير وتجددت وتطورت عبر الأجيال.

يتم لف الحرير وزراعة أشجار التوت في إقليم سوريا الحالية ولبنان، في المناطق الساحلية الشرقية وإلى الغرب من العاصي وعلى سفوح جبال العلويين والأناضول.

في تشرين الأول من عام ١٩٩١، قمنا بزيارة عائلة تعمل في لف الخيوط الحريرية في سوريا. تعيش هذه العائلة في الرصافة وهي قرية في الجنوب الشرقي من جبال العلويين، وقد سمح لنا بفحص أشجار التوت وعمل تقييم عن أعمالهم (انظر الصورة). تتألف الغراس من ٤١ شجرة قديمة (يبلغ عمرها حوالي ٣٠-٥٠ سنة) وعدد من الأشجار المزروعة

حديثاً، تشير إلى أن عملية لف الحرير مازالت مستمرة.

شرحت لنا السيدة «لمياء» دورة حياة دودة القز التي تستمر حوالي (٥٥يوماً) من البييضة (البذرة) إلى الخروج من شرنقتها، الفراشة «رقصة المغازلة» ووضع البيوض.

تخزن البذرة في درجة حرارة باردة مستمرة لمدة تبلغ حوالي عشر أشهر. وقد شاهدنا عند السيدة«لمياء» البيوض في برادها، في زبدية مستديرة، مصنوعة يدوياً وحفنة من الشرانق البيضاء (القزي)، ومكنسة (شيح)..وقد قدمت لنا وصفاً مفصلاً وممتعاً عن عملها الشاق في تربية دودة الحرير.

تبدأ فترة الحضانة للبذرة (بورو) في آذار، عندما تظهر أوائل أوراق التوت. ولمدة سبعة أيام بلياليها تحمل«أمهات الديدان»، (بيوض الفراشة تلف في ورقة ناعمة طرية وقماشة منبسطة محشوة بالقطن أو الصوف) تحت الصدر، حيث تكون درجة حرارة الجسم المستمرة ضرورية للحصول على ديدان قوية معافاة، لتنقل بين اليرقانة والحشرة الكاملة في الوقت نفسه. استخدمت هذه الطريقة في الحضانة في الصين القديمة.

تتحول البيوض في اليوم السابع أو الثامن إلى اللون الأبيض المائل نحو الرمادي وتبدأ بالحركة، وبجهد كبير تقوم الديدان السوداء الصغيرة الشائكة (٢-٣ملم) بنقر فتحة في قشرة البيضة وتخرج منها. وتقوم في البداية بتعليق نفسها بعدة خيوط حريرية مربوطة لتحمي نفسها من الوقوع من مكان الحضانة الأصلي، الذي يكون عادة فرع شجرة التوت التي تحمي أوراقها اليرقانة مع غذائها. تضع السيدة «خضور» الديدان في وعاء دافئ وتعلقها على القاعدة. تبدي المخلوقات المولودة حديثاً شهيتها النهمة وعلى الفور: يجب أن يتم إطعامها ٤٨ مرة كل ٢٤ ساعة بأوراق التوت الطازجة الطرية، التي يتم تقطيعها بعناية وحذر. ويجب أن تكون مجففة من قطرات الندى. وأثناء تطور الديدان الكامل (حوالي٣٣ يوماً) يجب ألا تكون أوراق النبتة رطبة وإلا ستموت الديدان أو سيكون هناك ماء بدل الحرير. ولا يجب أن تجفف الأوراق كثيراً وإلا سيكون الحرير هشاً. كما يجب أن يكون المكان الذي تحفظ فيه الديدان نظيفاً، جافاً ومضيئاً وجيد التهوية ودرجة الحرارة معتدلة باستمرار.

تشكل الديدان الشائكة في الأيام الخمسة أو الستة الأولى وحتى تغيير الجلد الأول، كتلاً صغيرة ويجب أن تنفصل بواسطة أرياش إوزة أو قضبان صغيرة حتى لا تتشابك أشواكها مع بعضها البعض بعد تغيير الجلد الأول (تغيير الجلود الثلاثة الأولى يستغرق يوماً في كل مرة). أصبحت الديدان الآن أكبر وهي بحاجة إلى ٣٠ وجبة كل ٢٤ساعة، في النهار أكثر منها في الليل حيث تأكل ببطء أكبر. وما تزال العناية والمراقبة ضرورية للديدان على مدار الساعة. وبعد تغيير جلودها مرتين ثانيتين (في اليوم التاسع أو العاشر واليوم الخامس عشر أو السادس عشر) يتم بعدها إطعامها فقط من ٣-٤ مرات ولكن بكميات أكبر. وهي الآن بحاجة أيضاً إلى مكان أوسع (حيث أن طولها الآن يفوق سبعة سنتمترات) ويتم بناء أطر خاصة لها. تصبح الديدان صلبة قبل تغيير جلدها وتدخل في سبات عميق، ورؤوسها والقسم العلوي من أجسامها مقلوبة للأعلى. ويستمر التغيير الرابع والأخير للجلد لمدة يومين (في اليوم الثالث والعشرين).

وبعد ثمانية أو تسعة أيام (في اليوم الثالث والثلاثين أو الرابع والثلاثين)، قبل أن تصل إلى مرحلة الغزل بوقت قصير، يصبح لونها شفافاً تقريباً، أصفراً ضارباً نحو الحمرة (كهرمانياً). بعدها تضع السيدة «خضور» أغصان الصفصاف الجافة. بلغ طول الدودة الآن حوالي تسعة سنتمترات، إنها تتحرك ببطء وتتسلق فوق الخب حيث تستلقي وتبدأ غزل خيوط الحرير ولفها حول نفسها بحركات حلزونية على شكل رقم ثمانية بالإنكليزية (8). تستغرق الدودة حوالي سبعة أيام لغزل شرنقة واحدة وبعد حوالي١٥ أو ١٦يوم، تؤخذ هذه الشرنقة إلى معمل الغزل في دريكيش، حيث يتم قتل اليرقات بالتسخين. تخرج الفراشة وتؤذي الشرانق التي تصبح الآن أقل جودة. يتم تخزين الشرانق الجديدة الصغيرة والشرانق الكبيرة التي تبدو ذات نوعية أفضل، وتفصل عن بعضها من أجل عمليات غزل أكبر.

يتألف الحرير الطبيعي الرائع الممتاز من ألياف قوية أنيقة تفرزها دودة القز التي تربى على شجرة التوت عندما تتحول من يرقة إلى فراشة. إنها تتألف من ٧٥٪ مادة بروتينية وهي العنصر الأساسي في الحرير الطبيعي و٢٥٪ مادة الصمغ الحريري (مادة هلامية).

تأكل دودة الحرير الناضجة حوالي ٣٠غراماً من أوراق التوت إجمالاً. تزن في اليوم الأول حوالي ٤٧, ٠ملغ وفي اليوم الثالث والثلاثين تزن حوالي٦٥, ٣غرام. وتؤمن شجرة التوت البيضاء المكان (الطية) الأفضل ليرقانات دودة الحرير.

تعالج اليرقات بالماء الحار أو البخار لقتل الحشرة. وبعد نزع الألياف المتشابكة الخارجية، يتم لف الحرير المستخرج من ثلاث إلى ثمانية أو عشرة شرانق لتعطي ما بين ٣٠٠-٤٠٠ متراً من الحرير المغزل (غريجي). تتم معالجة الطبقات الخارجية من الشرنقة (مشاقة الحرير) التي لا يمكن لفها، لصنع زهيرات أو ما شابه ذلك. يدعى قماش الحرير الخام المصنوع من رقعة عالية الجودة (مشاقة الحرير) التي تم فرز الصمغ عنها بصعوبة، والتي لا يمكن لفها بالنسيج الحريري. وهو ذو مظهر متميز بسبب بنيته غير النظامية لشلة الغزل، والتي يتم منها نسج القماش على الأغلب باليد (الألبسة بواسطة أو من دون بلانجي في حماه).

إن ألوان الألبسة في هذه المجموعة المصنوعة يدوياً أو آلياً من الحرير، وهي حمراء أو صفراء أو نيلي أو بني قاتم أو أسود ما عدا لوناً واحداً منها يكون مزخرفاً بنموذج البلانجي.

يتم نزع الصمغ من الحرير الملفوف، يلف ويصبغ حسب الطريقة المطلوبة أو يترك بلونه الطبيعي. ثم يتم توزيعه عبر الوكلاء إلى النسّاجين في دمشق وحلب وحماه وحمص.

غالباً ما تكون غزول الحرير المقسمة إلى حصص من ٣٠-٥٠ غراماً غير كافية لجهة واحدة، ولذلك يبيع عدد من النساجين حصصهم إلى تجار الجملة أو يزودونها من غزول الحرير من لبنان.

يستعمل هذا الحرير الجيد في صنع أنسجة الأيكات والدامسكو والبروكار بنماذج متعددة النول الرئيسي، ونول الجاكوار مع البطاقات المثقبة، وكذلك الأمر في حرير التفتا البسيط المستخدم في أغطية الرأس ذات الأشكال المطبوعة بواسطة أدوات خاصة وهي شائعة الاستعمال جداً بين النساء البدويات في سوق حلب.

ويستخدم الحرير الممزوج (السداة حرير واللحمة قطن) وكذلك الحرير الصناعي خاصة في نسيج الساتين مع نماذج الأيكات في صنع المعاطف الاحتفالية للنساء والرجال. كما يستخدم الحرير الأسود، الحرير الممزوج والحرير الصناعي في نسيج الأطلس من أجل صناعة الملابس النسائية التنانير والمعاطف والسراويل، وتزخرف بشكل كبير بالمطرزات ذات الخيط الأحمر الحريري. يتم في حمص نسج الوشاحات الحريرية الكبيرة بالقصب ونماذج الرمح للرجال والنساء.

تتركز تربية دودة القز في سوريا في الجزء الغربي من البلاد، على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي يمتاز بمناخه المعتدل اللطيف.

إن الشروط الضرورية لرعاية دودة القز بنجاح هي: أوقات محددة من السنة، درجة حرارة مناسب، هواء رطب، تقلبات درجة الحرارة بين النهار والليل. ولكن الأكثر أهمية من هذا كله وجود زراعة أشجار التوت التي تستخدم لتغذية ديدان الحرير.

تحدد المناطق الواسعة لزراعة أشجار التوت كمزروعات لتربية دودة القز إلى حد ما، على ساحل البحر الأبيض المتوسط في المنطقة الممتدة بين صافيتا ومصياف والمرقب ودريكيش وشمال اللاذقية حول صهيون ومناطق صغيرة على السفوح الغربية لجبال العلويين المرتفعة إلى ٦٠٠م تقريباً فوق سطح البحر. كما نجد في المنطقة المحيطة بحماه وقرب معلولا وغرب دمشق وفي لبنان أشجار توت متفردة تزرع دون تخطيط.

يعتبر نزع الأوراق المستمر، وقص الفروع والبراعم، من أجل تربية دودة الحرير، عوامل هامة لنمو أغصان جديدة للأشجار. ومن أنواع أشجار التوت التي تتم زراعتها بسبب محصولها الورقي الغزير: موروس آلبامونيتي وموروس الباروزادي لومبارديا.

استطعنا في سوريا، في منطقة الرصافة غرب حماه الواقعة في ممر ضيق، من إلقاء نظرة مباشرة على الغراس المؤلفة من أنواع عديدة من أشجار التوت المختلفة عن بعضها البعض لناحية عمرها والطريقة التي تتم الاستفادة منها، كما نرى في الرسم ٥١٣، هذه الأشجار مطعمة مع أشجار وارفة وكبيرة تم زرعها على بعد خمسة أمتار وهي تستخدم بشكل كبير. وقد قدرنا من التحليل الإحصائي للمعايير المتخذة هنا، أن هذه الأشجار المنتجة لكمية فوق الألف كيلو غرام من الورق لكل هكتار من أجل تربية ديدان الحرير. لكن التقدير الشامل والمفصل يصبح ممكناً أكثر من خلال جمع معلومات إضافية في فصل الربيع.

نستنتج من العدد القليل لغراس التوت أن تربية دودة الحرير في سوريا تميل نحو الانخفاض وهذا لا يعود إلى أمراض ديدان الحرير وأشجار التوت وحسب، فعلى الرغم من أن بقاء أشجار التوت يعد مطلباً عالمياً لإنتاج الحرير الطبيعي الذي لا يمكن استبداله ولا حتى بأفضل الألياف الصناعية، فإن الحرير السوري لم يستطع منافسة حرير الشرق الأقصى في السوق العالمي، منذ عام ١٩٣٠، باعتبار أن إنتاجه الكلي ضئيل جداً.

الصوف:

تنتج النساء البدويات والفلاحات في شمال شبه الجزيرة العربية بعضاً من أصوافهن بأنفسهن في المنازل، بينما يباع الباقي بعد غسله من دون غزل في السوق وتتم معالجته في المعامل. ثم يباع ثانية على شكل شلل مغزولة من قبل البدو والفلاحين. يقوم الرجال بجز صوف الخراف، والماعز والجمال، ويحضرون الصوف غير المغسول إلى النساء لتتم معالجته بشكل أفضل وربما يستخدم في الخيام أو المنازل. بعدها تقوم النساء بغسل هذا الصوف وتنظيفه من البقايا وما علق به من سويقات النبات، ثم يضربنه بواسطة حزمة من القصب أو الخيزران أو بواسطة قوس لتفكيكه ثم يقمن بتمشيط الصوف بواسطة مشط أو غرزه برشاقة بواسطة أصابعهن.

تقوم النساء البدويات، في شمال الصحراء العربية، بغزل ولف الصوف بواسطة مغازل تقليدية (المغزل)، وبعد ذلك يجمع الصوف المغزول في شلل حسب الطلب ويصبغ أو يترك دون صباغ.

ينسج الصوف، بشكل بسيط أو مضلع، على النول الأفقي التقليدي (ناتي) أو على النول الرأسي المنغل بواسطة دواستين مصنوعتين من الحبال، أو ربما على أنواع أخرى من الأنوال.

يتراوح عرض القماش المنسوج بين ٢٠ - ٥٠سم. وتعتبر جزات الصوف، المأخوذة من رقاب وسنام الجمال الفتية الرائعة الناعمة والمرنة الطرية، وخاصة ذات الألوان الطبيعية الدافئة (البني القاتم أو البيج الفاتح المائل نحو الأبيض)، ذات قيمة عالية بالنسبة للبدو. يغزل صوف الجمل هذا، ويلف، على شكل خيوط مشدودة، ليصار إلى نسجه. يستخدم صوف الجمل المنسوج في صنع العباءات الاحتفالية الغالية جداً، والتي يرتديها البدو الموسرون، وكذلك الفلاحون والرجال في المدن، حيث تعتبر أزياء شعبية وألبسة يومية. تصنع العباءات والجواكيت الشتوية من المواد الصوفية الخشنة والصوف الممزوج (السداة من صوف واللحمة من قطن) بألوان الصوف الطبيعي الفاتح والقاتم (نسيج مضلع) ويتم تطريز بعضٍ منها بخيوط صوفية.

يستخدم صوف الخراف والماعز لنسج أقمشة الخيمة والجدران الفاصلة والحقائب والأحزمة والسروج وغيرها. كما تتم زخرفتها بالحبال المجدولة، مع أو من دون شرابات، وتطرز بخيوط صوفية.

الغزل، اللف، النسج:

تعتبر عمليات الغزل واللف والنسج تقنيات قديمة جداً، حيث يفترض علماء الطبيعة، وباحثو فترة ما قبل التاريخ بأن هذه التقنيات تطورت عندما أصبح الإنسان متحضراً وبدأ بممارسة الزراعة وتربية الحيوانات.

في ظل الظروف السياسية والمناخية الشرقية القديمة التي تعني أن الانتقال من حياة البدو إلى حياة الحضر (وبالعكس) كان دائماً يتم بسلاسة ويسر (وهذه الحالة ما تزال موجودة في أيامنا الحالية) يمكن الافتراض أن الغزل واللف والنسج كانت عمليات تقنيةانتقلت بشكل أساسي من الحضر إلى البدو.

وقد تم استخدام المغازل الحرة التعليق منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهي تتألف من محور رأس مصنوع عادة من الخشب، وفلكة المغزل التي صنعت من الفخار والعظم أو الحجر أو السيراميك أو الخشب.

ومع مرور الوقت، تطورت عجلة الغزل البسيطة بحيث تم إدخال المغزل أفقياً ضمن إطار يدور باليد بواسطة سواقة وحزام. وبواسطتها يتم غزل الصوف والكتان والقطن والحرير وخيوط أخرى ثم تفصل وتلف. تعتبر عمليتا الغزل واللف أنشطة ثانوية تديرها النساء في منازلهن.

النسج:

يعني النسج، تصالب أو تداخل نوعين من الخيوط المختلفة مع بعضهما البعض: خيوط السداة المتوازية التي تجري بشكل طولي وخيوط اللحمة التي تمر عبرها. يتم تجهيز كل الأنوال القديمة للقيام بعملية النسيج نفسها: ترتيب الخيوط المعقودة (السقف والقف المعاكس)، إدخال خيط اللحمة وطرقها. يدعى النول الأفقي المنحني المؤلف من أجزاء خشبية مع قصبة اللحمة الضيقة بالنول العربي. وهو بسيط جداً ويتألف من عدة أجزاء:

١. قضيب السداة، للحفاظ على السداة مشدودة وفي بعض الأحيان من أجل لف النسيج.
٢. عصا علوية وقضيب مع مقود لمسك خيوط السداة.
٣. مضرب على شكل سيف لتشكيل السقف وضرب اللحمة.
٤. قضيب ملف للخيوط، أو مكوك، مع خيط اللحمة.

يمكن أن تكون خيوط السداة محدودة أو لا نهائية. وفي رسومنا نرى أنها محدودة، وبالإمكان تجهيز النول بواسطة امرأتين خارج الخيمة أو داخلها أو في الساحة أو المنزل ويكون قابلاً للفك والتركيب بسرعة وهذا مناسب للبدو ولأنصاف البدو.

أما العمل الأكثر تعقيداً فهو تحضير خيوط السداة من أجل النسيج. ويجب أن تمر خيوط السداة تحت القضيب السقفي، كل خيط ضمن حلقات أو عرى وتتشكل بواسطة قطعة تمر عبر السداة، يمكن للنساج أن يشكل الأساس بواسطة هذه الأداة بمساعدة القضيب السقفي أو العلوي وإدخال اللحمة، ومن ثم تشكيل الأساس المعترض عبر السداة كاملاً وبذلك يتم تثبيتها.

تحتاج النساجة إلى مكوك مع مكب خيطان أو مكب بارز مع خيط اللحمة المعقود حوله من أجل إدخال خيط اللحمة داخل السداة (عمل ثقب). وتستخدم رمحاً أو سيفاً صغيراً (منشازاً) لتشكيل الأرضية ومعترضها وكي تضرب في كل خيط سداة جديدة. تبدأ عملية النسج بغرز المنشاز داخل الأرضية المشكلة بواسطة قضيب خاص. ثم يقلب المنشاز بعدها لأعلى اليمين ويدخل خيط اللحمة. وتدفع الأرضية بعيداً عن النسج وترفع خيوط السداة المعلقة بها. وتشكل هذه العملية أرضية النسيج أو الحاشية. بعدها تقوم النساجة بغرز منشازها ثانية وتقلبه للأعلى وتدخل اللحمة؛ وهكذا تستمر العملية. وبما أن للنول عادة عارضة السداة الضيقة، يبلغ عرض القماش بحدود ٢٤ ـ ٥٠ سم (نادراً ما يكون العرض أكثر من ٦٠ أو ٧٠سم في حال استخدام أنوال محدثة).

تعرف تقنية النسيج، التي تستخدمها النساء البدويات والنساء النساجات من أنصاف البدو، بالكيليم (السجاد) في اللغة التركية. يكون الكيليم نسيجاً منبسطاً، حيث أن النموذج الخاص من النسيج المنبسط يعني أن السداة أو اللحمة تكون غير مرئية. هناك فرق بين وجه أنسجة السداة ووجه اللحمة، وأغلب السجادات التي رأيناها كان لها وجه اللحمة.

تشير السجلات التاريخية إلى أن هذه التقنية انتقلت إلى المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية أساساً من الصين أو آسيا الوسطى.. ويغلب على المنسوجات السورية أو الأردنية الموجودة في متحف ليندن استخدام العديد من التقنيات، ولكن تستخدم تقنيتان بشكل أساسي. يتم نسج وتصنيع الكيليم والحقائب والشرائط والأحزمة بنماذج مختلفة لكلتيهما. يتشكل نسيج اللحمة عندما يتم ضرب خيوط اللحمة بشكل متقارب مع بعضهما بواسطة المضرب أو المنشاز. تبقى خيوط السداة، التي تكون عادة من القطن أو الصوف غير المصبوغ (وحتى عندما تصبغ أيضاً)، مخفية. إذا نُسجت خيوط اللحمة المتفردة بألوان معينة (مثل الأحمر والأزرق) النموذج وأخذت هذه الخيوط أطوالاً متوازية على السداة، ينعقد كل خيط من اللحمة حول خيط السداة ويسحب للوراء. وبالنتيجة تحدث شقوق عند حافة النموذج عندما يوجد تغيير في اللون.

تدعى هذه التقنية الكيليم المشقوق. تتبع النماذج المشكلة في هذه الطريقة خطوطاً مستقيمة، ولكن إذا حرك النساج خيوط اللحمة المسحوبة للوراء، كأن يحرك خيط سداة واحداً في كل مرة يتم فيه إدخال خيط السداة، عندها لن نرى أي شقوق أو مثلثات أو معينات أو أقطار.

هناك احتمالات أخرى لخلق أنواع عديدة من النماذج ليس فقط باللون ولكن بالشكل أيضاً في عملية النسج الموصوفة

أعـلاه. علـى سبيل المثال، يمكـن أن يتم النسـج فوق خيطين أو ثلاثـة خيوط من السداة أو يمكن أن تتشابك خيوط اللحمة مع بعضها عندما تتلاقى خيوط اللحمة مع خيط صوف إضافي في ذي لـون مغاير. ولن يكون هناك شقوق في الحالتين ويتم خلق نماذج جديدة. وفي المثال الثاني تكون العقد ظاهرة فقط على الظهر أو الخلفية، ويمكن رؤية تقنية مماثلة في أقمشة أخرى. تكـون خيـوط اللحمة هنـا غـير متشابكة ولكـن مترابطة مع بعضها البعض وبذلك تخلق شكلاً جديداً وأساسياً للنموذج.

تستمر خيوط اللحمة بتشكيل النموذج الذي يجري بالتوازي لـكل منها وتتشكل فقـط تزيينات هندسية، بـين التقنيات التي ناقشناهـا، يمكن أن توجد الأشكال الدائرية بواسطة استخدام عملية النسيج التي تجري فيها خيوط اللحمة في قوس لكل منهما مـع خيط إضـافي ملون بـراق. وبالامكان إبداع صـور شخصية وأخـرى مزهرة في هـذه الطريقة، ومرة ثانية مـن دون شقات. وتشبه هذه التقنية النسيج المزدان بالرسوم والألوان الأوروبية.

هنـاك طريقة أخـرى تستنـد على نسيـج السلـة أو نسيج السجاد وهي تقنيـة السيسيم. حيث يوضع خيط مطرز إضافي فوق عدد من خيوط السداة (يتراوح عددها بين ٢-٧ على الأقل) المتوازية مع خيوط اللحمة خالقة نموذجاً متقناً ولافتاً للانتباه، مثـل التطريز، ويمكن رؤيـة الخيوط المتصالبـة أو المتقطعة أو المستمرة من خلال خلفية القماش المنسوج بهذه الطريقة.

تختلـف التقنيـة المعروفة باسـم (زيلي) هنـا قليلاً عن تلك التي وردت قبل قليـل، حيث يكون الخيط الإضافي الذي يشكل هنا النموذج مسحوباً مرة أخرى على الأكثر فوق أربعة خيـوط سداة، ولكنهـا تتقاطع مع خيط السـداة وترتبط به. يشبه القماش هنا التطريز بالقطبة المنبسطة.

تدعـى التقنية الأخـيرة، والأكثر تعقيداً، بـ (السوماخ)، وهـي موجودة ضمـن مجموعتـنا، يتم حجب خيـوط السداة واللحمة تماماً في هذه الطريقة تحت الخيوط المضافة الخشنة التـي تشكل النمـوذج. ويتشكل السطـح النموذجي من حياكة خيـوط القماشـ الأساسي من الخلـف فوق خيطـين أو أربعة خيـوط السداة. تسمح هذه التقنية بتنـوع واسع في التزيينات التي يمكـن إبداعها، حيث يتم تغطية السطـح الكلي للقماش بنموذج مميز، كما هو الحال في السجاد أو البسطة المحاكة.

النول:

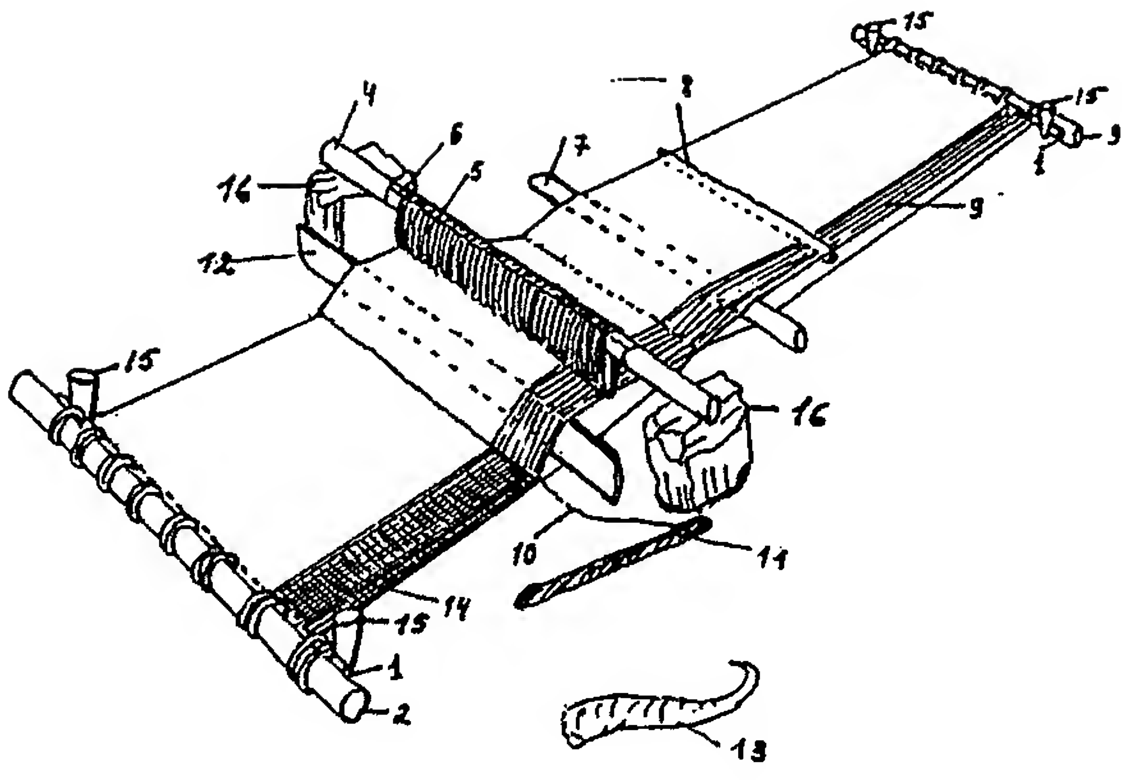
مـا تـزال النسـاء البدويـات، في شمـال شبـه الجزيرة العربية، يستخدمـن النول الأفقي. (الاسـم مأخوذ من إس فاير ١٩٧٦).

ويتألف النول من الأجزاء التالية:

١. قضيبا السداة (موتراج).

٢. عارضة صدرية لحماية قضيب السداة (جالنتي).

٣. عارضـة السـداة لحمايـة قضيب السـداة في النهاية القصوى (رأس الناتي).



٥١١. النول.

٤. قضيب (مينار).

٥. المقود (النيره).

٦. القسـم العلوي من الخيـط، أو السلك، الذي تتم منه عملية حياكة النيرة (الجاتار).

٧. عصـا السقـف المستخدمـة لفصـل خيـوط السداة (الهاف والمهافة).

٨. السلـك الجاري (مع أو حتـى دون عصا) حول خيط السـداة العلويـة لمنـع خيـوط السـداة مـن التعقيد أو التشابك.

٩. خيوط السداة.

١٠. خيوط اللحمة.

١١. المكب (مايشة).

١٢. المضـرب الرمحـي الشـكل، لضرب خيـوط السداة (المنشار).

١٣. علاقـة الضرب (قـرن الغزال) أداة هامـة للنساء البدويات خاصة، تستخدم لضرب خيط السداة عند صنع نماذج من القماش المنبسط (ميشغا، ميهتا).

١٤. القماش المنسوج.

١٥. أربعـة أعمدة معدنية أو خشبيـة توضع على الأرض لتحافظ على الخيطان مشدودة على السداة.

١٦. حجـران (أو بلوكتـان أو صندوقان) بالارتفاع نفسه لدعم العصا (هدى، هوادي).

يتـم تحريك بعض الأجزاء من النول (٤، ٧، ٨، ١١، ١٢، ١٣و١٦) أثناء عملية النسج، ويثبت الباقي حتى تنتهي عملية النسج. يمكـن تفكيك أجزاء النول بكاملـه بسهولة وبسرعة حسب الطلب كما يمكن حزمه للتصدير.







٥١٢. محصول القطن. تزرع مساحات واسعة من القطن على طول نهر الفرات في الأراضي التي شملها برنامج الري الحديث.

٥١٣. أشجار التوت قرب مصياف، وما تزال تربية ديدان القز مستمرة في المنطقة ما بين صافيتا ومصياف.

٥١٤. عامل في حماه يلف شلل الخيوط التي سيتم أخذها بعد ذلك إلى الصباغ.

٥١٥. امرأة من الشونة تنسج على نول رأسي محوري بدواسات تدور بواسطة الأرجل.

٥١٦. نساج في حلب يعمل على نول نقري.





قالب النسيج في دمشق:

المعلم النساج الحري في عبد الوهاب

جرى العمل على قالب النسيج (القرص) في أنحاء العالم كافة ولآلاف السنين، كما يمكننا رؤيته من اللقى الأثرية والتوصيفات التاريخية؛ وما تزال الأشرطة والأحزمة تنتج بهذه الطريقة بواسطة أشخاص عديدين حتى اليوم. وفي دمشق، قمنا بزيارة نساج في مقر عمله (يعمل بواسطة القالب أو القرص) وأملى علينا الأسماء العربية للأدوات التي يستعملها. وأخبرنا أن الجزء الأساسي والهام لأداة النسج بواسطة القالب هو (القرص/الشبر). يبلغ قياس القرص حوالي خمسة سنتمترات مربعة وهو مصنوع من الجلد أو البطاقة الكرتونية مع ثقب في كل زاوية منه. يمر خيط السداة (المدحي) عبر كل من هذه الثقوب.. وإذا تم لف القرص يتشكل الحبل. ينسجم عدد الأقراص مع عدد الحبال؛ وفي مثالنا هذا يوجد عشرون قرصاً من الخيطان السوداء،والبيضاء، الخضراء والحمراء والبني. عندما يتم جمع خيوط السداة كلها، يتم سحبها عبر حلقة من جهة اليسار وتحاك. تثبت الحلقة على الحائط بارتفاع ٥ ـ ٨ سم عن الأرض. يمكنه أن يسحب سداة مقاسها ٣٢٠ سم ويشدها في ورشته. وفي نهاية المرحلة الثانية، تسحب خيوط السداة عبر الفتحات بالمشط الخشبي الخاص بالنسج، فوق مدرج صغير وتربط بخيط قطني أبيض إلى وتد موضوع في الأرض. وتبقى بقية خيوط السداة ملفوفة بالوتد أو القائم.

يضع الحري في كل الأقراص أفقياً عند نهاياتها ويشكل بذلك أرضية لخيط السداة (الحاشية)؛ ثم يعقد خيط اللحمة حول مكعب خشبي (المكوك) الذي يبلغ عرضه ٢ سم وطوله ٣٨ سم له مسكة (سيف) مصنوعة من الخشب، أو العظم أو العاج. ليتم بعدها إدخال مقدار ظفرين من الحاشية على بعد ١٥ ـ ٢٠ من نهايتها للناحية الجهة اليسرى. تتداخل خيوط السداة مع الحبل المفتول لتشكل الشريط أو الحزام. وهكذا يظهر أن نسيج القرص هو دمج ما بين النسج والبسط.

ورث النساج المعلم عبد الوهاب المهنة من والده الذي حصل على شهادة امتياز من فرنسا. ويتعلم ابنه الكبير منه أثناء العطل الصيفية.



٥١٧. نساج بالقرص من دمشق.

٥١٨. أحزمة منسوجة بالقالب، أو القرص، ارتدت النساء البدويات هذه الأحزمة في حوران بشكل خاص.



٥١٩. حزام "مئزر الحليب" مصنوع باستخدام تقنية قالب النسيج. إحدى النهايات مزخرفة على شكل أفعى.



إنتاج القماش:

الفتّال:

يبدأ صنع القماش بشكل عام بغزل (القطن أو الصوف) أو لف ألياف (الحرير الطبيعي) الجيد على البكرة. وفي المدن، تبدأ العملية اليوم في ورشة الفتّال؛ وبسبب تأمين الغزول الكبيرة من المعامل، لا يوجد أي مهمات تذكر للفتّالين اليوم في سوريا، ولذلك نجده مجبراً على ممارسة مهنة أخرى وهي طاوي السداة (المسّدي).

كان عمل الفتّال مهماً، وخاصة لفتل خيوط الحرير الجيدة من أجل إنتاج أنسجة الحرير التقليدية مثل الأيكات القطني والدامسكو والروكار. ويحتاج الفتّال والمسدي من أجل فتل وطي السداة إلى عجلة دائرة (دولاب) ومكبات وملفات للخيوط. توجد اليوم مصانع للمكبات الحديثة مع أو من دون خيوط غزل. ولم تعد تستخدم الكوفية التقليدية التي كانت موجودة في الماضي، حيث تم صنع الغزول التي تصل إلى الورشات بكبات يدوية كما اعتاد الفتال على استخدام الكوفية كجزء لا يمكن فصله عن أدواته في الوقت الذي كانت تأتي فيه الغزول من المصنع ولكن على شكل شلل من الغزالين. يمكن لهذه الشلل أن توضع بسهولة فوق الكوفية وتلف وتفتل ثم يعاد لفها ثانية. وبعد الفتل تبدأ عملية تطبيق السداة.

المسّدي (مطبق السداة):

يتضمن عمل المسّدي تقسيم خيوط السداة إلى خيوط عند الحاشية وخيوط معلقة؛ وتنفذ عملية التصالب بينهما، وحساب خيوط السداة ومقياس طول السداة المرغوب به (مثلاً ٢٦٠م).

يستعمل مطبق السداة لهذه الأشغال قطعتين من المعدات. وحالما ينتهي من عمله، يرسل الشلل المغزولة إلى عامل الأيكات والصباغ أو إلى (الملقي) فوراً، حسب ما هو مراد صنعه.

عامل الأيكات (الربّاط):

إذا كان المراد من الخيط أن يستخدم لأقمشة الأيكات، يبدأ الربّاط بطيه ليشكل نماذج معينة؛ وتصبغ في البداية عدد من الشلل التي لم تعد وتمد شلل الخيطان، من أجل نماذج الأيكات، غير المصبوغة في الفضاء الطلق (على جدران الحديقة مثلاً) ومن ثم تربط في أماكن خاصة. وعندما يتم حزم كل الشلل ترسل إلى الصباغ. ويتم صبغها عدة مرات حسب الألوان المطلوبة لنموذج الأيكات (مثل الأحمر والأصفر والأزرق). وعند الانتهاء من الصبغ والربط تغطس الشلل في النشاء ثم تفرد وتمد حتى تجف. تصف الشلل في مراتب ليتم حسابها ويتم حزم الألياف المضروبة وإصلاحها. وفي النهاية، وبعد أن تصبغ هذه الشلل وتجفف، تحزم حسب النماذج (ألواح جانبية أو مركزية من القماش ليتم نسجها) متراً متراً في شلل ومن ثم ترسل إلى ورشة (الملقي).

الملقي:

مهمة الملقي تشمل إدخال خيوط السداة المتفردة عبر المقود الثلاثي ورؤوس النول والثقوب الهوائية في المشط. وهو لا يقوم بذلك لنسج الأيكات فقط ولكن من أجل كل الأقمشة الأخرى المصنوعة بالنول اليدوي لكل التركيبات؛ ويتطلب عمله حساسية خاصة جداً ولاسيما في حالة قماش الأيكات:

عندما يكون شكل النموذج واضحاً في ذهن الملقي فإنه يقوم بنشر وتوزيع الشلل ذات نماذج الأيكات خارجاً فوق الأرض ويرتبها وفق طلبيات النموذج لتظهر بالشكل النهائي للقماش. يتراوح عدد المحاور الرأسية من أربع إلى اثني عشر حسب النسيج والنموذج الخاص بالقماش. يحتاج الملقي إلى مساعد واحد من أجل سحب خيوط السداة عبر المعابر الرأسية.

يجلس الملقي ومساعده مقابل بعضهما البعض مع القضبان المنفصلة المثبتة بينهما (أربعة من أجل النسيج المنبسط) وخيوط السداة الجاهزة في ترتيبات منفصلة. يفتح الملقي المقود ويأخذ الخيط المسوك خارجاً بواسطة مساعده. ثم يجر الخيط لمسافة ٢٠ سم وبعدها يتركه بين المقودين. تكرر هذه العملية حتى يتم إدخال كل خيوط السداة عبر المقاود. (من أجل أقمشة الحمام التي عرضها ١٦, ١م، نحتاج إلى ٢٨٠٠ خيط على السداة). عندما يتم سحب خيوط السداة عبر الرؤوس، تستخدم الأداة ذاتها لسحب الخيوط عبر الثقوب المفرغة للمشط المعدني. يأخذ المشط مكان المحاور وتتم حمايتها. ومن أجل تمرير الخيوط عبر الفتحات المفرغة للمشط، يستخدم الملقي هنا سكينة مثلمة؛ يأخذ المساعد الخيط الأول ويضعه فوق ثلم السكينة حيث يضعه الملقي بعدها عبر الثقب المفرغ. توضع خيوط السداة كلها بهذه الطريقة عبر المشط بالترتيب الصحيح، وهنا تنتهي مهمة الملقي. وبعد نزع المقود من المشط، تؤخذ المجموعة إلى النساج.

النسّاج (النوّال، النساج، الحائك):

ما تزال تستخدم في سوريا اليوم أنواع متعددة من الأنوال اليدوية، ومن أجل نسج أقمشة الأيكات بالحرير والحرير الصناعي يستخدم النول الرأسي (من دون بطاقات مثقبة). يتم نسج الصوف والقطن عادة على نول نقري.

تم تطوير عدد من الأنوال الرئيسية بإضافة أدوات حديثة خاصة في دمشق، وحد ما في حلب وحمص وحماه حيث يتم تحويل الحرير والحرير الصناعي إلى قماش الدامسكو والبروكار وأنواع أخرى من الأقمشة. كما تم استخدام مكنات الجاكوار وآلة المكوك السريعة.

إن الإطار الأساسي لأنواع الأنوال كافة (النول الرأسي، النول النقري، النول المنفل، النول الجرار أو نول الجاكوار) هو نفسه دائماً من حيث المبدأ، ما عدا بعض الاختلافات

والتحديثات. إنـه يتألف من أربعة دعائم مرتبطة مع بعضها. وتوجد عارضة السداة في الخلف حيث يتم لف خيوط السداة. ومن هنا يجري عبر المقود الثلاثي المعلق بقطعتين من الخشب مشكلة محوراً رأسياً. وبعد ذلك تمر الخيط عبر مشط النسج وتربط إلى العارضة القماشية في الأمام. يجلس النسّاج على لـوح أو مقعد طويل أمـام النول وبواسطة تحريـك الدواسات المرتبطة بالمحاور الرأسية بشكل الحاشية التي يريدها ويمرر المكوك عبرها ويضرب خيط اللحمة بشكل متين داخل القماش المنسوج بواسطة مشط النسج الذي يعلق بالإطار الأساسي.

النول الرأسي:

بعـد تعليق خيوط السداة، يتـم أخذها من الملقي (مقود الخيـط) بواسطـة الممـرات الرأسيـة والمشـط إلى النساج (النوال)، وأول شيء يقوم بعمله يتمثل بادخال المشط داخل الـدرج المتدلي ثم يمد خيـوط السداة المعلقـة على العارضة الصدرية. وعندما تكون العارضة جاهزة للاستخدام، تحرر الممرات الرأسيـة والدواسات التي كانـت معلقة من الإطار. تستغـرق هذه العمليـة من خمس إلى سـت ساعات عمل من النـول ليقوم بهـا. وكلما كان النموذج أكـثر تعقيداً كلما كان استخدام الدواسات والممرات الرأسية أوسع؛ وللقيام بعملية النسيج يجلس النوال على لـوح موضوع بشكل يسمح لقدميه عندما تكون ممدودتين بالوصول إلى الدواسات. يعطيه هذا الوضع المرتفع تحكماً أكبر ورؤية أفضل للنول.

يتـم اليوم في الغالب، تجهيز النـول الرأسي بأداة مكوك سريعـة. ويسرع عمـل المكوك بخيـط اللحمة أثنـاء رجوعه وصعوده بواسطة سحب المقبض.

وعندمـا ينسج، يقوم النوال بـأول دعسة على الدواسات بحيث تنخفض المحـاور الرأسية المرتبطة بها وترتفع محاور أخـرى مشكلـة الحاشيـة. وبسحبـه للمقبض يطلـق خيط اللحمة عرضاً ومن ثم يضربهـا داخل القماش المنسوج؛ إذا أراد النـوال نسج نموذج أصغر أو رسمه فإنه يستخدم مكوكاً أصغر بخيوط ذات ألوان مختلفة ويجر اللحمة عبر الحاشية الجديدة المشكلة علـى عرض النموذج أو الخط فقط. يمكن عمـل النمـاذج المتصالبة فقـط في عملية النسـج المنبسط، وليـس بالإمكان إعدادهـا أو تنفيذها في عملية نسج الأطلس حيث تكون خيوط اللحمة محجوبة تماماً بخيوط السداة.

النول النقري:

يعمل هذا النوع بالمبدأ نفسه تماماً كالنول الرأسي، إلا أن السـداة لا تمد كثيراً وتجري أفقيـاً فقط لمسافة قصيرة قبل الطـي للوراء والأعلى ١٢٠ درجة. هذا يعنـي أنه يأخذ مكاناً أقل. تقـام العارضة الصدرية والإطـار والدواسات بطريقة مشابهة إلى النـول الرأسي لكنها تكون أصغر. تجري خيوط السـداة مـن العارضة الصدريـة أفقياً نحو البكـرة الأولى.

ويمرورهـا تحتها تنقلب بعدها بشكل قطـري للوراء والأعلى لمسافة متريـن أو ثلاثة أمتار حول بكرة أخـرى. يتم تثقيلها للأسفل بحيث تعلق أفقياً خلف ظهر النساج.

يجلس النسّاج هنا فوق لوح على مستوى الأرض أمام العارضة الصدرية، وتكون المسافة للدواسات هي حفرة أو نقرة.

يستخدم هذا النول، بشكل خاص، في نسج السجاد (النسيج المنبسط)، والمناديـل الممتازة الصغيرة المصنوعة من الصوف أو القطـن أو القماش الممزوج ولكـن الأقمشة الأكبر المصنوعة من الحريـر، أو الحرير الصناعي، يمكـن أن يتم نسجها عليه أيضاً. واليوم يكـون للنول النقري غالباً علاقة مكوكية سريعة، رغم أنه لا يستخدم لنماذج صغيرة معينة ونماذج جزئية، حيث إن بعضـ التغييرات في خيط اللحمـة ضرورية، ويتم استخدام عدد من المكوكات اليدوية الصغيرة في هذه الحالة.

من النول الراسم إلى آلة الجاكوار:

استخدم النول الراسم بكثرة لنسج النماذج المعقدة مثل الدامسكو والبروكار إلى أن تم اختراع آلة الجاكوار (من قبل ج. م. جاكوار ١٧٥٢ ـ ١٨٣٤) في القرن التاسع عشر.

يشكّل النـوال الحاشية لقاعدة القماشـ بواسطة الدواسات والممـرات الرأسية، بينما يضع مساعده "الصورة أو الرسمة" في الأعلـى فوق النول منشئاً الحواشـي للرسوم في النموذج بوساطة جر حزم من الحبال مع خيـوط السداة المتماثلة المنفصلة عنها. (تنجز هـذه العملية الآن عـبر أنوال عديدة بواسطـة البطاقات المخرمة). وأكثر من ذلك، لا يتم ربط خيوط السداة على المحاور الرأسيـة ولكن بواسطة مقـاود ثلاثية كل منها معلق به ثقل وزني خفيـف للأسفـل، ويتم تدخيـل الخيط عبر اللـوح الأفقي بثقوب مصنوعة بحذر فيها. ويحمل للأعلى إلى الترتيب المرسوم فوقه.

صممـت آلـة الجاكـوار لمراقبة خيـوط السـداة المسحوبة عبر المحـاور الرأسيـة، وكل محـور معلق فيه ثقل بلاتـين. يتوقف حجم سطح النموذج على عدد البلاتينات (يمكن أن يكون هناك أكثر من ٨٠٠٠). يتـم مراقبة البلاتينـات بواسطة عد من البطاقات المعلقة مع بعضها، والتي تكون مخرمة بثقوب متناسقة مع النموذج أو ربما بواسطة شرائط لا نهائية مصنوعة من الورق أو البلاستيك.

يتـم أنتاج الدامسكو والأقمشة المقصبة (البروكار) على الأنـوال المجهزة بهـذه الطريقة. يستبـدل الدامسكو الممتاز (حريـر عادة) بأطلس السـداة واللحمة التي تعطي القماش نوعيته المميزة البراقة.

يكون البروكار نموذج شبيه بقماش الدامسكو، مصنوع من الحرير الطبيعـي أو الصناعي مع خيوط معدنية منسوج معه. هنـاك أيضاً أقمشة مقصبة مصنوعة كلياً من خيوط الذهب أو الفضـة. ويكون لخيوط القصب عادة نـواة قطنية أو كتانية حيـث يتم غزل الخيـوط المعدنية حولها. أمـا اليوم فنستخدم خيوط خاصة مثل اللوركس التي لا تتأكسد، بشكل محدد.

٢٠

قصص النسيج

مارغريتا بافالوي

ربطت الأقمشة الغالية: البروكار والدامسكو والأطلس مباشرة بالأقمشة المترفة السورية. وتركزت سمعة وثراء المدن السورية وأسواقها عليها. وقد أثارت جودتها ونوعيتها الجيدة وتنوعها الواسع إعجاب وحماس الزائرين في كل الأوقات.

وإلى جانب الأنسجة المصنوعة في سوريا نفسها، تم أيضاً استيراد أقمشة متنوعة من البلدان الأخرى تغني النخبة المتوفرة. تقع المدن في مقاطعات كبرى وقد استند وجودها على دورها كمراكز للتجارة الطويلة المدى ما بين الهند والشرق الأقصى ودول حوض البحر الأبي المتوسط. كانت العلاقات التجارية مع أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر على المستوى نفسه من الأهمية لمثيلتها مع ميسوبوتاميا وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس ومصر، وإلى مناطق الاتصال البعيدة جداً من أفريقيا والهند وآسيا الوسطى والشرق الأقصى.

وصف فولني، الذي أقام في سوريا في نهاية القرن الثامن عشر، مدينة حلب كمركز تجاري أكثر أهمية للتجارة مع أرمينيا وتركيا؛ وقد تم إرسال قوافل تجارية من حلب إلى بغداد وبلاد فارس. وكان إيصال مع الهند يتم عبر بصرى والخليج الفارسي، ومع مصر ومكة عبر دمشق. وكانت التجارة الحلبية مع أوروبا تتم عبر ميناء الإسكندرية وميناء اللاذقية. ومن ضمن البضائع التجارية الأكثر أهمية التي ذكرها فولني كانت الأنسجة الصوفية أو الغزول المحلية الأخرى الأقمشة الخشنة، التي تم نسجها في الأرياف والأقمشة الحريرية الجيدة المصنوعة في حلب، والقطن من الهند والموسلين في العراق والشالات من كشمير. يحمل المسافرون الآخرون في عودتهم البروكار من دمشق باعتبار أنه من الأنواع التي تروق لهم كثيراً.

كان إنتاج النسيج مع كل الصناعات المضافة إليه والمتعلقة به، القطاع الاقتصادي الأكثر أهمية ليس فقط في المدن السورية ولكن أيضاً في العديد من المدن الأخرى ضمن العالم الإسلامي. ارتفع الطلب الكبير على الأنسجة بكافة أنواعها بسبب الأهمية الخاصة التي حصلت عليها الأقمشة؛ وما تزال في المادة والمحتوى الاجتماعي في العالم الإسلامي.

يشجعنا التحدث عن « ثقافة النسيج» بالإشارة إلى مستوى الأقمشة والطريقة التي استخدمت فيها؛ فهناك طلب هائل على الأقمشة ليس فقط من المحاكم والقصور؛ ولكن أيضاً من سكان المدن وخاصة الطبقة العليا. لا يشمل ذلك فقط الألبسة بل والديكورات الداخلية أيضاً التي تتألف بشكل أساسي من الأنسجة وعندما زار براوني دمشق في نهاية القرن الثامن عشر، وصف المنازل ذات الدواوين والصوفايات الكبيرة من الحرير الفاخر المزين بالخرز أو العقد. (براوني ١٨٠٠/ ٦٩-٥٦٨). وقد رافق هذا الطلب على الأنسجة، الضغط على العمل. ومن المعروف أن قسماً كبيراً من سكان المدن يكسبون عيشهم بقطاع النسيج. يقول براوني عن دمشق:

« إن دمشق هي مركز التجارة الهامة وغالبية عمالها وصناعها من المسلمين والمسيحيين. إنهم ينتجون البضائع الحريرية والقطنية..» (براوني ١٨٠٠: ٥٥٢).

يعود تاريخ إنتاج النسيج في سوريا إلى العصور القديمة. وتم تحديدها بعاملين: الأول كان الموقع جغرافي لسورية بين عالم البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى الذي حدد قدرها التاريخي والسياسي. هذا يعني أن سورية كانت دائماً جزءاً من الإمبراطوريات العظمى أو موضوعاً للتنازع فيما بينهم (ما عدا بعض الفترات).

كان إنتاج النسيج في سورية سائداً من قبل الهيلينيستيك وبعده البيزنطيين والتقاليد الساسانية حتى الفتح العربي وتأسيس الخلافة الأموية في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

وقد كانت الأقمشة البيزنطية والفارسية الثقيلة والحرائر من إنطاكية والأنسجة الأرجوانية من التيرو والأقمشة الاسكندرانية الجيدة، مطلوبة وبكثرة. وكانت تجارة الأقمشة بين بيزنطة والساسانيين تحت إشراف دقيق أو تصدير المطرزات من سوسة مثلاً، أو الأقمشة الأرجوانية محدودة جداً. وقد دل الغزو العربي وانتشار الإسلام وتأسيس الخلافة على إلغاء الحدود والعوائق والمراقبات؛ وامتد انفتاح السوق إلى الثقافة والتجارة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الهند وآسيا الوسطى. وفي ظلها أمكن للحرفيين والبضائع والتقنيات والنماذج، التحرك والدوران بحرية والتأثير على كل منهم. تحدد إنتاج النسيج بأسواق جديدة ومتطلبات جديدة. جلبت الأنسجة الإسلامية معها التراث البيزنطي والساساني وامتصت التأثيرات من الهند وآسيا الوسطى وكذلك من الصين؛ وفي الوقت نفسه طوروا طرازهم الشخصي المتميز جداً؛ ومع الفتح العربي الإسلامي أصبحت سورية مركزاً هاماً لإنتاج النسيج في العالم الإسلامي. كان العامل المحدد الثاني لإنتاج النسيج في سوريا وما يزال، المدخل إلى المواد الأولية. اثنان منهما، الصوف والكتان، توافرا منذ عصور سحيقة. استورد الكتان بشكل أوسع من مصر، وتأمن الصوف من البدو في الصحارى والسهوب السورية. وكان الحرير والقطن، من ناحية أخرى، المواد الأولية الجديدة بالنسبة لعالم البحر الأبيض المتوسط ولفترة طويلة توجب استيرادها؛ وقد كانت مراقبة وتوجيه المواد الأولية والطرق التجارية التي نقلت عبرها أمراً سياسياً هاماً. لم يكن الحرير والأقمشة الفنية المصنوعة منه، من الكماليات الضرورية لطرق معيشة ونزوات الطبقة الغنية من الناحية الاجتماعية فقط، بل كان له أهمية سياسية واقتصادية حاسمة أيضاً.



٥٢١.



٥٢٠.





٥٢٢.



٥٢٤.



٥٢٣.





٥٢٠ و٥٢١. دثار استحمام للذهاب إلى الحمام قبل العرس، مع مطرزات بروكار عالية الجودة. تشبه الأعمال الدمشقية نماذج أوروبية، القرن العشرين.

٥٢٢ و٥٢٣. ياقة ومقالب أكمام مزينة بغزول فضية منسلة. الخطوط المرسرمة والمطرزة تعطي الصحة للمرآة التي ترتديها (حسب اعتقادها).



٥٢٤. قطعتين من ثياب عرس لامرأة من دمشق في بداية القرن من البروكار الغني بالتطريز والمزين بالخرز المشكوك، وهي نماذج تذكارية لفن الزخرفة الحديثة.

٥٢٥ و٥٢٦. دثارات استحمام من دمشق، القرن التاسع عشر. نموذج التطريز على البروكار من التقاليد الفارسية.

٥٢٧-٥٢٩. ثوب عرس دمشقي مصنوع من المخمل مع تطريز مقصب (صرما) بداية القرن العشرين. معالجة الرسوم التقليدية مثل الإناء الصغير وغيره.





كانـت جغرافية سوريــة ملائمة لإنتـاج الحرير في بداية القرن السادس في الأقاليم الشمالية وسهل العاصي، وزراعة القطـن خاصــة في المنطقة بين حماه وحلـب وحوض الفرات العـالي، لذا كان المنتـج الرئيســي لسورية مزيـج من نسيج القطـن والحرير وغالباً قماش الأطلس مع خطوط طولانية مثل الأليبين الذي ما يزال يصنع حتى اليوم.

كانـت الأصبغـة من الأمـور الهامـة أيضاً مثل المـواد الأولية للأنسجــة. كان تأمين المواد الطبيعية لإنتـاج الأصبغة قبل عصر الكيميـاء مهدرة للوقـت والمال؛ كمـا كانت الصباغـة جزء مهم مـن عملية تدعيم الأقمشة، وقـد تم الاحتفاظ بتقنيات الصباغة ووصفاتهـا بحرص شديد مثل سر تربيـة دودة القز. غير انبثاق العـالم الإسلامي الأمور وطورها بشكل متتابـع فيما يخص أمور العــالم الإسلامــي والفرص التـي أوجدهـا من خـلال الحكايا والنــوادر التـي رواها السعدي عندما وصف لقـاءه مع تاجر غني في جزيــرة كيش (مقتطفة من لومبارد ١٦٢: ١٩٧٨). باح التاجر بســره إلى السعـدي قائـلاً: «أود أن آخـذ زعفـران أو حجر جاد فارســي إلى الصين، حيث سمعـت أن المرء يمكن أن يحصل على ثمن جيد له هناك، ومــن ثم بورسلين صيني إلى بيزنطة وقماش القصب البيزنطي إلى الهند، والستيل الهندي إلى حلب والزجاج الحلبي إلى اليمن، والأنسجة اليمنية المخططة إلى بلاد فارس».

الحرير: ثراء وسلطة:

كان الحريـر في العصور القديمة نـادراً جداً. ولفترة طويلة كان النـاس لا يعرفـون مـا هـو الحرير بشـكل دقيـق، حيث أن الصيـن حافظت على تربية دودة القـز وإنتاج ومعالجة الحرير كسرٍ محصور فيها. وليس مدهشاً أن الناس قاموا بجهود مكثفة لاكتشاف هذا السر، أو على الأقل مراقبة الطرق التي تم عبرها تجارة الحرير. هناك اثنان من الطرق الهامة التجارية، فرعان مــن طريق الحرير ينتهيان في سورية أحدهما من الطرق البرية القادمة من وسط آسيا عبر فارس والعراق إلى حلب ويستمر إلى إنطاكية. والآخر طريق بحري قادم من المحيط الهندي والخليج الفارســي إلى البصــرة حيث يمكن هنا أن يبـدأ الطريق البري إما عبر بغداد والموصل إلى حلب، أو عبر الصحراء السورية إلى تدمــر، ومن ثم إلى دمشق والطيرة. ومــن سورية تستمر تجارة الحرير إلى داخل دول حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا.

كانـت روما تستورد حريرها مــن سورية ولبنان؛ وكان لتجار الحرير مركزاً خاصاً في روما. إن ارتداء الملابس الحريرية يسبب حساسية وإثارة. ولفترة من الزمن، كان محظوراً ارتداء الألبسة الحريرية في مجلس الشيوخ، حيث اعتبرت أقمشة الحرير مؤنثة وهكذا انحصر ارتداؤه للنساء فقط. حتى أن المسيحيين في روما كانوا أكثر تشدداً وأقـل حماساً في هذا وقد صرحوا أن المسيحي الحقيقي لا يرتدي الحرير. ولكن الميزة المغرية لهذه المادة كانت كبـيرة كفاية لهـذه المواقف المتزمتـة ليتم كشفهـا. وسرعان ما أصبـح ارتداء الألبسة الحريرية أمراً اعتيادياً بالنسبة للأغنياء ولأصحـاب السلطـة. عندما زار الملك الســوري هيليو- غابالوس من حمـص، روما في بداية القرن الثالـث، كان أول رجل يرتدي ثياباً مصنوعة بالكامل من الحرير.

وبالنسبة لروما، أصبحت تجارة الحرير مصدر رئيسي للدخل ولكنهـا بقيت معتمدة على بلاد فارس. وعندما عقد ديوكليتيان صلحـاً مع بـلاد فارس عـام ٢٩٧٧، أصبحت الحـدود والمراكز الجمركيـة في نسيبيز محور تجارة الحرير بين الإمبراطوريتين. وفي عام ٣٠١ ثبت ديوكليتيان ضرائب وأسعار الحرير.

تديـن تدمر بازدهارهــا أيضاً إلى تجـارة الحرير. فبوقوعها في وسط الصحــراء السورية، كانت المركز الأكـثر أهمية للقوافل التجاريـة بين حوض الفرات وحوض البحر الأبيض المتوسط. وقد حققت أهميــة سياسية وترفاً كبـيراً أثناء حكم الملكـة الأسطورة القويـة زنوبيا التي حكمت البلاد من تدمر. ولم يكن هناك تجارة فقـط في أقمشة الحرير المصنوعـة في الصين ولكن الحرير أيضاً تم استـيراده بالشكل الخـام، ليتم غزله ونسجــه وصبغه ومن ثم حياكته وارتداؤه. نجـد دليلاً على ذلك في الألبسة المنسوجة ومن ضمنها الدامسكو الحريري الموجود في تدمر. وقد استمر جزء من طراز اللباس (وأغلبها الأزياء النسائية) والحلي المرئية الموجودة في التماثيـل حتـى يومنا هذا. ولكـن ومع تحول الطـرق التجارية بسبب الحروب والخطـر الناتج بذلك على الطرق، أدى إلى نهاية العصر الذهبي لتدمر وكما العديد من الأماكن في سورية أصبحت «مدينة منسية» يستريح فيها البدو الآن في ظل آثارها الضخمة.

هنـاك قصـص عديدة تبـين كيف تم تهريـب الحرير خارج الصين. إحداها تروي كيـف أن أميرة صينية عندما تزوجت من أمير خوتان أخذت الشرانق الحريرية عبر الحدود ضمن تسريحة شعرها الخاصة بالعرس لتعطيهم لعريس المستقبل كهدية.

كانـت دول آسيا الوسطـى وبلاد فارس الممـول الأكثر أهمية للحرير بالنسبة للبيزنطيين. وقـد جعلت الضرائب والرسوم من الحرير مادة خام غالية الثمن ومن الصعب الحصول عليها. ومن أجـل تلبية الطلب من المحكمة البيزنطية، أنشأ جوستانيان نظام احتكار عملية معالجة الحرير التي كانت تتم بشكل كامل في دولة جيناميسيا (مصانع النسيج). وقد أرغم نساجو الحرير الخاص علـى الدخـول في السوق الســوداء. وعندمـا انقطعـت إمدادات الحريـر أثنـاء عام ٥٤٠م، هاجـر عدد من نساجـي الحرير من سورية ولبنان إلى بلاد فارس؛ وبعد انتصارهم على البيزنطيين، كسـب الفرسـن أخـيراً عملية المراقبـة والسيطرة علـى إمدادات الحرير، التي أدت إلى أزمة في إنتاج النسيج في جيناميسيا.

انكشـف ســر إنتاج الحرير وجـاء إلى بيزنطـة بواسطة اثنـين من الكهنـة عام ٥٥٣. فبعـد زيارة إخوانهـم في آسيا الوسطى عادوا عبر الحدود محملين معهم بيوض دودة القز مخبأة في عصي المشي خاصتهم.

تعتـبر أوراق شجـرة التـوت التي تنمـو في الجبـال السورية واللبنانيـة المادة الغذائيـة أو المصدر الغذائـي الرئيسي لديدان الحرير. وانتشرت معامل غزل الحرير في بيروت وحمص وحماه.

ومنذ تلك الفترة، أصبحت عملية إنتاج ومعالجة الحرير في البلاد إحدى أهم عوامل الاقتصاد في الإقليم السوري واللبناني.

وعندما فتحت الجيوش الإسلامية دمشق بقيادة خالد بن الوليد، أوقف ٣٠٠ جملاً محملاً بالحرير. دفعوا له جزية قدرها ١٠٠٠٠ قطعة ذهبية و٢٠٠ قطعة من الثياب الحريرية. وكما المسيحيون الأوائل في روما، فقد اعتبر المسلمون الأوائل استعمال الحرير مادة ترفيهية، حسب وجهة نظر الدين الحقيقي، ولكن في الواقع أصبح الحرير الآن لا يمكن فصله عن الحكم الأموي، كما كان بالنسبة للأباطرة الرومان. هناك مثال على رفضه: يقال إن امرأة بدوية من إقليم الفرات أخبرت زوجها معاوية أن ارتداء عباءة يدوية بين أقاربها يجعلها سعيدة أكثر من ارتدائها الحرائر وهي بعيدة عنهم في دمشق.

لم يجعل الغزو الفارسي، العالم الإسلامي منافس هام للصين في إنتاج الحرير فقط، بل إنه جعل منه المسيطر الرئيسي على الطرق الأكثر أهمية لطريق الحرير مانحة إياه احتكار الحرير. وقد أسس الحكام والخلفاء المسلمون مثل البيزنطيين من قبلهم ورشات عمل محلية تلبي متطلباتهم ولكن دون أن يغلقوا ورشات العمل الخاصة. أما الاسم العام الذي أعطي إلى الأنسجة المصنوعة في هذه الورشات فهو التيراز. وكانت الدولة الفاطمية في مصر مشهورة بذلك وقد لعبت الأنسجة دوراً هاماً في سياسات الحكام المسلمين. وكانت الألبسة الغالية القيِّمة توهب وتهدى للضيوف والمسافرين. انتقلت الأقمشة والألبسة من جيل إلى جيل ترافقها قصصاً تروي كيف تم الحصول عليها. إن المعرفة الجيدة لتنوع وثبات الأنسجة وكذلك الحاجة إلى الأنسجة الترفيهية أمر هام وملحوظ جداً: «لعل الله يرزقني بعباءة مخططة من اليمن وثوب كتاني من مصر وقصب من بيزنطة وحرير من السوسة والصين وألبسة ومعاطف فارسية من أصفهان وأطلس من بغداد وأقمشة عمائم من أوبول وسراويل أرمنية ومخمل من ميرف. لعل الله يرزقني بسجاد وقطع كبيرة من السجاد من كاليكالا ومايسان وبسط من بغداد». تلك كانت رغبة المسلم الغني في القرن الحادي عشر (مأخوذة من لو مبار ١٩٨٧).

تعطي المصطلحات المستخدمة للأقمشة والألبسة المصنوعة منها فكرة عن المجال الواسع لإنتاج النسيج. يشير الاسم إلى الأماكن التي صنعت فيها الأنسجة أو إلى المواد الأولية المستخدمة فيها: نسيجها وتطريزها وغير ذلك. تستخدم هذه المعلومات لمعرفة مكان المنشأ لأقمشة وتقنيات محددة وكذلك توزعها (وتقليدها). كان الطلب على العمال التايلانديين مع المعرفة الضرورية كبير جداً، وقد تم جلبهم للعمل في المحاكم وقاعات الحكم. وبعد الحروب كان المنتصرون يأخذونهم معهم في الغالب وبالقوة إلى بلادهم، وهذا يفسر سبب الظهور المفاجىء أو الاختفاء المفاجىء لأقمشة وتقنيات معينة في مناطق عديدة من العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال، تم جلب نساجي الحرير الصينيين إلى الكوفة عن طريق العباسيين (شهاب ١٩٦٧). بعد حملته عام ١٤٠١، صادر تيمورلنك نسَّاجي الحرير الدمشقي والعمال المهرة الآخرون وأخذهم معه إلى وسط آسيا (لومبارد ١٩٨٧).

توسَّع الاهتمام أكثر في إنتاج المادة الأولية والسيطرة على الناتج النهائي. نجد تعليمات خاصة بزراعة القطن والكتان وتربية دودة القز والصباغة وغيرها في مصادر من نهاية القرن الثاني عشر. تتضمن كتيبات مراقبي السوق معلومات مفصلة عن الإجراءات في حالة تحريف وصبغ الأقمشة. لاحظ كريمر في منتصف القرن التاسع عشر أن «إنتاج الحرير يخضع للإشراف القضائي» (١٨٥٥).

وتبين المصادر التي وصفت القرائن الخاصة التي تم فيها استخدام الأنسجة، لماذا تلعب الأنسجة دوراً مميزاً في الثقافة الإسلامية. ومن الطبيعي أن تركز المصادر بشكل خاص على المحاكم ودور الحكم والطبقة العليا المدنية. أنها تخبرنا عن الموضات والممارسات في المحاكم ومتطلبات سكان المدن ودورة الأنسجة في المناسبات الاجتماعية مثل الأعراس وتوزيع الأنسجة كإشارة على الهيبة أو هبات من أصحاب السلطات إلى من ينضوون تحت لوائهم (سكاريس ١٩٨٩، لومبارد ١٩٨٧).

تم الاحتفاظ بأقمشة خاصة ونماذج وأصبغة للحكام المسلمين والعاملين في المحكمة وأصحاب المقامات الرفيعة والفرق الاجتماعية الخاصة ورجال الدين. كل أولئك كانت لهم عمائمهم الخاصة بهم وقد تميزوا بواسطة أزياء الثياب الدقيقة، خاصة في المحيط المدني في أنظمة الأقمشة فقد كانت عرض مجرد للعلاقات الاجتماعية وانعكاس للمعايير والقيم التقليدية وكذلك الموضات في ذلك الوقت. كان نشر تلك الأنظمة أداة سياسية لا يمكن تقدير سلطتها. سيطر ذلك على قيم الثقافة الإسلامية المرتبطة بالأنسجة مادياً ومعنوياً. لكن استخدام أنسجة معينة لم يكن المساهم الوحيد في نموذج الحياة الثقافي ولكنه كان معياراً لإنتاجهم. يتم تحديد نظام العمل بالمهن القديمة. أدى ذلك التوافق والانسجام بين أصحاب المهن المتفردين المتعددين المساهمين في صنع النسيج، وكذلك في انبثاق العلاقات الاجتماعية العملية الحميمية وإلى إيجاد حس ضروري من التضامن. تعتمد الحياة الاقتصادية للحرفيين والأقمشة في المجتمع على استمرارية نموذج الثقافة الكلي في المكان الذي توجد فيه الأنسجة والتي تعطي هذه المواد ميزتها الثقافية والاجتماعية. أمكن أمام هذه الخلفية قياس مستوى التغيرات التي بدأت في نهاية القرن التاسع عشر.

حدد اندماج سورية في الأسواق الأوروبية المتوسعة في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، بداية تغييرات اقتصادية اجتماعية بعيدة المدى، كان له صدى واسع وخاصة على صناعة النسيج. تم اكتشاف سورية كسوق جديدة للأقمشة الصناعية الأوروبية، والمعاهدات التي تمت بعد عام ١٨٣٨ بين عدد من الدول الأوروبية والإمبراطورية العثمانية عززت ظروف تصدير ملائمة جداً لبضائعهم. وقد كان للقناصلة الأوروبيين الحق في مراقبة وضع السوق في المنطقة، والدفاع عن مصالح حكوماتهم وضمان عدد



٥٣٠. الأيكات الحلبي التقليدي، أقمشة حمام حريرية.



من الامتيازات الخاصة للمسيحيين المحليين من أجل ضمان وتعميق الاتصالات الخاصة بالأعمال. وفي الوقت نفسه أصبحت سورية مصدراً هاماً للمواد الخام للحرير وخاصة لصناعة الحرير الفرنسي في ليون. وكان الإقليم المعروف الآن بلبنان الممول الرئيسي للسوق الفرنسية. وكان الحرير السلعة الرئيسية في ميناء بيروت، ريثما يتم شحنه إلى مرسيليا. اندمج الحرير مرة أخرى في الحياة السياسية. وفي سورية ازداد عدد أشجار التوت المزروعة بشكل سريع في الأقاليم التي اعتبرت كمناطق ثانوية لإنتاج الحرير مثل منطقة صافيتا حيث تم تكثيف الإنتاج فيها. بدأ عدد من الفلاحين في ظل ظروف جيدة بزراعة التوت بدلاً من أشجار الفاكهة أو الزيتون. ولكن بعد عام ١٩٣٠، عندما انهار الطلب على الحرير السوري (اللبناني) وانحدرت صناعة الحرير في ليون، واجه عدد من الفلاحين الذين تحولوا إلى الوجهة التثقيفية دماراً مالياً. وقد تم مكننة عملية إنتاج الحرير في سورية. وقد عملت عدة نساء أرمنيات في ورشات غزل الحرير. وتم توظيف أغلب رأس المال الفرنسي في هذه الأعمال والمكنات اللازمة التي تم استيرادها من فرنسا. وأنشأ عدد من رجال الأعمال السوريون الذين كانوا على صلة مباشرة مع ليون، معامل أو مكننوا أعمال النسيج الخاصة بهم. وما تزال بعض المعامل تستخدم الآلات ذاتها من تلك الفترة. أدى إغراق السوق بأقمشة بريطانية رخيصة وكذلك هبوط وارتفاع أسعار المواد الأولية للقطاع التقليدي، إلى انحدار عنيف في نسبة إنتاج النسيج السوري: ففي دمشق، انخفضت تقريباً إلى النصف بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٥٠ وانخفض إنتاج المواد التقليدية بحدود ٤/٣ (ثلاثة أرباع) تقريباً. يعول كريمر ذلك أو يرجعه (بشكل غير دقيق تماماً): إلى الدواوين التي تم تغطيتها بالقماش المقصب (البروكار) الذي أصبح مشهوراً باسم الدامسكو الآن وبالقماش الإنكليزي القطني الخام المنقط بالألوان.

بدأ الناس بارتداء الثوب الأوروبي في المدن، ومع ذلك ما تزال صناعة النسيج السوري قادرة على الدفاع عن نفسها كشريك في السوق. لقد كانت قادرة على ذلك بالتركيز المتزايد على الأسواق المحلية بتزويدهم بالأقمشة المألوفة، وبتقديم بدائل أرخص للأقمشة التقليدية بواسطة تغييرات بنيوية مثل عملية معالجة المواد الأولية الصناعية (مثل الغزول) المستوردة من أوروبا، وبتأسيس مراكز متخصصة بالإنتاج في المدن. تحولت حلب، على سبيل المثال، إلى إنتاج أنولع أرخص من المواد المخططة التقليدية، إلى معالجة كمية أكبر من القطن، وبقيت مركز الصباغة في سورية. تخصصت دمشق في صنع الأنسجة الغالية الثمن مثل القصب المذهب والحرير وركزت على الصوف، وتم استخدام بعضاً منها في صنع العباءات البدوية. من جهة ثانية، ما تزال تنسج الأقمشة الحريرية الثقيلة النموذجية للزبائن الفلاحين والبدو بنماذج الخيوط الفضية والذهبية في حمص.

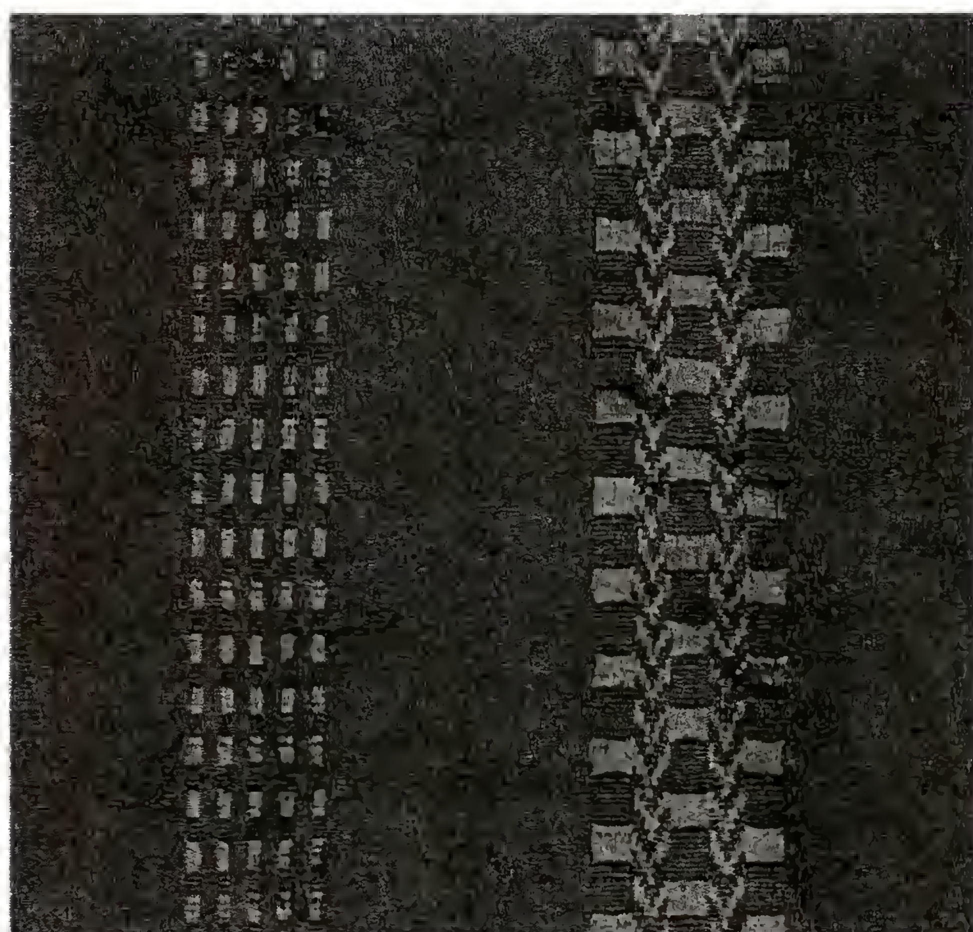
كان العائق الثاني لقطاع النسيج التقليدي نتيجة الحرب العالمية الثانية وبشكل عام أكثر، التطور الحديث والتصنيع الذي حدث مع الاستقلالية في سورية.





٥٣٢-٥٣٥. المعاطف الرجالية والنسائية المصنوعة من أقمشة الأيكات في حلب. وكذلك نموذج الأيكات للمعطف النسائي، في الأسفل، من جهة اليسار يقال إنه تم نسجها أيضاً في حماه حتى عام ١٩٥٠. التفصيل في الأسفل من جهة اليمين يظهر نموذجاً لبطانة معطف من الدامسكو.





الأقمشة الحلبية، النسَّاجون الحلبيون:

كانت حلب بسبب وقوعها قرب مناطق زراعة القطن في الشمال الشرقي من سورية ومناطق إنتاج الحرير حول إنطاكية وجبال العلويين ولبنان، إحدى المراكز الضخمة لإنتاج النسيج خلال الحكم العثماني. تحدث الناس بعدل عن التجارة الحلبية الضخمة وأسواقها وما يزال الخان والقيصري يحمل شاهداً على هذا التقليد.

وبصرف النظر عن التقلبات الآنية التي سببتها العوامل السياسية الداخلية والخارجية، أصبحت قادرة على الاحتفاظ بموقعها كمركز لإنتاج النسيج حتى بداية القرن التاسع عشر. وما زال شوبرت يكتب (١٨٣٩): «يقال إنه أكثر من ٤٠٠٠٠ عاملاً يوظفون فقط في معمل الأطلس والحرير المخطط أو المزهر، المشغولة غالباً بالذهب» وأصبح الأمر أسوأ منذ منتصف القرن التاسع عشر، مع الانحدار السياسي والاقتصادي للإمبراطورية العثمانية وقوة الحضور والمنافسة الأوروبية، كانت أعمال النسيج الحلبي في مركز صعب جداً، لقد انخفض عدد الأنوال اليدوية بشكل كبير: من ١٠٠٠٠ عامل في عام ١٨٢٠ إلى ٥٨٥٠ عامل في عام ١٨٩٠.

وبعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، كان حلب إلى حد ما منفية بسبب الحدود الجديدة إلى مركز هامشي؛ أدت الاختراعات التكنولوجية الجديدة مثل تلك الأنوال المكننة (عام ١٩٠١ كان هناك حوالي ٥٠ نول جاكوار يعمل في حلب) ومواد أولية جديدة مثل الحرير الصناعي والكهرباء عام ١٩٢٩، إلى إعادة بناء عشرة من الثمانية عشرة من ورشات الغزل والنسيج الحلبي.

وبعد الحرب العالمية الأولى، جعلت الحرب العالمية الثانية الوضع الاقتصادي أسوأ. وجد المنتجون أنفسهم منقطعين عن أسواقهم القديمة وعن إمداداتهم من المنتجات الجاهزة التي كان يعتمد عليها قطاع النسيج.

وبعد الاستقلال، كان «النول القطني» حتى عام ١٩٥٠ عاملاً لازدهار قصير الأمد للنساجين في حلب. ولم يشعر أحد بصدى هذه التغييرات التي حصلت سابقاً حتى عام ١٩٥٥. وحتى ذلك الحين كان ما يزال هناك ما بين ٤٥٠٠ - ٧٠٠٠ نول يدوي قيد التشغيل. أرغم برنامج الدولة الجديد للتصنيع وخاصة التوزيع المراقب للحرير على النساجين في القطاع الخاص، إنتاج النسيج الحلبي شريطة أن تبقى في مركز هامشي من عام ١٩٦٨ وحتى الآن.

لكن، ظل إنتاج النسيج في حلب مهم جداً، رغم أنه يتم التركيز اليوم على معامل الدولة الحديثة. في عام ١٩٧٢، كانت ٥٤٪ من القوة العاملة في هذا القطاع، وعلى مستوى القطر كانت النسبة ٤٧٪ (كورناند ١٩٨٦). نلاحظ تهميش قطاع النسيج التقليدي ثانية في الانخفاض الكبير في عدد الأنوال اليدوية. وفي عام ١٩٧٣، كان هناك حوالي ٣٥٠٠ نساج تقليدي، لكن اليوم هناك فقط حوالي ٢٠٠ نسَّاج يعملون بالطريقة التقليدية. إضافة إلى أن هناك أيضاً عدد غير معروف من الأنوال التي يتم العمل عليها في الصناعة المنزلية. يظهر موقف الصناعة الحديثة تجاه النسيج التقليدي بتعليقات الصناعيين من حلب، الذين أخبروا كورناند عام ١٩٨٢ أن ما بين ١٠٠ - ١٥٠٠ نساج يدوي كانوا كلهم مطلوبين لتلبية حاجات الزبائن المستعصية.

من المدهش جداً أن تجد التنوع والنوعية الجيدة للأقمشة التي ما تزال تصنع باليد، باستخدام عمليات خاصة منظمة على الطريقة التقليدية. تعتبر الأقمشة والوشاحات والأقمشة المنسوجة اليوم/ صدى الحنين للصناعة المزدهرة وزيارة إلى النسَّاجين في ورشاتهم تعتبر تجربة محزنة. فأغلب النسَّاجين اليوم هم كبار في السن، ينسجون متراً بعد متر بصبر يصدق. لقد تعلموا تجارتهم من آبائهم ولكن نادراً ما يتبعهم أبناءهم بسبب قلة المردود. وعند نهاية هؤلاء النسَّاجون، لا تذهب المهنة التقليدية فقط ولكن يتم نسيان معرفتها التي كانت سابقاً تأكيداً على شهرة الأنسجة السورية. يعني إغلاق ورشات النسَّاجين تغيير شخصية وهوية المناطق كلها من المدينة، العملية التي كانت مستمرة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

ما تزال معظم الورشات نشيطة اليوم وتركز على القسم الشمالي خارج جدران المدينة أي خارج المدينة القديمة. بدأ إلغاء الورشات في هذه المنطقة باكراً منذ القرن السادس عشر وبشكل مكثف في القرن السابع عشر، عندما لم يعد المكان المحدود ضمن جدران المدينة في السوق والخان كافياً للطلب المتزايد للأمكنة للمهنيين (الحرفيين). في ذلك الوقت كان النساجون ما يزالون يعملون في القيصرية. وما تزال عدة أبنية تحمل آثار الهزة عام ١٨٢٢ حيث تضرر الطابق الثاني في العديد من المنازل ولم يتم إصلاحها بعد.

يضم الخان القيصرية في المدينة (أي سوق المدينة) المكاتب ومخازن التجار الذين يملكون المؤسسات والأعمال. إنهم يعطون توكيلاتهم للنساجين في المنطقة الشمالية، ويؤمِّنون لهم المواد الأولية الضرورية، يوقِّعون العقود مع الممولين والمتخصصين. يكون ذلك في المكان الذي يتم التسليم اليومي للإنتاج حيث يأتي ويذهب الوكلاء، ويتم تحضير الأنسجة للتصدير. ومن المكان الذي يتم فيه تزويد المحلات في السوق. هناك علاقة مباشرة بين أصحاب المؤسسات وعمالهم. فصاحب المؤسسة هو الشخص الذي يلجأ إليه العامل عندما يصادف أي مشكلة حتى الخاصة منها، ولكنه أيضاً الشخص الذي يدفع أجوراً تكون في بعض الأحيان بائسة جداً. وهناك عدد من النساجين يدفع لهم أجرهم بالقطعة.

يمتلك أصحاب العمل والتجار وأصحاب المؤسسات في تنظيمهم: رأس المال وشبكات العمل المطلوبة لبيع البضائع، أما الحرفيون فليس لهم أي منها. يعود اعتماد أصحاب العمل على حرفييهم إلى المعرفة التكنولوجية الخاصة بالحرفيين. وباعتبار أن أصحاب العمل، كقاعدة، يكونون جهلة في هذا المجال، فإنهم يشكلون رأس مالهم من الحرفيين، كما هو الحال سابقاً. تهتم هذه المعرفة بمراحل العمل الفردية فقط التي تكون أجزاء من عملية الإنتاج الكلية للنسيج، وهناك مراتب معينة للمتخصصين المتعددين.

أسواق وبضائع خاصة:

كانت الأنسجة، التي ما يزال النسّاجون الحلبيون يقومون بصنعها اليوم، وباعترافهم الخاص، انعكاساً ضعيفاً عن المستوى الذي كانوا يقومون بإنتاجه ذات مرة. وغالباً ما يشيرون بعلامة مسجلة إلى البطاقات المغبرة لأنوالهم الخاصة بالجاكوار التي لم تعد تستخدم الآن، إما بسبب عدم وجود طلب كبير عليها أو بسبب الغلاء الكبير للمنتج. أو ربما وببساطة لأن الحرير المطلوب لم يعد متوافراً لديهم الآن.

محتمل أن يحتاج أحدهم لمعرفة الأوقات القديمة لفهم هذا، بما أن الإمدادات بالأقمشة المنسوجة يدوياً ما تزال غالية جداً. وبشكل عام، يتم نسج أطوال من القماش. طول واحد منه (الصاية) كافٍ لصنع لباس (فوقاني) علوي أو معطف (قمباز). لقد أصبحت كلمة (الصاية) مصطلح عام ومرادف للثياب المصنوعة من المادة ذاتها، ولكنها تختلف عنها في القصة. لقد تم تقصير المعطف الطويل للرجال تحت تأثير الزي الأوروبي لطول الجاكيت. تصنع ألبسة الرجال والمعاطف القصيرة والطويلة غالباً من القماش نفسه. يكتمل زي الرجال بالطربوش. واليوم يتم ارتداء هذه الألبسة التقليدية من قبل الرجال الكبار في السن. يكون القماش عادة مخطط طولياً وغالباً ما يكون أطلس منسوج أو نسيج مضلع. الكلمة التركية لقماش القطن أو الحرير الأطلس الذي يطلب أكثر من غيره هي (القجة). تختلف الأقمشة المخططة طولياً في ترتيب ألوانها وفي النموذج المنسوجة فيه. تعد خيوط السداة بشكل منسجم مع ألوان الخطوط ويتم تركيب البطاقات المثقبة للنماذج المرغوب فيها.

كانت خيوط السداة في السابق من الحرير، لكن اليوم تم استبدالها بخيوط الفيسكوز. أما خيوط اللحمة فهي من القطن ويتم تغطيتها بنسيج الساتين بحيث يمكن رؤيتها من الخلف فقط. تشير أسماء الأقمشة إما إلى عدد الخطوط السبعة المختلفة ألوانها والتي تتكرر باستمرار وبالتناوب) أو إلى النماذج المنسوجة على شكل: نواعير المياه، السلسلة.. إلخ، لقد طوّر تجار ومنتجو النسيج مصطلحاتهم الخاصة المعقدة. وغالباً تحتوي الكلمة الواحدة على بيانات تفصيلية تقنية، وكذلك معلومات عن المادة والألوان ونموذج القماش. تحاك هذه الأنسجة على أنوال الجاكوار أو الأنوال الفرنسية، خلافاً عن الأقمشة الأخرى التي تحاك على الأنوال العربية، حيث يكون لها أنواع عديدة. يعني الطلب الكبير على هذه الأقمشة التقليدية أنه كان هناك وما يزال علاقة مباشرة بين الحرفيين وزبائنهم، باعتبار أن أي قطعة تصنع منها تستخدم في محتوى ثقافي ويحكمها تفضيل متأصل قوي لأشكال وألوان متعددة. وفي عام ١٨٤٤ لاحظ مراقب فرنسي أن السوق «العربي» المستقر عزّز وجود منتجات النسيج الحلبي. وفي عام ١٨٥٠ اعترض القنصل الفرنسي على أنه، رغم جودتها العالية، فإن مبيعات الأنسجة الفرنسية في حلب لم تزدهر بسبب تفضيل السكان الأقمشة القطنية والحريرية المخططة أو الأقمشة الحريرية المشغولة بخيوط الذهب، التي تم تصنيعها في أنحاء سورية كافة، والتي يجني منها الحلبيون أرباحاً كبيرة. وما يزال يصنع أغلبها للتصدير. تكون بعض من الأنسجة المخططة المعينة شائعة جداً بين الفلسطينيين، ويكثر الطلب على عدد من الأقمشة والألبسة الحريرية المطرزة من دول الخليج، وتصدر الأقمشة المنسوجة المضلعة والمخططة إلى اليمن وتستورد السودان الأقمشة ذات المربعات والحواف النموذجية. يأتي المشترون الذين يستخدمون هذه الأقمشة المخططة للملابس التقليدية في الأرياف أو من مناطق البدو. يمكن أن يشتري الزبون أو يطلب القماش من المحلات في الأسواق. وعندما يسجل طلبيته يتألف ببساطة من مجموعة كبيرة من قطع القماش بحيث يتمكن الزبون بواسطته من اختيار النوع الذي يرغب به في مدن سورية وفي دول الخليج، تستعمل أطوال القماش كمادة للتجنيد، ومن بين زبائن هذه المادة الفنادق الكبيرة التي تحاول خلق جو تقليدي شعبي. وكذلك يقوم السائحون بشرائها.

لم تعد تنسج أطوال الأقمشة الإيكات في الغالب. إنها تصنع لتقابل الأقمشة المخططة في مظهرها، وقد استمر نموذج الإيكات في خيوط السداة. النموذج المعروف بألسنة الطيور قديم جداً، وكذلك معروف أيضاً الرسم التقليدي التذكاري لنصل الحربة أو الرمح. يتضمن عمل معلم الإيكات من إدخال خيوط السداة في الرتيب الصحيح لإنتاج النماذج والإشراف على الصباغة ونصب خيوط السداة فوق النول. إنه لا يستخدم موديلاً لعمله ولكنه يعرف تماماً عدد الخيوط التي يجب أن يتم عقدها وبأي فسحة أو مرحلة يجب صبغها. يمكنه إعادة إنتاج القماش من دون أية أخطاء. تكون الأنسجة المتعددة الألوان الناتجة جميلة جداً بترتيب الألوان المتدرجة مع بعضها البعض. تعتبر أقمشة الحمام من الأقمشة الكلاسيكية ضمن أقمشة الإيكات، مثل (مئزر الحمام) والقماش المستخدم في حزم معدات الحمام (البقجة). كانت هذه الأقمشة تطرز سابقاً بشكل مكثف غالباً أو تشغل بالصرما بخيوط الحرير الذهبية والفضية. تتألف تجهيزات الحمام لدى العروس عند زيارتها الإلزامية للحمام قبل عرسها من مناشف خاصة جميلة وألبسة حمام. إن أروع ألبسة الحمام هي الأشياء القيمة ذات الأهمية المصنوعة من الحرير وكانت النماذج توضع حسب المعايير والمبادئ والقواعد القائمة. لكن بسبب تغير عادات المعيشة للطبقة العليا، توقف إنتاج ثياب الحمام المصنوعة من الحرير الإيكات والأمثلة القديمة غدت قطعاً موجودة لدى الجميع. يتم شراء ثياب الحمام المصنوعة اليوم من قبل الطبقات الأقل ثراء ومن قبل أشخاص من أحياء أكثر شعبية في المدينة ومن ضواحي الأرياف، أولئك الذين لا تزال زيارة الحمام لهم ركن هام وقائم من حياتهم ليس فقط كمادة تبعث الفرح والسرور لهم ولكن كمناسبة اجتماعية أيضاً. وما تزال ثياب الحمام تنسج بالإيكات ولكن المادة المصنعة لها هي الحرير الصناعي أو الفيسكوز أما النماذج فما تزال تقليدية ذاتها، ولكنها أكثر خشونة وتنسج بزيادة استخدام خيط اللوركس. ويمكن شراؤها في حلب من السوق (في سوق الصابون وغيره). ويكون قياس المئزر ٢١٠ × ٩٩, ٠ متر ويتطلب ٣٠٠٠ خيط من السداة مصنعاً من الحرير الصناعي أو ٦٠٠٠ خيط حرير طبيعي. يوجد في

وسـط حواف المئزر نماذج متنوعة. يمكن أن تكون رسمة المركز مكونـة من معـين أو عدة معينـات أو من الممكـن تمييز الوسط عـن الحواف بخطـوط الإيكات المختلفة العرض. كما يمكن أن يـترك الوسط فارغاً. هناك نمـوذج آخر لألبسـة الحمام، يتم فيـه استخدام رسـوم السرو والصنوبـر في الحافتين. جاء هذا الرسم من التأثير الفارسي ووجد في الأقمشة والألبسة مثل تلك التـي تم إنتاجها في كاشـان أو يزد. يكون الاسـم الكامل للباس الحمام «الألبسـة الفارسية مئزر عجمي فـوط عجمية» وهناك أسلاف قديمة لبعض من تلـك النماذج التقليدية. إنها معروفة وشائعـة من أقمشـة الإيكات القطني التـي تم صنعها في القرن العاشـر في ورشات تيراز في اليمن، التي لهـا أيضاً مثيلاتها في الأنسجة المصورة في رسوم الجدران الهندية في القرن السادس عشـر والقـرن السابع عشـر. تم إنتاج ألبسة الحمـام في القرن الحـادي عشر من هذا النوع في بلاد فارس (في رايا)، ربما بعد أن استوطن الحرفيون اليمنيون هنا. يمكن أن يعود ظهور رسوم السرو أو الصنوبر على ألبسة الحمام أيضاً إلى تلك الفترة.

هناك خاصية أخـرى لإنتاج النسيج الحلبي وهي الأقمشة المستخدمـة من قبل الرجال والنساء كأغطيـة للرأس. استمر هذا السوق بسبب الزبائن المحافظين من الريف الذين حافظوا على المعايير الثقافية القديمة والطريقة التقليدية للثياب.

يعـرف التجـار والنسّاجـون متطلبـات زبائنهـم ويسعـون لإرضائهم. يعتبر غطاء الرأس عنصراً هاماً من الثياب التقليدية باعتبـاره يحمـل معلومـات لمظاهر مختلفـة عـن الشخص الذي يرتديه، مثل الفريق العرقي أو الديني الخاص المنتمي إليه، إقليمه ومنطقتـه ووضعه الاجتماعي. تختلف أقمشـة الرأس في النموذج واللون ما بين قرية وأخرى، ومن فريق لآخر وتلك الخاصة بالنساء تتنوع أكثر من الرجال. تفضل الامرأة المتزوجة ألواناً مختلفة عن الشابـات أو النساء الكبيرات السن. تصنع كل قطعة عادة، بشكل مختلف من النوعيات يعتمد علـى السعر. يتم نسج أقمشة بيضاء طبيعية، بالنسبة للرجال في بعض نواحي حلب، (سيمنية) هو أحد أنواع نماذج الحرير والآخر من القطن يدعى (ميناديل مباكارا). أمـا الأقمشة التي تدعـى (بغدادية) فتكون مـن قماش القطن أو الحرير المزين بمطرزات حريرية، ويتم تصدير أغلبها.

يتـم البحـث عـن المناديـل المصنوعـة مـن الحريـر (الأحمر القـاتم أو البني) مع رسـم مركزي وحيد (مثل سمكـة أو راية) في الثلـث الأول (كعلامة مميزة) في ديـر الزور البوكمال، وفي الكويت والعـراق. يتضمن مصطلح (درهمية) العـام، كل الأقمشة التي تم شراؤها بالوزن (درهم واحـد = ٣٢٠٢ غرام في حلب). (وكقاعدة يبـاع الحرير بالوزن). واعتماداً على طريـق تصنيفها فإنها تدعى كروانيـة أو حمصية. تكون الأقمشة مربعـة وتختلف في المقاس من ١,١٠ إلى ٢,٤٠ متر. يتم نسجها من الحرير الثقيل، ويتألف العامل المميـز لها من نماذج محاكة بخيـوط الذهب أو الفضة. تنتهي هذه الأقمشـة بشراريب معقودة طويلة. يستخـدم أغلب الحرير المصنَّع في السـوق المحلـي، خاصة الحريـر السوري، لصنع هـذه المناديل. تختلف الأشكال الفردية بألوانها الخلفية ونماذجها المنسوجة.



٥٣٦. ورشة صباغ في باحة القيصرية في حلب.





٥٣٧ و٥٣٨. نسّاجون حلبيون.





٥٣٩ و٥٤٠. نسّاج من حلب ينسج الأطلس الحريري المخطط بشكل معروف (بنواعير المياه). استخدم هذا القماش في صنع معطف الامرأة الموجودة على اليسار.

٥٤١-٥٤٣. واجهة عرض لتاجر نسيج في السوق في حلب، تظهر مجموعة من الأطلس الحريري المخطط. الجاكيت والسروال مصنوعان من القطن المشابه للأطلس الحريري المخطط.









٥٤٤. الشيخ منذر وعروسه، لبنان ١٨٩٥. زيه النصف أوروبي والنصف شعبي التقليدي هو نموذج عن الزي الموجود في فترة التغيير في نهاية القرن التاسع عشر عندما بدأت البرجوازية (خاصة طبقة البرجوازية المسيحية) بارتداء "ألا فرانكة". ترجع السيدة الثرية في المدينة الآن إلى باريس لاختيار ملابسها وأزيائها. يتشكل نموذج التربيعات بواسطة التداخل عبر القطع القماشية المخططة طوليا مع تلك الأضعف المخططة عرضيا. يعكس مستوى التنوع الأذواق المختلفة للزبائن.

كل نموذج من الأقمشة له اسم. فمثلاً، يفضل الأكراد (في تركيا أيضا) الألوان الأخضر والبنفسجي والملابس ذات الطراز الاستنبولي، يفضل الفلاحون في القرى الواقعة شمالي دمشق (الحمصية) والنساء من تدمر، والرقة والرصافة (المجمعة). يكون لهذه الملابس في الغالب ألوان خلفية قاتمة تكون غالبا سوداء أو ظلال متنوعة من الأحمر. وحسب ما توصلنا لمعرفته، فإن الملابس البيضاء من هذا النوع لم تعد تصنع والعينات القديمة التي ما تزال موجودة تعتبر نادرة. تكون الملابس الأكثر غلاء هي تلك الملابس المصنوعة من الأقمشة الحريرية الثقيلة ذات النماذج المنسوجة من خيوط الفضة أو الذهب. تكون العينات المصنوعة من القطن أو الحرير الصناعي مع خيوط اللوركس أرخص. هناك يحكم الأسعار وهو مقاس وشكل وعدد النماذج، حيث أنها تقرر كمية خيوط الفضة المستخدمة. يكون الحرير التقني المطلوب نفسه سواء نسج الحائك النماذج المعقدة بخيوط فضة أو لوركس. تدعى تقنية النسج للنموذج «الغال» يعني أعمال التفريغ والصرما. هناك فقط بعض المعلمون النساجون الذين يتبعون هذه التقنية الغالية والمعقدة. يعمل النساج من دون نموذج (قالب) باعتبار أنه يعرف النموذج عن ظهر قلب. وعند صنع الأطوال القماشية، يكون عمل المزيق والملقي (أي تقسيم وتدقيق ومد خيوط السداة وتمريرها عبر الرؤوس الثلاثية المقود) له أهمية حاسمة عصبية، ولكن في هذه الحالة تعتمد النتيجة النهائية إجمالا على مهارة الحائك نفسه. يفسر هذا الترتيب الهرمي بين النساجين المتفردين. يشار إلى العديد من هذه الأقمشة إما بإطار مزخرف (مثلاً، علامة الأسدين) أو باسم المعلم. في حالة الأقمشة الأخرى نعرف من النموذج من الذي قام بحياكتها. بينما في الواقع، تم صنع هذه الأقمشة في حلب، والمركز الحقيقي لإنتاجها هو، كما يقترح الاسم، حمص.

الوشاح، هو المكون الآخر للألبسة التقليدية، يفضل صنعه من الحرير (مخرم حرير). يكون المقاس الوسطي له ٢×٠,٨٠ متر. تتم خياطة ثلاثة أو أربعة خطوط مع بعضها مع حاشية مزينة لصنع العرض المطلوب. تنتهي الوشاحات بشراريب معقودة. يتم تصنيعها بشكل إفرادي وتباع بالوزن. تصنع القطع الأرخص من القطن أو الحرير الاصطناعي. أما النوع الأكثر انتشارا (عبر سورية) فهو الوشاح التريبولي. حيث أنه يتألف من ثلاثة قطع قماشية مخططة من القماش الحريري المخطط المتنوع من الأخضر والبرتقالي والأسود والأبيض.



٥٤٥. عروس من دمشق ١٨٧٠.



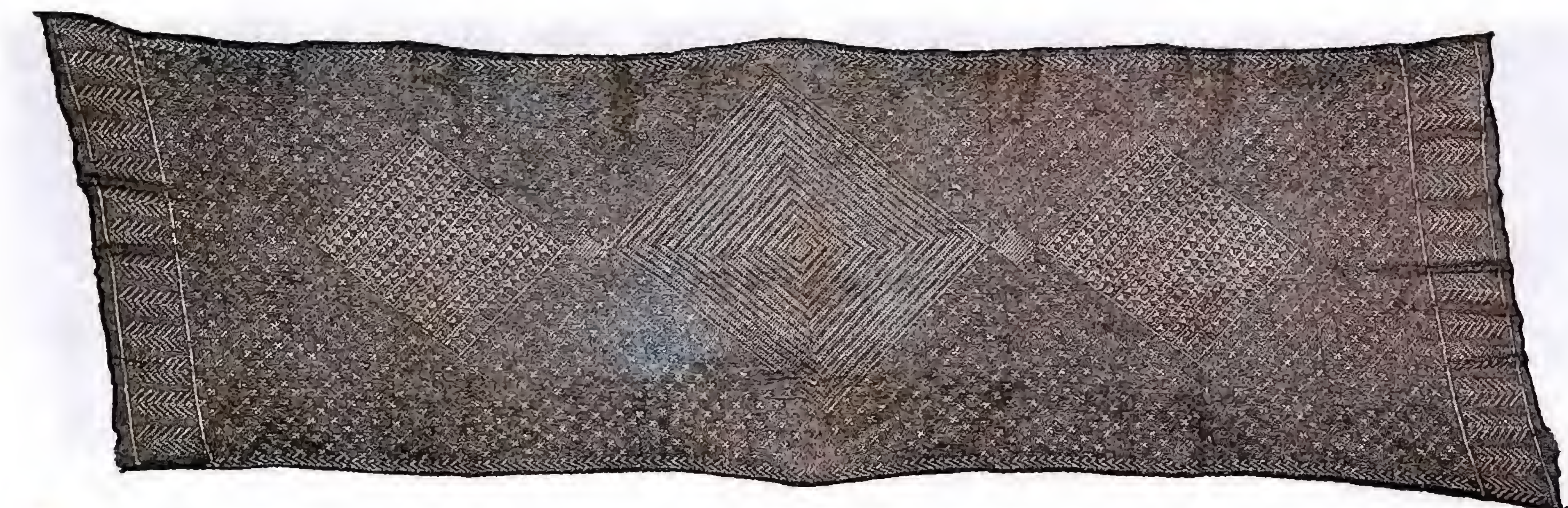
٥٤٦. امرأة سورية ١٨٨٠.

لم تعد تصنع الوشاحات المنسوجة من الصوف الكشميري التي شكلت في بعض الأحيان جزءاً من ألبسة الرجال التقليدية من الطبقة العليا المدنية. حتى في الماضي تم استيراد القطع الأفضل والأغلى ثمناً من بلاد فارس وكشمير، والتي كانت تفضل عن تلك المواد المصنعة محلياً.

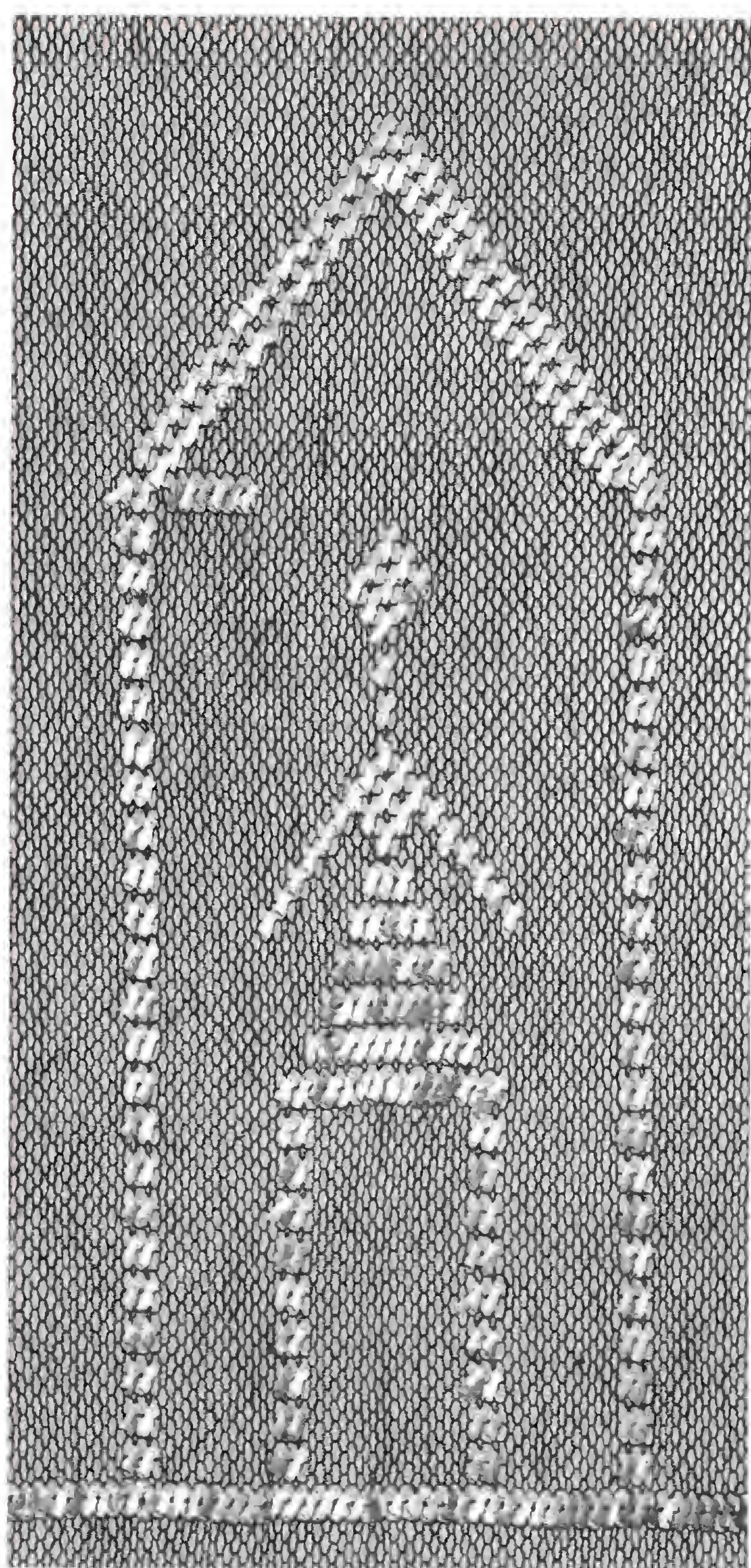
يشير مصطلح كمر عجمي وشال عجمي ("الحزام الفارسي"، "غطاء الرأس الفارسي") إلى ذلك. اعتاد الناس على إطلاق اسم كشمير على الوشاحات ذات نموذج النسيج الصوفي المزركش بالرسوم، لكن اليوم يستخدم عادة المصطلح للأحزمة من هذا النوع. إن العناية المتخذة في اختيار ترتيب الألوان وعدد الخطوط والانسجام للأثر المطلوب وروعة القماش المخطط في نموذج النسيج، كل هذه ظواهر استخدمت في تقييم وتثمين الأقمشة، التي تم تسعيرها وفق ذلك. كانت هذه الوشاحات دائما أشياء قيمة بالنسبة للأغنياء وللطبقة الاجتماعية المحترمة. ورغم أنها لم تعد تلبس اليوم، فما زالت بعض العائلات تحتفظ بها كرمز لوضعها الاجتماعي ويتم نقلها من الأب إلى الابن. يكثف الناس أيضا جهودهم للحصول عليها، وفي دولة الإمارات أصبحت مثار فضول جامعي الأثريات بشكل أكبر.

وبسبب انتشار الحزام الأوروبي فإن إنتاج الأحزمة الفارسية التقليدية للرجال انخفض بشدة أكثر من مثيلاتها النسائية ولم تعد تصنع عدة أشكال من الأحزمة الرجالية المزخرفة والمنسوجة بكثافة، التي كانت لباس نظامي للموظفين العثمانيين أو العسكر منذ انهيار الامبراطورية العثمانية. إنها تتضمن الأحزمة التي كان يرتديها الحراس المسيحيون الذين يحرسون خارج السفارات الأوروبية.

كان لقماش الأغباني الذي يرتدي مع الطربوش، والذي انتشر أولاً في أنحاء سورية بسبب أنظمة اللباس العثماني، حدث يلف حول الثلث السفلي أو النصف السفلي من الطربوش، كان له غرضين: إنه قماش مزين ويعطي هيبة مثل العمامة ولكنه يشير أيضاً إلى الوضع الاجتماعي للشخص الذي يرتديه. وضعت الحكومة العثمانية ألوانا متعددة للفرق الدينية المختلفة وأصحاب المقامات الرفيعة الدينية ما يزالون يميزون أنفسهم في هذه الطريقة اليوم. ولكننا نادراً ما نرى أحداً يرتدي الطربوش في أيامنا الحالية.









٥٤٧-٥٤٩. وشاحات من النول مزخرفة بقطب من الفضة المطروقة.
منشأ إنتاج هذه الأقمشة كان بعلبك.





٥٥٠. أحزمـة نسائيـة منسوجة مع رسوم أفعى، مـن المحتمل أنها مصنعة في دمشق.

٥٥١ و٥٥٢. وشاحـات للرجـال، تم استيرادهـا من كشمـيـر (أسفل اليسار) في النصف الثـاني مـن القرن التاسـع عشر، نموذج لعمـل كشميري، مصنـوع في حلـب، أوائـل القـرن العشريـن. لم يَعـد تصنيـع هـذه الأقمشة الآن.

٥٥٣. أسفـل اليمـين، حـزام منسوج علـى شكل قوالـب رائعة، تخـدم أيضاً كحقيبة للنقود (حافظة) وهذه أيضاً لم تعد تصنع اليوم.





٥٥٤-٥٥٧. أقمشة حمام حريرية مقصبة ومنقوشة، حلب.
قماش الرأس مزين بسمكة بنسيج الدامسكو ومنقوش باسم عزيز.







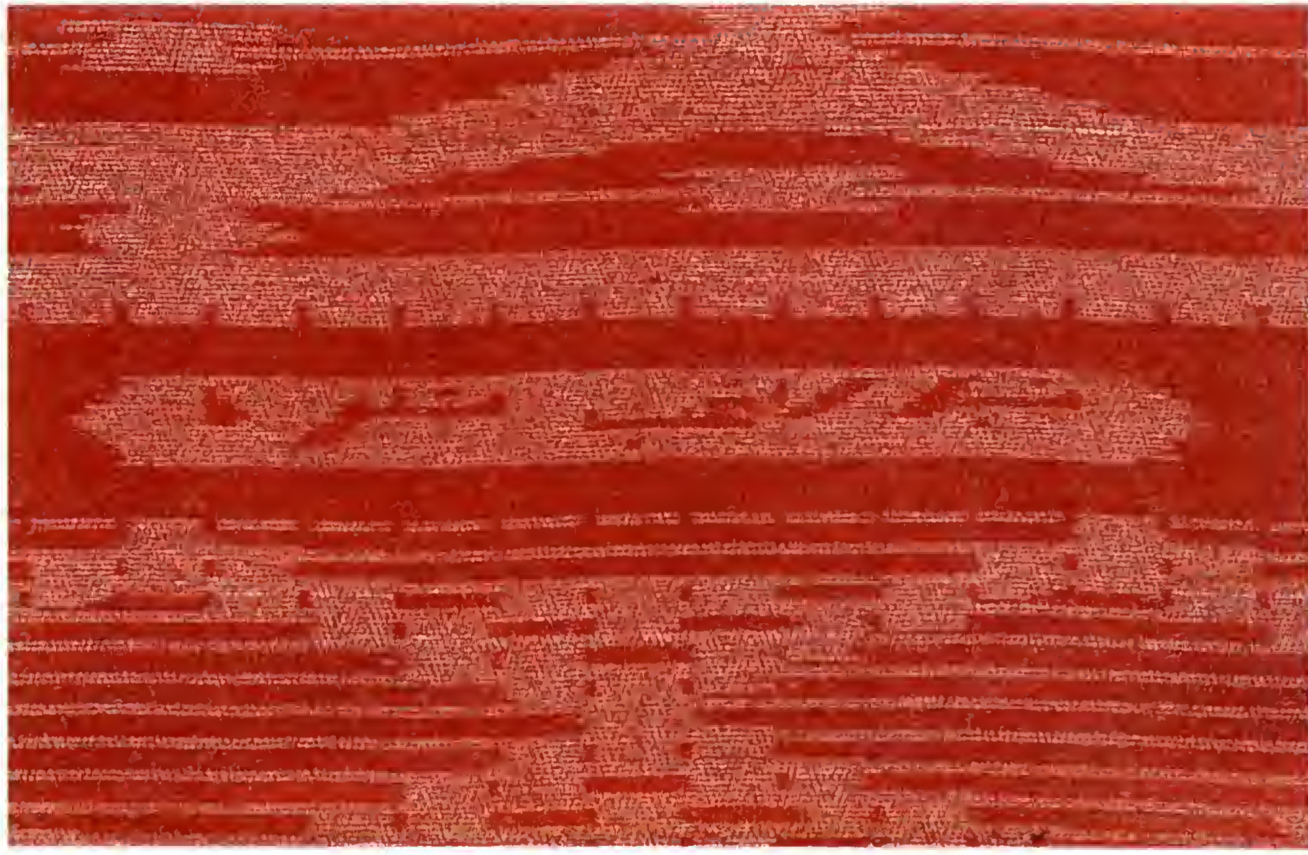







٥٥٨-٥٦٣. وشاحات حريرية ثقيلة (كسروانية، حمصية) مقصبة بخيوط الذهب والفضة. جاءت أقمشة هذه العصبات من حلب وتم نقشها باسم المعلم وورشته (أسدان واسم النساج).



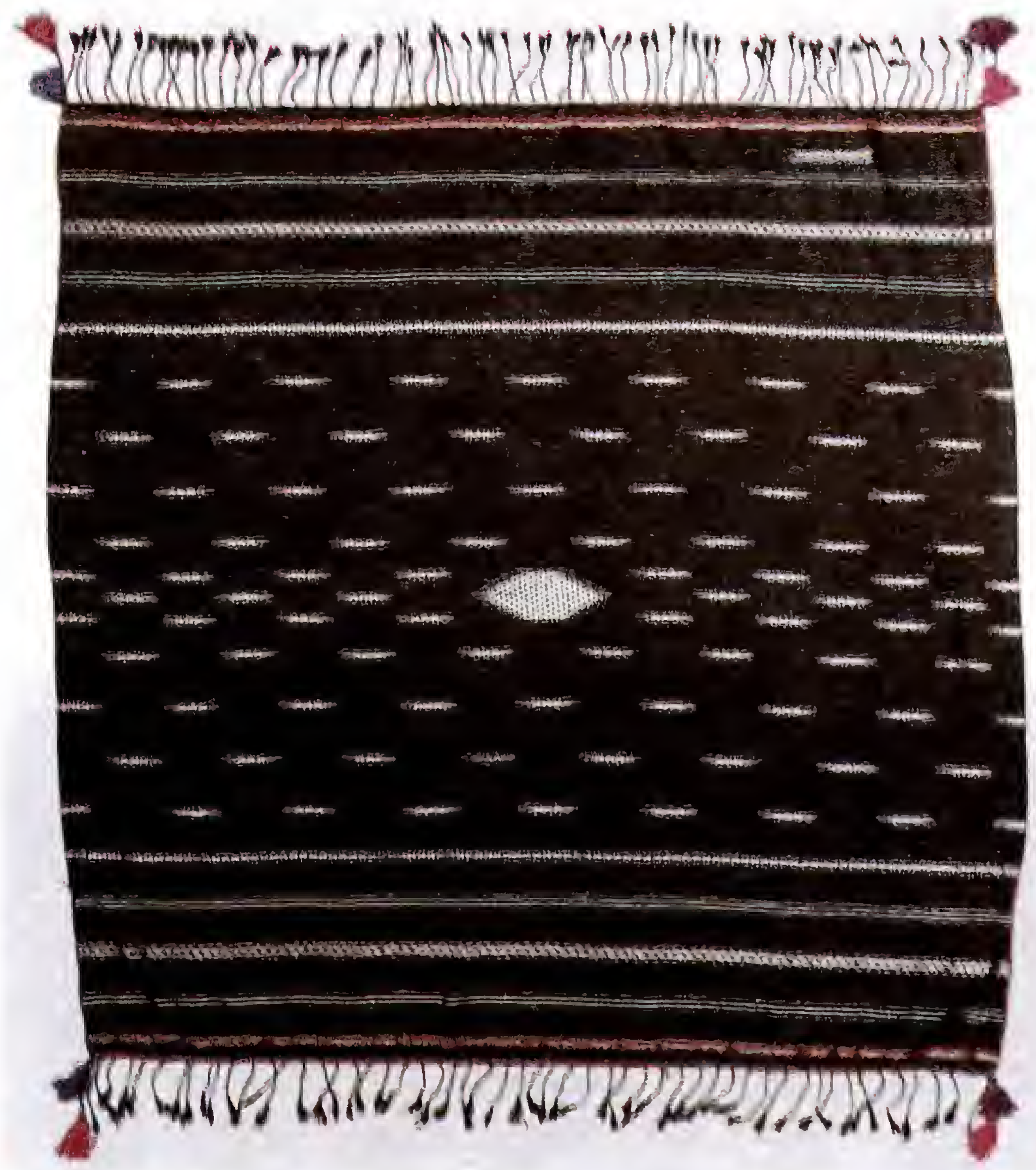





٥٦٤-٥٦٧. وشاحات أو عصبات حريرية من حمص مقصبة بالفضة. القطع في الأعلى تم نسجها من قبل منير راغب مشلوط. المعلم القديم لم يعد حياً، ولكن أبناءه ما يزال لديهم محل في السوق حيث يقومون بحياكة العصبات على هذا الشكل. إنها تنتج بواسطة عدد من النساجين.

الأنسجة من حمص

لحمص تقليد مميز في إنتاج النسيج الذي يعود إلى العصور القديمة. إنها معروفة اليوم أكثر بمناديلها المنسوجة من الحرير الثقيل والزخرفة المقصبة بخيوط الذهب والفضة. تدعى هذه الكروانية أو (حسب المدينة) الحمصية، يكون لون خلفيتها أسود في الغالب ونادراً ما يكون أحمر. تعرف المناديل المقصبة أيضاً بالمصورة «أقماش الصورة»، إشارة للانطباع البصري الذي تتركه مثل هذه النماذج. تصنع خيوط الذهب والفضة أيضاً في حمص في مصنع أسس في بداية القرن وجهز بآلات فرنسية من ليون، رغم أنه قد توقف العمل بكامل قدراته منذ زمن طويل. تكون العديد من ورشات النسيج في مناطق إقامتهم، في الطابق السفلي من منازلهم وأغلب الناسجين في حمص هم من المسحيين.

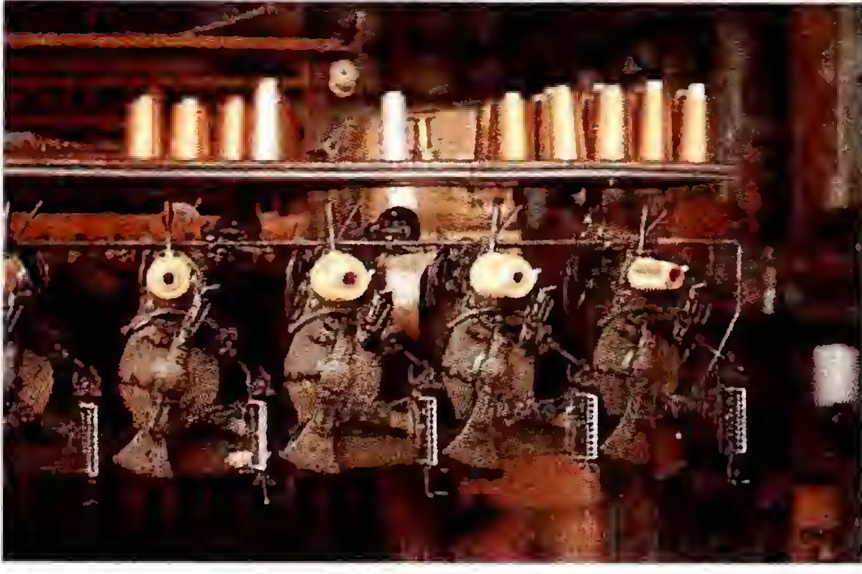






٥٦٨ و٥٦٩. مصنع في حمص يصنع خيوط الذهب والفضة. تبين الصورة جد المالك الحالي الذي أسس الشركة. وحسب فهرس البطاقات القديمة للزبائن قبل الحرب العالمية الثانية فإنه لم يمول فقط النساجين في حمص، ولكن أيضاً الزبائن في دمشق، فرنسا، وإيطاليا والهند.

تم إنتاج المناديل خصيصاً للفلاحين من القرى المحيطة وللبدو. وما يزال عدد منهم يرتديها كأغطية رأس تقليدية، وتخدمهم مدينة حمص كمدينة تسويقية صغيرة. تصنع الألوان والأشكال بطريقة تناسب أذواق القرى أو البداوة المختلفة الذين يقومون بالتسوق في حمص. تستخدم المناديل بشكل أساسي من قبل النساء ولكن في بعض المناسبات والاحتفالات القروية يرتديها الفلاحون أيضاً. يتعزز دخل النساجين بمحافظة الزبائن على لباسهم التقليدي، ومن الواضح أن الناس قادرون على الدفع مقابل الجودة والنوعية الممتازة من البضائع. ترتبط حقيقة أن النساجين قادرون على تلبية الطلب وأن الإنتاج التقليدي لهذه الأنسجة ممكن أن يستمر في حمص، بحقيقة أن النساجين يتم تزويدهم بشكل أفضل بالحرير. تقع حمص قرب المنطقة التي ما يزال يربي العديد من الفلاحين فيها ديدان القز (ما بين صافيتا وعين الوادي). عمّت الثقافة السورية في هذه المنطقة وتطورت في السنوات الأولى للانتداب الفرنسي بالارتباط مع تطور الحرير في منطقة جبال العلويين. وفي عام ١٩٢٧ تمت زراعة مليوني شجرة توت حول طرطوس وصافيتا وبانياس. وبقيت كمية الحرير المنتج في المنطقة هامشية، مقارنة مع الطلب على النسيج الفرنسي وقد استخدمت بشكل رئيسي لتزويد السوق السوري. تأثر الإقليم، بناء على ذلك، بانهيار ليون والحركات في السوق العالمي بعد عام ١٩٣٠ (قلت نسبة الأضرار). كانت رعاية وتربية دودة الحرير بالنسبة للفلاحين العلويين مصدر نمو للدخل وما زالت. وما يزال زبائنهم الوكلاء من حمص، الذين يرتكزون في خان الحرير القديم. يربط نسج المناديل الحريرية في حمص أيضا المدينة بالأرياف وبالفلاحين الذين يؤمنون الحرير وبالفلاحين والبدو الذين استمروا بثبات يستخدمون هذه الأنسجة الجميلة وبهذا عززوا الإنتاج والدخل المستمرين للحرفيين.



٥٧٠ و٥٧١. نسّاجون من حمص ينسجون وشاحاً (الأعلى) ويطرزونه بالقصب (الأسفل).

٥٧٢. وشاح من حمص، منسوج من قبل حبيب هنري. توقف عن العمل لفترة طويلة. وحسب البائع فقد تم نسج هذا النوع من الأقمشة على سبيل المثال، في محردة وفي القرى الواقعة شرق حمص.









٥٧٣. عباءة حرير مقصب بالذهب ١٩٧٣ (متحف الفن الشعبي برلين).

البروكار أو القصب الدمشقي والدامسكو الدمشقي

كان الدامسكو الحريري والبروكار (القصب المذهب) وما يزال من أغلى الأنسجة التقليدية المصنوعة في دمشق. ركزت دمشق بعد انهيار سوق النسيج في منتصف القرن التاسع عشر بشكل مكثف على إنتاج هذه الأقمشة الفاخرة للزبائن الأثرياء المحليين والأوروبيين. ولكن رغم الجهود الكبيرة وإنتاج أنوال الجاكوار فإن الأقمشة الجميلة بأشكالها الأنيقة والمعقدة، اختفت تقريبا جميعها. وما تزال تعمل الأنوال القديمة اليدوية فقط. ويبقى أغلبها من دون استخدام متروكاً مثل أكوام القطع الخشبية الكبيرة. رأينا الحزن والحنين في عيون وصوت التجار والنساجين القدماء في شركة (نعسان)، لما آلت عليه حالهم. وفي دمشق، عندما عرضوا علينا أعمالهم المقصبة وشرحوا النماذج بأسمائها الرومانسية: إحدى النماذج التي ما تزال تطلب حتى الآن تدعى «الملكة إليزابيت» أو «طيور الحب». وحسب الروايات، سُئلت الملكة إليزابيت ملكة بريطانيا في ذلك الوقت أثناء حكمها، ماذا ترغب كهدية من سورية، كان جوابها الحرير المقصب (البروكار). وعندما سألوها عن النموذج، توقعت أن ترسم فوقها طيور الحب، التي كانت حينها كأزهار دمشق، «النرجس» في الأشكال الرائعة من الدامسكو الحريري، «الصليبيون المقاتلون» «الفردوس المفقود». يوجد النموذج الأخير فقط كمثال نموذجي محفوظ مع بطاقاته المفرغة على أمل أن يأتي يوم يتم الطلب عليه ثانية من الزبائن. تعتبر شركة نعسان وشركاؤه عائلة عاملة كان لها مصنعها الكبير منذ عصر الامبراطورية العثمانية وفي بداية القرن وكانت معفاة من الضرائب وتمكنت من تأمين المال اللازم لتلبية احتياجات أفراد الخدمة العسكرية، وقد شغل اثنان من العمال كلاً من الأنوال العشرين حتى عام ١٩٥٨، ناسجين البروكار بألوانه المتعددة (٣، ٥، ٧) مع النماذج المنسجمة معها. أما اليوم فلم يبقَ من هذه الأنوال إلا اثنين. في الماضي، كان صنع البروكار والدامسكو حكراً محصوراً للمسيحيين، ولكن انتقل عدد من النسّاجين الأكراد بشكل متزايد إلى هذا المجال. تستمر بطاقات أنوال الجاكوار القليلة التي ما تزال تعمل، في التصنيع عن طريق الأرمن. ولغاية عام ١٩٦٠ كان السائحون ما يزالون زبائن نادرة، لكن أغلب الإنتاج الآن يكون للسوق المحلي، باعتبار أن الدامسكو والبروكار أصبح معروفاً جداً مثل مواد التجنيد، ويستخدم بصعوبة كبيرة في تلبيس الأثاث. يتم تحديد نوع البضائع المعدة للبيع فوق كل ذلك بالألوان والأشكال الجديدة لتلائم رغبات الزبائن وطلباتهم. لم يتم نسج النماذج الجديدة، على كل حال، في الأنوال القديمة التي تشغل باليد، ولكن على الأنوال الكهربائية. وعلى الرغم من ذلك ما يزال البروكار النسيج الغالي جداً ومثل باقي الأقمشة السورية التقليدية فإنه أصبح خاضعاً للضغط المتزايد من الأنسجة الأرخص المصنوعة من المواد الصناعية. ويعتبر الإيكات الدمشقي من ضمن تلك الأنسجة التي لم تعد تصنع في دمشق. لقد سبب إنتاج الحرير الصناعي حوالي ١٩٣٠ أول تراجع لقماش الإيكات وبعدها في عام ١٩٤٧ سببت حرب فلسطين خسارة السوق التقليدي للمادة، باعتبار أن الإيكات الدمشقي كان يتم شراؤه بشكل خاص من قبل الفلسطينيين.

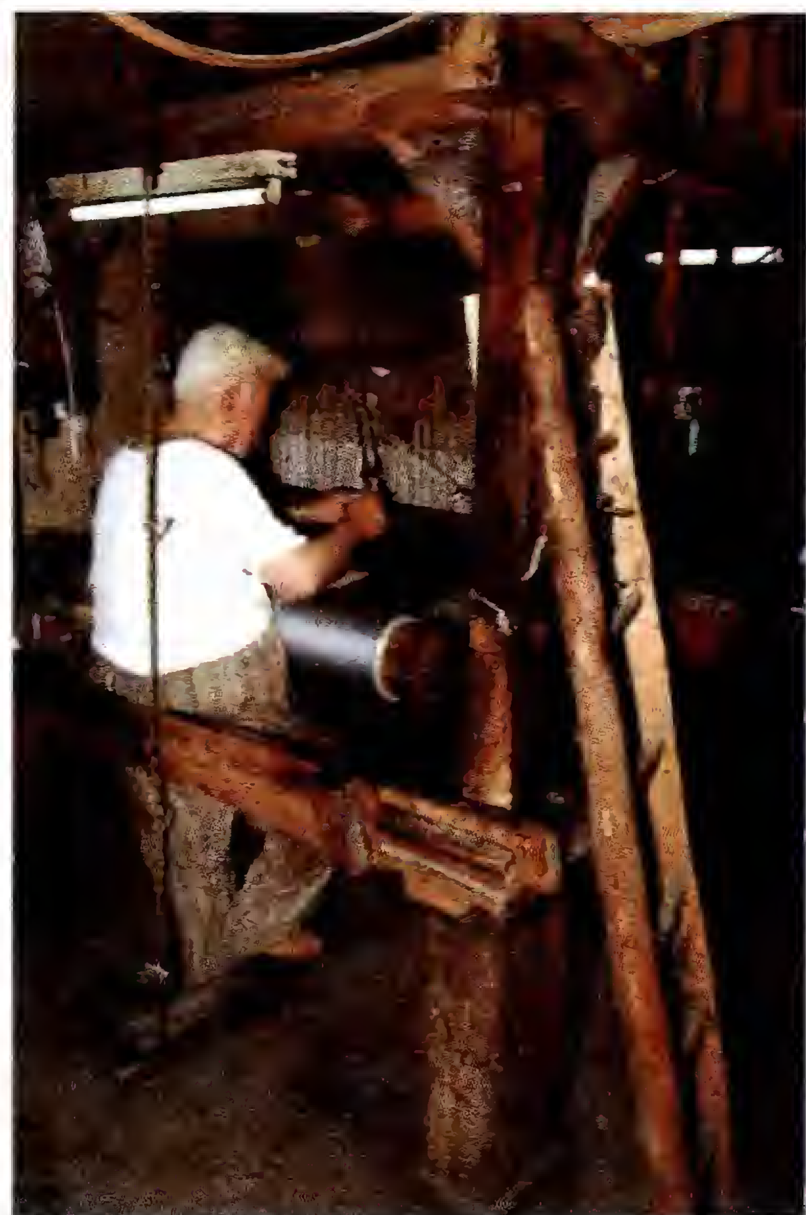
ربما كان الوقت متأخراً جداً لزيادة إنتاج البروكار والدامسكو، وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للمهن التقليدية الأخرى. لم يعد النسّاجون يعملون (القدامى منهم) ولم يعد هناك جيل جديد يتبعهم. ولذلك يبدو أن هذه الأقمشة النفيسة مقدر لها التهميش ولم يعد يشتريها ويقدر قيمتها إلا عدد قليل من الغرباء الأجانب. يعتبر بعض من التجار أقل عاطفة ووجدانية. بعض الناس ماتوا حسرة، كما قال أحدهم ربما يموت النساج عندما لا يوجد أحد يرغب في أنسجته بعد الآن. بالطبع هذا محزن جداً حيث أن مهنة نسج الحرير ستموت معه.

انحنى النساج القديم فوق نوله بعيون دامعة، مركزاً بشدة، بادئاً عمله ليرينا وهو يبتسم الدامسكو الذي كان ينسجه. واحتمال ألا يكون احتفظ لنفسه بقطعة من هذا القماش. كان الدامسكو الحريري الرائع بألوانه الزاهية جميلاً رائعاً. وقد سمح لنا بأخذ قطعة صغيرة منه كنموذج. وقد اخترنا «الفردوس المفقود» ذو اللون الأزرق.





٥٧٥. بطاقات مفرغة نماذج لأنوال الجاكوار.



٥٧٤. نساج من دمشق.



٥٧٦-٥٧٩. أجزاء من الدامسكو من دمشق ذات نماذج كشميرية ورسوم مزهرة أسفل اليمين "الفردوس المفقود".





٢١ الفسيفساء في الزخرفة السورية

جوهانز كالتر وأنطوان توما

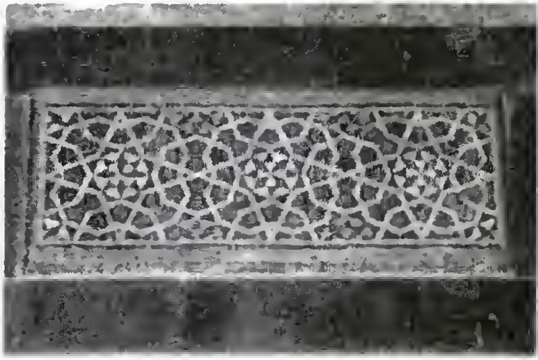
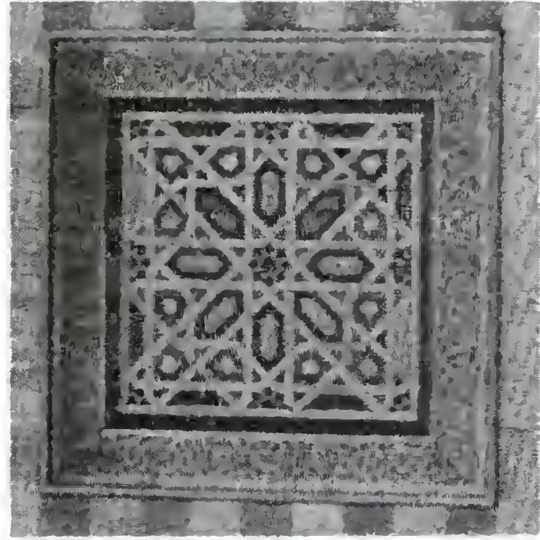
تعرضت سورية في عصور ما قبل الميلاد ولعدة قرون إلى تأثير بلاد ما بين النهرين الشديد القوي. وقد ربطتها غزوات الكسندر الكبير إلى العالم الهيللينستي. كانت سورية حاضرة رومانية ثم أصبحت تحت السيطرة الفارسية في منتصف القرن الثالث بعد الميلاد، ومن ثم أعيد غزوها من قبل البيزنطيين كجزء من الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وأصبحت منذ عام ٦٦١ وحتى عام ٧٥٠ مركز الإمبراطورية العربية العظمى الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى الهند. ترك كل الحكام والغزاة أبنية وراءهم في سورية، وقد أثرت زخارف وديكورات هذه الأبنية بالزخارف المستخدمة في الفن الشعبي. ارتبطت سورية مع الصين بواسطة طريق الحرير، ومع وسط آسيا والهند وإيران. وقد حُملت البضائع والأفكار والأشكال على طول الطريق وأصبحت ملكية مألوفة خاصة. وقد استبعد الغازي تيمورلنك الحرفيين من حلب ودمشق في بداية القرن الخامس عشر وأخذهم إلى وسط آسيا. وأثناء حكمه جاءت فرق تركمانية وأوزبكستانية إلى سورية وما تزال تعيش هناك كأقليات عرقية. وقد جلبوا معهم أدواتهم الخاصة وأشكالهم وحافظوا عليها. وفي الفترة الأخيرة من الإمبراطورية العثمانية تلقت المقاطعات العثمانية في سورية جموعاً من الناس من المناطق الأوروبية للامبراطورية مثل ألبانيا وبلغاريا واليونان وكذلك المنطقة الجبلية من القوقاز.

ليس مدهشاً إذاً أن الزخرفة في الفن الشعبي السوري تحتوي على أفكار وأصداء لكل الثقافات المذكورة. إن عنوان هذا القسم ليس تلاعب بالكلام ببساطة ولكن المقصود به تشجيع القارئ للبحث في الكتاب مرة أخرى واعتبار الزخرفات الموضحة من وجهة نظر التأثيرات المقترحة هنا. سيتمكن القارئ من تصنيف أكثر المواد في الحال بتلك المعرفة الخلفية لها. ولكن في أمثلة أخرى، تجعل عملية الاندماج والتداخل من الصعب نسب الزخرفة إلى أقاليم ثقافية محددة.

إن التأطير الهندسي المحدد لأغلب الأعمال الخشبية، الصواني المنقوشة بالزخارف المعدنية، وبنية نماذج السجاد هي أسطورة العصور القديمة السابقة ومن بعدها البيزنطية. وهكذا وقفت الزخرفة السورية مطولاً عند التقاليد الإسلامية العامة: أخذت الموديلات التقليدية وطورتها لتبدع، مثلاً، ديكور النجوم المتشابكة بذلك الكمال الذي أصبحت هذه الرسوم بواسطته تتبع فن الأرابيسك وربما الأكثر شيوعاً ومظهراً في الفن الإسلامي.

إن الإناء الذي يحتوي على مياه الحياة وشجرة الحياة هي رسوم لا يشك فيها قد ورثها الفن السوري مباشرة من البيزنطيين، وجدناها أيضاً في الفن الإسلامي أول مرة في أقسام السجاد السلجيقي، وكذلك في الأعمال المعدنية السلجوقية والغسنافية.



٥٨٠-٥٨٣. أمثلة من الزخارف الإسلامية التقليدية. أعلى اليسار، كروم العنب ونموذج شجرة الحياة. زخرفة رومانية من جنوب سورية، القرن الثاني والقرن الثالث، أعلى اليمين: تفصيل عن الفسيفساء الرومانية، بصرى، في الأسفل: نماذج متشابكة هندسية من الجامع الكبير في حلب، فترة المماليك، القرن الثالث عشر.

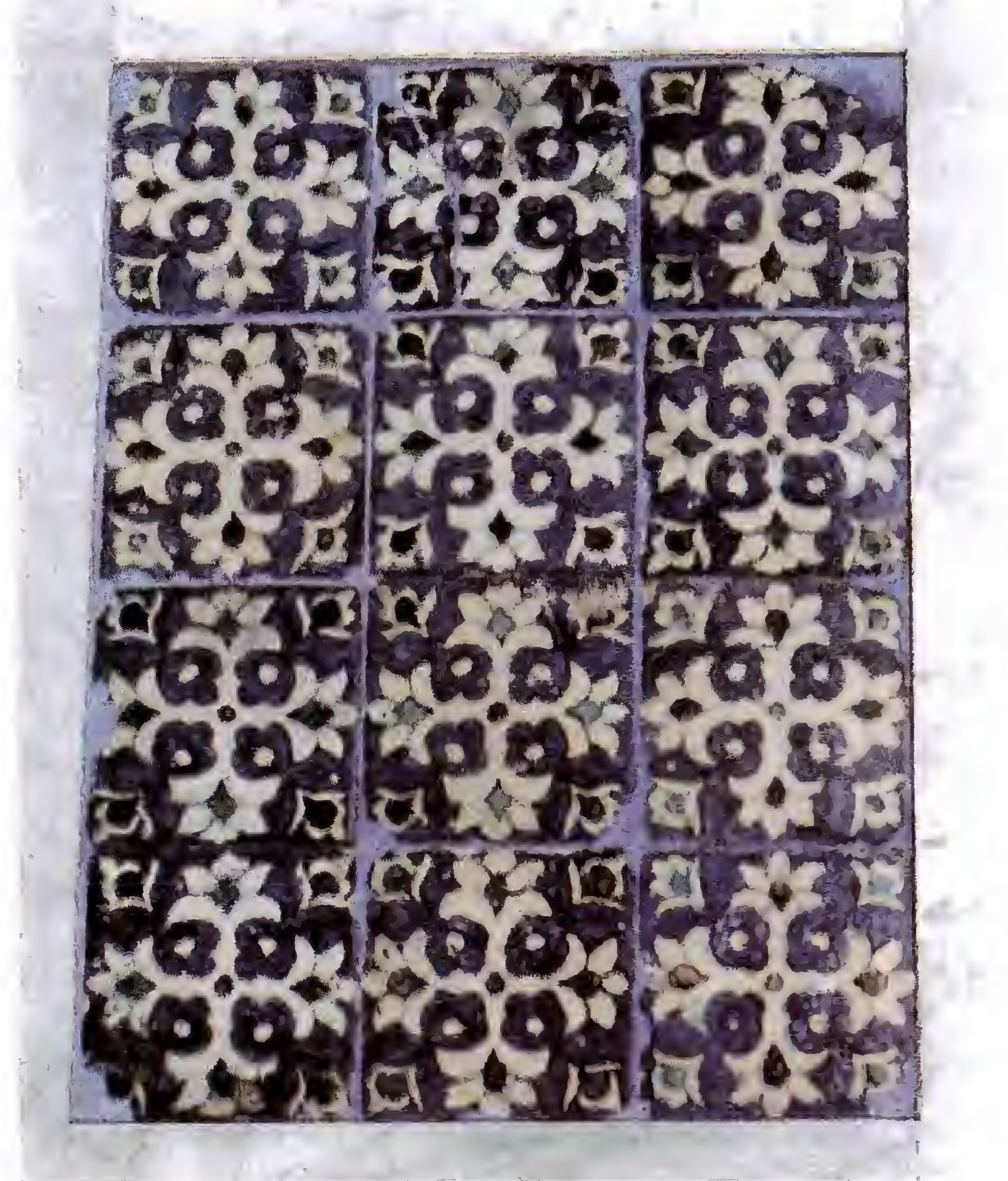


٥٨٤. منظر لقوس المدخل بزخرفة مزهرة متأثرة بقوة بالفن الإيراني، تدمر، القرن الثاني بعد الميلاد.





٥٨٥ و٥٨٦. تفاصيل عن واجهات وباحة الجامع الأموي الأثري في دمشق. تعود الفسيفساء الثقيلة المشغولة فيه إلى تاريخ بناء الجامع في القرن الثامن. تتضمن الزخارف رسوم على الأواني، نخيل سرو، وأرز "الرسوم التي استمرت في الفن الشعبي السوري حتى يومنا الحالي".



٥٨٧. تفصيل عن لوحة الآجر مزخرف ببراعم متصالبة هندسية مكثفة. دمشق. القرن السادس عشر والقرن السابع عشر.



٥٨٨. تفصيل عن عدد من ألواح الآجر. نقوش الأواني مع أزهار التوليب وأغصان البراعم والزنابق، الحدود في الأعلى على شكل شرفات. مصنوع في دمشق في القرن السابع عشر وتأثر بشدة بأعمال الآجر أثناء الحكم العثماني.





٥٨٩. الأعلى: نموذج مقسم على بحيرة في قصر العظم، أشجار الحياة على شكل السرو النموذجي دمشق، القرن السابع عشر.

٥٩٠. تفصيل من التطريز من واحة السخنة مع رسوم السرو والأرز يعلوه قرص (ربما الشمس) بداية القرن العشرين.



٥٩١. قوارير تجميل (مكملات) على شكل شجرة الأرز أو السرو. يعلو قلم التكحيل في النموذج اليساري طائر (ربما كان طائر الشمس)، مرصع بالفضة. دمشق، القرن التاسع عشر.



٥٩٢. واجهة صندوق فلاحي. اللوح الأوسط له رسوم أشجار السرو أو الأرز تحت الأقواس، بينما الألواح الجانبية لها نجوم مغلقة متداخلة مزخرفة ومطعمة بالصدف. خشب الأرز مع تطعيمات من الصدف. دمشق. القرن التاسع عشر، وجدت في سورية متأثرة بألواح الإيزنكي والنماذج الدمشقية وفي عدة مطرزات ذات منشأ ريفي أو مدني. ربما كانت نقطة البداية لهذا التطور هي زخرفة الفسيفساء للجامع الأموي في دمشق حيث أن وفرة رسوم الأشجار والأواني أضفت على المادة المرئية غنى وثراء.

إن لشجرة الحياة، رمز الوفرة والغنى والخصوبة، والخلفية التاريخية ذاتها كرسم الآنية. يمكن إرجاع رسوم نماذج أشجار الحياة إلى ثقافات الشرق الأدنى القديمة. لكن ربما كان على الوسطاء والدخلاء من التركمان والأوزبكستان أن يحضروا معهم من شمال آسيا فكرة شجرة الحياة كمحور للعالم يربط العالم السفلي الذي نعيش فيه مع السماء. تداخلت تلك الفكرتان في سورية بوضوح في الفن الشعبي. وربما التكرار الهائل للسرو والصنوبر كرسم للشجرة منشأه سوري في الأصل. يكون السرو والصنوبر من ضمن الأشجار الأكثر تميزاً لتأثير البحر الأبيض المتوسط على الأقاليم السورية المزروعة. يفترض أن يكون ارتباط هذه الأشجار مع نماذج الأقراص المستديرة فوقها، مثلاً في المطرزات من السخنة، لها تأثير زرادشتي من إيران. وهذا ليس مدهشاً باعتبار أن مدينة إيزاد، المركز الأكثر أهمية للزرادشتيين الإيران حتى الحقبة الثالثة، كانت مركز تجاري هام على طريق الحرير. نرى ارتباط أشجار السرو والصنوبر والطيور (ربما طائر الشمس)، ورسم آخر، في الغالب يكون له تأثير زرادشتي أيضاً. وبرأيي فإن تمثيل الجبال مع الأشجار هو تحديداً من منشأ شمال آسيوي.







٥٩٣. رسم آنية على زجاج نافذة ملونة في سوق الحميدية. دمشق. القرن العشرين.

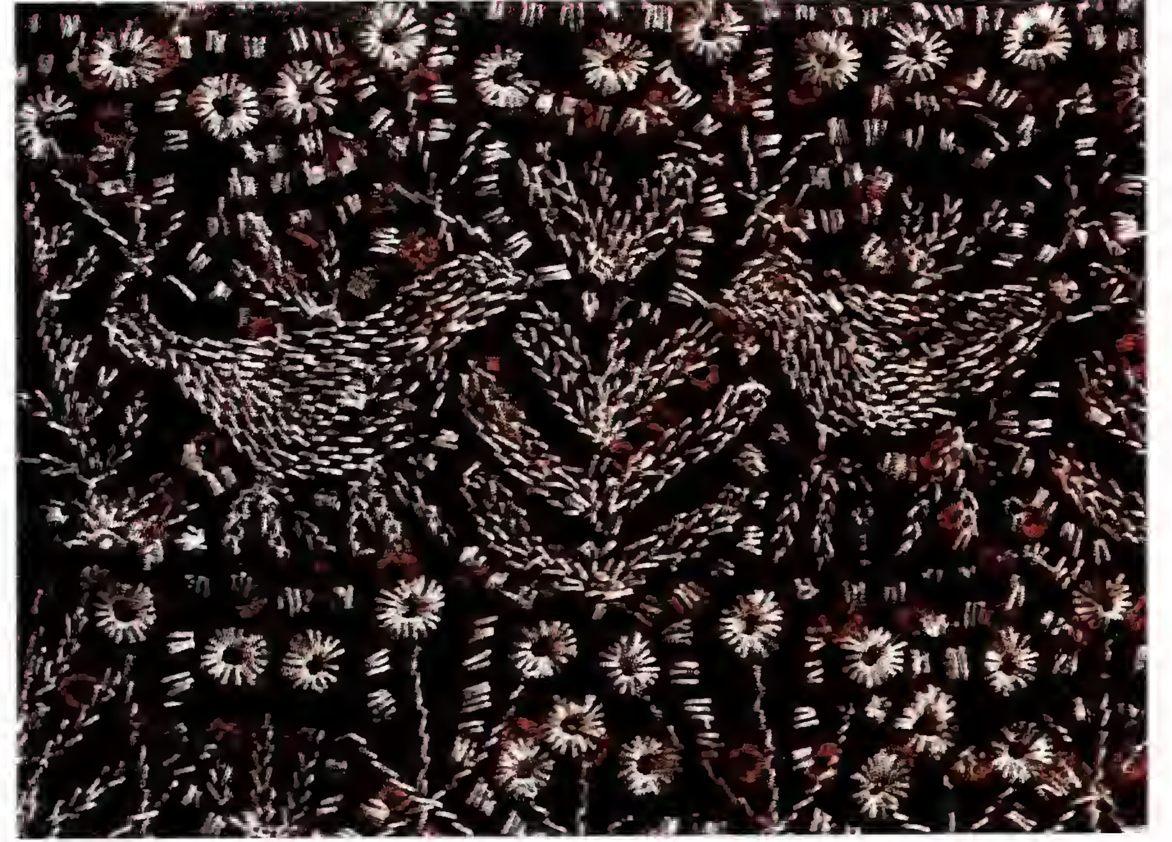
٥٩٤. تفصيل من مطرزات على حقيبة من جبال القلمون. تتضمن أشكال الكرمة وشجرة الحياة التي تنمو من البرعم أو تخرج من الآنية. شكل التطريز والقطعة تذكاراً على التطريز المسمى أناتوليان، الذي صنع في الجزر اليونانية. هناك ترابط بين المسيحيين في اليونان والمسيحيين في القلمون.

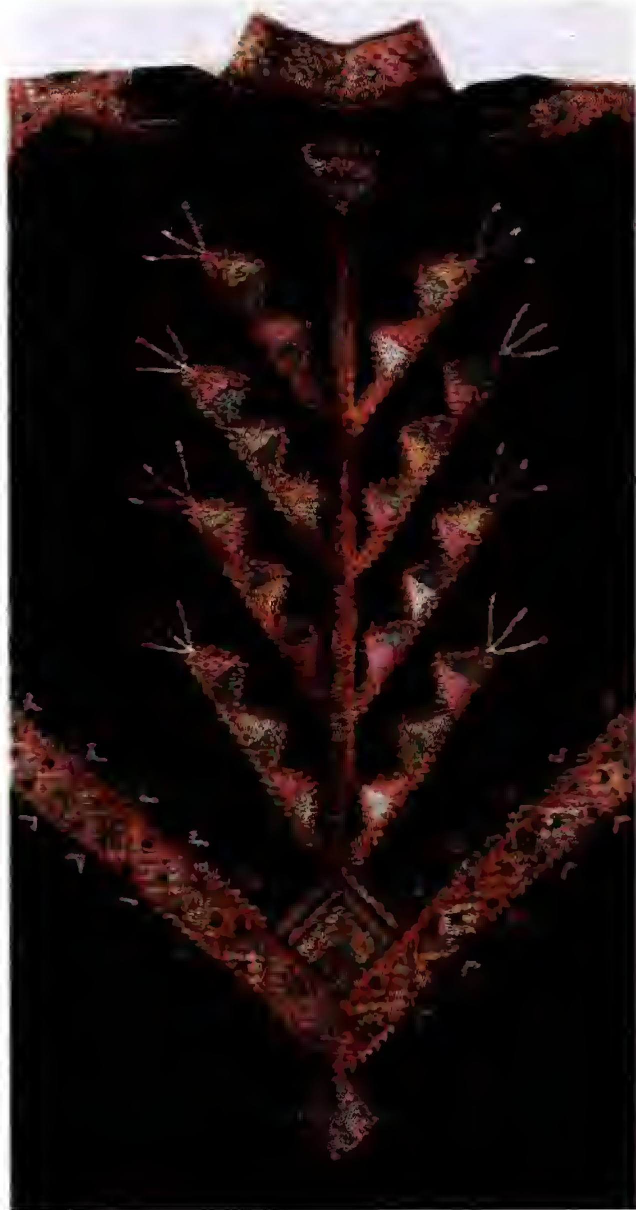
٥٩٥. شجرة الحياة على باب منزل في حماه، عمل حديدي مطرق، مزخرف.

٥٩٦. تفصيل عن ثوب حرير خام مع أعمال الفضة مصنوع في حماه باستخدام تقنية البلانجي للنساء البدويات. طيور فوق أشجار الحياة، القرن العشرين.

٥٩٧. الحاشية السفلية لمعطف امرأة مطرز بخيوط معدنية على المخمل. أشجار الحياة فوق الجبال. جبال القلمون، القرن العشرين.

٥٩٨. شكل واضح لشجرة الحياة بنموذج معروف في وسط آسيا (مثلاً بين التركمان)، على ظهر الثوب النسائي. خان شيخون، القرن العشرين.











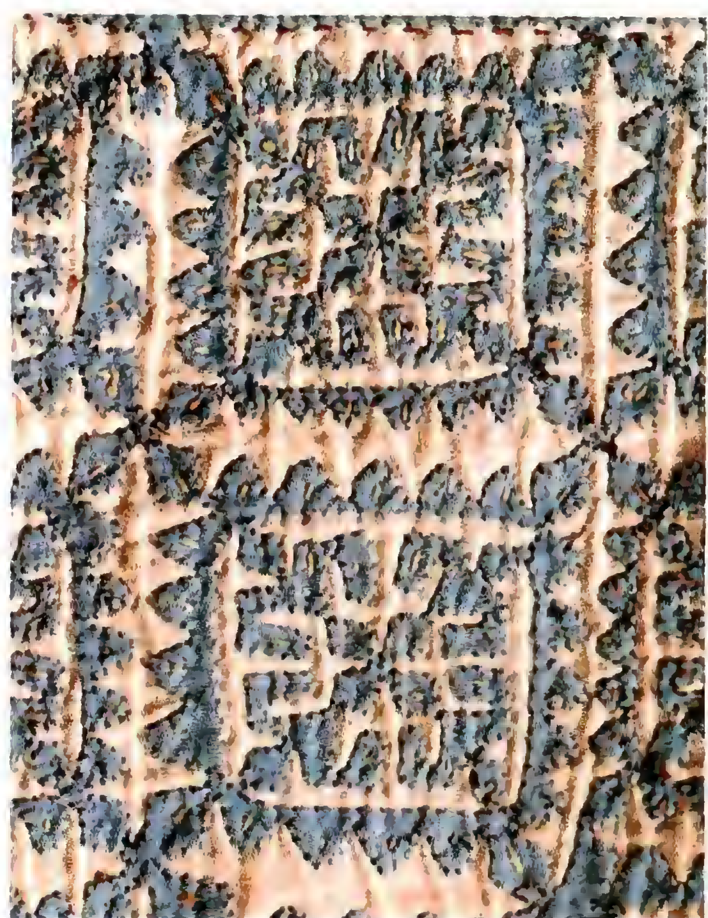


٥٩٩. أعلى اليمين: حقيبة أو كيس من شمال سورية. يتم التركيز على المركز وعلى شجرة الحياة التي تنمو من خلال الزوايا هي تذكار من مطرزات التركمان اليوموت، القرن العشرين.

٦٠٠. أفضل الحقائب تم الحصول عليها عام ١٨٩١ من مسيحي سوري. يوافق النموذج تماماً المطرزات التركمانية القديمة (متحف الفن الشعبي برلين).

٦٠١ و٦٠٢. حواف ومقالب أكمام ملابس نسائية من حوران. يمكن رفع الرسم كقرون الكبش على الجبل وتظهر بالمقارنة مع المطرزات الأوزبكستانية، جنوب سورية، القرن العشرين.

٦٠٣.أعمال الأبليك من القسم الأمامي من معطف درزي، الرسم والتقنية من قرون الكبش يمكن مقارنتها مباشرة مع الأنسجة الأوزبكستانية من وسط آسيا.









٦٠٤. معطف لرسوم البوتية الكشميرية قطن مطبع، حلب. القرن العشرين.

٦٠٥. صندوق فلاحي، خشب الأرز. العقد المتداخلة في المقدمة توجد في الأعمال المعدنية السلجوقية والغاسنافية من القرن الثاني عشر. دمشق، القرن التاسع عشر.

٦٠٦. تفصيل عن صينية قهوة. رسم الغزال الذي تم اصطياده على شكل الرسوم الصخرية ما قبل التاريخية. جنوب سورية، القرن العشرين.

٦٠٧. مطبوعات ذهبية فوق معطف امرأة من حلب، أغصان عود الصليب بنموذج صيني، القرن العشرين.

٦٠٨. قطعة أثرية خشبية منقوشة خط كوفي مكثف مع ورقة على شكل الشوكة، من اليمين آنية وشجرة الحياة. دمشق، القرن الثاني عشر.

٦٠٩. تفصيل عن ثوب امرأة مطرز بكلمة اسم الله، حوران، القرن العشرين.









ربما كانت تمثل أفكار شجرة الحياة (العالم) ارتباطها بالجبل في العالم. في فن النسيج، وخاصة في الشمال السوري، يعود أصل عدد من الرسوم مثل الجبال التي تعلوها قرون الكبش أو رسم «الكوشاك المزدوج» إلى التركمان. وجد نموذج البوتيه (نماذج ورق اللوز) في الأقمشة المطبوعة. ربما أتت إلى سورية كزخرفة مع الوشاحات الكشميرية غالية الثمن. تظهر أغصان عيدان الصليب المطبوعة بالذهب، أيضاً على المعطف، من دون أي أخطاء في الضواحي الصينية. إن التخطيط الجيد الذي يكون عادة عنصر هام في الزخرفة السطحية الإسلامية ليس له مكان في الفن الشعبي السوري.

تظهر النقوش والرسوم على صواني القهوة كيف أن البيئة البدوية حافظت على أفكار ورسوم تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. رسم الصياد الذي يلاحق الوعل يرجعنا إلى الرسوم الحجرية لعصور ما قبل التاريخ بطريقتها في العرض.

إيجازاً لما ورد، يمكن أن نقول إن الفن الشعبي السوري ليس له في الواقع زخرفة سورية حقيقية، بل غالباً ما يكون غنى وتنوع زخارفه مرآة تعكس التاريخ السوري الغني، المتنوع والمتغير.



٦١٠. قلنسوة وشريط رأسي لامرأة أرمنية، حلب، تطريز منقط. رسوم هندسية ونماذج أشجار الحياة من آسيا الوسطى. صلبان مطرزة على الرأس. (متحف الفنون الشعبية، برلين).

المراجع

- بالدينسبيرغير (منشورات ١٨٩٥) لندن
- بـون- وزارة الخارجيـة (١٩٨٨) صحيفة صـادرة عن الخارجية / قسم الدراسات (الجمهورية العربية السورية).
- بوشيمان ١٩٣٤- دراسات عن البدو في الصحراء السورية، صحيفة تصدر من باريس، المعهد الفرنسي — رقم ٣٢٠.
- بوشيمـان ١٩٣٥- مادة عن حيـاة البدو في الصحراء السورية، رقم ٣، صادرة من باريس — المعهد الفرنسي.
- بوشيمـان ١٩٣٧- القافلـة المدنيـة الصغـيرة- رقم ٦ صـادرة من باريس — المعهد الفرنسي.
- باورون ١٩٣٠- الدروز- تاريخ جبل لبنان صادرة من باريس.
- براوني W.g.١٨٠٠رحلة في إفريقيا (المصريون والسوريون بين عامي ١٧٨٩-١٧٩٢) ترجمة ألمانية عن الانكليزية لايبزيغ- جيرا.
- بورشـاردت - j. l ١٨٢٢- رحـلات في سوريـا والمناطـق المقدسة - لندن.
- بولير ١٩٤٣- الأرشيف الدولي للاثنيات (لايدن).
- تشيفاليير ١٩٨٢- رحلة إلى سوريا - صادر ة من باريس.
كلوز ١٩٣٣- حياة البدو (فرايبورغ).
- كوليسـون وسيكومبـي ١٩٨٧- سوريـا، سلسلـة المراجـع العالميـة (اكسفورد- سانتاباربارا- دينفر).
- كورناند ١٩٨٦ (الحرف النسيجية في حلب — المعهد الفرنسي ٣٦ باريس).
- دالمان ١٩٣٧ — العمل في فلسطين- غوتيرسلوه.
- دايسـون هودسـون ١٩٨٠ (حياة البـدو الرعوية) المراجعـة السنوية رقم٩ — كامبريدج.
- يوتينغ ١٨٩٦-١٩١٤ رحلة يومية إلى أواسط البلاد العربية- لايدن.
- فيرو ١٩٩٠ — تطور الصناعات الحريرية في لبنان (١٨٦٠-١٩١٤) الصحيفة الدولية لدراسات الشرق الأوسط رقم ٢٢.
- فرانك ١٩٨٩- مقالة عن سوريا ، صحيفة ألمانية صادرة من بون.
-غاوبي وفيرث -١٩٨٤-حلب.
-غودريتش-فريـر ١٩٢٤: العـرب في الخيمـة والبلـدة —دراسـة عن الحياة العائلية لعرب الصحراء السورية مع وصف عن الحيوانات والنباتات في منطقتهم — لندن.
-غراهام — براون ١٩٨٨ — ملامح عن النساء — لندن.
-غرانـت ١٩٣٧ — الصحـراء السوريـة (القوافـل والرحـلات الاستكشافية) لندن.
- ليتش ١٩٧٦ — الثقافة والتواصل: الدراسة اللوجيستية — كامبريدج.
- هوبوود ١٩٨٨ (سوريا ١٩٤٥-١٩٨٦) السياسة والمجتمع- لندن.
- ايسميـل ١٩٧٥- صحيفة ألمانيـة اجتماعية اقتصـادية — دراسة عن الجمهورية العربية السورية - برلين.
-ايسـاوي١٩٦٦- التاريـخ الاقتصـادي لمنطقـة الشـرق الأوسـط (١٨٠٠-١٩١٤) شيكاغو.
-جمبلاط- سيدن وعطا الله ١٩٨٩ :الماضي والحاضر (دليل المعارض — متحف رشيد كرامي- بيت الدين.
- كورشينغ ١٩٨٠- البدو في صحراء النجف،معرض سونيا جيدال- ماينز.
-لاندي بال:السوريون (منتدى الشعوب والثقافات) ١٩٨٢- ماينز.
- لانجينيغير١٩١١- دراسة بيئية من بغداد إلى دمشق،برلين.
- لويس ١٩٨٧ البـدو والمدنيين في سوريا والأردن ما بين عامي ١٨٠٠-١٩٨٠كامبريدج — نيويورك.
- لومبارد١٩٨٧ الصناعات النسيجية - باريس.
- ماسـترز ١٩٩٠- احداث١٨٥٠ في حلب ، الحركة الإصلاحية ضمن النظـام الاشتراكي العالمي- الصحيفـة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٢٢/كامبريدج.
-ميرشين ١٩٨٢ ،دراسات وأبحاث عن الأردن —ماينز.
-موسير ١٩٧٤ دراسة عن تقنيات الأيكات في حلب /١٥/متحف باسيل.
موسيـل ١٩٧٢- الصحـراء العربيـة ، المجتمـع الجغـرافي الأميركي، الدراسات والاكتشافات الشرقية رقم ٢ نيويورك.
- موسيل ١٩٨٢ العادات والتقاليد لبدو الرولة، المجتمع الجغرافي الأميركي -٦-
- أوني ١٩٨٠ الإرث الجغرافي للأراضي المقدسة ١٨٣٩-١٩١٤ مانشيستر٠
-أوبينهايم ١٩٣٩ ، البدو، نشرة رقم ١- لايبزينغ٠
- أوين ، الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٩٠٠-١٩١٤- لندن٠
- راسون ١٩٣٤: برلين٠
- شينيرل١٩٨٤-دراسات إسلامية ، برلين٠
شينيرل ١٩٦٣-منشورات سبينر ، فيبر وفيركير —برلين٠
- شوبيرت١٨٣٩ رحلة في مورجينلاند عام ١٨٣٦و١٨٣٧ ايرلانجين٠
- سبيل ١٩٦٥- النضال من أجل سوريا ٠ دراسة النزاعات السياسية العربية ما بين ١٩٤٥-١٩٥٨ لندن٠
- خدمة نافال الذكية، نيسان ١٩٤٣- سوريا سلسلة الكتب التوثيقية٠
- فـان دي فيلـد ١٨٥٤- روايـة عـن رحلـة في سوريـا وفلسطـين عام ١٩٥١و١٨٥٢-لندن٠
- فولغير،فيلـك وهاكشتاين١٩٨٧:براخـت وجيهايمنيس كلايدونـغ وشموك عن فلسطين والأردن كولن٠
- فولني ١٧٨٧ (أعيد طباعتـه عام ١٩٥٩) رحلة في مصر وسوريا بين عامي ١٧٨٣-١٧٨٤ و١٧٨٥-باريس٠
- فاير ١٩٧٦،البدو- ويستيرهام٠
- فوليرسي ١٩٤٠، الفلاحون- زيارات ميدانية٠
- فوليرسي١٩٤٦، الفلاحون في سوريا والمشرق — باريس٠
- فينكيلهايـن١٩٨٧ النسيـج والصناعـة اليدوية في القـرن التاسع عشر والعشرين- فولغير، فيلك وهاكشتاين-براخت غيهايمنيس وكولن٠
- فينكيلهاين١٩٨٧،الحـرف التقليديـة- دمشق-فولغـير، فيلـك، هاكشتاين، براخت وغيهامنيس كولن.
- فينكيلهاين١٩٨٨ ،فـن صناعة النسيـج وتجارة القوافل في سوريا في معهد موند العربي ١٩٨٨.
- فيرث١٩٦٩-ظاهرة البدو في العصر الحديث في المشرق، بيلفيلد.
- فيرث١٩٧١ ،سوريا ،مسح جغرافي ، دارمشتادت.
- فورلين١٩٩٠: غيستالتيندس باوهاندفيرك في الشرق (معرض تصوير ضوئي) تشرين ثاني وكانون الأول من عام ١٩٩٠- فرايبورغ.

مراجع خاصة بمقالات ب . بافيلكا

- فانـدام، ان، ١٩٨١الصـراع مـن أجـل السلطـة في سوريـا (١٩٦١-١٩٨٠) لندن.
- هينبوشـ.آر.آي ١٩٨٩:الفلاحـون والبيروقراطيـة مـن جريـدة البعث:الاقتصـاد السياسـي للتنميـة الريفيـة ،باولديـر – سان فرانسيسكو لندن.
- حوراني. إي.إتش: سوريا ولبنان ، اكسفورد.
- إسلاموغلـو – إنـان ،إتش:١٩٨٧:الإمبراطوريـة العثمانية والعالم الاقتصادي،كامبريدج – باريس.
- كايـدر، سـي ١٩٨٧: الدولة والطبقات في تركيـا ، دراسة في التنمية الاشتراكية لندن ، نيويورك.
- لونغريغ ، إس ، إتش ١٩٥٨: سوريا ولبنان في ظل الانتداب الفرنسي، لندن.
- مـار ، إتشـ ١٩٧١ – حـزب البعـث ، صور عـن العـالم العربي – ميونيخ– فينا.
- مـاأوتـس ، إم ١٩٦٨:الإصلاحـات العثمانيـة في سوريا وفلسطين – أكسفورد.
- مـاأوتـس ، إم ويانيـف ، إي ١٩٨٦: سوريـا في ظـل الحكـم الرئيس السوري حافظ الأسد (لندن – سوريا).
- مارسـوت ، إي ، إل ١٩٨٤: مصر أثناء حكم محمد علي (كامبريدج – لندن).
- أويـن ، آر ١٩٨١ الشـرق الأوسـط في العالم الاقتصـادي ١٨٠٠ – ١٩١٤ لندن – نيويورك.
- بافيلـكا – بي ١٩٨٥ ، هـير شافت واينتفيكاونـغ في ناهين اوستن ، هايديلبيرغ
- بافيلـكا – بـي ١٩٩١ مـن ميتروبـولي إلى بيرلفـيراي: (دراسـات اقتصاديـة عـن الشرق الأوسـط) بافيلكا ، ب ، بفـاف وفيلننغ ، إتش وج (إقليم الخليج في ظل العالم السياسي – شتوتغارت.
- رابينوفيتشـ ١- ١٩٧٢ ، سوريـا في ظل حزب البعث ١٩٦٣ – ١٩٦٦ تل أبيب.
- سييلـي ، ب – ١٩٨٦: النضال من اجل سوريا ، دراسة عن الأوضاع السياسية العربية بعد الحروب العديدة ١٩٤٥ – ١٩٥٨ لندن.
- طيباوي – ١٩٦٩ تاريخ سوريا الحديث – لندن.
- فيرث – ١٩٧١ سوريا (الأراضي الجغرافية) دار مشتادت.

الصور

٢ - لا نجينيجير ،ف ١٩١١
٣ - فيوليرسي ، ج ١٩٤٠
٥ - راوسان ، سي. آر ١٩٣٤
٢٢ - غرانت ، سي. ب ١٩٣٧
٥١ - غرانت ، سي. ب ١٩٣٧
٥٢ - غرانت ، سي. ب ١٩٣٧
٥٣ - سييلي ، ب ١٩٦٥
٥٤ - سييلي ، ب ١٩٦٥
٥٥ - سييلي ، ب ١٩٦٥
٢٢٢ - فيوليرسي ، ج ١٩٤٠
٢٣٣- غرانت ، سي ،ب ١٩٣٧
٢٣٤- فيوليرسي ، ج ١٩٤٠
٢٤٧ - فيوليرسي ، ج ١٩٤٠
٢٤٨ - فيوليرسي ، ج ١٩٤٠
٢٨٠ - لا نجينيجير ،ف ١٩١١
٢٨٧ - راسوان ، سي.آر ١٩٣٤
٣٢١ - فاير ، إش ١٩٧٦
٣٢٥ - فاير ، إش ١٩٧٦
٣٣٧ - راسوان ، سي.آر ١٩٣٤
٣٤٥- راسوان ، سي.آر ١٩٣٤
٣٥٠ - أوبنهايم ، ام ف ١٩٣٩
٣٦٠ - أوبنهايم ، ام ف ١٩٣٩
٣٦١ - أوبنهايم ، ام ف ١٩٣٩
٣٦٩ - أوبنهايم ، ام ف ١٩٣٩
٣٧٠ - أوبنهايم ، ام ف ١٩٣٩
٣٧١ - غراهام براون ، س ١٩٨٨
٣٨٩ - غراهام براون ، س ١٩٨٨
٤٠١ - غراهام براون ، س ١٩٨٨
٥٤٤ - غراهام براون ، س ١٩٨٨
٥٤٥ - أوني – إي ١٩٨٠
٥٤٦ - أوني – إي ١٩٨٠



الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة